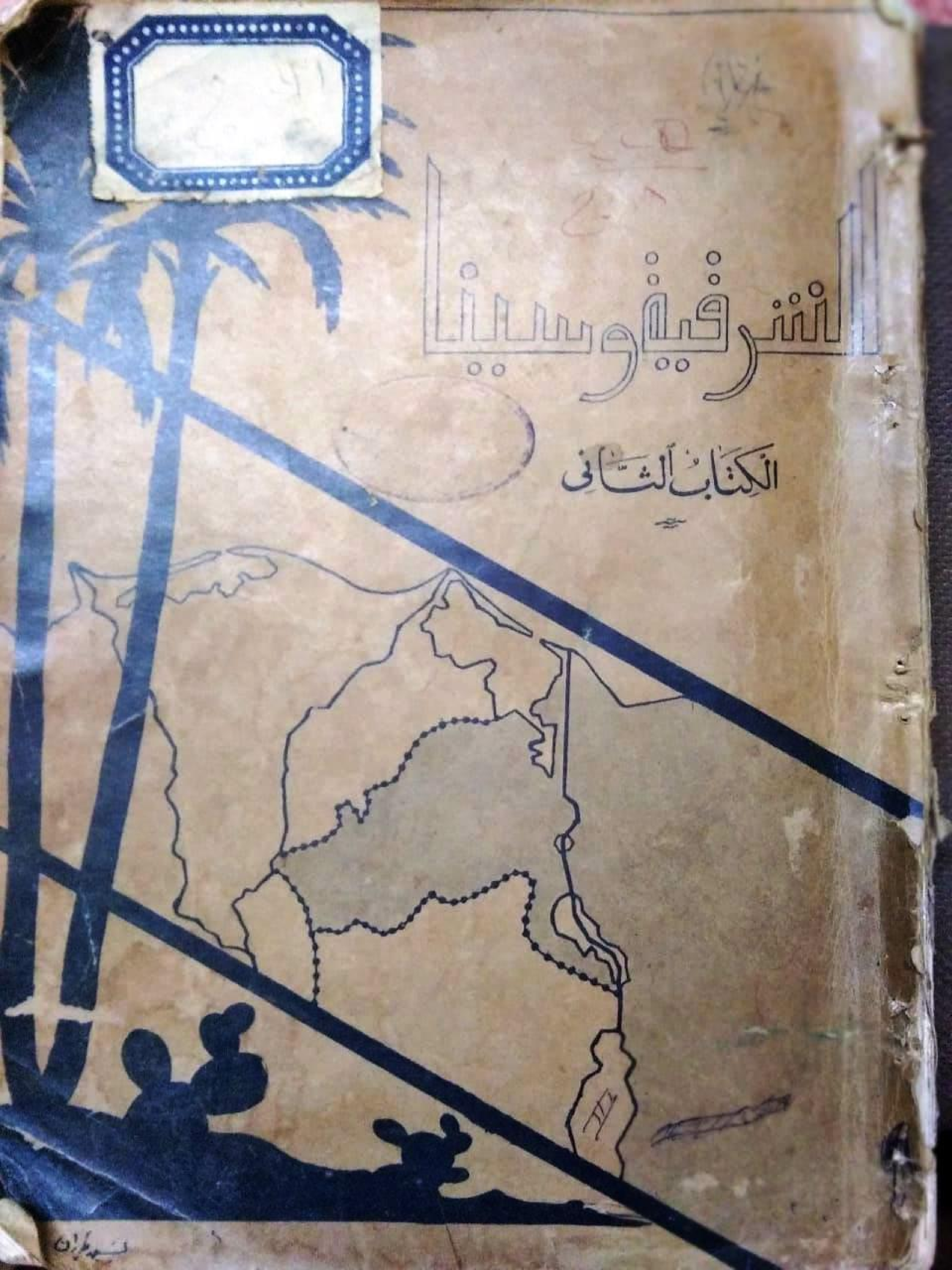

الشرقية وسينا
الكتاب الثاني

الشرقية وسيناء

بحث تنشره

منطقة الزقازيق التعليمية

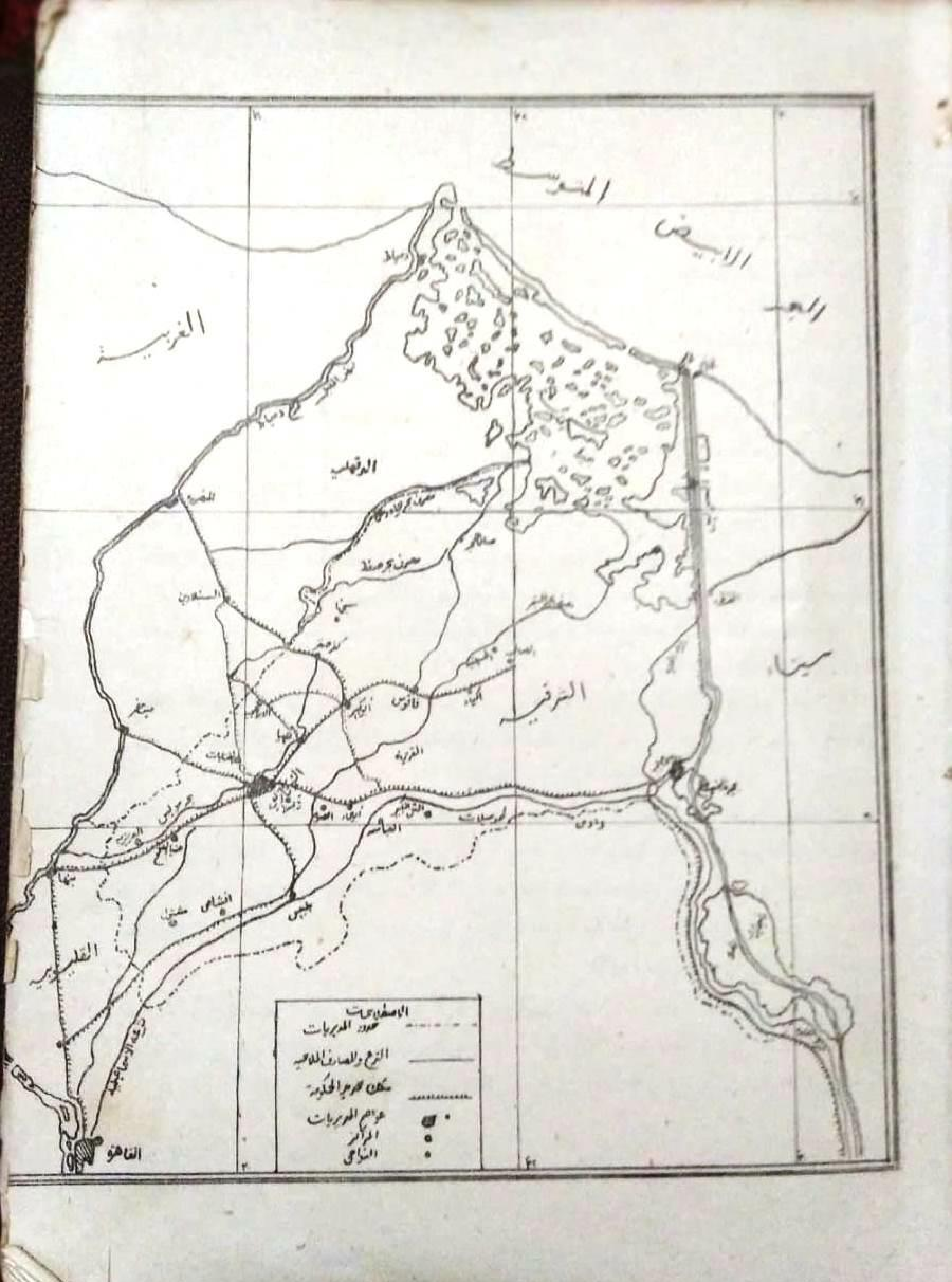
١٣٦٨ هـ - ١٩٤٩ م

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

فهرس

(تابع الفهرس)

———



البحر الابيض المتوسط
الغربية
الدقهلية
الشرقية
سيناء
القليوبية
القاهرة
الاصطلاحات
حدود المديريات
الترع والمصارف الملاحية
سكك حديد الحكومة
عواصم المديريات
المراكز
النواحي

جيولوجية مديرية الشرقية

منذ نحو ٥٠ مليون سنة كاملة كان معظم القطر المصرى مغطى بماء البحر الأبيض المتوسط وربما كانت مديرية الشرقية فى ذلك العهد تمثل أبعد الأعماق فى هذا البحر العظيم ومنذ نحو ٣٥ مليون سنة ظهرت حركات أرضية علوية Epeir Ogenic Movement أدت إلى ظهور أرض مصر وابتعاد البحر إلى الشمال وبدأت الرواسب التى تكونت قديماً فى الظهور مكونة الهضبات التى نراها على جوانب النيل وكذلك الهضاب الصغيرة التى فى أقصى حدود مديرية الشرقية نحو الجنوب الشرقى — ومنذ ذلك التاريخ بدأ الحد الجنوبى من مديرية الشرقية فى التكوين فوق سطح الأرض وجبال شبراويت (غرب البحيرة الحرة) تمثل فيها الرواسب المختلفة والحركات الأرضية العظيمة التى استمرت فترة طويلة من الزمن . وإذا نظرنا إلى هذه الجبال وقت ظهورها يجب أن نتصور أنها كانت مرتفعة إلى ارتفاعات شاهقة ولكنها تآكلت بفعل الأمطار والرياح .

ومنذ ١٥ مليون سنة هجم البحر مرة أخرى على إقليم الشرقية فغطى معظم الأراضى التى ظهرت منه وتكونت بعض البحيرات كما هو الحال الآن فى شمال المديرية (عند بحيرة المنزلة) ومنذ ذلك التاريخ بدأت رواسب جيرية وجيرية طفلية تتكون وتتبع للعصر الميوسينى (Miocene) ويمكن مشاهدة هذه الرواسب فى منطقة جبل سبراونيت كذلك : أما فى باقى المديرية فإنها مغطاة بالرواسب الأخرى الأحدث عمراً .

ثم حدث بعد ذلك حركات أرضية علوية من النوع السابق نفسه أدت إلى ارتفاع هذا الإقليم فوق سطح الماء وإلى ابتعاد البحر إلى الشمال .

كل هذا والنيل يعمل فى تكوين الدلتا ، وإذا تصورنا وجود عدد من الأفرع القديمة فى النيل تغزو هذه المنطقة ويترسب فيها وعلى جوانبها طمى النيل ثم مساعدة الرياح لهذه العملية من الترسيب بما تحضره من رمال يمكننا أن نفهم كيفية تكوين هذه البقعة الكبيرة من الدلتا .

وإذا فحص أى قطاع فى أراضى مديرية الشرقية يمكن أن يقال بوجه عام إن طمى النيل يوجد مكوناً الطبقات العليا ثم يليه طبقات من الرمال ثم من الحصى الرفيع ثم من الحصى الكبير فى الحجم ثم إلى طبقات من الطفل يزداد نسبة الجير فيها كلما تعمقت فى الحفر — ويلاحظ أن نسبة الطين العليا تزيد كلما اتجهنا غرباً وتقل فى الاتجاه الشرقى والشمالى وبالعكس يزيد الرمل من الغرب إلى الشرق وهو فى مديرية الشرقية يمتد فى منطقة القنال مكوناً رواسب رملية واضحة .

وتكثر رواسب الأملاح بالقرب من البحيرات وبحيرة المنزلة على الأخص ، ويلاحظ أن المياه الأرضية تتأثر بهذه الأملاح ، وتكثر عذوبة ماء الآبار كلما ابتعدنا عن البحيرات ؛ وأهم الأملاح التى فى مياه الآبار القريبة من البحيرات هى كربونات الصوديوم وكلورور الصوديوم وكبريتات الكالسيوم .

دكتور محمد ابراهيم فارس

أستاذ مساعد بكلية الهندسة

جغرافية مديرية الشرقية

أولا — الناحية الطبيعية

١ — الموقع والتحديد :

تقع المديرية فى جنوب شرق الدلتا ، وتكاد تنحصر بين خطى عرض ٢٠َ ٣٠° ، ٥َ ٣١° شمالا وخطى طول ١٥َ ٣١° ، ٢٠َ ٣٢° شرقا .

ولهذا الموقع أهمية اقتصادية وحربية منقطعة النظير ، لارتكاز الشرقية على قناة السويس المحور العالمى فى التجارة والحرب وعلى وادى طميلات — الطريق التاريخى العظيم فى الغزو والفتح .

٢ — السطح والتضاريس :

سطح المديرية مرتفع فى الجنوب وينحدر إلى بحيرة المنزلة شمالا ، وهو مرتفع أيضاً فى الشرق وينحدر من الجزء الصحراوى المرتفع نحو الدلتا غرباً .

وتمتد الشرقية ذراعا خصبا نحو قناة السويس شرقا ، يعرف باسم وادى طميلات . ويمكن المسافر الذى يخترق بلاد الصالحية والتل الكبير وبلبيس بوجه خاص أن يلمح حف الصحراء المرتفعة التى تطل على الأراضى الزراعية تدرجاً إلى أن تمتزج بها امتزاجاً تاماً ، على أنه لابد أن يصادف ظاهرة خاصة يطلق عليها الأهالى اسم « الجزيرة » ، مثل جزيرة سعود وجزيرة أبوليس وجزيرة سنجها ، وما هذه الجزيرة إلا مخلفات من صلب الصحراء ، لم يتمكن النيل من غمرها وبسط غرينه عليها ، فظلت مرتفعة تحيط بها الأراضى الزراعية المنخفضة عنها [١] .

وقد ارتفع شرق الدلتا من جراء اضطرابات القشرة الأرضية ، كما انخفض قاع بحيرة المنزلة وسواحلها وزالت مدن قديمة عامرة ، فأدى ذلك إلى أن صبت الفروع القديمة لشرق الدلتا فى بحيرة المنزلة ، بعد أن كانت تصب فى البحر الأبيض المتوسط [٢] ، وما لبث أن جفت هذه الفروع وحلت محلها الترع والمصارف الحالية .

وأهم ترع الشرقية :

١ — بحر مويس ، ويعتبر العامود الفقرى لرى الشرقية ، ويأخذ من الرياح التوفيقى عند قرية جمجرة على بعد ثمانية كيلومترات بحرى بنها ، ويتفرع من بحر مويس :

---

(١) خريطة المساحة لمديرية الشرقية سنة ١٩٣٦ ، والمنقحة سنة ١٩٣٧ .

(٢) خريطة الدلتا والمصبات القديمة كما ذكرها اسطرابون وأوضحها سمو الأمير عمر طوسون (انظر الخريطة ٥)

(أ) بحر أبو الأخضر عند منيا القمح ، ويستمر حتى يتقابل مع ترعة الوادى الغربى عند قرية الشبانات ويكونان بحر فاقوس الذى يغذى جزءاً من مركز ههيا وأبو كبير ومركز فاقوس جميعه .

(ب) كما يتفرع من بحر مويس أمام قناطر التسعة بالزقازيق فروع أربعة : هى ترعة المسلمية وبحر مشتول والوادى الغربى والقنايات ، ويتفرع من بحر مشتول ترعة بهنباى .

٢ — ترعة الإسماعيلية : وتبدأ شمال شبرا فى تخوم مديرية الشرقية ، وتستمر حتى مدينة الاسماعيلية ، ويتفرع منها ترعة الوادى الشرقى عندقرية العباسة ، وعند الاسماعيلية يتفرع منها ترعة السويس لتغذية منطقة السويس وترعة بورسعيد لتغذية منطقة بورسعيد ، ويتفرع من ترعة الوادى الشرقى ترعة السعيدية التى تغذى مركز أبوحماد وشرق فاقوس .

٣ — **المصارف :**

وأهم المصارف :

١ — مصرف القليوبية الرئيسى ، ويبدأ فى مركز قليوب ويمتد بمركز منيا القمح وبلبيس والزقازيق حتى ترعـة الوادى الغربى حيث يأخذ اسما جديدا هو مصرف بحر البقر الذى يخترق مراكز الزقازيق وههيا وفاقوس .

٢ — مصرف العرين وتم نهائيا سنة ١٩٣٩ ويبدأ بمركزههيا ويمر بمركزى أبو كبير وكفر صقر ويصب بمصرف صان .

٣ — مصرف بحر سفط ، وهوالحد الفاصل بين مركز منيا القمح والزقازيق وههيا من جهة ومركز ميت غمر من جهة أخرى حادوس الفاصل بين الشرقية والدقهلية شمالا ، ومصرف حادوس هذا ومصرف بحر البقر هما المصرفان الرئيسيان اللذان يتلقيان جميع مياه مديرية الشرقية ويقذفانها فى بحيرة المنزلة .

٤ — **التربة :**

نشاهد بالشرقية أنواعا كثيرة من تربة الأراضى الزراعية أهمها :

١ — التربة الرملية : وتجاور الصحراء الشرقية ، ومعظم تركيبها من الرمل (أكسيد السليكا) ، ويمكن بعد إصلاحها زراعة الفول السودانى والسمسم والترمس والموالح وبعض الفواكه مثل : المانجو والجوافة ؛ كما ينتشر النخيل بكثرة فى هذه الأراضى .

٢ — التربة الكحلاء : تتحول التربة الرملية السابقة إلى كحلاء بعد زراعتها بالمحصولات الآتية : الفول السودانى مدة ثلاث سنوات (وله تأثير عظيم فى تحويل الأراضى الرملية إلى كحلاء) ، والترمس والسمسم مدة سنتين ، ثم البرسيم الذى تحرث أرضه وهو صغير لتكسب جذوره التربة مادة مخصبة (أزوتية) ، وبذا تتحول التربة الرملية نهائيا إلى كحلاء يمكن زراعتها بالمحصولات الأساسية كالقطن والحبوب وغيرها .

وتكثر هذه الأراضي في بلاد مركز فاقوس وبلبيس وأبو حماد.

٣ — التربة الجباص : (وتسمى «بالقرموط» أحيانا) . وهى رمادية اللون صعبة الصرف ، فإذا ماروبت وقفت المياه على وجه الأرض ، ولم تتشربها التربة ، ولعلاجها يضاف إليها الجبس الزراعى فتتخلص من الأملاح كالآتى :

الأرض الجباص + الجبس الزراعى .

كربونات الصوديوم + كبريتات الكلسيوم + كبريتات صوديوم + كربونات كلسيوم .

ولما كان هذان متعادلين وغير قابلين للذوبان فينعدم تأثيرهما ، وتصبح الأرض جيدة صالحة لزراعة المحصولات التى تحتاج إلى مياه كثيرة وصرف مستمر : أهمها الأرز والسمار ، وسرعان ماتعود بها زراعة المحصولات الرئيسية ، ومثل هذه الأراضى توجد بكثرة فى تفتيش الوادى بالتل الكبير ، وفى جهات أخرى

٤ — التربة الصفراء : أو الرسوبية - وأدبها عرين البلد الذى وسب بتوالى السنين وهى صفراء اللون غالبا ورمادية أحيانا ، وبتوالى الزراعة فيها يتحول لونها إلى سمرة ويصبح معدنها ثقيلا وتزرع بها جميع أنواع المحصولات الهامة كالقطن وقصب السكر والحبوب والفواكه .

٥ — التربة السوداء : ويكون معدنهـــا ثقيلا مع خلوها من الأملاح . أسود اللون . وأقل خصبا من التربة الصفراء ، لأنه يصعب اختراق جذور النبات لها (لثقل معدنها) ، ويمكن علاج مثل هذه الأراضى بإضافة السماد البلدى إليها بكثرة ، وكذا الجير ، حيث إن هذين النوعين لهما من التأثير مايجعل التربة خفيفة نوعا .

ومثل هذا النوع يوجد فى جهات متفرقة بجميع بلاد المديرية .

٦ — التربة المالحة : وهى التى تحتوى على نسبة كبيرة من أملاح متعددة (لايدخل فيها كربونات الصوديوم) ويمكن معرفة مثل هذه الأراضى بسهولة ، وذلك بوجود الأملاح ظاهرة فى البقع المرتفعة قليلا حيث تظهر بشكل تراب ناعم بنى أو أبيض . ولعلاج مثل هذه الأراضى تسوى التربة وتصلح تماما ثم تنشأ المصارف وتغسل الأرض وتزرع بها أنواع تحتاج إلى مياه غزيرة مثل الأرز ، حيث تمكث المياه مدة يومين أو ثلاثة فتذوب الأملاح فى المياه وتنحدر إلى المصارف باستمرار ، وبهذا تقل نسبة الأملاح فى الأرض وتصبح صالحة للزراعات المختلفة .

ومثل هذه الأراضى منتشرة فى جهات متفرقة بالمديرية مثل الزوامل والبوها وغيرها

٥ — المناخ :

(١) درجة الحرارة : يميل مناخ الشرقية للتطرف لمجاورتها للصحراء كما يظهر من درجات الحرارة الآتية[١] :

---

(١) أطلس مصر سنة ١٩٢٨ والأطلس المتيورولوجى سنة ١٩٣١ .

متوسط النهاية العظمى للحرارة فى يوليو ٣٥°م ومتوسطها ليناير ١٩°م .

ومتوسط النهاية الصغرى للحرارة فى يوليو ٢٧°م ومتوسطها ليناير ٦°م .

وقد تصل النهاية العظمى للحرارة فى الصيف ٤٧°م ، وقد تنحدر النهاية الصغرى إلى درجة الصفر شتاء .

(ب) الرياح والمطر : الرياح السائدة تكاد تكون التجارية الشمالية الشرقية والشمالية الغربية معظم أيام السنة ، وقد تنتاب أذناب الأعاصير (الرياح العكسية الجنوبية الغربية) شمال المديرية وغربها فى بعض أيام من الشتاء ، فتسقط القليل من المطر الذى يتراوح من الجنوب للشمال بين ٢٥ و٧٥م أى بمتوسط ٥٠ مليمترا (وهو خط المطر المتساوى الذى يمر بالزقازيق[1]) ، كما تجتاح رياح الخماسين المديرية فى بعض أيام من الربيع فترفع درجة الحرارة ، وتكتم الأنفاس بما تحمله من رمال ناعمة من الصحراء المجاورة — على أنها أيام معدودات وسرعان مايعود الجو إلى حالته العادية .

(ج) رطوبة جو مدينة الزقازيق : ولا يفوتنا هنا الإشارة إلى ظاهرة هامة ، وهى رطوبة جو الزقازيق بدرجة كبيرة تفوق رطوبة المدن الساحلية ، فكثيراً ماتصل الرطوبة النسبية بها إلى ٩٨ ٪[2] (أى مايقرب من درجة التشبع) على حين تكون رطوبة الإسكندرية مثلا ٧٨ ٪ فى نفس الوقت .

ومتوسط درجة الرطوبة النسبية للزقازيق على العموم نحو ٩٠ ٪ ، ويمكن إرجاع هذه الظاهرة إلى :

١ — انخفاض المدينة إذ لا يتعدى ارتفاعها عن سطح البحر نحو ٨ ٫ ٤ متر .

٢ — تعدد الترع التى تخترقها (بحر مويس والفروع الخمسة المتفرعة منه عند القناطر التسعة) مما يؤدى إلى تشبع تربة المدينة بالرطوبة دائماً .

٣ — مسام التربة (لوجود الرمل بها) مما يساعد على ارتفاع منسوب الماء الباطنى ، كى يتمشى هو ومستوى مياه الترع التى يبلغ قاع معظمها أعلى من مستوى أساس المنازل فى معظم أرجاء المدينة .

٤ — عدم إتمام مشروع المجارى التى تعمل على كسح المياه بعيدا حتى لا يساعد على رفع مستوى الماء الباطنى . إذ مازال كثير من أحياء الزقازيق كأبى الريش وكفر الصيادين وكفر الزقازيق البحرى وكفر عبد العزيز وجزء من كفر الإشارة لم تمتد إليه التوصيلات الفرعية رغم إنشاء المحطة الرئيسية للمجارى .

٥ — زراعة بعض المحصولات التى تتناسب هى وطبيعة التربة ، وأخصها الأرز الذى يحتاج إلى مياه مستمرة وصرف دائم ، فيترك تربة المنطقة المحيطة بالمدينة رطبة (لارتفاع هذه المنطقة عن المدينة) .

قد تكون هذه الأسباب مجتمعة كلها أو بعضها السبب الهام فى رطوبة جو المدينة باستمرار ، كما أن هذه الرطوبة بالذات كثيراً ماتساعد على كثرة البعوض والذباب وبخاصة فى الصيف والخريف ، وقد يستمر ذلك فى فصل الشتاء ، وهو أمر مقلق لراحة سكان المدينة مدة طويلة من العام بشكل لا يحتمل .

عزيز محمد حبيب

---

(١) أطلس مصر سنة ١٩٢٨ والأطلس المتيورولوجى لمصر سنة ١٩٣١ .

(٢) [illegible] الجوية بالجرائد .

مديرية الشرقية

الناحية الاقتصادية والاجتماعية

الناحية الاقتصادية

يعتمد الأهالى بمديرية الشرقية على الزراعة وتربية الحيوان ومنتجاتهما ؛ كما يشتغل بعضهم بالصناعة والتجارة وصيد السمك والطيور ، ولا شك أن مديرية الشرقية فى حاجة ماسة لجهود كبيرة لتوفير الرخاء العام والخدمات الاجتماعية من تعليم وصحة ، ومن تهيئة أسباب الحياة الكريمة للجميع وتحقيق العدالة الاجتماعية بتنمية الإنتاج فى جميع الميادين الزراعية والصناعية لتزداد القوة الشرائية للأكثرية العظمى حتى تصل إلى مستوى مناسب للمعيشة .

وإن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية القائمة وما صحبها من اضطراد ازدياد عـــدد السكان كل عام فى محيط زراعى محدود مع عدم مسايرة النمو فى الإنتاج الزراعى والصناعى كل هذا يدعو إلى التفكير فى علاج نافع سريع .

١ — الزراعة :

لاتزال الزراعة أساس الحياة الاقتصاديه بمديرية الشرقية ، فالمشتغلون بها يتجاوزون ثلاثة أرباع السكان تقريبا ، ولايزال الدخل القومى فى ثلاثة أرباعه ينتج من الحاصلات الزراعية ، ومع ماللزراعة من أهمية بالغة ، ومع ماللتربة المصرية من خصوبة موفورة ، ومع استمرار زيادة عدد السكان لاتزال الأساليب الزراعية فى مجموعها كما كانت فى عهد الفراعنة ؛ كما تشغل الترع والمصارف والطرق الزراعية والمنافع العامة الأخرى ومبانى المدن والمصانع كل هذه تشغل مساحة كبيرة من تلك الأراضى ، لذلك يجب ألا يدخر جهد فى سبيل استزادة الأرض الزراعية واستعمال الآلات الزراعية الحديثة ، خصوصا وقد تقدم العلم إلى مدى بعيد فى هذا الميدان ، ولكن ثماره ظلت غير معروفة بمديرية الشرقية إلا لجماعة من كبار الزراع لهم من القدرة المالية مايساعدهم على إدخال الأساليب الزراعية الحديثة ، والواقع أن الزراعة الحالية بمديرية الشرقية بدائية يجب الاستعاضة عنها بآلات تماثلها من حيث التكاليف الاقتصادية ، وهى تؤدى فى الوقت ذاته ماتتطلبه الزراعة الحديثة مع تقديم جميع المعلومات الزراعية الحديثة بعد تبسيطها للفلاح ، وتوفير كل مايحتاج إليه من بذور ومخصبات وآلات عن طريق الجمعيات التعاونية ، كما يجب التوسع فى إنشاء المدارس الزراعية الأولية بهذه المديرية مع مايلحق بها من حقول التجربة لإعداد النشء لاستقبال عهد جديد فى الزراعة أساسه العلم والعرفان .

وبحصر المساحات البور فى سنة ١٩٤٤ ومقارنته بحصر سنة ١٩٣٠ يتضح أن ماتم إصلاحه منها بمناطق الصرف بالطلبات بالشرقية نحو ٣٥٠٠٠ فدان .

ومن الميسور لتنمية موارد الفلاح أن نعمل على نشر تربية النحل ودودة القز وبعض الصناعات البسيطة كصناعة المربيات والحلوى والغزل اليدوى ونسج الأقمشة كما أن تربية الدواجن والمواشى كفيلة بأن تحقق للزارع أكبر الفوائد وتفتح أمامهم عهدا جديدا وحياة جديدة خصوصا إذا وضع حد أدنى للأجور الزراعية يكفل للأجير الزراعى مطالب العيش الأساسية وإذا حددت قيمة الإيجارات فى كل منطقة حسب خصوبة التربة فلا يسمح للمالك أن يحصل على النصيب الأوفى من ناتج الأرض؛ بل يجب أن يضمن المستأجر ثمرة جهوده وجهود أبنائه وماشيته .

وقد دلت الإحصاءات التى أجريت لتقدير الدخل الأهلى على أن الغالبية العظمى من طبقة الفلاحين بالشرقية، وهم عماد الثروة الزراعية ومصدر الرخاء بالمديرية يتراوح دخل الفرد منهم بين ثلاثة وخمسة جنيهات سنويا يعيشون بها عيشة الكفاف: لذلك يجب الاهتمام بالصناعة كمورد رزق جديد لسكان الشرقية وكوسيلة لرفع مستوى معيشتهم .

توزيع ملكية الأطيان بالشرقية سنة ١٩٤٥

تبلغ مساحة الزمام ١,١٧٦,٥٢٦ فدانا للمصريين منها ٤٨٩,٤٠٠ فدان، ويملك الأجانب ٣٥,٤٢٦ فدانا؛ أما الأطيان الموقوفة تبع الأهالى فمساحتها ٨٧,٢١٢ فدانا، والأطيان الموقوفة تبع الأوقاف ٢١,٤٠٣ أفدنة، ومساحة المراوى ٤٤٠,٨٠٠ فدان، والمنافع العمومية ١٠٢,١٦٥ فدانا .

عدد الملاك والمساحة المملوكة سنة ١٩٤٥

جنسية الملاك	عدد الملاك	متوسط مايملكه المالك
مصريون	٢٠٢٥٣٤	٢,٤٠
أجانب	٦٠٣	٥٨,٧٤
أوقاف	١,٩٦٥	٥٥,٢٩

ومن الملاك المصريين ١٠٥٣٨٠ لايزيد مايملكه كل منهم على نصف فدان فتوسط مايملكه الفرد ٣٤,٠ ومن ملاك الأوقاف ١٢٤ لايزيد مايملكه كل منهم على نصف فدان فتوسط مايملكه المالك ٢٣,٠ .

أطوال الترع والمصارف بالشرقية سنة ١٩٤٥

بالشرقية شبكة واسعة من الترع والمصارف يبلغ طول الأولى منها ١٩٨٩ كيلومترا . وطول المصارف ١٥٨٧ كيلومترا .

مساحة الأراضى الداخلة فى الزمام

وبيان أنواع المزروعات سنة ١٩٤٤/١٩٤٥

		بلبيس	فاقوس	أبو حماد بما فيها محافظتا القنال والسويس	ههيا	كفر صقر	منيا القمح	الزقازيق
	منزرعة	٦٧٤٨٦	١٤٨١٩٦	٧٨٥١٨	٦٤٤٢١	١٠٢١٠٧	٦٥٥٢٣	٦١٠١٣
	غير منزرعة	٣٤١٥٤	٤٢٤٩٤٤	٨٢٨٦٩	٤١٣٣	٢٩٣١٠	٥٣٥٠	٦٢٧٣
صيفى	قطن	١٣٠٦١	٢١٧٤١	٨٦٥٣	١٤٣٣٦	٢٢٥٨٤	١٥٤١٧	١٤٠٠٦
	أرز	٣٨١٩	١٨٠٦٠	٦٥٠٧	٩١٢٧	٢٥٩٦٣	٢٧٩١	٣٨٨٦
	أذرة شامى	٤١٧	٩١٨	١٧٠٢	١٤٦	١٩٦	٦٠	١٤٢
	أذرة رفيعة	٢١	٢٤٧	١٥٧	—	—	—	—
	قصب سكر	٦٨	٩٠	٤١٤	٤٨	٧٠	٢٥٠	٤١٠
	فول سودانى	١٤٠٧	٣٢٠٨	٨٧٢٩	٣٥	٤٠	—	—
	حناء	٣٠٢	—	١٧	—	—	—	—
	سمسم	١١٧٨	٤٧٢٧	٥٠٨٦	٨٠	٧٨	٤	—
	بطيخ وشمام	٢٣٢	١٣٧٥	١٣٠٣	١٥	—	٣٨	—
	أصناف أخرى	٥٠٨	٣١٣	٨٨٨	٢٦٣	٥	١٤١	١٣٣
	بصل	٢٥	٤٥	٤٠	٥٨	٦٧	٧٢	٦٢
	أصناف أخرى	٣٩	—	١٠١	—	—	٣٠	٧٠
شتوى	قمح	٢٤١٣٦	٣٦١٣٣	٢٣٨٨٩	٢٤٣٣١	٢٥١٣٠	٢٥٥٩٥	٢٤٦٤٩
	فول	٢٤٠٤	٨٠٣٢	٢٨٧٠	٢٣١٥	٣٥٠٢	١٧١١	٢٤٥٩
	شعير	٦٢٥٣	٦٦٧٦	٥٧٦٤	٢٩١٢	٦٠٦٣	٤٠٩٨	٤٨٧٩
	برسيم	٢٨٠٠٠	٦٣٠٠٠	٢٣٢٠٠	٣٧٥٠٠	٤٨٥٠٠	٣٠٥٠٠	٢٣٠٠٠
	بصل	٢٨	١١٣	٤٠٠	٥	١٣٠	٧٩	٤٥
	عدس	٢	٣٢	—	—	—	—	—
	كتان	٧٩	—	—	—	٣٦	٢٩	٢٥
	قرطم	١	—	—	—		—	—
	حلبة	١١٢	١١٠٠	٦٢٤	١٤٤	٤١	٤٢	—
	ترمس	٨٧٤	٣٥٣٩	١٠٥٦	٤٥	٥٥	—	—
	حمص	—	—	—	—	—	—	—
	أصناف أخرى	١١٤٤	١٨٠٧	٢٧٣١	٢٦٠	١٥٣	٢٥٨	١٠٧

		بلبيس	فاقوس	أبو حماد بما فيها محافظتا القنال والسويس	ههيا	كفر صقر	منيا القمح	الزقازيق
نيلى	أرز	—	—	—	—	—	—	—
	أذرة شامى	٤٠٠٩٢	٥١٩٠٧	٢٧٤١١	٣٠٤٨	٢٩٥٢٧	٤٠٦٩٤	٣٧٢٨٣
	أذرة	١٣	١٦٠٧	٥٦٠	—	١	—	١
	خضروات	٤٩٩	٦٩٣	٢٨٤٥	٤٧٣	١٣	٧٨٤	٤٣١
فواكه	عنب	٣٥	٦	١٩٢	٤	—	٧٣	١١٨
	برتقال ويوسفى	١١٥٩	٣٠٧	٤٤٠	١٣٧	٢	٥١٥	٥٠
	تين	٥	٤	٧٧	—	—	—	—
	أصناف أخرى	١٣٩٨	١٣٠٤	٧٨٦	١٤٢	٣١١	٦٨	—

المساحة المزروعة جناين وفاكهة بالشرقية سنة ١٩٤٤ / ١٩٤٥

برتقال	يوسفى	عنب	تين	مانجو	موز	نخيل	ليمون مالح	أصناف أخرى	مشاتل	الجملة
١٦٧٣	٩٣٧	٤٢٨	٨٦	١٦٩٩	٤٤	٩٩٦	٤١١	٧٣٦	١٢٣	٧١٣٣

القطن سنة ١٩٤٥

المساحة المزروعة	المحصول بالقنطار	متوسط محصول الفدان
١٠٩٧٩٨	٦٠٩٥٠٧	٥,٥٥

مساحة الأراضى المزروعة بأنواع القطن المختلفة بالشرقية سنة ١٩٤٥

سكلاريدس	أشمونى زاجوراه	منوفى جيزة ٣٦	جيزة ٧	سخا ٤	ملكى جيزة ٢٦	معرض	مجموع
٠٠	٢٤٨٥	١٧٢٣	١٣٠٢	٠٠	١٢	١١٠٢	١٠٩٧٩٨

الأقطان المحلوجة بالشرقية سنة ٤٤ / ١٩٤٥ بالقنطار زنته ٤١,٩٢٨ كيلوجراما

القطن الزهر	الشعر الناتج
٣٤٤٣٨٦	٣٦٠١٥٠

القمح

المساحة المزروعة	المحصول بالأردب	متوسط محصول الفدان
١٨٣٨٦٣	٧٤٢٤٧٩	٤,٠٤

الذرة الشامية (صيفى ونيلى)

المساحة المزروعة	المحصول بالأردب	متوسط محصول الفدان
٢٦٠٨٧٢	١٧٦٩٤٥٢	٦,٧٨

الذرة الرفيعة (نيلى وصيفى)

المساحة المزروعة	المحصول بالأردب	متوسط محصول الفدان
٢٦٠٧	١٣٠٣٠	٥

الشعير (نيلى وصيفى)

المساحة المزروعة	المحصول بالأردب	متوسط محصول الفدان
٣٦٦٤٥	٢١٩٣٧٥	٥,٩٩

الأرز

المساحة المزروعة	المحصول بالضريبة	متوسط محصول الفدان
٧٠١٥٣	١٠٦٥٦٣	١,٠٥٢

الفول

المساحة المزروعة	المحصول بالأردب	متوسط محصول الفدان
٢٣٢٩٣	١١٢٧٩٩	٤,٨٤

العدس

المساحة المزروعة	المحصول بالأردب	متوسط محصول الفدان
٣٤	١٢١	٣٫٥٥

البصل

المساحة المزروعة	المحصول بالقنطار	متوسط محصول الفدان
٨٠٠	٣٥٧٤٤	٤٥

الحلبة

المساحة المزروعة	المحصول بالأردب	متوسط محصول الفدان
٢٠٦٣	٥٩٩٧	٢٫٩٠

الفول السوداني

المساحة المزروعة	المحصول بالأردب	متوسط محصول الفدان
١٣٤١٩	١٤٢٦١٧	١٠٫٦٣

قصب السكر

المساحة المزروعة	المحصول بالقنطار	متوسط محصول الفدان
١٣٥٠	٧٥٢٢٧٠	٥٥٧

٢ — الصناعة :

قطعت الصناعة بالشرقية شوطا بعيداً من التقدم ولكنها لاتزال دون المستوى اللائق بها لذلك يلزم البدء في إنشاء وتنمية الصناعات التي تتطلبها الحياة الاقتصادية والتي تتوافر لها جميع الخامات بهذه المديرية إذ يكثر بها القطن ونباتات الألياف والبذور النباتية والصوف والأحجار والرمال كما يتوافر بها كذلك الكثير من الحيوانات كالأسماك والماشية والدواجن مما يسهل قيام صناعة الغزل والنسيج والجلود ومواد البناء ، ومن يمن الطالع أن ظهرت حقول جديدة للبترول بشبه جزيرة سيناء وتعمل الحكومة جاهدة على تكرير الناتج كله أو معظمه بالسويس بجوار الشرقية مما يساعد على تقديم الوقود اللازم لقيام هذه الصناعات بأقل التكاليف.

ويبلغ عدد الآلات المرخص لها بالاشتغال بالشرقية لغاية ديسمبر سنة ١٩٤٤ : ١٣٠٥ تستخدم في الري والصرف والأعمال الزراعية وطحن الحبوب وضرب الأرز وحلج القطن وصنع الحلوى واستخراج الزيوت والتعدين والنقل وتوليد الكهرباء وإدارة الورش الميكانيكية وورش التجارة وصناعة الأسمنت وغيرها .

أشهر الصناعات الزراعية وأهم مراكزها

الصناعة	الأسباب التي ساعدت على وجودها	مراكزها
عصير الزيوت	وفرة بذرة القطن والسمسم والفول السوداني	بلبيس . والزقازيق . وفاقوس
الحصر	وفرة السمار	الزقازيق . كفر الحصر . الوادي . ههيا . فاقوس .
تجفيف البلح	كثرة النخيل	القرين . الصالحية .
الفخار	وجود التربة الرملية والطينية والصلصالية	العرين . الوادي . القرين
السلال	كثرة البوص	الزقازيق .
كراسي الجريد	كثرة النخيل	إكياد . فاقوس . أبوكبير . القرين
الأصواف	كثرة الضأن	الصالحية . فاقوس . الزقازيق . بلبيس التل الكبير .

ولا شك أن النظرة الخاطفة إلى الصناعات الحالية بالشرقية كفيلة بأن تعطى فكرة واضحة عن أن مصانعها قليلة صغيرة لم تصل الصناعة بها إلى الدرجة اللائقة بسكان تلك المديرية وموقعها الممتاز مع أن خاماتها كافية والأيدى العاملة ورؤوس الأموال متوافرة فمصانعها سنة ١٩٤٢ : ٣٦٢٨ ، ولا يزيد عدد العمال المشتغلين بها على ٤٢٥٤ عاملا ثم نشطت فى إقامة المصانع بسبب الحرب الأخيرة وتضاعف عددها إلى أن وصل فى سنة ١٩٤٥ : ٦٢٢٩ مصنعا تستخدم حوالى ثمانية آلاف عامل تقريبا سدت كثيرا من الفراغ الذى نشأ عن وقف الاستيراد . والأمل كبير فى مستقبل باهر للصناعة بالشرقية لو نظمت أمورها ونسقت مظاهر نشاطها وأشرف على توجيهها هيئة خبيرة من كبار الأغنياء بهذه المديرية .

٣ - الرعى وتربية الماشية والتفريخ :

يشتغل كثير من سكان الشرقية بالرعى وتربية الماشية لكثرة مواطن الكلأ ، فتراهم يتنقلون بأغنامهم إلى حيث تنبت هذه الأعشاب فى مديريتهم والمديريات المجاورة لها . ومن الواضح أن تربية الأغنام والماشية من أهم وسائل الاستغلال الزراعى فهى لا تحتاج إلا إلى رأس مال قليل ولا تتكلف تغذيتها ورعايتها إلا اليسير من المال .

تعداد الماشية

	الغنم	الأبقار	الماعز	الإبل	الخنازير	الجاموس	الخيل	البغال	الحمير
سنة ١٩٣٧	١٢٦٠٤٤	١١٠٣٣١	٤٦٩٢٩	١٠٣٦٦	٤١٥	٩٧٢١٤	٢٢٠١	٢٣٨٠	١١٧٢٦٩
	الغنم	الأبقار	الماعز	الإبل	الخنازير	الجاموس	الخيل	البغال	الحمير
سنة ١٩٤٥	١١٥٦٥٠	١٤٠٤٤٦	٤٧٩٦٤	٩٢٨٩	١٣١٣	١٠٤٨٧٩	٢٠١٦	١٠٠	٨٦٥٨٥

وبدراسة هذه الإحصاءات يلاحظ أن سكان الشرقية قد وجهوا عنايتهم واهتمامهم بعد سنة ١٩٣٧ نحو تربية البقر والماعز والخنازير والجاموس فزاد عددها وانتشر نتاجها رغم ازدياد استهلاك اللحوم لجيوش الحليفة وانقطاع الوارد من الخارج ، ولعل ذلك يرجع لزيادة الأراضى الزراعية وكثرة زراعة الحبوب الغذائية وحاجة السكان إلى الألبان واللحوم ، ولكنا نجد أن عنايتهم بتربية تلك الأنواع قد أثرت فى نشاطهم فى نواح أخرى فقل عدد الأغنام والإبل والخيل والحمير ويرجع ذلك لكثرة ما ذبح من الأغنام فى إبان الحرب للاستهلاك المحلى واستيلاء السلطات العسكرية على دواب الحمل للانتفاع بها فى النقل الحربى .

وعلى العموم فالشرقية تحتاج إلى الكثير من الإصلاح والتحسين فى كل من الضأن والصوف ، إذ أن أغنامها تختزن الدهن تحت الجلد وفى الذيل مما يجعل باقى اللحم ليفيا خالياً من الدهن ، على حين أن الضأن الجيد كالمنوفى يمتاز بتوزيع الدهن بين ثنايا اللحم . أما الصوف فخشن ويحسن العمل على إخراجه من نطاق الأصواف الخشنة إلى الأصواف الناعمة التى لها قيمة تجارية عالية وذلك بوساطة تهجينها بأنواع الأغنام الأوربية ذات الصوف الجيد ، كما يجب العمل على تنمية الثروة الحيوانية بتقليل نفقات الإنتاج الزراعى للمواد الغذائية وتأجير أطيان الحكومة لصغار الزراع بأجور معتدلة إذ يساعد هذا على السير بالايجار الزراعى إلى حد الاعتدال .

ويخرج النساء إلى الشارع لضرورة قصوى مبرقعات ببراقع مزينة بالذهب الأصفر اللامع ، مرصعة من الوسط والجانبين ، ولا يرتدين إلا ما كان حالك السواد حتى لا تلتفت إليهن الأنظار ، وتشير كمية الذهب التى يرصع بها البرقع الواحد إلى درجة أسرة السيدة التى ترتديه فى الثراء . ولا تبدى النساء شيئا من زينتهن فى الطرقات ، لأنهن يملن إلى الحشمة والوقار ، ولا يخرجن عن العادات الموروثة من قديم الأيام ، وغابر الأزمان . ولعل هذا راجع إلى عدم وجود أجنبيات بالمدينة يبذرن بينهن التفرنج والميل إلى السفور ، والفرار من الحجاب المضروب ، والتقليد الموروث ، ومع هذا فهن يجتمعن بالمنازل بعيداً عن أماكن الرجال فيسمرن ويضحكن ، ولكنه السمر البرىء والضحك المشرق الجميل ، فإذا أحسسن بوقع أقدام رجل كففن عن الحديث ، وامتنعن عن الضحك واللهو ، وفررن إلى حيث لا تراهن عين ، ولا يبصرهن طرف ، فهن حييات خجولات ، يسوءهن أن يراهن الرجال فى أثناء المرح وتجاذب أطراف الحديث .

وبالرغم من كل ما تقدم فقد ساقهن التيار الجارف نحو تعليم بناتهن بين أمواجه فخرجت البنت إلى المدرسة لتتعلم وتتهذب ، وأصبح الأهلون لا يجدون فى ذلك حرجا ، وكانت عقيدتهم فى مبدأ الأمر أن تترك لتتعلم حتى إذا نما جسمها احتجزها أهلها فى المنزل ولو لم تتم مرحلة التعليم الابتدائى إبقاء على عادة الحجاب التى يحتفظون بها ، وميلا إلى إدماجها فى الحياة المنزلية التى تؤهلها لتكون ربة بيت فى المستقبل . أما الآن فقد بدأت الأنظار تتطور ، وأصبح بعض الآباء والأمهات يميلون إلى أن تواصل البنت التعليم .

وكم كانت دهشتى عندما زارنى بعض الأهلين راجين التوسط لدى الجهات المختصة فى فتح مدرسة ثانوية حتى يتسنى لبناتهم مواصلة التعليم .

فبعد أن كانت الأم تحلم باليوم الذى تفارقها فيه ابنتها ، بين ترنح الطبول والزغاريد إلى بيت الزوجية فى سن مبكرة ، أصبحت تبحث مستشيرة ذوى الخبرة عن أحسن ما يمكن أن تصل إليه ابنتها من الدرجات التعليمية .

حقاً ، فإن عجلة الزمان تدور والمرأة تشارك الرجل وتنازله فى ميدان الحياة ، ولا بد للمرأة فى هذه المدينة أن تسير فى موكب تلك الحياة وتساير التقدم إن عاجلا أو آجلا ، فإقبال التلميذات على التعليم وسهولة اندماجهن فى الحياة الاجتماعية المدرسية التى هى بمثابة صورة مصغرة للمجتمع الكبير لأكبر دليل على مستقبل حياة المرأة فى هذه البلدة المتحفظة .

فالبنات يشغفن بالألعاب الرياضية والاندماج فى جمعيات النشاط المدرسى فيلعبن ويتعلمن الرقص التوقيعى وينتجن بأيديهن نماذج عظيمة من أشغال فنية وحياكة وأدوات للزينة وحلوى وما إلى ذلك ، مبديات مهارة وبراعة فائقتين ممتزجتين بشعور عميق من اللذة والزهو .

ولست أغالى إذا قلت إن « بنت بلبيس » بما جبلت عليه من خلق قويم موروث وما يضفيه التعليم عليها من رجاحة فى العقل ستكون نواة لأصلح فتاة يشار إليها بالبنان .

فدرية المنياوى

ناظرة مدرسة بلبيس الابتدائية للبنات

حركة معامل التفريخ ومحصول البيض

	عدد المعامل	عدد البيض	عدد الأنقاف	النسبة المئوية
سنة ١٩٤٢/٤١	٤١	٧٩٥٨٩٠٥	٥٤٤٥٦٥٤	٦٨
سنة ١٩٤٥/٤٤	٣٢	٦٢٥٠٨٥٠	٤٢٠٧٥٨١	٦٧

يتضح من الإحصاء السابق أن هذه الصناعة أخذت تتدهور منذ سنة ١٩٤١ إلى الآن فهبط عدد المعامل إلى النصف تقريباً ونقص عدد البيض الذى استعمل بها ولعل ذلك يرجع إلى قيام الحرب الأخيرة وانصراف أهالى الشرقية إلى التجارة وتوريد البيض والدواجن لجيوش الحلفاء مما يعود عليهم بالأرباح الطائلة بدلا من إدارة المعامل ودفع أجور العمال وما قد يتعرضون له من بسط الأحكام العسكرية وقوانين التسعير الجبرى .

٤ — صيد الأسماك والطيور :

يعتمد سكان الشرقية فى غذائهم إلى حد كبير على ما يصطادون من السمك من بحيرة المنزلة والترع والمصارف التى تنتهى إليها ، كما تشتهر هذه المديرية بالبرك التى تكثر فيها الطيور البرية فى فصل الشتاء مثل أكياد وبجيشر والعدوة وغيرها ، ومن أهم هذه الطيور الخضار والكيش والغر والصواى .

٥ — التجارة :

موقع الشرقية الهام وارتكازها على قناة السويس الملاحية ووقوعها فى طريق التجارة بين مصر والشام وفى طريق المسافرين إلى الحجاز فى مواسم الحج وكثرة المطارات الجوية بها كل ذلك ساعد على اشتغال أهلها بالتجارة ، فارتفع مستوى المعيشة بها لحد ما ، وتفتحت أبواب الرزق أمام أهلها ، هذا والشواهد تدل على أن تجارة الشرقية مقبلة على عهد من النمو والازدهار .

أنواع المتاجر وعددها بالشرقية (تعداد سنة ١٩٣٧)

أعمال مالية	سمسرة	حاصلات زراعية	مواد غذائية	تبغ	أقمشة وملابس	أثاث وأدوات منزلية
٢١	١٢	٥٧١	٣٢١١	١١١	٤٠٥	١٣٨

مواد بناء	أخشاب	وسائل النقل ولوازمها	معادن	النفائس والأشياء الفنية	استثمار المحلات العامة
٥٧	١١٥	٦٥	٥٠	١١٤	٨١٢

أنواع متاجر أخرى .
٢٩٩

٦ — النخيل :

النخيل ركن من أركان الثروة الزراعية بالشرقية يغرس فيها من عدة أجيال والبلح الناتج بالشرقية يكفى للاستهلاك المحلى ويصدر كثيره إلى المديريات الأخرى ، ويجب العمل على نشر صناعة البلح إذ للآن مازالت الطرق المستعملة فى جمعه وتعبئته وحفظه رديئة ، كما أنه يتعرض للإصابة بالحشرة المعروفة بالإفستيا .

ونلفت النظر إلى صناعة هامة يصح أن تقوم بجانب صناعة البلح وهى عمل الخل وتقطير الكحول من الثمار التالفة التى تضيع هباء فى كل سنة ، إذ أن نسبة السكر مرتفعة فى بلح الشرقية وارتفاعها هذا ينتج نسبة لا بأس بها من الكحول بعد التخمير .

٧ — طرق المواصلات :

بالشرقية شبكة متسعة متشعبة للسكك الحديدية ، كما تربط أجزاءها المختلفة طرق زراعية من الدرجتين الأولى والثانية مرصوفة أو ممهدة ، وكذلك يعتمد السكان فى سفرهم ونقل بضائعهم على الملاحة النهرية فى الترع والمصارف الصالحة للملاحة ويبلغ طولها ٦١٢ كيلومترا .

أطوال الطرق الزراعية

	درجة أولى	درجة ثانية
سنة ١٩٤٥/٤٤	٢٩٧	٨٩٨

الناحية الاجتماعية

١ — السكان :

تكثر بمديرية الشرقية القبائل العربية كالطحاوية والهنادى والبهجة والنفيعات والطميلات والحويطات والعبابدة وسالوس والسماعنة والمعازة فأكسبوا الشرقية شهرة واسعة فى الكرم والإيمان والتدين وطيبة القلب ، وبلغ عدد السكان فى يوليو سنة ١٩٤٣ ١,٢٣٦,٧٠٠

سكان مديرية الشرقية حسب الأقسام والمراكز

	ذكور سنة ١٩٢٧	ذكور سنة ١٩٣٧	إناث سنة ١٩٢٧	إناث سنة ١٩٣٧	زيادة النسبة المئوية سنويا	عدد الأنفس	جملة سنة ١٩٢٧	جملة سنة ١٩٣٧
بلبيس	٦٨٤٧٠	٧٦١٤٤	٧٣٩١٤	٨٠٣٦٥	١,٠	١٤١٢٥	١٤٢٣٨٤	١٥٦٥٠٩
فاقوس	٨٣٦٦١	٩٥٥٧٨	٨٦٤٤٥	٩٧٧١٨	١,٤	٢٣١٩٠	١٧٠١٠٦	١٩٣٢٩٦
ههيا	٥٩٧٠١	٦٤٥٨٤	٦٣٦٣٤	٦٧٦٢٠	,٧	٨٨٦٩	١٢٣٣٣٥	١٣٢٢٠٤
كفر صقر	٥٩١٣٩	٦٦٤٧٦	٦٢١١٨	٦٨٩١١	١,٢	١٤١٣٠	١٢١٢٥٧	١٣٥٣٨٧
منيا القمح	٨٠٨٣٣	٨٥٩٤٧	٨٥٧٣٢	٨٩٣٦٥	,٥	٨٧٤٧	١٦٦٥٦٥	١٧٥٣١٢
بندر الزقازيق	٢٧٥٧٩	٣٠٧٠٤	٢٥٢٦٠	٢٩٠٨٩	١,٣	٦٩٥٤	٥٢٨٣٩	٥٩٧٩٣
مركز الزقازيق	١١٦١١٢	٨٣٠٩٣٣	١٢٤٣١٤	١٣٧٩٣٢	١,٢	٢٧٨٩٩	٢٤٠٤٢٦	٢٦٨٣٢٥
جملة	٤٩٥٤٩٥	٥٥٠٣٦٦	٥٢١٤١٧	٥٧٠٤٦٠	١,٠	١٠٣٩١٤	١٠١٦٩١٢	١١٢٠٨٢٦

نسبة الذكور لكل مائة من الإناث سنة ١٩٢٧ = ٩٥ — نسبة الذكور لكل مائة من الإناث سنة ١٩٣٧ = ٩٦

السكان حسب التبعيات سنة ١٩٣٧

بريطانيون	فرنسيون	إيطاليون	يونانيون	أتراك	سوريون وفلسطينيون
١٧١	٢٧٢	٨٩	٩٢٢	٣٧	٦٦

آخرون	جملة الأجانب	المصريون
٦٥	١٦٢٢	١,١١٩,٢٠٤

السكان حسب الحالة العلمية سنة ١٩٣٧

ملمون بالقراءة والكتابة .		غير ملمين بالقراءة والكتابة (لايشمل الأطفال دون سن الخامسة)	
ذكور	إناث	ذكور	إناث
١١١٥٢٦	٣٠١٢١	٣٦٤,٢١٤	٤٦١,٩٢٦

السكان حسب الديانات

مسلمون	أقباط	مسيحيون آخرون	إسرائيليون	عقائد أخرى
١٠٩٨٩٣٨	٢٠١٢٥	١٦٣٢	١٢٩	٢

السكان حسب الحرف والصناعات سنة ١٩٣٧

	الزراعة	الصناعة	النقل
ذكور	٢٩٠٤٠٨	٢٣٤٣٢	٣٩٣٦
إناث	٦٨٦٠٦	٢٠١٢	٢٠
	التجارة	الإدارة العامة	
ذكور	٢١٦٠٦	٩٨٧١	
إناث	٣٥٧٩	٨	
	الخدمات الاجتماعية (عامة وخاصة)	الخدمات الشخصية	حرف غير منتجة ومجهولة
ذكور	٩٥٠٢	٧٧١٥	٤٨١١٥
إناث	٧٩٢	٢٠٣٦	٢١٤٠٩
	بدون حرف		
ذكور	٦١١٥٤		
إناث	٣٩٠٥٨٥		

حركة السكان (الزواج والمواليد والوفيات سنة ١٩٤٣)

عدد السكان فى يوليو سنة ١٩٤٣	١,٣٣٦,٧٠٠	عقود الزواج	٢٠١٢٨
مواليد أحياء	٥٠٩٥٧	مواليد موتى	١٨٧
وفيات	٣٢٤٣٠	زيادة المواليد	١٨٥٢٧
وفيات الأطفال دون السنة	٥٦٤١	نسبة وفيات الأطفال بعد السنة فى الألف من المواليد الأحياء	١١١

٢ — مساحة الأطيان وعدد الملاك :

مساحة الأطيان ومقدار المال المربوط والمحصل لسنة ١٩٤٥

جملة الزمام	مساحة أطيان الأهالى	مساحة أطيان الحكومة	المال المربوط	المال المحصل
١,١٧٦,٥٣٦	بضرائب عامة ٥٥٣٠٠٣	لمصلحة الأملاك ٤٤٠٨٩٠	٤٨٣٥٤٥	٣٩٠٥٠٥
	بضرائب خاصة ٢٤٧٩٧	لمصلحة الأموال —		
	بغير ضرائب ٥٥٦٧١	أملاك عمومية ١٠٢١٦٥		

عدد الملاك والأطيان لسنة ١٩٤٥

	عدد الملاك	عدد الأفدنة
مصريون	٢٠٣٥٣٤	٤٨٩٤٠٠
أوقاف	١٩٦٥	١٠٨٦٤٥
أجانب	٦٠٣	٣٥٤٢٦
الجملة	٢٠٦١٠٢	٦٣٣٤٧١

٣ — التعاون :

كان عدد الجمعيات التعاونية بالشرقية فى سنة ١٩٤٠ : ٩٢ جمعية أعضاؤها ١٠٥٠٧ ورأس مالها ٢٤١٢١ جنيها ثم أخذت تنتشر تدريجيا حتى بلغ تعداد الجمعيات التعاونية فى سنة ١٩٤٤ : ١٧٦ جمعية ، أعضاؤها : ٦٧٩٨٤ عضوا ، وارتفع رأس مالها المدفوع إلى ٧٨٨٦٦ جنيها كما كان بالشرقية خمس نقابات للعمال فى سنة ١٩٤٥ أى بزيادة نقابة واحدة عما كانت عليه فى سنة ١٩٤٤ .

٤ — التعليم :

الشرقية — كما فى بقية مديريات القطر المصرى — تعانى من الأعداء الثلاثة : الجهل ، والفقر ، والمرض ، ولكنها تسير بخطوات سريعة نحو التخلص منها تشهد بذلك الإحصاءات والبيانات الرسمية الآتية :

	السنة	المدارس الأولية			المدارس المصرية الأخرى والأجنبية		
		بنون	بنات	عددها	بنون	بنات	عددها
بندر الزقازيق	١٩٣٤/٣٣	١٩٤٦	١٧٣٣	٢٤	٥٩٩٨	١٠٩٤	٢٨
	١٩٣٧/٣٦	١٩٠٤	١٧٩٥	٢٦	٦٢٣٠	١١٢٥	٣٢
	١٩٤٠/٣٩	٢٤٩٩	٢٤٤١	٢٤	٦٣٠٠	١٢٢٤	٣١
	١٩٤٣/٤٢	٢٤٦٥	٢٣٧٣	٢٦	٦٥٤٩	١١٥١	٢٦
	سنة ١٩٤٨	١٦٤٥	٢٤٧٥	١٦	٨٣٤٤	٢٧٥٩	٣٧
مركز الزقازيق	١٩٣٤/٣٣	٨٦٧٣	١٨٥٤	١٤٤	٣٣٨	٥٤	٣
	١٩٣٧/٣٦	٩٨١٨	٥٢٥٧	١١٧	١٣٠	٢٩	٢
	١٩٤٠/٣٩	١٠٩٦٤	٨٢٠٤	١٠٩	١٥١	٥٣	٣
	١٩٤٣/٤٢	٦٥٤٩	٥٠٩٠	٦٥	—	—	—
	سنة ١٩٤٨	٤٦٣٦	٣٠٠٩	٤٥	٢٥٨	—	١
فاقوس	١٩٣٤/٣٣	٢٨٣٤	١٠٨٩	٦٧	٤٦٤	٧٥	٣
	١٩٣٧/٣٦	٥٦٥٢	٣٢٦٧	٦٧	٣٥٨	٨٦	٣
	١٩٤٠/٣٩	٦٥٥٦	٤٨٥٥	٦٨	٣٨١	٥٠	٤
	١٩٤٣/٤٢	٥٨٨٢	٤٥٣٤	٦٧	٤٧٤	٦٦	٤
	سنة ١٩٤٨	٣٤٢٠	١٨٧٢	٣٦	١٢٢٣	٣٠٤	٦
كفر صقر	١٩٣٤/٣٣	٢٩٨٣	٨٠٥	٦٢	٢٦٦	١٢	٣
	١٩٣٧/٣٦	٣٤١٢	١٩٣٥	٥٢	٢٥٦	٢٥	٣
	١٩٤٠/٣٩	٤١١٢	٢٩٤٨	٥٠	٢٣٠	٣٥	٣
	١٩٤٣/٤٢	٣٥٠٤	٢٤٨٤	٤٦	٢٤٩	—	٢
	سنة ١٩٤٨	٢٥٣٦	٩٠٦	٢٠	٢٧١	—	١
منيا القمح	١٩٣٤/٣٣	٥٩٦٥	١١٩٢	٩٧	٧٦٢	٤٥	٥
	١٩٣٧/٣٦	٨٠٨٢	٤٥٦٠	٨٨	٦٠٦	١٢٩	٧
	١٩٤٠/٣٩	٨٣٩٤	٥٢٢١	٩١	٦١٩	١١٧	٧
	١٩٤٣/٤٢	٧٧٩٥	٥٢٩٦	٩٠	٦٦٧	٧١	٦
	سنة ١٩٤٨	٥٦٦٤	٣٣٢٧	٥٥	١٨٢١	١٧٦	١١
ههيا وأبو كبير	١٩٣٤/٣٣	٣٨٤٦	١١٦٩	٧٠	٣٥٠	١٩	٤
	١٩٣٧/٣٦	٥٣٤٧	٣١٧٣	٦٩	١٨٠	٧	٤
	١٩٤٠/٣٩	٥٨٧٣	٤٢٧٩	٦٠	١٧٩	—	٤
	١٩٤٣/٤٢	٥٥٤٨	٤١٩٣	٥٨	٢٠٠	—	٤
	سنة ١٩٤٨	٤٨٦٦	٣٥٢٠	٥٤	١٦٤٩	—	٩

	السنة	المدارس الأولية		عدد المدارس	المدارس المصرية الأخرى والأجنبية		عدد المدارس
		بنون	بنات		بنون	بنات	
[illegible]	١٩٣٤/٣٣	٤٥٠٣	١٠١٢	٧٢	٢٢٣	٤٠	٢
	١٩٣٧/٣٦	٥٣٤٦	٢٥٠٦	٧١	٢٨٠	٨	٢
	١٩٤٠/٣٩	٧٠٨٩	٥٠١٦	٧٢	٢١٦	٥٥	٢
	١٩٤٣/٤٢	٧٠٠٥	٤٧١٢	٧٦	٢٨٩	١١٢	٣
	سنة ١٩٤٨	٤٨٥١	٣٠٠١	٥١	١٠٤٥	٢١٣	٧
[illegible]	١٩٤٣/٤٢	٣٤٤٩	٣٠٤٣	٢٢	١٩٣	١٠٣	٢
	سنة ١٩٤٨	٤٠٠٣	١٧٧٤	٤٤	٤٣١	٤٥	٣
[illegible]	١٩٣٤/٣٣	٣١٧٥٠	٨٨٥٩	٥٣٦	٨٥١١	١٣٠٧	٤٨
	١٩٣٧/٣٦	٣٩٥٦١	٢٢٤٩٣	٤٩٠	٨٠٦٧	١٤٥٦	٥١
	١٩٤٠/٣٩	٤٥٤٨٧	٣٢٩٦٤	٤٧٤	٨٠٧٦	١٥٤٧	٥٢
	١٩٤٣/٤٢	٤٢١٩٧	٣١٧٢٥	٤٦٠	٨٦٢١	١٥٠٣	٤٥
	سنة ١٩٤٨	٣١٦٢١	١٩٨٨٤	٣٢١	١٥٠٤٢	٣٤٩٧	٧٤

	السنة	بنون	بنات	عدد المدارس
[illegible]	١٩٣٤/٣٣	٤٠٢٦١	١٠١٦٦	٥٨٤
	١٩٣٧/٣٦	٤٧٦٢٨	٢٣٩٤٩	٥٤١
	١٩٤٠/٣٩	٥٣٥٦٣	٣٤٥١١	٥٢٦
	١٩٤٣/٤٢	٥٠٨١٨	٣٣٢٢٨	٥٠٥
	سنة ١٩٤٨	٤٦٦٦٣	٢٣٣٨١	٣٩٥

الفقر وأثره فى ارتكاب الجرائم بالشرقية

لا شك أن المشكلة الحقيقية بمديرية الشرقية كما فى غيرها من مديريات القطر هى مشكلة الفقر وأن جميع المشاكل الأخرى من تعليمية وصحية وغيرها ناشئة عن الفقر، ولما كان الفقر من أهم الأسباب التى تدعو إلى ارتكاب الجرائم يجب العمل على تخفيف وطأته بمضاعفة الدخل القومى بتحقيق المشروعات الإنشائية وزيادة الإنتاج الزراعى والصناعى بما يحقق العدالة الإجتماعية.

ولا أدل على تفشى الفقر فى هذه المديرية من إحصاء (القرض) على رهون قام بها البنك العقارى المصرى لسكان الشرقية إذ بلغ عددها حوالى (عشر سلف) من سنة ١٩٤٠، وسنة ١٩٤٥ بلغت قيمتها عشرات الألوف

من الجنيهات ، كما بلغ عدد القروض فى سنة ١٩٤٥ : ٣٦٣ قرضا لرهن ٢٣٢٨٤ فدانا لسداد مبلغ ٥٩٦١٦٧ جنيها هذا خلاف القروض المطلوبة لبنك الأراضى المصرى سنة ١٩٤٥ وعددها ١١٠ قرضا لرهن ٤٨٤٥ فدانا على مبلغ ١٥٤٦٨٤ جنيها ، كما عقد البنك العقارى الزراعى المصرى سنة ١٩٤٥ : ٧٢٨ قرضا على مساحة قدرها ١٣٨٤٨ فدانا بمبلغ ٢٦٩٩٩٧ جنيها .

وكان من نتيجة ذلك أن نزعت البنوك ملكية كثير من هذه الأراضى لعدم قدرة الملاك على تسديد ما عليهم من الديون والفوائد فبلغت مساحة الأفدنة التى نزعت ملكيتها فى سنة ١٩٤٥ : ١١٣ فدانا بناء على طلب الأفراد و ٨٥ فدانا بناء على طلب البنوك والشركات و ١٤٩ فدانا بناء على طلب الحكومة .

عدد الجرائم الحقيقية بالشرقية ومقارنتها بغيرها من المديريات

من سنة ١٩٤٠/١٩٤٥

كان من نتيجة انتشار الفقر والجهل بهذه المديرية أن أخذ عدد الجرائم الحقيقية فى الازدياد سنة بعد أخرى كما يتضح ذلك من الإحصاءات الرسمية التالية ، وبمقارنة عدد الجرائم بالشرقية بعددها فى المديريات الأخرى التى تقربها فى عدد السكان يتضح أن نسبتها تقرب من نسبة الجرائم بالدقهلية وجرجا ولكنها تقل عن الغربية ومحافظة القاهرة وتزداد نسبة الجرائم فيها عن المنوفية والبحيرة وقنا .

العـــدد

السنة	شرقية	دقهلية	جرجا	غربية	القاهرة	المنوفية	البحيرة	قنا
١٩٤٠ — ١٩٤١	٤٩٣	٤٨٤	٦٦٦	٨٦٦	١٠١٠	٣٥٢	٣٥٣	٤٠٩
١٩٤١ — ١٩٤٢	٥٠٨	٤٧٨	٥١١	٨٤٢	٩٣٥	٤٨٠	٣٤٦	٣٤٩
١٩٤٢ — ١٩٤٣	٥٨٤	٤٢٣	٥١٢	٩٣٨	٨٨٠	٣٧٩	٣٨٥	٣٦٠
١٩٤٣ — ١٩٤٤	٦٥٧	٤٩٤	٤٩٧	٨٩٨	١١٤٩	٤٤١	٣٨٢	٣٦١
١٩٤٤ — ١٩٤٥	٦٣٢	٦٣٧	٥٦٦	١٠٠٨	١٢٦٢	٤٥٤	٢٩٣	٣٧١

٦ — **الفقر وأثره فى انتشار الأمراض بالشرقية :**

لا شك أن للفقر أثراً كبيراً فى انتشار الأمراض وما ينشأ عنها من العاهات وكثرة الوفيات فقد بلغ عدد المصابين بالعاهات بهذه المديرية تعداد سنة ١٩٣٧ : ١٩٥٢٨ شخصا منهم ٧٠٥ مصابون بأمراض عقلية ؛ أما الصم والبكم فبلغ عددهم ٧٦١ شخصا ، والمصابون بفقد بصر العينين ٦٣٢٨ شخصا ، وفقد البصر للعين الواحدة ١١٧٣٤ شخصا .

عدد الإصابات والوفيات ببعض الأمراض المعدية سنة ١٩٤٤

التيفوس	الجدرى	التيفود
إصابات ٣٢٠٩	إصابات ٧٣٣	إصابات ٤١
وفيات ٥٣٨	وفيات ٤٢	وفيات ١٣
الحمى الشوكية المخية	الدفتريا	الحصبة
إصابات ١	إصابات ٩٧	إصابات ٢٠٢
وفيات ١	وفيات ٤٦	وفيات ٦٣
درن الجهاز التنفسى	درن آخر	التهاب رئوى
إصابات ١٤٤	إصابات ٦	إصابات ٤٩
وفيات ٩١	وفيات ٨	وفيات ٣٩
الجديرى	التسمم النفاسى	الملاريا
إصابات ٩	إصابات ٤	إصابات ٤٣٩
وفيات —	وفيات ٢	وفيات ١

وبفحص هذه الإحصائية وغيرها من إحصائيات الأمراض المختلفة المنتشرة بالشرقية سنة ١٩٤٤ يقدر عدد المصابين بـ٥١٧٢٨ شخصا توفى منهم ٨٧٩ شخصا ؛ لذلك تجب العناية وبذل الجهد فى القضاء على البعوض الذى يسبب انتشار مرض الملاريا وإنشاء المستشفيات بأنواعها (عامة) : حميات ورمدية ومستوصفات ، كما يجب الإكثار من ملاجىء العجزة والأيتام إذ لا يوجد بهذه المديرية المترامية الأطراف سوى خمس مستشفيات (عامة) بالزقازيق ومنيا القمح وفاقوس وبلبيس والزوامل عدد أسرتها ٢٠٥ فقط يديرها تسعة من الأطباء ؛ أما مستشفيات الحميات فلا توجد إلا بالزقازيق وفاقوس وعدد أسرتها ١٧٧ يديرها طبيبان . أما المستوصفات وملاجىء العجزة والأيتام فقاصرة على الزقازيق فقط — ومما يسترعى النظر كثرة الإصابات الناتجة عن العمل أو بالقضاء والقدر التى يدعى لإسعافها أعضاء جمعيات الإسعاف (العامة) إذ يبلغ عددها ٣٠١٤٠ إصابة تنجم من : الاختناق والتشنج والرجة المخية والإغماء والنزيف والحروق والجروح والكسور والرضوض والتسمم والتعسر فى الولادة واللدغ والعض والانتحار والانهيار والسقوط والغرق والمشاجرات والسكر والحوادث وإصابات العمل وغيرها ؛ لذلك يلزم إنشاء جمعيات الإسعاف ببقية جهات المديرية إذ مازالت قاصرة على الزقازيق وفاقوس وبلبيس ومنيا القمح وأبو كبير وههيا .

بهذا تحقق لدينا الآن أن الشرقية فى حاجة ماسة للجهود العظيمة التى تبذل فى تحسين الاستغلال الزراعى والصناعى وفى محو الأمية ونشر التعليم وعناية المجتمع بشئون الصحة والعلاج والقضاء على الفقر خصوصا أن بها طبقة عالية من أكبر البيوتات التى لا تحس بوطأة الفاقة والمرض ولكنها تفهم واجب التضحية وتعلم أن التضحية وحدها هى الدليل على عظمة الأمة وتماسك بنيانها ويقظة الروح القومية فيها .

مارس سنة ١٩٤٩

عزيز محمد حبيب
مدرس أول المواد الاجتماعية بالزقازيق الثانوية

راجع ناحيتها الاقتصادية والاجتماعية
أحمد إبراهيم البرى
المدرس بالزقازيق الثانوية سابقا

الرى فى مديرية الشرقية

مصر بطبيعتها قطر صحراوى لاينزل فيه المطر إلا نادراً فلا يقوى على إنبات الحياة فيها واستقرارها ؛ فهى تدين بفضل وجودها إلى النيل الذى اختار هذا الركن من أفريقيا فكوّن واديه ودلتاه من رسوب غرينه المتوالى على مر السنين ، ولهذا أصبحت الزراعة فى القطر المصرى تعتمد الاعتماد كله على ماء هذا النهر العظيم ، لذا عمل المصلحون من الولاة قديما وحديثاً على تحسين طرق الرى وانتفاع الكثير من الأراضى بمائه ، فأقاموا عليه القناطر والسدود وحفروا الترع والقنوات حتى عم خيره الأراضى وبعث فى مواتها الخصب والحياة . وسنبين فيما نكتب طرق الرى فى شرق الدلتا وبخاصة مديرية الشرقية :

شرق الدلتا من حيث الرى . إقليم طبيعى واحد لايمكن فصله أوتقسيمه إلى الأقسام الإدارية كالمديريات والمحافظات ؛ ولكنا سنحاول جهدنا الكلام عن الرى فى مديرية الشرقية وإن كان سيمس مديرتى الدقهلية والقليوبية ومحافظة القنال .

والترع الرئيسية الهامة فى شرق الدلتا تأخذ مياهها إما من النيل مباشرة كالإسماعيلية والشرقاوية والباسوسية ، وإما من فرع دمياط كبحر مويس وترعة البوهية والبحر الصغير . وقد عدلت أفمام الترع الثلاثة الأخيرة فأصبحت تستمد ماءها من الرياح التوفيق وترعة المنصورية .

وقد كان رى الأراضى قديماً وزراعتها موقوفين على مجىء الفيضان ومدة بقائه وعلى الطريقة الحوضية ، إلى أن فكر محمد على باشا فى تعميم الرى المستديم فى الدلتا فأكمل جسور فرعى النيل وقواها ثم حفر أفواع الترع الرئيسية للحياض القديمة إلى منسوب يبلغ متراً أو متراً ونصف المتر أوطأ من منسوب مياه التحاريق ، ثم بنى القناطر المتعددة على أفمام الترع المختلفة .

وقد كانت المياه تدخل الترع المختلفة عند بدء الفيضان فى شهر يوليه من كل عام بمنسوب منخفض ثم ترفع بالآلات لرى الأراضى المزروعة قطناً وأرزاً ؛ ويستمر ذلك إلى أن تمتلىء جميع الترع فى أيام الفيضان فتفيض المياه على الأراضى فى داخل الحياض القديمة ثم تزرع حبوباً بعد صرف المياه عنها كما هو الحال الآن فى بعض مديريات الوجه القبلى .

وفى شهر مارس وإبريل بعد حصاد المزروعات الشتوية يبدأ فى تطهير الترع بأنفار العونة (السخرة) وبما أن منسوب التطهير كان يجب أن يكون أوطأ من منسوب مياه التحاريق (منسوب المياه الصيفية) فإن عمق التطهير كان لايقل عن خمسة أمتار ؛ وبعد نهايته يبتدأ فى زراعة القطن والأرز وريريان عندئذ بالآلات الرافعة .

من هذا يتبين لنا أن أراضى الدلتا كانت تروى بالطريقتين ـ الحوضية والمستديمة ـ معاً . ولكن لما كانت نفقات التطهير إلى هذا العمق باهظة فكر محمد على باشا فى تحسين الرى بهذه الطريقة أو ابتداع أخرى أقل نفقة ومجهوداً من الأولى لرفع منسوب المياه فى أثناء التحاريق . وهنا نشأت فكرة بناء القناطر الخيرية

على فرعى النيل لرفع منسوب الماء بمقدار أربعة أمتار فى أثناء التحاريق ، وعمل قناطر لأفمام الترع الرئيسة لرفع مستوى الماء فيها فينتفع بهذا المستوى العالى .

وفى عام ١٨٣٣ أمر محمد على باشا بتنفيذ فكرة نابليون الرامية إلى بناء سد حجرى ضخم فى فرع رشيد لإرسال جميع تصرف النهر إلى فرع دمياط حيث كانت مآخذ أهم الترع الصيفية . ولكن لكثرة نفقات هذا المشروع وخطره على فرع دمياط فى أثناء الفيضان وحرمانه فرع رشيد المياه اقترح لينان باشا دى بلفوند بناء قنطرتين خلف قمة الدلتا فأمر محمد على باشا بالتنفيذ وبهدم أهرام الجيزة لاستخدام أحجارها لهذا المشروع .

ولكن المشروع لم ينفذ إلى سنة ١٨٤٢ حين صمم موجيل بك مشروع القناطر الخيرية فى موضعها المعروف الآن . وتتكون من قنطرتين مقامتين على فرعى النيل تفصلهما قمة الدلتا بطول ١٠٠٠ متر ، ثم أخذ من أمامها أفمام الرياحين التوفيقى والمنوفى ورياح البحيرة .

وقد تم بناء القنطرتين على يدى المهندس المصرى مظهر بك عام ١٨٦١ . وقد أسرع القائمون بالعمل إسراعاً أضر بسلامة البناء — هذا إلى أن بناء الأساس لم يكن بطريقة فنية محكمة ؛ ولهذا لم يقو على تحمل ضغط الماء كالمطلوب . ولما كانت الفكرة الحربية متسلطة على عقول القائمين بالأمر فقد أهمل الجانب الفنى منها فلم تف هذه القناطر بالغرض المطلوب منها ولم تقو على حجز أكثر من متر ونصف أو مترين .

واستمرت القناطر على هذه الحال من العجز إلى أن تقرر إعادة درسها وإصلاحها . وقد تمكن سير وليم ولككس من بناء سد من الأحجار خلف القناطر فأمكن بذلك رفع منسوب الحجز إلى ٤,٥ متر . وفى المدة من سنة ١٨٨٦ إلى ١٩٠٢ قد عملت فيها إصلاحات أدت إلى زيادة مستوى الحجز إلى ستة أمتار .

ولكن ظل ضعف القناطر عقبة كئوداً فى سبيل قيامها بعملها وبخاصة أوائل أيام الفيضان ، حيث تكون المياه متوافرة وزراعة القطن والأرز فى أشد الحاجة إلى الكثير منها ، ولهذا فإن الرياحات لم تكن لتستوفى كامل تصرفها من أمام القناطر وبخاصة ذلك مدة إطفاء الشراقى الموجودة فى الدلتا ؛ لهذا أعيد بناؤها باسم قناطر محمد على بعد أن زاد وارد المخزون من مياه النهر زيادة عظيمة بعد التعلية الثانية لخزان أسوان ، وبعد بناء خزان جبل الأولياء ، فأمكن بهذه القناطر الجديدة إقفال جميع العيون فى تلك المدة إقفالا تاماً وإرسال كل تصرف النهر إلى الرياحات . وقد تركت القناطر القديمة كأثر خالد يشهد بعبقرية منشئها العظيم .

وتعتبر القناطر الخيرية المنشأ الحقيق لهذا الرى المستديم ، فمنها يتصرف المهندسون فى كل قطرة ماء تصل إلى الوجه البحرى وفى توجيه الماء التوجيه الفنى ، فلا تضيع المياه سدى فتنطلق المياه بذلك فى الرياحات الثلاثة : التوفيقى والمنوفى والبحيرة ، وفى الترع الأخرى بمنسوبات تعلو مستوى الأراضى طوال السنة . وبما أن تكوين الوجه البحرى دلتاوى كالمروحة تجد أن الرياح التوفيقى الذى يروى شرق الدلتا يمر بجوار فرع دمياط ، وأن رياح البحيرة يمر بجوار فرع رشيد ، كما تجد الرياح المنوفى يمر بأعلى أراضى وسط الدلتا .

والرياح التوفيقى — الذى هو أهم المصادر التى يستمد منها شرق الدلتا مياهه — قد تم إنشاؤه عام ١٨٨٧ بعد أن بلغت نفقاته ٣٦٠ ألف جنيه مصرى وهو يأخذ ماءه من أمام القناطر الخيرية شمالى بلدة شلقان ،

والغرض من إنشائه إمداد بحر مويس فى الشرقية وإمداد ترعتى البوهية والبحر الصغير فى الدقهلية بمياه ذات منسوب عال .

ويبلغ عرض الرياح التوفيقى فى مبدئه ٣٠ متراً وعمقه ستة أمتار ويقدر انحداره بنسبة ١ : ١٢٠٠٠ وقطاعه ثابت لايطمى ولا ينحر .

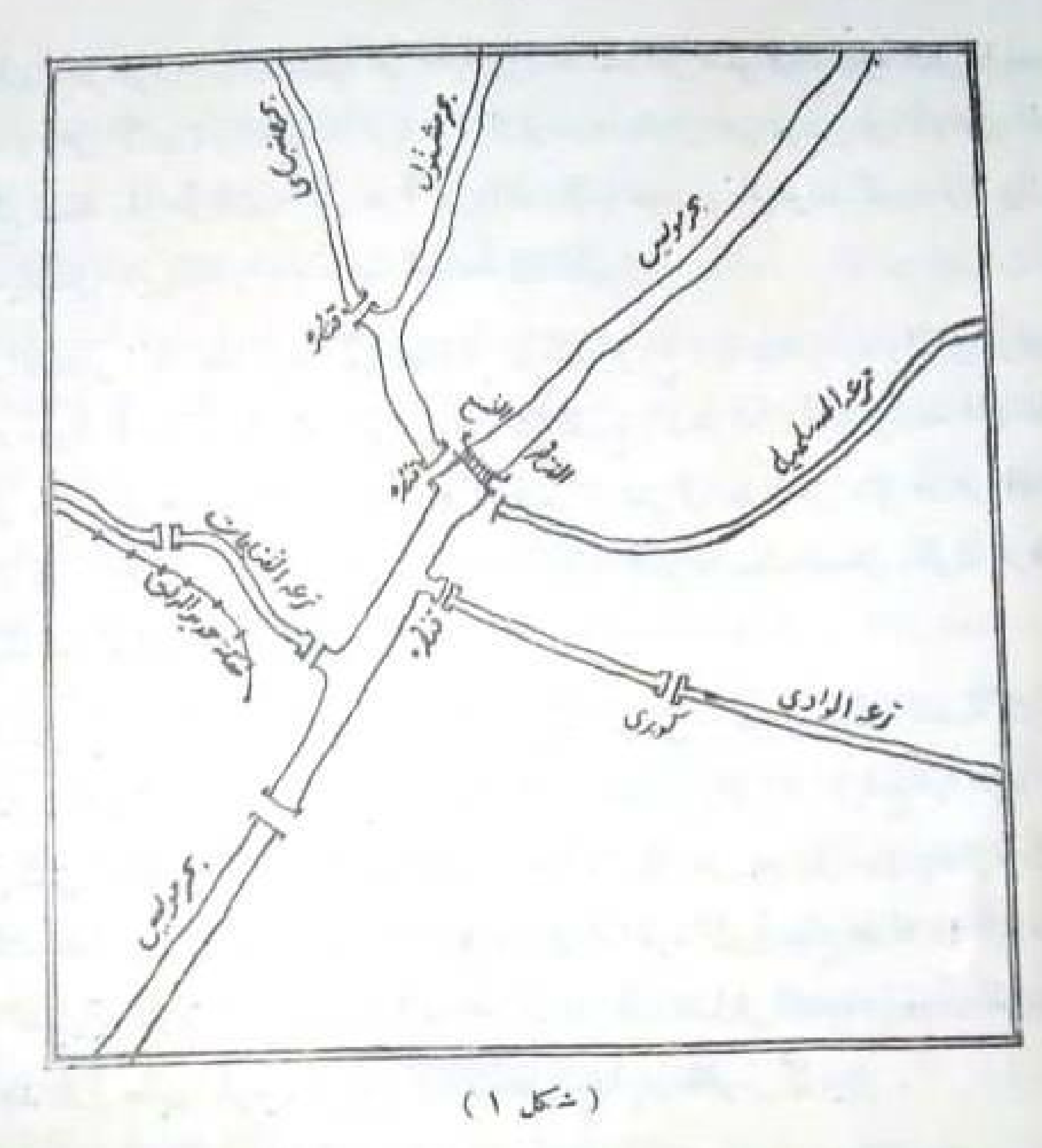
وهو فى الجزء الأول من أمام القناطر إلى بلدة جمجرة ترعة توصيل فلا يمد أية ترعة بالماء. وتقام عليه أول قنطرة حجز عند جمجرة فيأخذ من أمامها بحر مويس الذى يروى الجزء الأكبر من مديرية الشرقية ثم يسير شمالا يمد أفروعاً كثيرة حتى يصل إلى ميت غمر ، وهناك تقام عليه قنطرة الحجز الثانية فتأخذ من أمامها ترعة البوهية لرى جزء كبير من أراضى مديرية الدقهلية ويسير الرياح بعد ذلك باسم ترعة المنصورية حتى يصل المنصورة ، وهناك يمد البحر الصغير ويستمر على شكل ترعة صغيرة تسمى الشرقاوية .

وقد كان من الصعب جداً — أو المستحيل تقريبا — توصيل المياه إلى نهاية الرياح التوفيقى والرياح المنوفى فى وقت التحاريق . ففكرت الوزارة فى إنشاء قناطر زفتى على فرع دمياط لتساعد القناطر الخيرية فى مدة الصيف التى تكثر فيها المطالب المائية فى رفع منسوب مياه فرع دمياط المتكونة بالرشح والزائد من القناطر الخيرية . وقد عملت الوصلات اللازمة إلى الرياح التوفيقى والمنوفى تمدهما بمياه ذات منسوب عال ، وتتحمل هذه القناطر الآن فرقا فى التوازن يبلغ الستة الأمتار .

بحر مويس

بحر مويس هو أحد فروع النيل القديمة التى أخذت تضمحل إلى أن وصلت إلى حالتها الراهنة . والترع التى خلفت فروع النيل القديمة تمتاز بكثرة تعرجها والتوائها . وقد أصبحت الآن فى مستوى أعلى من الأراضى المحيطة بها بسبب تراكم الغرين على جانبيها وفى قاعها بمرور الزمن . ولذلك فهى تتبع الآن المرتفعات الموجودة فى الدلتا . وقد قصرت وزارة الأشغال عملها على الاستفادة من هذه الفروع القديمة بتعديل مجاريها وجعلها أكثر استقامة فى معظم أجزائها ، وقامت بتنظيم الترع التى تأخذ منها وإنشاء غيرها وشرعت تبنى قناطر الحجز على مختلف أطوالها لتنظيم سير المياه فى مجاريها حتى يسهل الرى فى كل حبس من أحباسها .

وتختار مواقع قناطر الحجز دائماً عند اختلاف مستوى الأرض التى يسير عليها المجرى من المستوى العالى إلى المستوى المنخفض ثم تعدل فتحات الترع القريبة منها فتؤخذ من أمامها لكى تمد الأراضى التى ترويها بمياه ذات مستوى عال . وهذه النظرية يتبعها الرى فى جميع أنحاء القطر وهى بارزة فى الرياحات والترع الرئيسة والفرعية .



(شكل ١)

ويبدأ بحر مويس من الرياح التوفيق عند قرية جمجرة شمال بنها بسبعة كيلومترات . ولا يزال المأخذ القديم من فرع دمياط موجوداً إلى اليوم ، وهو عميق جداً ، ويستعمل الآن للاتصال الملاحى بين مديرية الشرقية والنيل .

ويمد فرع مويس عدداً من الترع التى تتشعب كالشرايين فى الأراضى التى ترويها . وتقع أول قناطر حجز عليه فى الزقازيق وهى المعروفة بمجموعة التسعة على الكيلو ٣٦٫٦٥٠ كما فى (شكل ١) فتستمد الماء من أمامها الترع الآتية ، وهى : ترعة الوادى الغربى وترعة المسلمية وبحر بهنباى وبحر مشتول وترعة القنايات ؛ وتتفرع هذه الترع فى اتجاهات مختلفة فترى كأصابع اليد فى شكلها ، وهذه أيضاً تتفرع إلى أصغر منها وهكذا مما يضيق المجال بذكرها هنا .

ثم يستمر بحر مويس فى السير متجها نحو الشمال الشرق ويمد بعض الفروع والترع حتى يصل إلى قناطر الصفراء عند الكيلو ٥٦٫٦٥٠ وهى قنطرة الحجز الثانية التى تتفرع من أمامها ترعة الصادى وحمودة والحصارية ؛ والأولى منها تروى مساحة كبيرة من الأراضى .

ثم يستأنف بحر مويس سيره متجهاً نحو الشمال إلى مدينة كفر صقر فتقع عليه قنطرة الحجز الثالثة . وأما الرابعة ، وهى الأخيرة ، فتقع عند قرية تل راك وعندها يتلاشى بحر مويس فى الأراضى المجاورة لها بعد أن يقطع مسافة يبلغ طولها ٦٨ كيلو متراً تقريبا قد ملأها خصبا ونماء . ولقد كان ، ولا يزال ، له الأثر العميق فى حياة أهل مديرية الشرقية منذ عهد الفراعنة إلى الآن .

بحر أبى الأخضر : كان هذا البحر إلى عهد قريب أحد فروع ترعة الباسوسية ولكن وزارة الأشغال غيرت مجراه أخيراً لجعله يبدأ من بحر مويس عند منيا القمح ؛ وهو الآن أحد فروعه الهامة التى تروى الأراضى التى تقع شرق هـــذا البحر ، وأن مجراه طبيعى يستمر فى سيره حتى يلتقى بترعتى الوادى الغربى والوادى الشرقى الآتية من ترعة الاسماعيلية ، ومن التقاء هذه المجموعة بعضها ببعض يتكون بحر فاقوس الذى هو فى الحقيقة امتداد لبحر أبى الأخضر .

بحر فاقوس : يروى كذلك الأراضى الواقعة شرق بحر مويس ، وهو يمر بمنطقة خصبة كثيرة العمران ، وله فروع كثيرة أهمها ترعة السماعنة والديدمون والوافدة والصوالح والغزالى ، ويتبع فيها جميعا نظام القناطر الحاجزة التى سبق ذكرها ؛ أما ترعة الوادى فتتبع منحنياً من الأرض بين بحر مويس وترعة الاسماعيلية ، ولهذا كان لها مأخذان ، وهى منقسمة قسمين شرقى وغربى ، والجزء الشرقى يبلغ طوله ١٤ كيلومترا ، ويبلغ طول القسم الغربى ٧ كيلومترات : وهى تبدأ من بحر مويس عند القناطر التسعة والجزآن تقريبا على استقامة واحدة ، وعند تلاقى هذين الجزءين مع بحر أبى الأخضر يبدأ بحر فاقوس كما سبق .

والملاحة ميسورة فى مديرية الشرقية ، إذ أن جميع الترع الكبيرة التى فيها الآن كبحر مويس وفاقوس وأبى الأخضر ترع ملاحية وكذلك ترعة الوادى بقسميها ، فيمكن المراكب الشراعية السائرة فى ترعة الإسماعيلية من القاهرة أو السويس أو بور سعيد أن تتبع ترعة الوادى الشرقى ثم الغربى إلى الزقازيق وبهذا تتصل أجزاء المديرية بعضها ببعض بشبكة من المواصلات المائية يسهل بها النقل الرخيص للمحصولات الزراعية ومواد البناء كالآجر والحجر والرمل والزلط التى يؤتى بها من أماكن تبعد كثيراً عن قلب المديرية الذى يخلو من هذه المواد .

الترع الأخرى

يساعد مجموعة بحر مويس فى رى أجزاء مديرية الشرقية الترع الآتية :

الترعة الإسماعيلية : أنشئت هذه الترعة عام ١٨٦٠ م ، وهى تتبع المجرى القديم لخليج أمير المؤمنين ، وكان الغرض من إنشائها أن تمد البلاد الواقعة على قناة السويس بالمياه العذبة ، ثم استعملت بعدئذ لرى

المنطقة المحصورة بين ترعة الشرقاوية والصحراء التي تبلغ مساحتها الآن ١٨٠ ألف فدان ، وقد أنشئت لها قنطرة فم جديدة عند شبرا ، وحفر لها مجرى جديد خارج المدينة يتصل بمجراها على مقربة من بلدة الأميرية ، وقد ردم الجزء الأول من الترعة القديمة ، وهو الذى كان يمر داخل القاهرة من الفم إلى غمرة (شارع الخليج المصرى الآن) ويجرى الآن ردم الجزء الباقى إلى بلدة الأميرية ، وتسير ترعة الإسماعيلية فى الحد الفاصل بين الوادى والصحراء إلى أن تصل بلدة العباسة بمركز بلبيس ، وهناك تخترق وادى الطوميلات ، وتسير شرقا صوب الإسماعيلية حيث تصب فى بحيرة التمساح ، ولكن قبيل بلوغها المدينة يخرج منها فرعان : فرع يتجه شمالا يعرف بالترعة الحلوة أو ترعة بور سعيد ، وهو يغذى مدينة بورسعيد والقنطرة بالمياه العذبة ، وتسيطر عليه شركة قنال السويس . والحكومة الآن تفاوض الشركة فى الاستيلاء على هذا الفرع لتوسيع نطاق الرى به ، ولا شك أن شركة القنال ستقبل هذا عن طيب خاطر إذ سيرفع هذا عن كاهلها ماتنفقه فى تطهيره وصيانته ، هذا إلى أنها لاتخسر شيئا نظير ذلك . وفرع يتجه جنوبا ويسمى ترعة السويس ، وهو يغذى مدينة السويس وبور توفيق بالمياه العذبة .

وتمر ترعة الإسماعيلية بكثير من الأراضى الرملية . ولذا فهى تفقد كمية كبيرة من مياهها بالتسرب ، ويضيع سدى وبخاصة فى ترعة السويس . وقد كانت المساحات المزروعة على الشاطئ الأيمن منها قبل الآن صغيرة ، ولكنها آخذة فى النمو التدريجى ، وأكبر هذه المساحات الآن تفتيش الوادى التابع لوزارة الأوقاف ومساحته خمسة عشر ألف فدان ؛ ثم تفتيش جلالة الملك بالشاس ومساحته أربعة آلاف فدان منها نحو ألف فدان حولت من صحراء جرداء إلى حدائق مثمرة تنمو بها أنواع الموالح المختلفة ؛ كما توجد به أيضا بساتين بركات ومساحتها الآن نحو سبعمائة فدان ، وترعة الإسماعيلية ترعة ملاحية هامة ؛ ولذا ترى بجميع قناطرها الأهوسة اللازمة للملاحة .

وعلى ترعة الاسماعيلية أربع قناطر حاجزة عدا قنطرة الفم بشبرا ، فتقع أول قنطرة حجز عليها عند سرياقوس على بعد أربعة عشر كيلومترا من الفم . ويتفرع أمامها ترعة كشمير اليمنى والتوفيقية اللتان ترويان الأراضى الواقعة جهة المرج والزيتون فى مديرية القليوبية ، ثم ترعة كشمير اليسرى التى تروى الأراضى الواقعة بين ترعة الإسماعيلية وشبين القناطر .

وتقع قنطرة الحجز الثانية على ترعة الإسماعيلية عند مدينة بلبيس على الكيلو خمسين لتنظيم انحدار المياه ورفع منسوبها للرى المباشر للأراضى الواقعة بين سرياقوس وبلبيس ، ثم تقع قنطرة الحجز الثالثة عند قرية القصاصين على الكيلو تسعين ، وعلى مسافة منها إلى الأمام تخرج ترعة الوادى الشرقى التى مر ذكرها ؛ غير أنه مما يجدر بالذكر هنا أن هذه الترعة تمد ترعة السعيدية بالماء بعد ثمانمائة متر من الفم ، وهى ذات أهمية

عظيمة لأنها تروى جزءاً كبيراً من الأراضى الرملية الواقعة فى شرق المديرية ؛ أما القنطرة الرابعة — وهى الأخيرة — فتقع قبيل مدينة الإسماعيلية عند الكيلو ١٢٤ ، وهى تتحكم فى مآخذ ترعتى بور سعيد والسويس.

ولما كان مستوى مياه الإسماعيلية خلف قنطرة حجز سرياقوس أعلى من الأراضى المحيطة بها كان مايتسرب منها من المياه بطريق الرشح عظيما وبخاصة فى الأجزاء الرملية منها ، وذلك للمستوى العالى الذى تتطلبه الملاحة وتغذية مدن القنال بالمياه العذبة طول العام — ولهذا ارتفع مستوى الماء الباطنى فى وادى طوميلات وانحط الإنتاج السنوى للأرض إلى أن أدركته وزارة الأشغال أخيراً . فقامت بإنشاء المصارف فيه بالبر الأيسر والأيمن وعملت على إنزال مستوى الرشح إلى الحد الذى لايضر بالنباتات . وقد أخذت فائدة المشروع تظهر تدريجيا فى السنين الأخيرة .

ويلى ترعة الإسماعيلية فى رى أجزاء مديرية الشرقية الأخرى ترعتا الشرقاوية والباسوسية اللتان ترويان الجزء الجنوبى من المديرية : فالترعة الأولى تستمد ماءها من النيل بعد شبرا بمسافة قصيرة ، وتتفرع عند شبين القناطر إلى بحرين هما بحر الشبينى وبحر الخليلى . وتدل خطوط انحنائها وسيرها على أنها فى الأصل كانت فرع النيل الشرقى الذى كان يسمى الفرع البليوزى ؛ أما ترعة الباسوسية فهى تأخذ مياهها من النيل بعد فم الشرقاوية بقليل ؛ وتروى الجزء الشمالى لمديرية القليوبية ثم تخترق جنوب مديرية الشرقية . وقد كانت تمد إلى وقت قريب بحر أبى الأخضر بالماء ، ولكنه استقل عنها بمأخذه من بحر مويس عند مدينة منيا القمح كما ذكرنا .

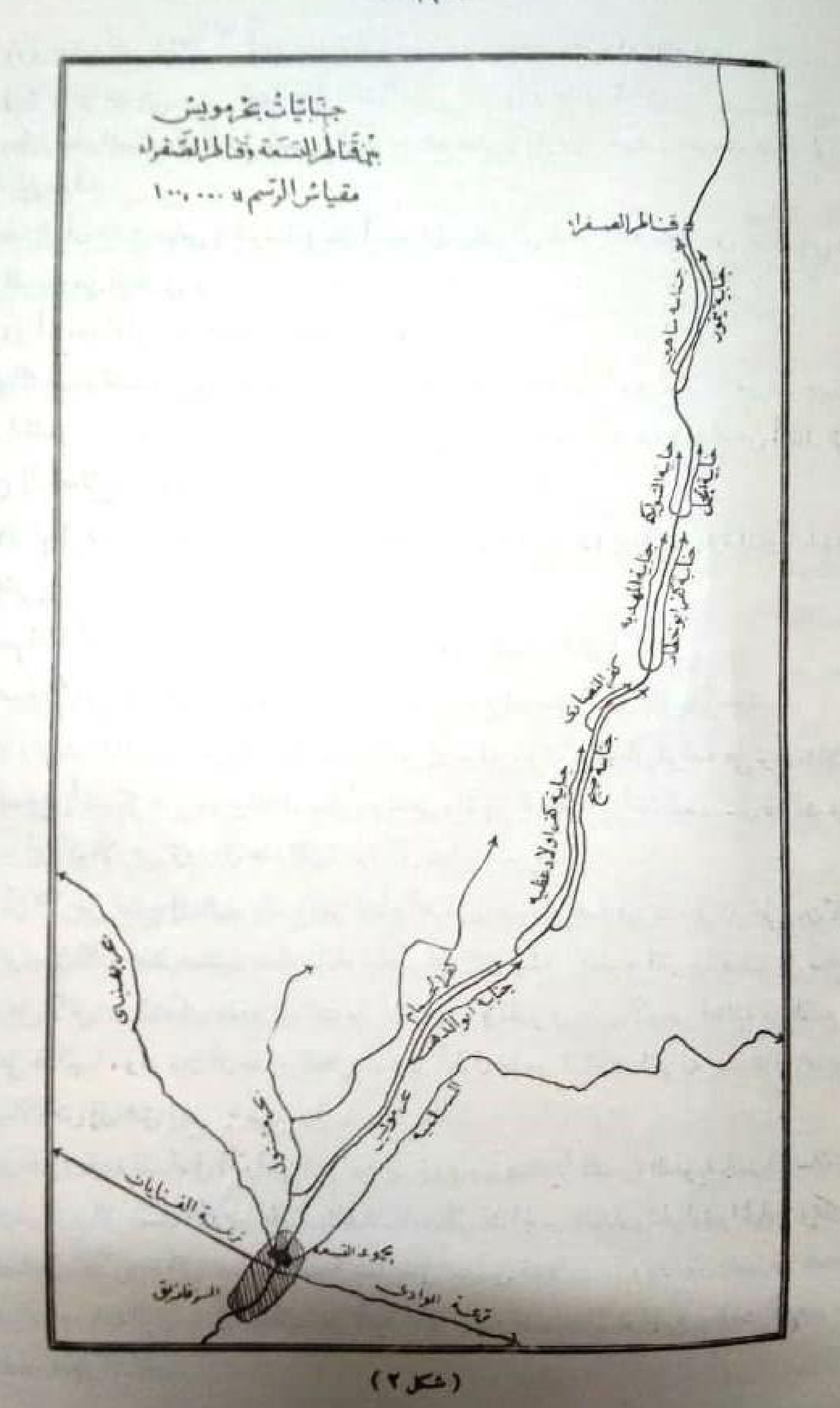
ولتحسين الرى بنهايات الترع الكبيرة والفروع المأخوذة منها اتبع نظام الجنابيات الذى يحرم الأهالى الرى مباشرة من الترع الكبيرة لأنها مملوءة بالمياه طول السنة ، ونظام الرى يحتم على الزارعين رى أراضيهم بطريقة المناوبات . ولهذا عملت فروع صغيرة تختلف أطوالها : فنها مايبلغ الكيلومترين ومنها مايبلغ الخمسة أو الستة أو الثمانية أحيانا ، تسير كلها موازية إلى جانبى الترعة وتسمى جنابيات ، عليها فتحات لرى الأراضى الواقعة على الترعة المذكورة تفتح وتقفل حسب الحاجة ، وبذلك توزع المياه توزيعا عادلا على الأراضى .

وسنتخذ قسما من بحر مويس ، وهو الواقع بين القناطر التسع وقناطر الصفراء مثالا لتوضيح نظام الجنابيات حيث نجد على جانبيه جنابيات كثيرة (انظر الخريطة شكل ٢) فنرى على الجانب الأيمن منه مايأتى :ـ

(١) جناية أبى الذهب . (٢) جناية صبيح . (٣) جناية كفر أبى حطب .

(٤) جناية الجمل . (٥) جناية تيمور .

وعلى الجانب الأيسر منه مايأتى :ـ


جنابيات بحر مويس
بين قناطر التسعة وقناطر الصفراء
مقياس الرسم ١ : ١٠٠,٠٠٠
قناطر الصفراء
ترعة القنايات
ترعة الوادي

(شكل ٢)

(١) جناية كفر الحمام . (٢) جناية أولاد عطية . (٣) جناية كفر النصارى .
(٤) جناية مهدية . (٥) جناية الشوابكة . (٦) جناية شاهين .

وطول هذه المسافة بين القناطر التسع والصفراء يبلغ عشرين كيلومترا ، فيكون متوسط طول الواحدة أربعة كيلومترات .

هذا إلى أن شارع عباس (البوستة) كان أحد الجنايات التى كانت تأخذ ماءها من بحر مويس لرى الجزء القريب من الزقازيق .

(١) أما مدة المناوبات فتختلف باختلاف فصول السنة .

فهناك السدة الشتوية وفترة الجفاف الشتوى : وهى تكون عادة بين اليوم العشرين من شهر ديسمبر واليوم الخامس من شهر فبراير ، وتطهر خلالها الترع وتنفذ المشروعات الجديدة ويصلح من أعمال الرى مايحتاج إلى إصلاح ، وهذه الفترة لاتحتاج المزروعات فى أثنائها إلى الماء .

(٢) ثم يلى ذلك المناوبات الربيعية ، وهى تبدأ عادة من ٥ فبراير إلى ١٥ إبريل ، وفترة المناوبة عادة هى خمسة عشر يوما .

تقسم ثلاثة أقسام : فخمسة الأيام الأولى منها « عمالة » (بالمنسوب العالى) .

وخمسة الأيام الثانية منها بالمنسوب المنخفض ؛ وتقفل الترع فى خمسة الأيام الباقية الأخيرة .

(٣) وتبتدىء المناوبات الصيفية من منتصف إبريل إلى يوليه ، وتقسم المناطق الواقعة على ترعة ما ثلاثة أقسام متساوية يأخذ كل قسم منها مياهه فى ستة أيام تسمى « الأيام العمالة » ثم يأخذ القسم الثانى فالثالث على التوالى — أى أن الأرض تروى فى هذه الفترة مرة كل ثمانية عشر يوما .

وكما أن الأرض تحتاج إلى الرى بالترع فهى تحتاج أيضا إلى الصرف بمصارف تنشأ فى المواطىء بين كل ترعة وأخرى لإمكان حفظ مستوى سطح الماء الباطنى على عمق يبلغ انخفاضه المتر والنصف عن سطح الأرض على الأقل — لتتمكن جذور النباتات من أن تنمو ، وتنتشر فى بطن الأرض الخالية من النشع ، وتحصل على غذائها ، وقد تبين أن جذور القطن — وهى أطول جذور النباتات الحولية — تنزل عمودية فى جوف الأرض إلى عمق يبلغ ٦٠ سنتيمترا .

ويمكن تشبيه دورة المياه فى الأراضى الزراعية التى تروى ريا مستديما بالدورة الدموية لجسم الإنسان ؛ فيمكن اعتبار الترع التى تغذى الأرض بالمياه بمثابة الشرايين التى تمد الجسم بالغذاء والحرارة والحياة ، ويمكن اعتبار المصارف كالأوردة التى تصفى الأنسجة مما يعلق بها من فضلات — ولهذا فإن المصارف عدت ضرورة من ضروريات الرى — إن تعطلت عن تأدية عملها ارتفع منسوب الماء الجوفى وطبلت الأرض ، ومن ثم تلفت جذور النباتات .

ويمكن تقسيم مديرية الشرقية من حيث الصرف إلى المناطق التالية :

أولا — المنطقة الشرقية : وهى الواقعة بين بحر فاقوس وبحر أبى الأخضر من جهة وبين الصحراء الشرقية من جهة أخرى ، وتعتمد فى صرفها على مصرف بحر البقر ، وهو فى الواقع تتمة مصرف القليوبية الرئيسى بمديرية القليوبية والشرقية ، والذى يصب فيه مصرف بلبيس ، وهو يصل إلى ضواحى القاهرة ؛ كما يصب فيه روافد كثيرة لاحصر لها ، فهو لايكاد يجرى بضعة كيلومترات حتى يلتقط ماء مصرف سيال — يزيد فى حجمه وأهميته إلى أن يلقى ماءه فى بحيرة المنزلة ، ولقد أصبح هذا المصرف ملاحيا بعد أن تمت به الإصلاحات اللازمة لذلك .

ثانيا — المنطقة الثانية : وهى المحصورة بين بحر مويس وبحر فاقوس ، وهى تصرف بمصرف العارين الذى يبدأ من شمال الزقازيق تقريباً ويصب فى مصرف بحر سفط .

ثالثا — المنطقة المحصورة بين بحر مويس والرياح التوفيقى : وهى تعتمد على بحر سفط ، وهو أعظم مصارف شرق الدلتا لطوله وكثرة روافده ، ويبدأ سيره من ججرة ، ويستمر مزوداً بالمياه التى تمده بها المصارف المختلفة فى مديريتى الشرقية والدقهلية حتى يصب فى بحيرة المنزلة ، ولهذا فإن هذا المصرف بفرعيه يحتضن بحر مويس وفروعه ، ويتولى صرف المياه الزائدة من حوضه .

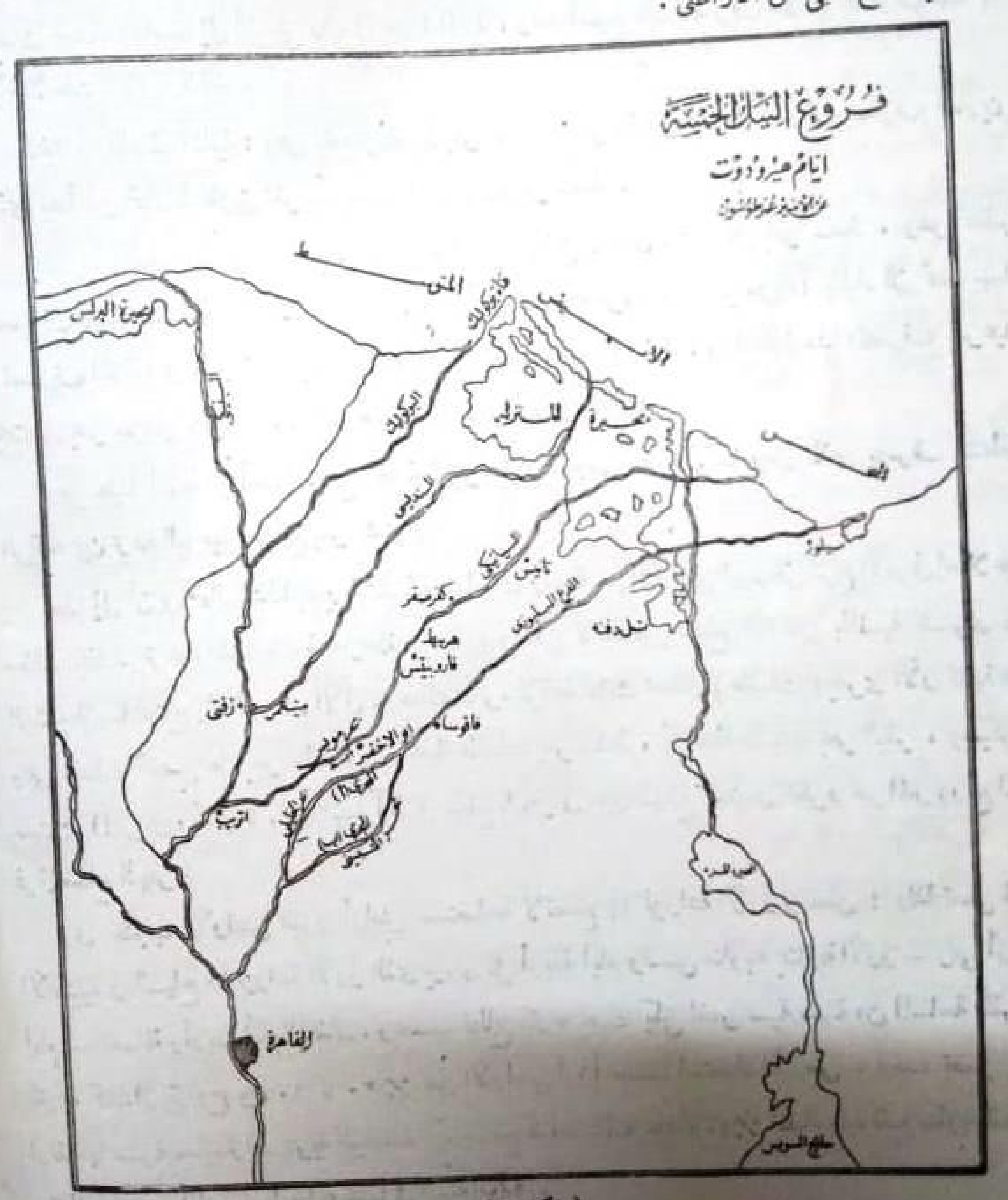
ويبق علينا أن نذكر أحد الفروع الهامة لبحر سفط ، وهو مصرف حادوس الذى يصرف المنطقة الواقعة بين ترعة البوهية وفروع بحر مشتول .

هذا إلى أن فى شمال الدلتا بمديرية الشرقية مساحات واسعة من الأراضى البور التى شرع الآن فى إصلاحها وذلك بإنشاء الترع والمصارف لها مرحلة مرحلة ، ولكن لانخفاض سطح الأرض بالنسبة لمستوى ماء الرشح فإنها تحتاج إلى الصرف الآلى ، وهناك فكرة لإقامة ثلاث محطات (طلبمات) يجرى الآن تنفيذها ، وهى محطات القصبى على بحر حادوس — محطة طلبمات بحر سفط ، ثم محطة طلبمات بحر البقر ، وسيكون مستوى المص فى الأخيرة ٢٠ سنتيمتراً فوق سطح البحر فى حين سيبلغ مستوى الطرد نحو المتر وربع المتر فوق سطح البحر .

وفى جنوب الأراضى البور أراض مستصلحة لاتصلح إلا لزراعة الأرز والقطن ؛ ولذا تعطى لها الأفضلية فى السماح لها بزراعة الأرز الذى يروى كل أربعة أيام وتسمى مناوبته بمناوبة الأرز — وهى أربعة أيام — للعمالة وأربعة أيام للإقفال ، ويحسب قطاع الترعة بحيث يكفى لغمر نسبة معينة من المساحة المقررة للترعة كمقدار يتراوح بين ١٠ ، ٣٠ ٪ من الأراضى أرزاً حسب استعداد الأرض ، وهذه تغمر بمياه ارتفاعها عشرة سنتيمترات للرية الواحدة ، ثم يسمح لها بعد ذلك بمقدار ٤٠٪ قطنا وهذه تتبع مناوبة القطن، ويترك الباقى بوراً لتبديل الزراعة عليها فى السنة التالية .

بين الماضى والحاضر

بعد أن تعرضنا للرى فى مديرية الشرقية وترعها ومشروعات الرى بها يحسن بنا أن نقف على « التدرج » الذى ألم بفروع النيل مكتفين فى معرفة ذلك بتتبع ماحدث لها فى العصور التاريخية وكيف ذبلت هذه الفروع وتحولت إلى قنوات صغيرة كادت يد الزمن تعفو آثارها إلى أن تناولتها يد الإصلاح فى العصر الحديث فحولتها إلى قنوات هامة بأن جعلتها أساسا لنظام الرى الحديث ، ولاتزال تبنى عليها المشروعات الجديدة التى تنشأ لإصلاح مابقى من الأراضى .



(شكل ٣)

يحدثنا المؤرخون القدماء عن وجود فروع للنيل كانت تصب فى البحر المتوسط ، وأقدم ما لدينا من المستندات هو ما كتبه هيرودوت حوالى عام ٤٥٠ ق م فذكر أن للنيل خمسة فروع هى : (انظر الخريطة شكل ٣) :

(١) الفرع البلبوزى (أو البوباستى) .
(٢) الفرع السايتيكى (أو التانيسى) .
(٣) الفرع المنديسى (البحر الصغير) .
(٤) الفرع السبنيتى (نسبة إلى سمنود) .
(٥) الفرع الكانوبى .

أما الفرعان بوكوليك (دمياط) وبولفين (رشيد) فيذكر لنا أنهما كانا قنوات صغيرة حفرها ملوك مصر الأقدمون . ولهذا فإن استرابون فى القرن الأول الميلادى أضافهما إلى الفروع الأخرى جاعلا فروع النيل سبعة . وقد تغلب الفرعان على الفروع الباقية لأنهما كانا أكثر استقامة وأشد انحداراً منها فجذبا إليهما أكثر الماء فازدادا أهمية على حساب الفروع الأخرى مما أدى إلى انقراضها على مر الزمن .

وسنقتصر هنا على دراسة فرعين فقط : البلبوزى والتانيسى — اللذين يدخلان فى نطاق البحث عن الرى فى الشرقية (كما فى شكل ٤) .

الفرع البلبوزى : كان هذا الفرع قديما يمد شرق الدلتا القديمة بالماء كما أنه بمصبه كان مفتاح مصر من الشرق ، وبمدينة بلبوز — أو الفرما — مرت جميع الغزوات الشرقية .

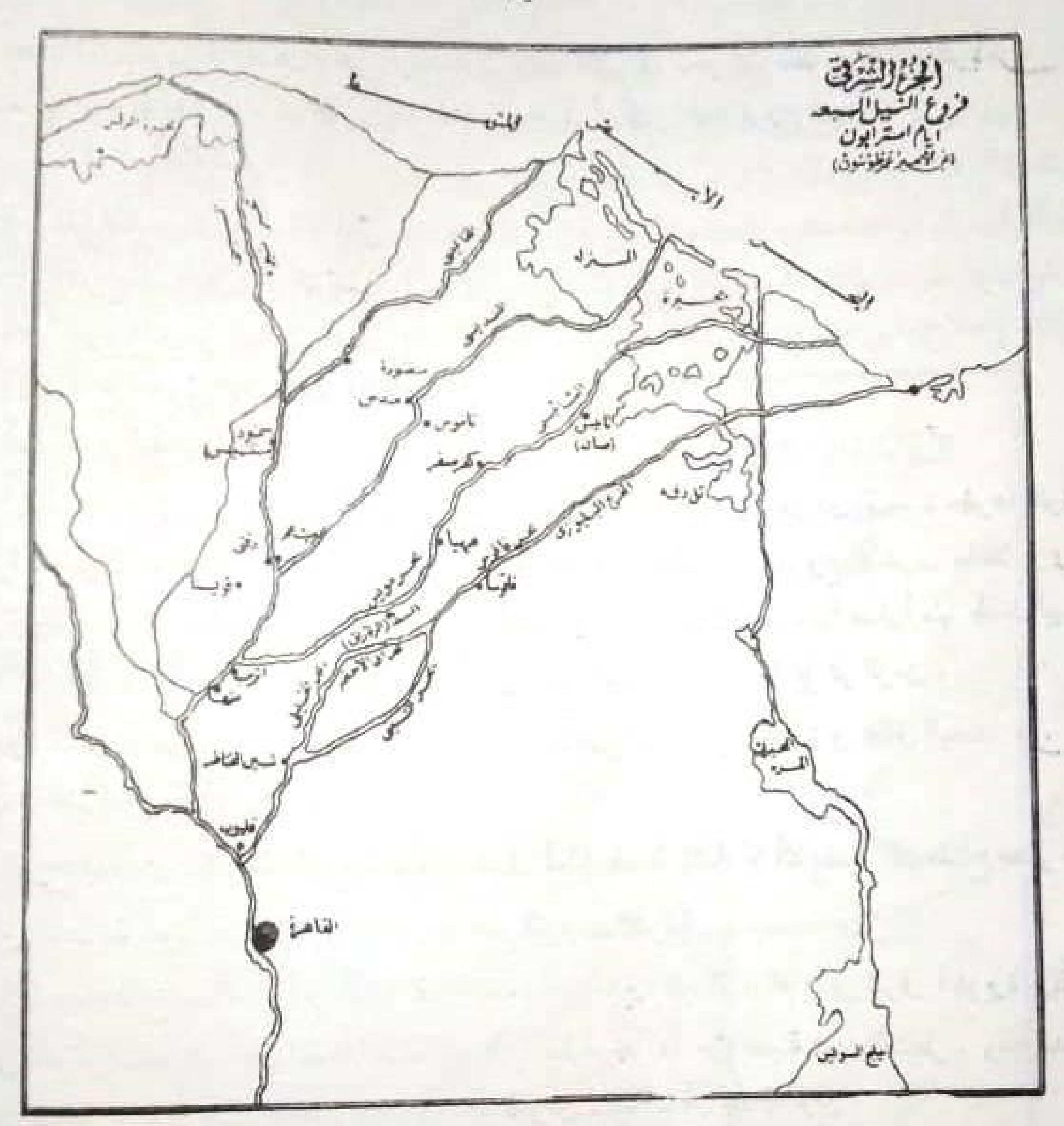
كان هذا الفرع يبدأ من رأس الدلتا القديمة عند رأس جزيرة الوراق . ثم يسير شرقى الجزيرة ويتبع مجرى قناة أبو المنجا إلى مكان اتصالها بقناة الشرقاوية فيتبع مجراها حتى مدينة شبين القناطر ، ومن مدينة شبين القناطر إلى قرية ميت جحيش عند مبدأ بحر فاقوس — فيمكننا أن نجد له أثرين .

(١) فالأثر الأول يتبع بحر الشبينى من شبين القناطر ماراً بمدينة بلبيس إلى بحر فاقوس حتى قرية ميت جحيش . وهذا الفرع كان يؤدى ما يؤديه الفرع البلبوزى تماما من جهة تحديد الدلتا من الشرق ، ولكن كان يمر بعيداً عن مدينة بوبسطة بنحو ثمانية كيلومترات .

(٢) أما الأثر الآخر فكان يتبع البحر الخليلى بعد شبين القناطر ثم يتصل بمجرى بحر أبى الأخضر حتى قرية ميت جحيش فيتبع بحر فاقوس .

والميزة الرئيسية له هى مروره قريبا من بوبسطة بنحو كيلومترين بل ربما كانت المدينة ممتدة إلى شاطئه ؛ وربما كان هذا الفرع المجرى الأساسى للفرع البلبوزى .

أما مدينة بوبسطة فمن الراجح أنها كانت تقع غربى هذا الفرع وأنها لم تكن على شاطئه تماما بل كانت تبعد عنه قليلا كما تبعد الخرائب التى نراها الآن فى تل بسطة عن بحر أبى الأخضر .



(شكل ٤)

وهيرودت فى حديثه عن رحلته إلى مدينة بوبسطة لمشاهدة حفلاتها لم يعين أى فرع من فروع النيل سار فيه ، ولكنه ذكر أن مدينة بوبسطة كانت مبدأ للقناة التى كانت متصلة بالبحر الأحمر ، ولم يعين لنا على التحديد موقع المدينة على هذا الفرع .

أما ديودور الصقلى فقد وصف لنا المدينة وصفاً خلواً من تعيين موقعها ، وذكر استرابون بعدها عن رأس الدلتا ، وذكر بلينى أسماء البلاد التى اشتقت منها أسماء فروع النيل ولم يتعرض قط لمدينة بوبسطة ، وهذا يدلنا على قلة أهميتها فى أيامه كما يدلنا على أن المدينة نفسها لم تكن على شاطئ الفرع البليوزى .

أما بطليموس فذكر أنها كانت شرقى الفرع البليوزى ، ولكن بطليموس ليس من المؤرخين الذين يعتد بكلامهم .

أما بعد قرية ميت جحيش إلى مدينة بيلوز فإن الفرع الشرقى كان يتبع مجرى بحر فاقوس إلى مدينة فاقوسا القديمة فيمر عن يسارها ، ومن ثم يتبع فى انحياره إلى البحر ترعة السماعنة التى تستمد ماءها من بحر فاقوس ثم ترعة الجندل — وهى الآن أحد فروع الترعة الأولى — حتى يفقد آثاره فى أعماق بحيرة المنزلة ؛ وتظهر هذه الآثار مرة أخرى عند بقايا مدينة هيركليوبوليس (تل تليم) التى يصفها بطليموس فى جغرافيته فإنها كانت تقع إلى الشرق من الفرع البليوزى حتى يصل أخيراً إلى خرائب مدينة بيلوز على البحر .

الفرع التانيسى : لهذا الفرع أسماء منها التانيسى والسايتكى ، وهو يبدأ من مدينة أتريبدس (تل أتريب) فى شمال بنها ، وما هو إلا بحر مويس الحالى ماراً بمدينة منيا القمح والزقازيق وقرية هريط (قديما Pharbaetos) حتى نهايته عند مدينة كفر صقر — ثم يتبع مجرى مصرف بحر المشرى ماراً أمام صان الحجر حتى يعبر بحيرة المنزلة حيث كان يصب فى البحر عند أم فرج على بعد ٢٠ كيلومتراً شرق موقع بور سعيد .

ويعلل هذا التطور ، الذى أودى بمعظم الفروع فى شرق الدلتا إلى حركات ارتفاع فى القشرة الأرضية فى شرق القطر المصرى ، وهذا يعلل أيضا ظاهرة صغر فرع دمياط بالنسبة لفرع رشيد ، ولا بد أن يكون صحب هذا الارتفاع رد فعل فانخفض الجزء الشمالى الشرقى من الدلتا فأحدث بحيرة المنزلة ، وأدى إلى زوال مدينة تانيس التى استمرت عامرة حتى أيام الفاطميين تنتج أحسن أنواع المنسوجات .

على رفاعة الأنصارى

المدرس بالزقازيق الثانوية سابقا
وبالإدارة العامة للثقافة

مراجع تطور فروع نهر النيل فى الدلتا :

1. — Desciption d'Egypte : Bois Aimé

2. — Egypt Exploration Fund

3. — Memoires sur les Anciennes Branches du Nil, Tome 4. تأليف سمو الأمير عمر طوسون



إذا تحدثت عن ريف الشرقية فإنما أتحدث حديث من نشأ فوق أرضه ، واستظل بسمائه ، وغبر زمانا طويلا لايعرف سواه ، ينطبع بطباعه ، ويحن إلى ترابه ، ويتشوق إلى ملاعبه . . . وإذا صورته لك ، فإنما أصوره فى هذه البلاد ، وتلك القرى الصغيرة المبعثرة هنا وهناك تحيط بأمها الكبرى ، وعاصمتها المحبوبة مدينة الزقازيق .

ريف الشرقية جنة من جنات الدنيا . يأبى الخير إلا أن يطل برأسه فى كل بقعة من بقاعه ويشرئب بعنقه فى كل سهل من سهوله ، أو ربوة من روابيه ، بساتينه حافلة بكل مافى الدنيا من ثمار وخضر ، وغيطانه مليئة بهذه الكنوز المقدسة التى تشبع الجياع ، وتهب الحياة ، وتدفع بؤس البائسين وشقاء المعوزين ، والتى يعيش عليها الفلاحون فتكفيهم وتغنيهم من زرع مبارك الأغلال إلى ضرع توفر له الغذاء فاكتنز لحمه ، وغزر لبنه .

وتتوزع ريفنا الحبيب جداول وأنهار تكتنفه وتتخلله ، وتلتوى فيه وتستقيم ، تجافى القرى تارة وتدنو منها تارة أخرى ، وقد تحيط بها إحاطة السوار بالمعصم ، فتكون القرية بين أحضان الماء ، وحول الأنهار ومصارف الماء وخلجانه وجداوله . تقوم أشجار التوت والصفصاف والسنط والجميز عاتية جبارة ، وحارسة أمينة تحمى الجسور وتقويها ، وإنك لتعرف القرية قبل أن تصل إليها بأميال فهى الأخرى تحيط بها الأشجار العالية ، الفينانة الفروع ، المتهدلة الأغصان ، والنخيل الباسقات المحملة بتمر الشرقية الجميل تلوح لك من بعيد بسعفاتها الخضراء ، ورءوسها المتمايلة فى الفضاء .

نشأة الأطفال

فى ريف الشرقية يعيش الجانب الأكبر من أبناء الشرقية ، يشبون بين أكناف المزارع الخضراء ، وعلى شواطئ الجداول الجارية ، ويربون فى الهواء الطلق ، وتصنع رجولتهم على ضوء الشمس الجميل ، يلقون العادات والتقاليد فى سكون ساكن ، وهدوء شامل ، وصمت عذب ، وقد وهبهم جمال الطبيعة جميل الطباع ،

ومنحهم تغير السهول بمـا فيها من زروع القدرة على معاشرة الناس بما فى طباعهم من تباين ، وعلمتهم البيئة الوادعة الهادئة الوداعة والهدوء ، ولقنتهم مبادئ اليقظة وقوة الملاحظة ، وطبعتهم بطابع الذكاء . ينشأ الطفل قوى البنية ، مرح الطبع ، باسم الثغر ، لا يشعر إلا بالسعادة الغامرة ، يتقلد التمائم والتعاويذ التى تقيه شر العين كما يعتقدون ، حتى إذا اشتد ساعده ، وقوى عوده ، تركه أبواه (للمكتب) يتعلم فيه مبادئ القراءة والكتابة ، ويحفظ القرآن الكريم ، وكان (لسيدنا) معلم المكتب إلى زمن ليس بالبعيد اليد الطولى فى بث مكارم الأخلاق فى نفوس هؤلاء الأبناء ، وكان يلقى إليه الآباء مقاليد التربية والتأديب ، وكان التلاميذ يرهبون بطشه ، ويخشون عقابه الصارم ، وضربه الموجع المؤلم ، حتى إذا انتشرت المدارس الأولية والإلزامية فى القرى ، وعرف النـاس فضلها فى تثقيف العقول ، وإنارة الأذهان ، أقبلوا عليها يدفعون إليها بفلذات أكبادهم ، وتطلعوا إلى أفق أوسع مدى من المكتب ، وفقدت ، المكاتب ، مكانتها أو كادت ، وأخذ عددها يتناقص ، وسلطانها ينكمش ، وظلها يتقلص ، وارتاعت لهذا المظهر قلوب ، وجزعت نفوس ، وغار ذوو الغيرة ، وعجبوا للنـاس كيف ينسون مكاتبهم التى كانت تحمل أسمى رسالة ، وهى تحفيظ القرآن الكريم : فالمدارس الإلزامية التى نافست (المكاتب) لم تخلق لأداء هذه الرسالة ، وفكروا فى إنشاء مدارس تؤدى رسالة المكتب خيراً مما كان يؤديها المكتب فكانت مدارس تحفيظ القرآن التى انتشرت فى بلاد الشرقية ، وأمها كثير من الطلاب ، ولا زالت فى حاجة إلى عون وتشجيع ، ويا حبذا لو أتيح لذوى الشأن أن يلحقوها بالأزهر الشريف ، لتكون مدارس تحضيرية له ، فهى به أشكل ، وله أوفق .

الحالة الاجتماعية

يتألف سكان القرية من عائلة واحدة ، أو من عائلتين أو أكثر ، وتتألف العائلة من أسر يقل عددها أو يكثر بحسب النسبة العددية للعائلة ، وتتألف الأسرة الواحدة من أزواج وزوجات ، بنين وبنات ، يضمهم بيت فسيح ، وتجمعهم دار واحدة ، فالإخوة إذا كبروا وتزوجوا يؤثرون التجمع ، ولا يرضون بالانقسام ، ويقولون « يد الله مع الجماعة » والبركة فى اللمة ، وإذا حدث تفكك فى أسرة ، وافترق الإخوة باتوا مضغة للأفواه ، ونهبا للسخرية ، وقد يتدخل بينهم عدو بالدسيسة فيزيد النار اشتعالا ، والخلاف احتداما ، وغالبا ما يكون ذلك بعد موت والد الأسرة الأكبر .

ولكل عائلة عميد ، يعالج مشاكلها ، ويسهر على ما يسعدها ، يأتمرون بأمره ، ويرضون بحكمه ، ويعملون بما يشير به ، ويجلونه غاية الإجلال ، ويغارون على كرامته من أن تخدش ، وهيبته من أن تمس ، وقد يحدث فى بعض الأحيان أن يتصدى رجل ذو مكانة فى العائلة لعميد الأسرة ، يجرحه ويعيب سلوكه فى العائلة ، محاولا أن ينتزع منه ما يتمتع به فى العائلة من نفوذ واحترام ، فتنقسم العائلة إلى قسمين يسعى كل منهما إلى إيذاء الفريق الآخر والنيل منه بشتى الأساليب .

ويقطن القرية قسم آخر ، هم الأجراء النازحون الذين يلتمسون الرزق ، ويطلبون العيش ، وهؤلاء يعيشون فى كنف العائلات التى تشبعهم من جوع وتكسوهم من عرى ، وتحميهم وتؤويهم ، وقد تكون أجورهم يسيرة لاتفى بحاجاتهم ، ولكنهم يستطيعون أن يؤموا منازل العائلات ، ويخرجوا منها محملين بخيرات الله من حبوب وألبان وزبد وجبن وخبز طازج ، ومتى كانت زوجة الأجير نشيطة أمينة مطيعة ذكية استطاعت أن تجنى من بيوت العائلات الخير الوفير . وأبناء الأجير أو (المرابع) يستطيعون أن يعيشوا مع صاحب الأرض فى منزله إذا رعوا دوابه يخرجون بها أول النهار ويعودون بها إذا غربت الشمس ، ويقدمون لها العلف فى المنزل ، ويفرشون حظائرها بتراب جاف ، ويؤدون بعض الخدمات المنزلية لرب الأسرة ، وهم فى نظير ذلك يأكلون ويكتسون ويتقاضون أجراً يساعدون به آباءهم أو أمهاتهم ويسمون بـ(الكلافين) .

وأهل القرية شغوفون بالسمر وأحاديث الليل وأقاصيص الأبطال فتراهم يتجمعون على المصاطب يستمعون بشغف إلى قصة أبى زيد الهلالى أوعنتر بن شداد أو دياب بن غانم ، من قارئ فى كتاب ، أوشاعر على (رباب) والمتعلمون منهم يهتمون بقراءة الصحف والمجلات ، ويتناقشون فى السياسة ؛ وإذا زرتهم سألوك عن رأيك وناقشوك الحساب ، وفيهم ذكاء عجيب وفهم دقيق ، فقد يحرجون المتعلم ، ويلجمون الأديب .

العادات والتقاليد

أهل الشرقية أهل جد وعمل ، لاأهل بطالة وكسل ، يمقتون من يحاول التسكع على المصاطب ويسلقونه بالسنة حداد ، ولذلك لاتجد فيهم إلا مقبلا على عمله ، تدفعه الغيرة إلى خدمة أرضه ، ورعاية زرعه ، حتى يكون حقله خير الحقول غلة ، وأوفرها محصولا .

وفى لغتهم صرامة وقوة . وفى أدائها عنف واندفاع ، تلك طبيعة وجبلة فى أهل القرى ، وهى (عند من يخالطهم) لاتنافى كرم عشرتهم ، ولا تطعن فى شرف خصالهم .

وأهل الشرقية معروفون بالكرم ، يبيتون على الطوى ويكرمون الضيف ويحسنون إلى الغريب لايفطرون فى رمضان إلا أمام منازلهم ، لعل عابر سبيل يأوى إليهم ، أو جائعا يمر بهم ، وفى الشرقية يعيش الضعيف فى كنف القوى ، والفقير فى رحاب الغنى . وللناس فى كرمهم أساطير وأقاويل ، يظن كثير من الناس أنها من صنع الخيال ومن ذلك قولهم : إن أهل الشرقية استضافوا القطار ، وقدموا له الطعام والشراب ، ولفائف التبغ وهذا حق لامرية فيه ، ولازال أحفاد هذا (العمدة) الكريم يتفاخرون بأنهم (عازمو الوابور) . وذلك أن الحكومة المصرية كانت قد أنشأت أول خط حديدى يمر ببلدة « كياد » ، ففرح العمدة بهذا الحدث الجديد ، واستوقف القطار واستضاف السائق وراكبي القطار . وهم كثيرون – وبالغ فى إكرامهم فرجعوا إلى بلادهم وألسنتهم تلهج بالثناء عليه .

وفى المآتم حيث يكثر الغرباء يخرج أهل القرية جميعا إلى مكان المأتم ظهرا ومغربا فى انتظار موائدهم وعليها من ألوان الطعام ما أفرغوا فى إعداده غاية الجهد، وحول هذه الموائد يلتف الغرباء من المعزين. وأهل الشرقية أشد الناس تصديقا بالخرافات وإيمانا بالأوهام ؛ فالطفل إذا لم يعش إخوته من بعده اعتقدوا أن روحه شريرة وأن علاج هذه الروح لا يكون إلا بفضيحة هذا الغلام. ويعدون لهذه الفضيحة عدتها ، فيجمعون من ريش الدواجن ما يصنعون به تاجا يضعونه فوق رأسه ثم يركبونه حمارة ظهره إلى وجهها ممسكا فى يده اليمنى بريشة دجاجة وبيده اليسرى قرص جاف من روث البهائم ، ثم يتظاهر بأنه يكتب على القرص بهذه الريشة .

كل ذلك وأطفال القرية يحيطون به ينادون بحناجرهم الفتية (يابو الريش إنشا الله تعيش) وقد يسألون هذا الطفل « هل أنت ناطح أم رافس » ؟ يريدون « هل تنطح كما ينطح الثور ؟ أو ترفس كما يرفس الحمار ؟ » .

ويلزمونه بجواب ينطق به مكرها غير مختار ، فإن قال « أنا ناطح » وشموه بوشم أخضر فى منبت شعره فوق جبهته ، وإن قال « أنا رافس » وشموه بوشم أخضر فوق عقبه الأيسر ، وإن قال « أنا رافس ناطح » وشموه فى الموضعين معا .

ولأبناء القرية ألعاب محببة إلى نفوسهم يعشقونها ويواظبون عليها فى بيادر القرية : منها لعبة « الحكس » وهى كرة فى حجم كرة القدم مصنوعة من رقاع بالية ملفوفة فى قطعة من الخيش حيكت بخيوط غليظة ويتقاذف هذه الكرة فريقان بعصى غليظة معقوفة ، من أغصان الشجر ، وكثيرا ما يختلقون روايات يمثلونها خير تمثيل حتى لكأن التمثيل « فن درسوه وحذقوه » .

هذا ياقارئى العزيز هو ريف الشرقية بلدنا الحبيب فى اختصار ألجأنى إليه المقام ، ولست أجدنى فى حاجة إلى تنبيه القارئ إلى ما صارت إليه الشرقية فى هذه الأيام من نهضة تعليمية مباركة شملت جميع القرى وسائر البلدان ، ساهمت فيها سهولة المواصلات وإيمان الناس بضرورة التعليم، وباركها الفاروق عاهل الشرق ومليك وادى النيل ، أيد الله ملكه ، وأعز جنده ، ورعاه .

عبد المقصود السيد راس

المدرس بمدرسة الجمعية ببور سعيد

الزى منذ عشرين عاما :

بنت الريف بالشرقية

منذ عشرين عاما تقريبا وبنت الريف المصرية ـ والشرقية على الأخص ـ رهينة حجابين في حياتها: حجاب المنزل لاتبرحه، وحجاب البرقع لاتسفره، فإذا خرجت من منزلها ـ ولاتخرج إلا نادرا ولأمر مهم ـ كانت كتلة سوداء متحركة ملفوفة في دثار أسود من قمة رأسها إلى أخمص قدمها هو عبارة عن ثوب من الحرير (المكرش الشهير بالشماري) أو الكتان المصبوغ .

وقد طرحت على رأسها سابريا (شاشا) أسود من الحرير اللامع الرقيق تحته منديل زاهي اللون مطرز الحواف يعصب شعرا فاحما طويلا ظهرت منه إلى الخلف جدائل مضفرة السابت على ظهرها وقد ربطت أطرافها بشرائط حريرية ملونة قد تتدلى منه حلى ذهبية تعرف (بالصفا) .

وقد غطت وجهها بنقاب أسود من جنس الثوب قد ازدان بثلاثة شماريخ من قطع الذهب المستديرة المسماة (بالمجر أو البندق أو الغوازى) عند الغنيات ، أو من النحاس المموه بالذهب عند الفقيرات . تعلوها قصبة غليظة من الذهب تحاذى أرنبة الأنف وتغطيه إلى أسفل الجبين بين الحاجبين تقتعد قطعة من المرجان الأحمر توسطت بندقتين من الذهب الوهاج .

وقد زينت الجبين وموضع اللمتين بحلى ذهبية تسمى (العوايق) على أن هذا النقاب وإن كان يحجب الوجه كله إلا أنه ترك مكان الباصرتين مكشوفا حيث تطل عينان نجلاوان تكحلتا بالسواد الإلهى أو الصناعى ذواتا أجفان وطفاء . جمال ساحر اشتهرت به الريفيات بالشرقية ورثته عن قدامى المصريين والعرب الوافدين .

وقد تدلى من جيدها على صدرها قلادة ذات أوشحة وشماريخ متعددة من الذهب الخالص أو عقود من العقيق أو المرجان أو الكهرمان الأصفر أو الخرز أو الزجاج الملون .

وتحلى معصميها بأساور ذهبية أو زجاجية وكاحلاها بخلاخيل فضية أو حديدية أو ذهبية . (كما في شكل ٥



(شكل ٥)



وتدلى من شحمة كل أذن
قرط كالسوار الذهبي كبير

وليس هذا الزى تلبسه كل الريفيات بالشرقية بل هذا كان خاصا بالغنيات منهن ، أما الفقيرات فكن سافرات الوجه على عكس مانراه هذه الأيام . إذ تسابقت الغنيات إلى السفور وبقيت الفقيرات جامدات إلا قليلا عند الحجاب .

وليس هذا الكلام كذلك ينطبق على جميع قرى الشرقية بل إن بعضها كان السفور فيه زيا عاما لنسائه وبعضها كان الحجاب خمارا فضفاضا طويلا عريضا تشد عليه الشرقاوية حزاما من الصوف المجدول وعلى رأسها تطريحة من القماش الأسود المطرزة حواشيه بخرز أحمر وقطع معدنية ، وهذا هو الزى الغالب عند الأعرابيات .

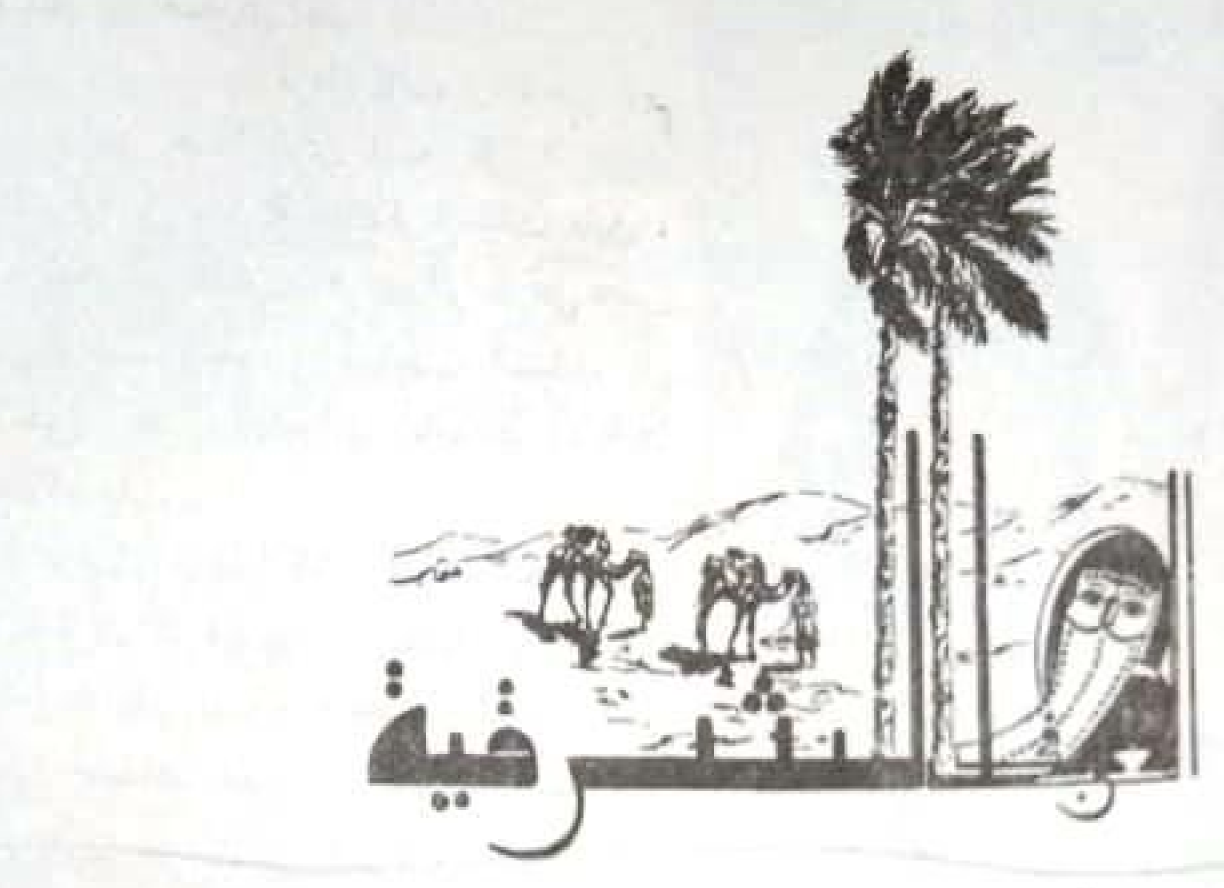
ولكن لما غزا العلم القرى وداخلتها الحضارة وارتفعت مستوى المعيشة فيها واقتربت القرية من المدينة بطرق المواصلات الحديثة تطلعت الريفية إلى أفق من الحضارة محدود ، فقلدت المدنية فى بعض أمورها ومنها زيها وملابسها فكشفت عن وجهها بالتدريج وقصرت من ثوبها فحسرته عن ساقيها ونزعت الخلخال .

وصار من يراها لايشك فى أنها الحلقة الأولى البدائية فى التحضر والمدنية ستعقبها حلقات وأدوار لاتلبث فى نهايتها أن تشابه أختها المدنية ، وإن كانت الأخيرة قد تراجعت فأطالت من ثوبها وحجبت بعض رأسها وأخذت تدخل فى دور من الاحتشام حميد كما فى (شكل ٧٠٦) .



(شكل ٧٠٦)

لبيبة المسلمى
ناظرة المدرسة الثانوية للبنات بالزقازيق



أقصد بالعرب فى كلمتى هذه أولئك البدو الرحل الذين وفدوا على مصر من شبه جزيرة العرب بعد فتح عمرو بن العاص لمصر فى فترات متفاوتة ثم استقروا فيها إلى الآن أو قطنوها مدة ورحلوا عنها ثم عادوا إليها ولكن معظمهم حافظوا على عروبتهم وأنسابهم وأحسابهم ولم يصاهروا أهل مصر، وفوق ذلك أثبتوا عروبتهم أمام لجان فحص العربان فى سنتى ١٩١٠، ١٩١١ وهى لجان شكلت من عمد القبائل ومن رؤساء مجالس القرعة وكانوا يثبتون اسم كل فرد وبصمة أصابعه: وقد يسألون الكبار منهم عن أنسابهم وأحسابهم أو عن أعمال العرب الدقيقة، فإن عجزوا سقطت عروبتهم.

وكان هؤلاء العربان سواقط قيد ثم جعلت لهم دفاتر خاصة لقيد مواليدهم ووفياتهم فى البلاد والمديريات وذلك ابتداء من سنة ١٩٠٦ وقد أحصوا إحصاء تقريبيا فى سنة ١٩٠٤ ومع ذلك فنهم من لم يزالوا منتشرين فى الصحارى والمراعى والحدود الشرقية والشمالية لمديرية الشرقية، وهم رحل غير مستقرين ولا مقيدين.

وهذا لا يمنع من وجود قوم فى مصر أصلهم من شبه جزيرة العرب ولكنهم لم يهتموا بإثبات عروبتهم أمام لجان فحص العربان المذكورة فضاعت وأصبحوا مقيدين كبقية المصريين.

هجرات العرب:

فى مدة فتح عمرو بن العاص لمصر كانت قناة السويس غير موجودة وكانت جل وسائل الرى غير متوفرة والقناطر والسدود والخزانات الموجودة الآن فى الشرقية غير مقامة وكان النيل يغمر البلاد مدة الفيضان فإذا انحسرت المياه بعد الفيضان تركت مستنقعات وأراضى مغطاة بالبردى والكلأ والحشائش الصالحة لرعى الأغنام والماعز والإبل والخيل فى معظم أراضى الشرقية وبخاصة الشمالية والمجاورة للصحراء منها، فشجع ذلك القبائل العربية بعد الفتح على الرحيل إليها لقربها من بلاد العرب وأخذوا يتنقلون فى ربوعها طلبا

للرزق ولم يجدوا فارقاً كبيراً بين صحارى الشرقية ومراعيها ومناخها وبين صحارى بلادهم ومراعيها ومناخها واستوطنوا وأخذوا يرعون ويتاجرون ويفلحون الأرض ويزرعونها وساعدهم على ذلك أن أغنامهم وماعزهم وإبلهم وخيلهم كانت تقطع الحشيش وتسمد الأرض فتجعلها صالحة للزرع، ولذا كان من أقوالهم المأثورة عن الغنم (إن فى جرتها سلاسل الذهب) يعنون أن الغنم تدر الخير بنتاجها وصوفها ولبنها، وفوق ذلك تخصب الأرض فتصلح للزرع وإن كان فى ذلك تضييق على رزقها وتتسع الأراضى الزراعية، وإلى عهد قريب كان كثير من الفلاحين يقدمون الأراضى المنزرعة بالبرسيم الأخضر والقطن بعد جنيه والقمح والفول والشعير بعد حصادها للأعراب من أصحاب الأغنام والإبل فيرعونها بدون مقابل نظير تسميد الأرض — وبعد الفتح استوطن كثير من العرب فى الجهات الشرقية من مصر واستمروا بعد ذلك يفدون وينتقلون ويستوطنون حتى كانت أواخر أيام الدولة العباسية إذ سادت الفوضى أرجاء الدولة العربية وحل القحط بمصر فرحل بعض القبائل من الشرقية ومن مصر كلها إلى الغرب وبخاصة طرابلس ؛ ولما عاد الأمن والرخاء إلى مصر فى عهد الفاطميين عاد بعض القبائل إلى مصر، ومنذ ذلك العهد يسمى العرب الذين لم يرحلوا إلى الغرب عرب الشرق والذين رحلوا وعادوا إلى مصر عرب الغرب، ومن القبائل التى رحلت إلى الغرب وعادت وأصبحت من عرب الغرب قبيلة الهنادى ومنها الطحاوية وسمالوس التى سميت بهذا الاسم نسبة إلى وادى سمالوس ببلاد المغرب .

وبقيت الحال على ذلك حتى سنة ١٠٩هـ و (٧٢٨م) إذ أحضر ابن الحبحاب وهو أحد حكام مصر فى ذلك الوقت مائة بيت من قيس وأقطعهم أرضاً فى بلبيس وزودهم بالخيل والإبل ثم ناط بهم حراسة القوافل بين ساحل البحر الأحمر وداخل البلاد وأفادوا من ذلك الربح الواسع مما جذب بيوتاً أخرى من قيس لتلحق بهم حتى صاروا فى عام واحد ١٥٠ بيتاً فى بلبيس وضواحيها، وقد تحولوا بعد ذلك إلى قطاع للطرق وقاموا بثورة لمقاومة زيادة الخراج، وفى أواخر الدولة الفاطمية حوالى سنة ٩٧٥ م قامت حرب بين بعض القبائل فى الشرقية وغيرها وبخاصة بين قبيلتى طى وجذام .

وبعد سقوط الأمويين وقيام العباسيين كافأ السفاح العباسى حوالى سنة ١٣٥هـ بنى هلال وسليم التى يرجع إليها نسب عرب الطحاوية وسمالوس بالشرقية بمنحهم منطقة بلبيس وذلك لانضمامهم إلى صفوفه ومحاربتهم تحت رايته ضد الأمويين فى موقعة الزاب، وقد اندمج بنو هلال وسليم بعضهما فى بعض حتى كانت سنة ١٠٤٥م بدأت قوة الفاطميين فى الاضمحلال وثار عليهم المعز بن باديس زعيم بربر صنهاجة فأرسل الخليفة المستنصر سنة ١٠٤٩ م إلى بنى هلال وسليم ليمنحهم أرض المغرب، وكان غرضه من ذلك تخفيف وطأة القحط الذى كان منتشراً فى ذلك الوقت على المصريين بتقليل عددهم كما كان غرضه أيضاً تأديب الثوار من المغاربة لخروجهم عن طاعته وشق عصا الطاعة ضده فهاجر كثير من العرب وبخاصة عرب الشرقية إلى شمال أفريقية وذهبوا كالجراد المنتشر تحت رياسة بنى هلال وهناك قاومهم ابن باديس ولكن مقاومته لم تفلح فى طرابلس وتونس وتصاهروا مع القبائل البربرية وامتزجوا بهم على طول السنين وتحولوا على مر الأيام إلى ما يسميه الإفرنج الآن المورز (Moors) ويعنون بهم المغاربة .

وقد ظهرت فى هذه الحرب شخصية الزناتى خليفة والسفيرة عزيزة وأبى زيد الهلالى سلامة ذلك البطل المغوار وصاحب الأساطير المعروفة والأشعار الدارجة الشعبية والشهرة الذائعة بين عرب مصر والسودان حتى أنهم يتغنون بشجاعته وبطولته وخاصة على الرباب .

وبعد استتباب الأمن لقبيلتى هلال وسليم فى الغرب قامت بينهم منازعات كمادتهم فهزمت سليم بنى هلال ولم تقم لهم قائمة إلى اليوم واندمجت البقية الباقية من بنى هلال فى قبائل أخرى .

وفى عهد صلاح الدين الأيوبى كان لقبيلة جذام عدة إقطاعات منها هربيط وتل بسطة وغيرها ، وكانت فاقوس وما حولها لطلبا سويد، ومع أن العرب كانوا ينظرون إليهم على أنهم خليط من العرب وغيرهم ولا يقدرونهم حق قدرهم إلا أن جماعة منهم أمروا بالبوق والقلم : أى أصبحت لهم الكلمة فى الجيش والديوان .

ولما فتح صلاح الدين الشام انتقلت طائفة من قبيلة ثعلبة ونزلوا بالشرقية وكان فيهم رجال ذوو نباهة وصيت بعيد خدموا الدولة ومنهم من أمر بالبوق والقلم .

وفى عهد المماليك قام العرب فى الشرقية وغيرها بثورات كثيرة وقتل منهم عدد كبير . فنى سنة ١٢٥٤م أيام سلطنة المعز أيبك التركمانى أنف حصن الدولة وهو من كبار العرب وقوادهم من سلطنة المماليك هذا إلى أن العرب كانوا موالين للأيوبيين فأشعلوا نيران الثورة على إثر مقتل توران شاه على يد المماليك بعد موقعة المنصورة ضد الفرنسيين . فثار حصن الدولة هذا ومعه كثير من عرب الشرقية وغيرها فخرجت إليهم الأتراك وحاربوهم عند دهروط فانهزم العرب شر هزيمة وقتل منهم الرجال وأسرت النساء ، ومن وقتئذ تفرقت العربان وخمدت جمرتهم ، ثم إن حصن الدولة طلب الصلح والدخول تحت الطاعة فقبل منه المعز ذلك ووعده بإقطاعات له ولرجاله على أن يكونوا من ضمن الجيش ويحاربوا معه ضد الأعداء. فاغتر حصن الدولة ونهض برجاله إلى بلبيس فلما قرب من خيمة الملك ترجل عن فرسه فلم يلبث أن قبض عليه الجند هو ومن معه وكانوا ألف فارس وستمائة راجل ونصبت لهم المشانق مابين بلبيس والقاهرة وصلبوا جميعا عدا الأمير الذى أرسل إلى الإسكندرية وسجن بها ، وأمر المعز أن يعامل العرب بالقسوة والشدة فذلت نفوسهم وضعفوا وخضدت شوكتهم ونقص عددهم كثيراً .

وسبب غدر المعز بالعرب يرجع إلى ظهور قوة ذات بأس فى بلاد العراق وهى قوة المغول (التتار) بقيادة هولاكو وكذلك قوة الصليبيين فى بلاد الشام فوجود هاتين القوتين كان دافعا للمعز على الانتقام من العرب ليطمئن على ملكه فى الداخل إذ عزم على الخروج لملاقاة أعدائه فى الشام ولكنه مات قبل ذلك فتكفل بهذا العمل خلفه الملك ، قطز ، الذى هزم المغول فى موقعة عين جالوت سنة ١٢٦٠ م .

وفى عهد الحكم العثمانى قام عرب الشرقية وغيرهم بثورات كثيرة تحت قيادة ابن بقر ، وكثيراً ما كانوا يهربون إلى فلسطين والشام .

وفى عهد الحملة الفرنسية كان العربان يستفيدون من حمل المكاتبات السرية من أدهم بك زعيم المماليك إلى أنصاره فى القاهرة وذلك نظير أجور كبيرة ، كما أنهم - وخاصة عرب الشرقية - كانوا عضدا لنابليون فى حملته على الشام لأنهم قدموا له إبلهم فاستخدمها كوسيلة نقل هامة .

وفى عهد محمد على باشا كان عرب الشرقية خاصة والعرب عامة قد بلغوا من الجبروت والبأس غايتهما حتى كانوا يغيرون على أراضى الفلاحين ويفرضون الإتاوات على الأهالى وكان لايجرؤ أحد على زيارة الأهرام إلا برضاهم وأمرهم وكانت القوافل التى تجتاز برزخ السويس تدفع لهم الضريبة الباهظة من المال فسلك معهم محمد على مسلك المهادنة أولا ثم عقد معهم الاتفاقات فهتكوا ستارها فعول على قمعهم بالقوة وتأديبهم فسير إليهم المشاة والفرسان حتى اضطرهم إلى التماس الصلح واشترط أن يسكن كبار زعمائهم وشيوخهم مدينة القاهرة كرهائن وأجرى عليهم الأرزاق والمرتبات لمعاشهم فهدأت ثائرتهم .

ولما عاود محمد على باشا حروبه فى بلاد العرب ساهم عرب الشرقية وسينا فى هذه الحملة بنصيب أكثر من غيرهم إذ قدموا له الخيل ودربوا له الجند على طريقة الكر والفر المعهودة فى الحروب عند الوهابيين . وفى هذه الحملة وحملة السودان والشام عرض محمد على باشا على عرب الشرقية وغيرهم تشكيل فرق منهم واقترح أن يدفع لهم الأجور إزاء خدمتهم على شرط أن يأتى كل منهم بفرسه وبندقيته وكانت كل قبيلة ترسل عدداً من رجالها الأشداء تحت إمرة رئيس منهم يطلق عليه الصارى وكان بمثابة قائد لهم . وكان محمد على باشا يجزل لهم العطاء لما كان يلمس فيهم من شجاعة وإخلاص وتضحية وقد منحهم ما يسمى امتياز العرب ، وهو تعهد يعفى العرب من التجنيد الإجبارى ومن حراسة جسور النيل ومن السخرة وحفر الترع وإقامة الجسور وذلك نظير وعد العرب بتقديم الجند عند الطلب بوساطة عمد القبائل . وقد ألغى هذا الامتياز بعد صدور القانون الجديد بالتجنيد الإجبارى فى ٨ سبتمبر سنة ١٩٤٧ .

وقد منح محمد على باشا العرب أراضى زراعية سميت إنعامات وذلك بدون ثمن نظير دفع ضريبة (أكياس) من النقود أو قدر من المحصولات الزراعية ، وقد طلب إلى عرب المشارقة حراسة حدود مصر .

وقد أفادت هـــذه الفرق الجيش من الوجهة العسكرية فكانت عليهم مهمة استطلاع العدو ومطاردته فى أثناء الهزيمة وعند التقهقر وهم الذين أسروا رشيد باشا فى موقعة قونية .

وكان العرب فى عهد محمد على باشا يخفرون الدروب وطرق القوافل ويحملون البريد والمعدات ، وكانوا خبراء فى معرفة الطرق والمسالك والدروب .

وقد ساعدوا محمد على باشا مساعدة كبيرة فى حرب الوهابيين والسودان واليونان والشام ولازال أحفاد عرب الشرقية يذكرون ماسمعوه من أجدادهم من أنهم حجوا بيت الله الحرام فى حرب الوهابيين (وطيوا أى فتحوا) عكا فى حرب الشام وأن بعضهم قضى مالا يقل عن عشر سنوات فى جنوب الوادى فى حرب السودان وتزوجوا من السودانيات وأنجبوا خلفا ، ومن هؤلاء الأجداد عامر ويونس وكريم ومجلى من الطحاوية والحاج عبد الله محمد من عائلة جمعة من سمالوس .

ولما أتى عباس باشا الأول غضب على بعض القبائل فى الشرقية فأدى ذلك إلى ارتحال هذه القبائل إلى الشام وأعطيت أملاكهم فى الشرقية إلى أعدائهم من العرب نكاية بهم . ولكنهم عادوا إلى أملاكهم ثانية فى عهد سعيد باشا ، وفى أثناء وجودهم فى الشام عين مجلى سليمان الطحاوى قائدا فى الجيش العثمانى .

ولما ظهرت العملية والسخرة فى حفر الترع وإقامة الجسور ومد السكك الحديدية ، ولما كان العرب لم يألفوا هذه الأعمال ولم يألفوا الشدة والضيم ترك بعضهم ديارهم وأملاكهم وهربوا إلى جهات مختلفة فى مصر أو فى غيرها خشية ألا يراعى امتيازهم ويساقوا ضمن المصريين .

وعند ماقامت ثورة عرابى باشا (هوجة عرابى) اندفع العرب بسليقتهم وميلهم للحرب وانضموا إلى جانب الثوار وقاتلوا فى كفر الدوار وعند القنال والتل الكبير .

وهناك رواية كاذبة متعلقة بعرب الشرقية انتشرت كنتيجة لهزيمة عرابى فى التل الكبير ، وهى أن بعض العرب ممن كانوا حرسا على الجيش ليلا ارتشوا من الانجليز وأخلوا لهم الطريق . ولكن لم يقم على هذه الإشاعة دليل رسمى كما كذبها كثير ممن عاصروا تلك الثورة ، وكذلك لم يظهر أثر للرشوة على العرب مما حدا بمروجى هذه الاشاعة إلى القول بأن الانجليز غشوا العرب بأن أعطوهم أكياسا فى أعلاها قطع ذهبية ، وفى داخلها قطع نقود من البرنز . ومما يدل على أنهم كانوا مندمجين فى الجيش ولم يكلفوا بالحراسة بل كانت الحراسة متروكة لغيرهم أمثال على خنفس الخائن المعروف أن غالب الطحاوى بك ، وكان فى ذلك الوقت عمدة عموم قبيلة الهنادى ، وكان قائداً على قوة عرب الشرقية ضمن جيش عرابى ، وجرح فى موقعة القصاصين ، كما أن أخاه مجلى الذى حل محله فى قيادة الصارى جرح فى موقعة التل الكبير .

وقد اقتنع بعض عرب الشرقية بالمنشور الذى أصدره الخديوى معلنا عصيان عرابى باشا وأتباعه وانحازوا إلى جانب الخديوى كما فعل بعض كبار المصريين ، ولكنهم لم يخونوا عرابى باشا لأن الغدر والخيانة ليست من شيم العرب .

وحين اعتزمت الحكومتان المصرية والانجليزية استرجاع السودان نظم العرب فى الشرقية وغيرها فرقا لمساعدة الحملة ، وكان عبد الجليل غالب الطحاوى صاريا فى هذه الحملة .

وفى الأيام الأخيرة قبل أن تتعهد الحكومة المصرية بخفارة المحمل ذهابا وإيابا كان عرب الشرقية والقليوبية بالتناوب يقدمون الإبل للمحمل .

عرب الشرقية والثورة المارسية سنة ١٩١٩ :

كان لعرب الشرقية فى هذه الثورة أثر يذكر ، إذ اجتمع فى مارس سنة ١٩١٩ عدد كبير منهم فى ناديهم المحبب إليهم وإلى آبائهم ألا وهو القمة من هاتيك الصحراء المتسعة الأرجاء والواقعة الآن بمركز أبو حماد .

اجتمعوا لاليسمروا ولكن ليستمعوا إلى شاب منهم كان يدرس العلم بالأزهر الشريف ، وهو الطالب محمد سلطان ابن شيخ العرب محمود أبو القاسم سلطان عمدة القبيلة . فما إن بدأ خطيبهم الشاب يقص عليهم بعض نوايا الإنجليز وما هو صائر وقتها فى البلاد حتى هاجهم ماسمعوا وقاموا لساعتهم قاصدين السكة الحديدية طريق القاهرة بور سعيد ، وكان عددهم حوالى الخمسة آلاف بين شيوخ وشبان . وكان بينهم شيخ ضرير مازال على قيد الحياة ، وهو من قبيلة الجوازى واسمه عبد الله خالد صالح ، وقد طلب من هذا الشيخ أن يستريح ويريح فرفض ، وقال : إن كنت ضريرا فإن لى سواعد وأكتافا تستطيع أن تؤدى ماتؤدون ، ورافق القوم فى هجمتهم هذه والهجمات التى تلتها . هنا أيها القراء تتزاحم الأفكار فى تصوير حب الجهاد

وخالص الفداء، ولكن ليس هنا وقته. ولأعد بالقراء إلى ما أذكره عن الهجمة الأولى إذ وصلت الآلاف إلى السكة الحديدية لقطع تموين القوات البريطانية فى القاهرة وعزل هذه القوات عن بعضها، وكان قد تقرر أسر عمال الدريسة والاستيلاء على ماق مخازنهم من مفاتيح وآلات. وابتدأت الهجمة يقودها الطالب الأزهرى وقطع العرب ومعهم الشيخ الضرير مسافات طويلة من السكة الحديدية، وأتلفوا أسلاك التليفون والتلغراف وأعمدتها وذلك بين التل الكبير وأبو حماد. وفى أثناء العمل قدم قطار تموين (بضاعة) يسير ولا يدرى ما أحدثه العرب فى الطريق فهوت القاطرة ومن ورائها عربات كثيرة فى أرض منخفضة وعف العرب، وفيهم الكثير من الفقراء، عن أن تمتد أيديهم إلى الخيرات التى ملأت الأرض من محتويات هذا القطار وقالوا يومها إننا ماجئنا لنسرق أو لننهب، ولكننا جئنا لنعطل الطرق ولنسمع الرأى العام المتمدن ما نقوم به ولا نريد أن نشوه حركتنا.

جن جنون السلطات البريطانية خصوصا، وقد قيل وقتها إن السلطات المصرية بدا فيما يحدث من تخريب فتكفلت القوات البريطانية بالحراسة، ولكن هذا غير مانع للعرب مما أصروا عليه. فاجتمعوا فى الصحراء وجمعوا جمعهم الثانية على الطريق من أبو حماد إلى أبو الأخضر يقودهم الطالب الأزهرى بعد أن أعد قوة من العرب لمنازلة الإنجليز وأعد الآخرين لقطع السكة الحديدية وإتلاف التليفونات والتلغرافات. وابتدأت القوة عملها وابتدأت قوة الحراسة الانجليزية تهاجمها فتردها القوة العربية المدافعة إلى أن قتل من الانجليز أربعة وجرح عدد كبير كما جرح من العرب كثيرون بجراح خفيفة إلا أن القائد الشاب كانت جراحه خطيرة فسقط فى الميدان، وقبض عليه من بقى من القوة الإنجليزية، وبعد أن شفيت جراحه قدم للمحاكمة العسكرية فحكمت عليه بالإعدام، وبعد أن مكث نيفا وعشرين يوما ينتظر تنفيذ الحكم صدر الأمر بتعديل الحكم إلى الأشغال الشاقة المؤبدة، وبقى فى سجنه إلى أن صدر العفو عن المسجونين السياسيين فى ١١ فبراير سنة ١٩٢٤



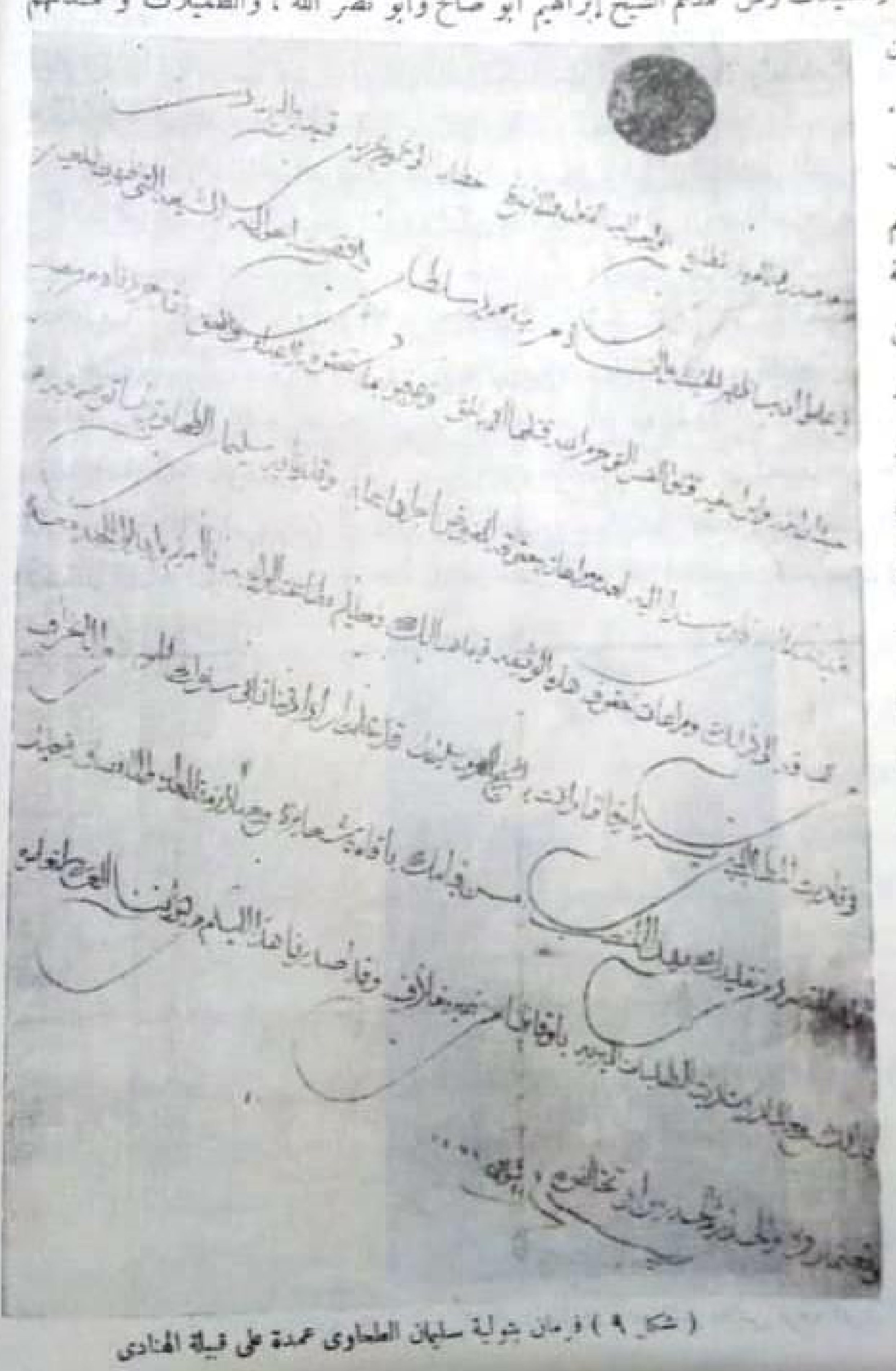
(شكل ٨) الحاج محمد محمود سلطان وهو يلبس ملابس عرب الغرب

قبائلهم فى الشرقية :

ومن أشهر قبائل العرب فى الشرقية الهنادى، وهى تتفرع إلى بيوت منها الطحاوية وهم منتشرون فى المديرية ومن عمدهم محمد بك سعود والحاج عبد الحميد راجح، وبيت مسالوس ومن عمدهم الشيخ جوده خليفة أبوغيث، والبهجة بجهة فاقوس ومن عمدهم الشيخ محمد صيدة والشيخ عبد المطلب جايل، والفواخر وعمدتها الشيخ عبد السلام رشوان، والأفراد بجهة ههيا وعمدتهم أبو زيدان، وأسلم بجهة كفر صقر وعمدتهم الشيخ حسين عبد السميع ، والنفيعات ومن عمدهم الشيخ إبراهيم أبو صالح وأبو نصر الله ، والطميلات وعمدتهم أبو بغدادى والياضيين وعمدتهم أبو مرزوق .

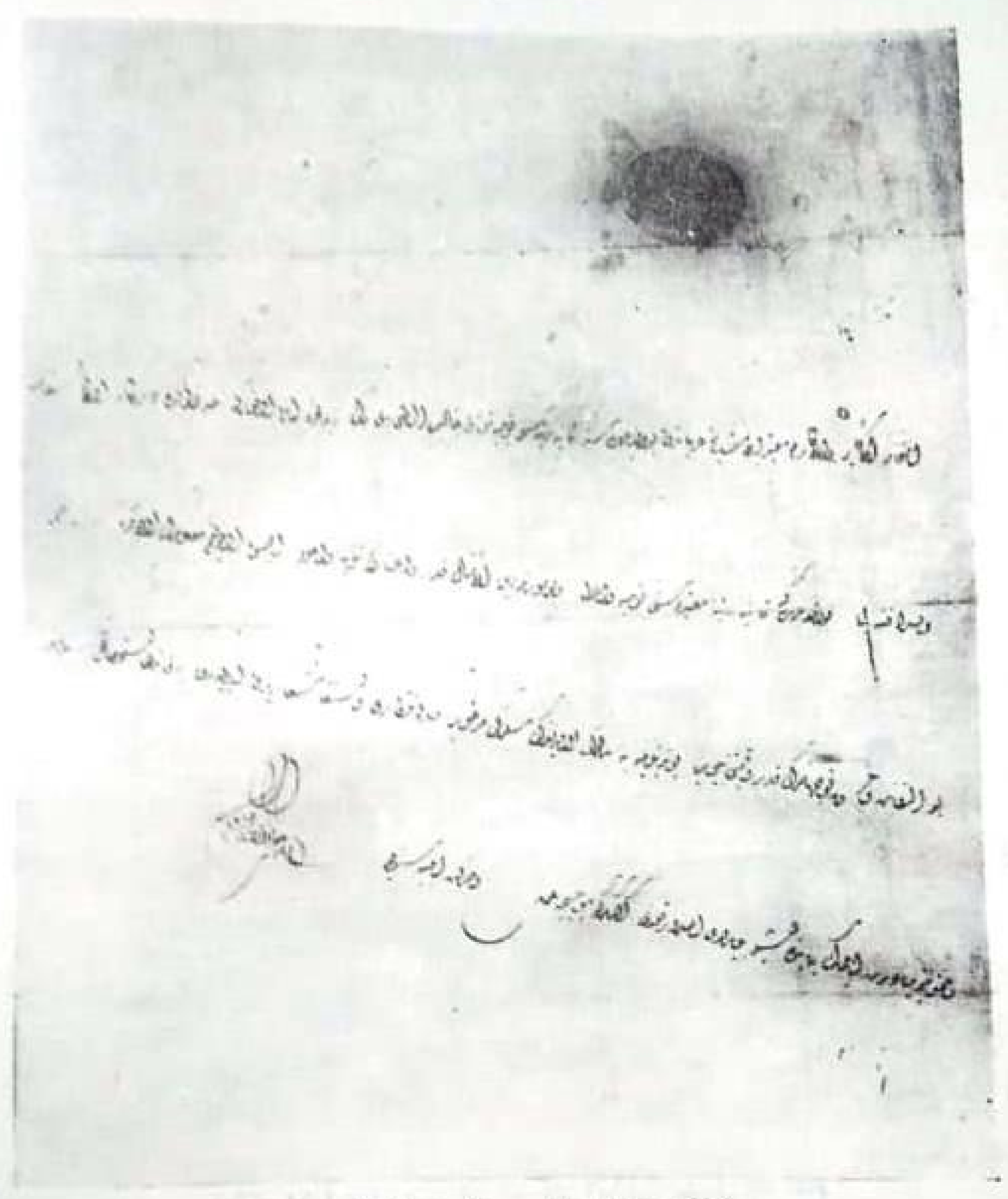
وهذه القبائل الثلاث من المشارقة ، وهتيم وعمدتهم الحاج سلامة شاهين ، والسعديون وعمدتهم الشيخ عبد الحميد شلبى ، وأولاد موسى وعمدتهم محمد بك بدران ، والأحارسة وعمدتهم الشيخ عبد السلام عطوان ، وبلى والضعفا ، والعبابدة ، والسماعنة ، والصوالح ، والحرابى .

وكان تعيين العمد وعزلهم وكذلك تعيين صارى الجيش بفرمان كما هو مبين بهذه الفرمانات الثلاث .



(شكل ٩) فرمان بتولية سليمان الطحاوى عمدة على قبيلة الهنادى

(شكل ١٠) فرمان بتولية بجلى الطماوى قائدا فى الجيش فى إيالة الشام



(شكل ١١) فرمان بمنح غالب بك الطحاوى رتبة بك

عددهم :

يبلغ عدد عرب الشرقية بحسب تعداد سنة ١٩٣٧ نحو ٩٣١٩ ومحافظة القنال ٣٠٨ ومحافظة سينا ٢٢٩ ، وهذا بخلاف العرب الرحل البالغ عددهم ١٢٠٠٠ نفس ، ويبلغ عدد العرب فى القطر المصرى بحسب تعداد سنة ١٩٢٧ م نحو ٧٧٦٨٦ ، ولكن عددهم فى الشرقية وفى مصر أكثر من ذلك بكثير .

معيشتهم :

فى أول قدوم العرب إلى الشرقية كانوا يعيشون على رعى الغنم والماعز والإبل والخيل والمتاجرة فى نتاجها وأوبارها، وكانوا قوما رحلا يتنقلون من مكان إلى مكان طلبا للكلإ والمسرح، وكانت طبيعة البلاد حينئذ أكثر مساعد لهم على ذلك كما ذكرت، وكانوا يسكنون فى خيام يطلقون عليها (بيوت الشعر) وهذه تكبر وتصغر بحسب طاقة كل أسرة وهم بارعون وسريعون فى نصبها، وكان شبان كل بيت يرعون الأغنام والماشية ويساعدهم العبيد وبعض النسوة المسترجلات الكبيرات السن. وأما باقى النساء والبنات فيبقين فى مقر الأسرة يغزلن الصوف وينسجن منه الخيام والفرش والغطاء والملبس ويصبغنها بأصباغ ثابتة مختلفة الألوان، وكانوا يصنعون هذه الأصباغ بأيديهن بطريقتهن الخاصة التى تتوقف على مادة تسمى «الدويده»، وكان الرعاة يقومون بغزل الصوف بالمغزل فى أثناء قيامهم بالرعى، وكلهم ذوو براعة فى هذه الأعمال، وكانوا إلى عهد قريب موضع إعجاب فى هذه الصناعات لجودة صناعتها وجمالها وثبات ألوانها غير أن الحضارة قضت على هذه الحرف الآن ولم يبق لها من أثر سوى قطع من البسط (الأكلمة) التى نراها تباع الآن فى الشوارع ويقوم بصنعها بعض الأعراب الذين يسكنون أطراف المديرية، وكان على النساء المقيمات فى موطن الأسرة أن يعددن الطعام ويطحنّ الحبوب على الرحى أو الطاحونة.

أما كبار الأسرة فعليهم تدبير شئونها والبحث عن أماكن الكلإ. وكان يكوّن من بعض هؤلاء الكبار مجلس يسمى (المجلس العرفى) يقضى فى الخلافات التى تنشب بين أفراد القبيلة الواحدة أو بينهم وبين القبائل المختلفة، وقد أتى على هذه المجالس حين من الدهر كان معترفا بها من الحكومة.

ومنذ عهد محمد على باشا أخذ الاهتمام بوسائل الرى يزداد وزادت معه مساحة الأراضى المنزرعة وضاقت أراضى المراعى فرحل كثير من عرب الشرقية إلى أطراف المديرية شمالا وشرقا وجنوبا ولا يزالون حتى الآن يعيشون عيشة البداوة ومعظمهم من قبائل المشارقة والباضيين وهتيم والمعازة وهم لا يخالطون الأهالى إلا قليلا وذلك فى الأسواق عند ما يذهبون لشراء ما يحتاجون إليه من الحبوب والملابس أو فى الصيف عند ما تجدب الأرض فينزحون إلى الريف حيث يجدون المراعى وبقايا القمح والفول والشعير والبرسيم التى حصدت فيضربون خيامهم فى أقرب مكان للرعى، وقد ينزحون إلى الريف فى الربيع لشراء البرسيم الأخضر مرعى لماشيتهم.

وأما بقية عرب الشرقية فقد أصبحت معيشتهم خليطا بين البداوة والحضر، إذ يزرعون بعض الأرض ويبنون المساكن مع محافظتهم على خيامهم وأغنامهم وماعزهم وإبلهم وخيلهم يسرحونها إلى أماكن الكلأ وتعود من حين لآخر لترعى الحشائش والبرسيم وبقايا القمح والشعير والبرسيم والفول المحصود وأوراق القطن فى أراضيهم الزراعية، وعلى توالى الأيام وتقدم وسائل الرى اهتم العرب بالزراعة وأهملوا تربية الأغنام والحيوان وأصبحوا متحضرين وبعضهم يعتبر من أمهر الزراع وقد احتفظوا بقليل من الأغنام والماعز والخيل التى يكفيها البرسيم وأوراق القطن وبعض الأعشاب فى الأراضى الزراعية.

عاداتهم :

من عادات العرب فى الشرقية الكرم حتى يكلف أحدهم نفسه ما لا يطيق ليكرم ضيفه ، والأخذ بالثأر والاعتداد بالنفس والكبر وحب السيطرة وحب الظهور ، وأن يحترم صغيرهم كبيرهم حتى إنه لا يشرب القهوة ولا يدخن ولا يمزح فى مجلسه . واستمروا إلى عهد قريب جدا لا يخالطون بقية المصريين ولا يصاهرونهم ويحتقرونهم ويسمونهم « الفلاحين » ، وكثيراً ما كانت تقوم بينهم المناوشات ولكن الآن قد بدءوا يتزوجون من بناتهم ولكنهم لا يزوجون بناتهم منهم وكانوا يتفاخرون بكثرة العبيد حتى إنه على الرغم من صدور قانون منع الرق فإنه لا يزال لديهم عدد وافر منهم وسبب ذلك أن العبيد ألفوا حياتهم ولم يقبلوا مفارقتهم ، ومنذ عهد قريب كانوا يكرهون التعليم ويحتقرون من يذهب إلى المدارس ولكنهم الآن بدءوا يرسلون أبناءهم إلى المدارس ، ويوجد عدد كبير منهم فى مصالح الحكومة والمهن الحرة كالطب والمحاماة وقد أظهر بعضهم نبوغا ونباهة ، وهم لا يحبون الاشتغال بالصناعة أو التجارة .

وأما عن تعليم البنت : فهم لا يزالون ضد فكرته وهم شديدو المراس ، ولا يخضعون للقوانين بسهولة وعندهم عناد ، ويميلون إلى تسمية أبنائهم بأسماء مخيفة أو مريرة أو ثقيلة على السمع مثل « حنظل ، وغومة ، وقدغم ، وضرغام ، ومتعب ومناع » ويسمون عبيدهم وبناتهم أسماء مبشرة أو مفرحة أو خفيفة على السمع مثل فرج وسعيد وسعد ومصباح وسعدة وعزيزة وغالية ، وذلك لأنهم يعتقدون أن للاسم تأثيراً فى أذن السامع وفى إيحائه ، فنى جانب الرجل يخيف الاسم عدوه وفى ناحية العبد والمرأة يطمئن الاسم السامع ويشرح صدره وفى ذلك يقولون :

أسماؤنا لأعدائنا   وأسماء عبيدنا لنا

ويحفظ كثير منهم وصفات طبية عربية مفيدة ، ولهم ثقة فائقة فى الكى والحزام ولهما عندهم فن يجيده بعضهم وكثيراً ما أبرأ الكى والحزام ، ووصفاتهم العربية مرضى استعصى علاجهم على نطس الأطباء ، ونساء عرب المشارقة محجبات ولا يخالطن الرجال إلا لضرورة العمل ؛ وأما نساء عرب الغرب فسافرات ويخالط الكبار منهن الرجال بعد الزواج .

زيهم :

وزى العرب فى الشرقية على أنواع كثيرة ، فرجال المشارقة يلبسون الطاقية الصوف أو الوبر (والكوفية) والعقال ونساؤهم يلبسن نقابا محلى بقطع من الذهب أو الفضة ، وعرب الغرب يلبسون الطربوش المغربى الذى لا يعتمون عليه ، وبعضهم يلبس العمامة والشملة ، الحرام ، والبعض يلبس العقال والطاقية ، والكوفية ، كعرب الشرق .

وكانوا إلى عهد قريب يلبسون جلاليب من الصوف من غزل ونسج وصبغ أيديهم ، ويغلب على جميع رجال العرب لبس العباءة . ونساء عرب الغرب سافرات . ويتميز كل نساء العرب بلبس حزام عريض أحمر أو أبيض فى وسطهن . ويلبسن الحلى من الذهب أو الفضة فى أنوفهن « الشناف » ، وآذانهن وأصابعهن



(شكل ١٢ أعرابية من عرب الغرب)



(شكل ١٣ أعرابية من عرب الشرقية)

ومعاصمهن ، الدملج ، وأرجلهن ، الخلخال ، ونحورهن . وكلما كانت الحلى كبيرة وثقيلة كلما دل ذلك على ثراء لابسته ولو أدى ذلك إلى تشويه آذانهن وأنوفهن . ويتخذن الوشم الأخضر على الشفة السفلى والذقن وظهر اليدين للزينة .

لغتهم :

ولغة عرب الشرقية عربية محرفة ، وتختلف فى جهة عن الأخرى فمثلا ، يا وِلد بدل يا وَلد ويا بِنت بدل يا بِنْت والجمل بدل الجمل وهاضيش بدل ما هذا والغلا بدل الحب وغادى بدل هناك والقهوى بدل قهوة .

نظام المقاضاة عندهم :

ولعل أحسن العادات عندهم هو نظام المقاضاة . والقضايا نوعان : نوع خفيف ، وفى هذه الحالة يذهب الطرفان إلى قاض من قضاة العرب وهم أشخاص مشهور عنهم الاستقامة والصدق والعدل وقوة الحجة . وعادة لا تخلو كل قبيلة من عدد من الرجال تتوافر فيهم هذه الصفات ويرضى الطرفان بحكم القاضى وينفذونه فى الحال أو بعد مدة وجيزة يحددها القاضى . أما النوع الثانى وهو المهم إذا كانت الخصومة شديدة لسبب من الأسباب فيذهب الطرفان المتخاصمان إلى رجل محترم من أفراد القبيلة ويجتمع الطرفان فى منزله ويسمى صاحب المنزل فى هذه الحالة (ملم) أى جامع الأخصام فى منزله ، وهذا الرجل عليه أن يختار ثلاثة قضاة من رجال العرب ويعرض الأسماء الثلاثة على المتخاصمين وعلى الطرف الأول أن يختار اثنين من الثلاثة (ويعدف) الثالث أى لايقبله وعلى الطرف الثانى أن (يعدف) قاضيا من الاثنين فيكون الطرفان قد قبلا التحكيم إلى قاض واحد ثم يذهب الطرفان إلى هذا القاضى فى موعد محدد . وأول مايفعله القاضى أن يحدد مبلغا من المال يتراوح بين جنيهين أو خمسة أو عشرة يدفعها كل طرف من طرفى الخصومة ويسمى هذا المبلغ « الرزقة » وهذا المبلغ يظل عند القاضى حتى ينتهى الفصل فى الدعوى فيأخذ القاضى مبلغ المحكوم عليه ، أما الآخر فإن مبلغه يرد إليه . وهذه الرزقة يأخذها القاضى نظير ماصرف من مأكل ومشرب وغيرهما . وفى كثير من الأحيان يرفض القاضى هذه الرزقة إذا كان موسرا ، وبعد أن يقدم كل من طرفى الخصومة (الرزقة) يطلب القاضى من كل منهما ضامنا ويسمى عند العرب « الكفيل » وهذا الكفيل يقوم بكل مايتأخر فيه صاحبه . وفى يوم الجلسة يطلب القاضى من كل من طرفى الخصومة أن يختار شخصا ليدلى بحجته أمام القاضى وبعد سماع المرافعة وحجج كل فريق يصدر القاضى حكمه ، فإن قبل الطرفان هذا الحكم نفذ فى الحال أو فى مدى مدة يحددها القاضى وإذا لم يقبل أحد الطرفين هذا الحكم تحال القضية على القاضى الثالث وفى هذه الحالة ينفذ الحكم الذى وافق عليه اثنان . وهذا مجمل وجيز لنظام القضاء عند عرب المشارقة .

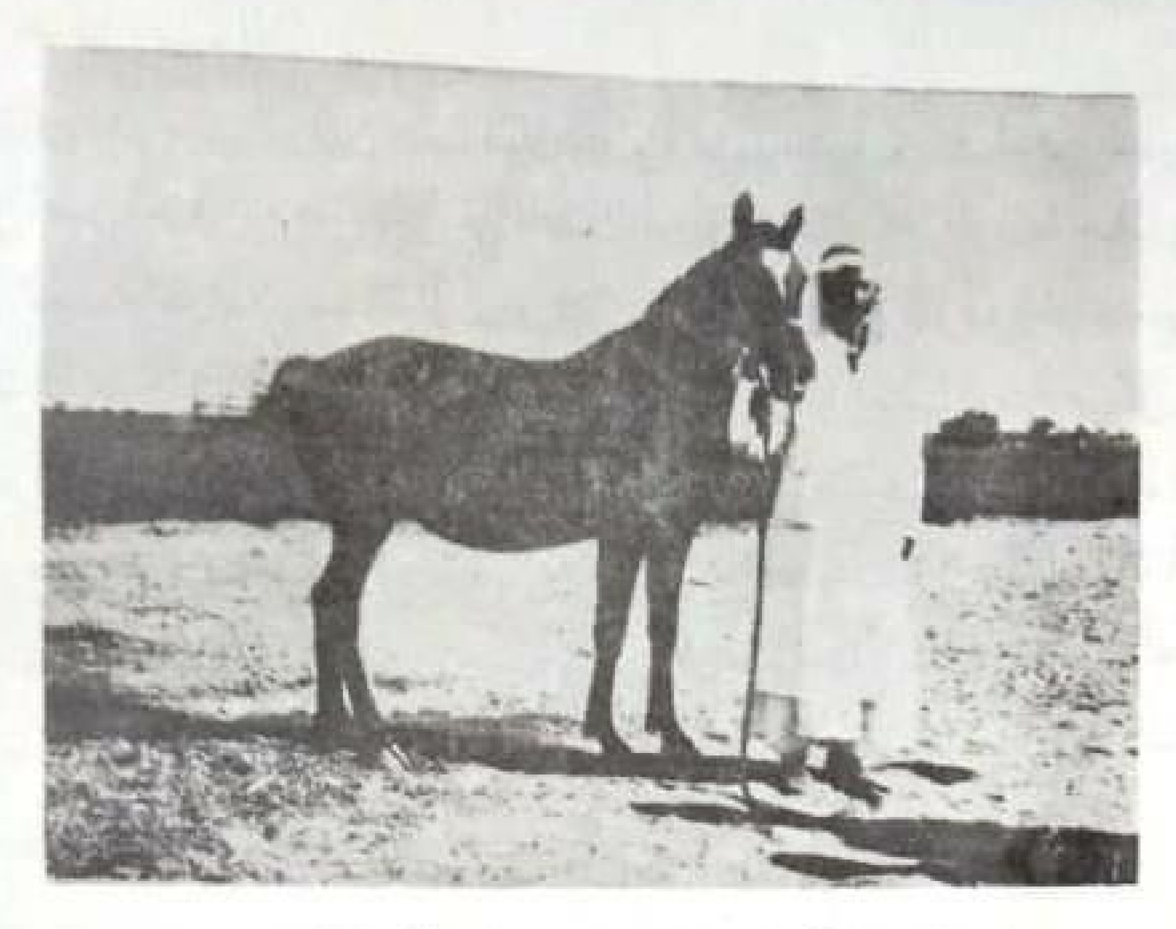
وهناك حكم فصل للقضايا المهمة التى لايوجد فيها أدلة ، ألا وهى (البشعة) وهى عبارة عن آنية من معدن كالنحاس أو الحديد لها يد طويلة تبلغ حوالى ٦٠ سنتيمترا وقطرها يبلغ حوالى ٢٠ سنتيمترا وصاحبها رجل يسمى (جريبع) من عرب المشارقة بجهة بلبيس . والطريقة أن يذهب إلى جريبع هذا كل من المتهم والمتهم ويدفع المتهم خمسة جنيهات لجريبع الذى يضع كومة من الخشب ويشعل فيها النار ويحمى فيها (البشعة) حتى تحمر تماما ، وفى أثناء ذلك ينصح المتهم أن يصدقه القول ويعترف فإذا لم يعترف وأصر على لحس البشعة كشف جريبع على فمه ولسانه وأخرج البشعة من النار ومسحها بيده وقدمها للمتهم ليلحسها بلسانه وهم يعتقدون أنه إذا كان بريئا فإنه لايصاب بسوء ، أما إذا كان مذنبا فإنها تضره ضرراً بليغا ، ولا أدرى ما السر فى هذه الآنية اللهم إلا إذا كان الاضطراب والرعب يجفف الريق فى حالة الشخص المذنب فتكون النتيجة أنها تضره بمجرد لحسها فى حين أن الاطمئنان والهدوء فى حالة الشخص البرىء يجعله يقدم عليها وهو مطمئن القلب فلا تصيبه بسوء . وكثيرا مادفعت هذه البشعة بعض المذنبين إلى الاعتراف وكثيرا ما كانت سببا فى حقن

الدماء . وعادة لايلجأ إلى البشعة إلا فى الأمور الهامة كالقتل والأخذ بالثأر وجربيع هذا (لايبشع) الفلاحين مطلقا ولايبشع عرب الغرب إلا نادرا .

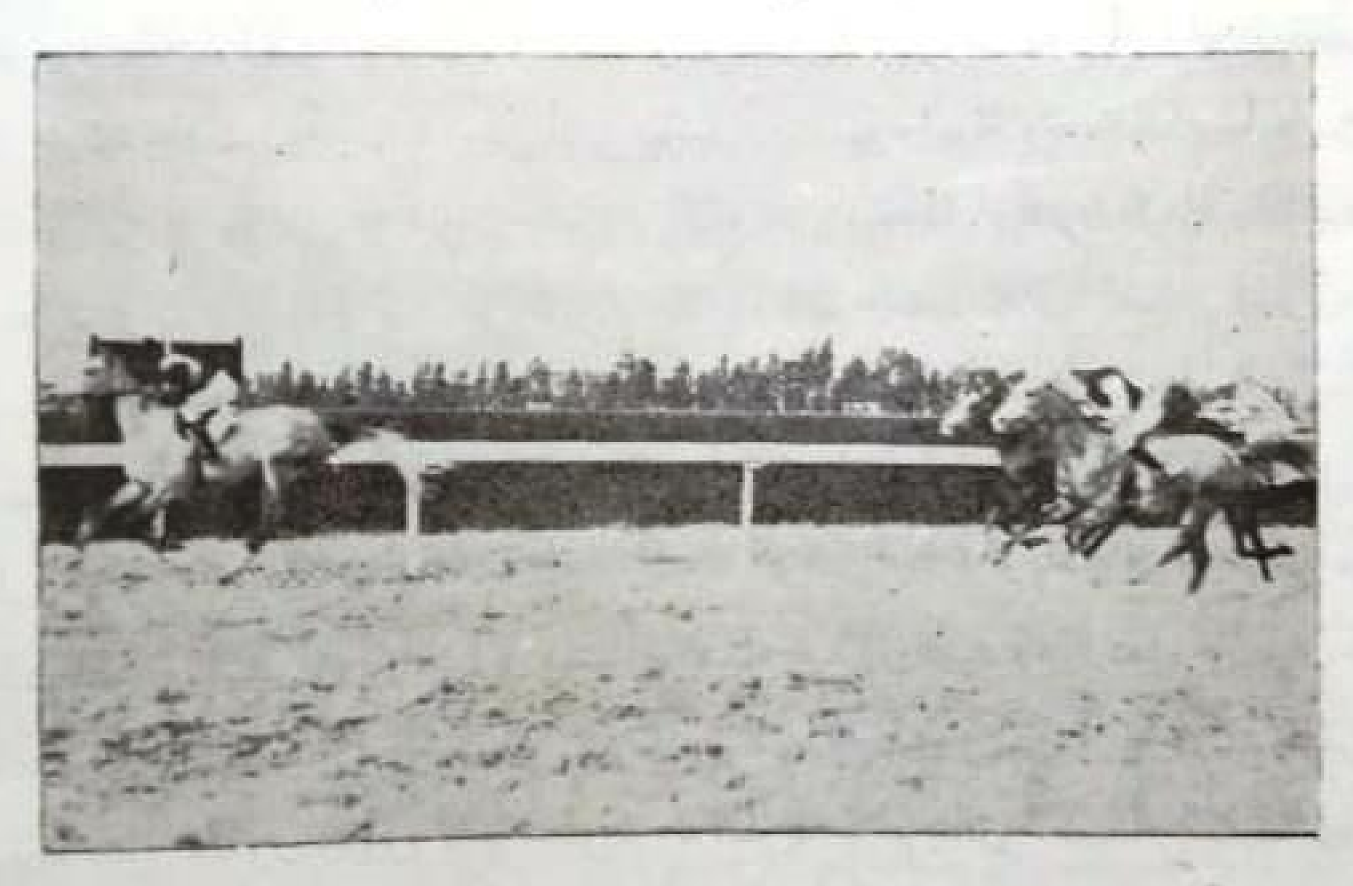
ونظام التقاضى عند عرب الغرب يختلف قليلا عنه عند عرب الشرق وذلك أنه عند حدوث أية خصومة يعقد مايسمى (المجلس العرفى) وهو يشكل من قاضيين أو أربعة يختار كل طرف النصف من بين الرجال المعروف عنهم العدل والفراسة وحصافة الرأى ويشتهرون بأنهم (قضاة العرب) ثم يجتمع القضاة فى مقر الأسرة أو القبيلة التى حدث فيها النزاع . وقد يجتمعون عند رجل محايد ويطلب القضاة من كل طرف أن يقدم كفيلا ثم يجتمعون ويقررون مايسمى (حق عرب) يدفعه كل كأمانة تحت يد القضاة ، وهو عبارة عن مبلغ من المال يكبر ويصغر بحسب أهمية النزاع فقد يكون خمسة جنيهات أو عشرة وقد يكون مائة أو مائتين ثم يدلى كل طرف بحجته ثم يجتمع القضاة ويصدرون حكمهم فمن كان مذنبا ضاع مبلغه وأعطى للآخر كما ترد للبرىء أمانته . وقد يتنازل صاحب الحق عن حقه فتصفو القلوب وتزول الأحقاد وكثيرا ماتعترف الحكومة بأحكام المجالس العرفية .

رياضتهم ووسائل تسليتهم وألعابهم

إنهم يهوون اقتناء الخيل ، وهم مهرة فى تربيتها وتدريبها وركوبها ويعتقدون أن الخير معقود بنواصيها ، ويعرفون بيوتها وأنسابها وأحسابها : ومن أشهر بيوتها بيت العبية والصقلاوية ، ويدربونها على جميع ألعاب الفروسية من كر وفر ورقص على المزمار والطبل وركوع ونوم وغيرها ، ويحبون الرماية والصيد والقنص إذ يخرج بعضهم فى الربيع والخريف على ظهور جيادهم وهجنهم ومعهم كلاب الصيد (السلوقى) والصقور والشواهين والعبيد والأدلاء والزاد والخيام إلى أطراف المديرية وإلى طورسينا وفلسطين وساحل البحر الأحمر لصيد الحيوان كالغزال والبدن والأرنب البرى أو الطيور كالحبارى والسمان والقطا والحجل والخضارى والبلبول وأبو فروة . ويحطون رحالهم فى أحد الأودية كوادى الجفرة أو وادى الوطن ويخرجون من هذا المكان للصيد والقنص . وطريقتهم فى ذلك أن الصياد يتبع أثر الصيد ويطارده ، فإن كان غزالا أطلق فى أثره صقرين أو ثلاثة بعد رفع الغطاء عن عيونها وتوجيهها نحوه ، وإن كان أرنبا اكتفى بصقر واحد وإن كان بدنا لاتطلق الصقور فى أثره لأنها تخشى قرونه الطويلة ، ثم يطلق الكلب أو الكلاب فى أثره كذلك فتطير الصقور حتى تكون فوق الصيد فتنقض عليه وترفرف بأجنحتها على عينيه ووجهه وتنشب مخالبها فيه فتعطل حركته حتى يدركه الكلب فيمسك به من رجله ويزيد فى تعطيل حركته ويأتى الصياد ويأخذه . وكثيراً مايستعمل الصياد بندقيته وخاصة فى صيد الطيور ، وقل أن يخطىء الصياد الهدف سواء أكان الطير حاطا أم طائرا ، وكثير من العرب يفضل صيد الطائر وهو طائر . ورياضة الصيد والقنص رياضة مفيدة تكسب العرب صحة وعافية وتروح عن نفوسهم وهم يعتقدون أنها تزيل الأمراض وتشفى العلل لركوبهم ومشيهم فى الهواء الطلق .



(شكل ١٤) الفرس العربية التي وردت من سوريا وأنجبت معظم خيول عائلة عجلى



(شكل ١٥) إحدى بناتها « مندرينا » ويرى فى الصورة بعد المسافة بينها وبين التى خلفها

لعب الجريد :

وهى تقام فى الموالد والأفراح وفيها يقف الفرسان بعضهم فى مواجهة بعض على بعد مائتى متر على الأقل ، وكلما زاد عدد الفرسان على خمسة فى كل صف كلما كان ذلك أدعى إلى السرور ، ويقوم فارس من أحد الصفين جريا حتى يقابل زميله الآتى من الصف المقابل فيلمسه بعصاه (جريدته) أو رمحه ويعود بسرعة

إلى صفه ، وزميله يطارده بدون أن يمكنه من أن يلمسه بعصاه وإلا عد مغلوبا : وقد يجرى الفارس وراء منافسه ويرميه بعصاه فإذا أصابه عد غالبا وإذا لم يصبه عد خاسرا . وأما إذا تمكن الفارس المطرود من التقاط العصا التى رمى بها وسددها إلى زميله فكأن الرامى الأول قد قتل بسلاحه ، وكانت هذه اللعبة رياضة محبة طالما كان الحقد والعداوة بعيدين عنها فلما استغلت للانتقام ونتجت عنها أضرار ابتعد عنها العرب وأوقفتها الحكومة .

لعب البارود :

وهى تقام فى الأفراح أمام موكب العروس ، وفيها يرح الفرسان أمام هذا الموكب مظهرين براعتهم فى الفروسية ، وقد يقف الفارس على ظهر جواده وهو يجرى بأقصى سرعته ويطلق بندقيته . وقد يضطجع على جنب جواده بحيث تظهر ماسورة البندقية أمام صدر الحصان ثم يطلقها وهكذا .

دق الكف :

وهى تقام فى الأفراح ، إذ يحتشد قبل يوم العرس بنحو الشهر كل مساء شبان البلدة والبلاد المجاورة لها ويقفون على شكل نصف دائرة ويصفقون مع مد أيديهم إلى الأمام وجذبها إلى الخلف بنظام واحد ويرتلون بعض الألفاظ بنغمة واحدة وترقص أمامهم امرأة أو بنت محجبة لايظهر منها شىء حتى وجهها وتلبس (حراما) يلف بشكل خاص من وسطها وتحزم فوقه بشكل خاص أيضا وتمسك فى يدها عصا أو سيفا أو بندقية ، وتسير أمامهم وهى تحجل وترقص بهز جسمها متنقلة من طرف نصف الدائرة الأيمن إلى طرفها الأيسر وبالعكس ومتقدمة ومتأخرة ويطلق عليها (الحجالة أو البيه) وكل ربع ساعة تقريبا يقف التصفيق والرقص



(شكل ١٦) دق الكف والحجالة

ويبدأ أحدهم بإلقاء ثلث أغنية مترنما ورافعا صوته ثم يستمر التصفيق ، وأخيراً يغنى الثلث الأخير ويعيد معه الثلثين السابقين ، وعند الانتهاء منها يهلل الجمع وتطلق طلقات نارية كثيرة . وهذه الأغانى ذات معان مختلفة : فمنها ما يكون دائرا حول الغرام أوالنجوى أوالشجاعة ، ومنها ما يكون دائرا حول التغزل فى (الحجالة) أو مدحها .

ولكل أغنية حداء خاص يتغنون به فى أثناء تصفيقهم ، وقد يرتل أحدهم ما يسمى (المجرودة) وهى قصيدة طويلة دارجة فى مدح الخيل أو الصقر أو الغزال أو الحجالة أو فى الغرام .

والويل لمن اقترب من الحجالة فسرعان ما تضربه على يده بالعصا أو السيف ، وقد يخرج من بين المصفقين رجل يلعب بالعصا أو السيف مع (الحجالة) محاولا لمسها وهى تحاول منعه ولمسه ، ويعتبر مغلوبا من لمس وينسحب من الميدان .

ومن أمثلة أغانيهم :

(إِللِّى غَلاَهْ[1] بِالتَّحْنِين[2] إِنْسَاه يادَابِلِي[3] وَاتْرُكَهْ)

ومعناها : (الذى لا يجدى فى حبه التحايل ويصر على الصد اتركه يا عقلى)

وحداؤها : (قديم الغية ينسى ليه)

ومن أمثلة المجرودة :

عِينَكْ عِينْ فَرِيدْ[4] أَزْيَلْ[5] غريب ومكانه الأوعار[6]

إِللِّى رَاعَ[7] الْقَنَّاص اجْفَلْ[8] وروّح مرعوب[9] ومحتار

خايف مِا لصَّقْرِ القاتل نِدَاوِى[10] مِتْكَوِبْ[11] بِحْمَارْ

السيجة :

وهى عبارة عن مربع مكون من خمس وعشرين عينا أو تسع وأربعين عينا ويلعبها اثنان لكل منهما اثنتاعشرة قطعة فى الحالة الأولى وأربع وعشرون قطعة فى الحالة الثانية ، وذلك لترك العين الوسطى خالية ، وتتميز قطع أحدهما عن الآخر بأن تكون قطع الأول من الطين مثلا والثانى من الحجارة أو الحصا ، ويبـــدأ أحد اللاعبين بوضع قطعتين بنظام خاص يرسمه فى ذهنه ، ويليه الثانى بوضع قطعتين وهكذا بالتبادل حتى تملأ العيون كلها ما عدا الوسطى .

ثم يبدأ أحدهما بنقل القطعة المجاورة للعين الوسطى إليها ، ويتبعه زميله بحيث لو وقعت قطعة أحدهما بين قطعتين من قطع زميله (أكلها) أى رفعها وهكذا ، ومن رفعت قطعه قبل زميله عد مغلوبا .

---

(١) الحب (٢) التحايل (٣) عقلى (٤) غزال (٥) جميل
(٦) الجهات الوعرة (٧) رأى (٨) خاف (٩) خائف
(١٠) الصقر الطويل الجناحين (١١) أحمر غامق

وهذه القطع تسمى (الكلاب) وهذه اللعبة تشبه الشطرنج إلى حد بعيد ، ولها عند العرب فن مخصوص يجيده بعضهم ، وقد يسافر أحدهم من بلد إلى آخر ليلاعب رجلا مشهورا بلعبها .

الحكشة أو الجرل :

وهى لعبة تشبه (الهوكى) تلعب بعصا معوجة من طرفها وكرة من الخرق ومجدول عليها بالحبال ، وهى فى حجم كرة القدم ، ويتكون كل فريق من حوالى العشرة على الأقل ، ويقفون متقابلين كل فى مكان معين أمام زميله ، وتلعب على أرض واسعة محدودة المعالم ، ويبدأ اللعب من وسط الميدان ويمرر كل فرد الكرة إلى أعضاء فريقه ويحاول الآخرون أخذها منه ، ومن أوصل الكرة إلى نهاية الملعب فى ناحية خصمه (إلى الرد) عد غالبا ، ومن قواعدها عدم رفع العصا إلى أعلى من الرأس وعدم توجيه الوجه إلى جوانب الملعب والظهر إلى داخله وعدم إخراج الكرة إلى خارج الملعب ، والجزاء فى هذه الأحوال إعطاء الخصم الكرة ليضربها فرد من أعضائه من مكان الخطأ ، وهى تلعب فى الليالى المقمرة من شبان أشداء .

العشرة والعشرين :

وهى تلعب على أرض منبسطة طولها ثلاثون خطوة واسعة ، وتوضع عصا وعليها طاقية على بعد عشر خطوات من أحد طرفى الملعب ، ويقف أحد اللاعبين ومعه منديل كبير مجدول (طرّة) فى طرف المسافة الطويلة ويقف الثانى فى طرف المسافة القصيرة ثم يلوح لهما الحكم بالجرى وتكون مهمة من بدأ من المسافة القصيرة أن يخطف الطاقية ويعود إلى مكانه قبل أن يدركه الثانى لأنه إذا أدركه يستمر يضربه (بالطرة) حتى يصل به إلى مكانه

أفراحهم :

وأفراحهم تخالف أفراح بقية المصريين ، وذلك أنه قبل يوم العرس بنحو الشهر يحتشد كل مساء شبان البلدة والبلاد المجاورة (ويدقون الكف الذى سبق شرحه) حتى إذا جاء يوم العرس أعد هودج على جمل تركب فيه العروس ، ومعها بنتان أو ثلاث من أقرب قريباتها ، ويسير خلف هذا الجمل جمال تكثر أو تقل على حسب يسار أهل العروسين ، وعلى كل جمل أربع أو ست نساء يغنين فى أثناء سير الموكب نحو بيت العريس ، ويتبارى الفرسان فى إظهار براعتهم فى ألعاب الفروسية والبارود كما سبق شرحه ، ويسير حول الموكب شبان ومعهم بنادقهم يطلقون منها طلقات نارية من حين لآخر ، وعندما يصل الموكب إلى منزل العريس تناخ الجمال وينزل من عليها ، ويحمل العروس التى تكون محجبة أقرب الناس إليها كأخيها أو خالها ، وقد يحملها أحد عبيد أبيها ، وفى هذه الليلة تنحر الذبائح وتقام الولائم .

ومن عاداتهم القبيحة فى الأفراح أنه إذا مر موكب عرس على بلد فيها عرب خرج هؤلاء لدعوة الموكب فإن كانوا لا يضمرون شرا اكتفوا بتقديم الدعوة والترحيب والتهنئة وتلقى الشكر وسار الموكب فى سبيله مرحبا به من الداعين ، وإن كانوا يضمرون شرا لثأر قديم أو للحط من قدر أهل العرس أو للنهب قدموا الدعوة وأصروا على قبولها وأصر أهل الفرح على رفضها لأنهم يرون فى ذلك أكبر عار فتنشب بين الفريقين معركة يكون غرض الداعين منها أن يستولوا على جمل العروس ومن فوقه ، وغرض أهل العرس إحباط مسعاهم ، ولذا يختار جمل العروس من أشد الجمال شكيمة ومن أشرسها طبعا ، وعند نشوب المعركة ينزع مقوده

لكيلا يستطيع أحد الاقتراب منه إلا صاحبه، وقد حضرت مرة موكبا نشبت فيه معركة من هذا القبيل فهم فارس من أهل العروس وأردف العروس خلفه وجرى بأقصى سرعة حتى أوصلها إلى منزل العريس، ولما علم الداعون بذلك أيقنوا ألا فائدة فكفوا عن الشجار وسار الموكب.

والشاب العربي ليست له الحرية في اختيار خطيبته، ولكن يختارها له أبوه وأمه؛ كما أن البنت ليس لها من الأمر شيء فلا تسأل ولا يؤخذ رأيها، وإنما يخطر الشاب والبنت بعد انتهاء الاتفاق، وتختار الخطيبة من بين أقارب الشاب، وتفضل بنت العم كما يفضل ابن العم. وفي بعض الأحيان النادرة يفهم الأب والأم ميل ابنهما فيختاران له من يحبها وبخاصة إذا كانت قريبته.

أحزانهم:

وكما أن العربي يغالي في أفراحه فهو يغالي كذلك في أحزانه وبخاصة إذا كان الميت شابا أو رجلا، فتقام ليالي المآتم التي لا تقل عن ثلاث وتنحر الذبائح ويأتي المعزون. وتكون أمارات الحزن بادية على أهل الميت فيطلق الرجال لحاهم ولا يحلقون شعورهم ويلبسون [illegible] وتقيم النسوة المناحة وهي عبارة عن حلقة من النسوة في وسطها امرأة تنتحب وتلطم وهن يدرن حولها ويندبن ويلطمن الخدود، ويرددن عبارات تنم عن الحزن، ويستمر الحزن عاما كاملا لا زين، ولا تعطر، ولا أفراح، ولا مواسم، ولا أعياد، وحتى الضحايا لا تنحر، وتلبس الملابس السوداء، وكانت عندهم عادة سيئة ضارة وهي عدم بياض النحاس مدة عام.

خاتمة:

وعلى كل حال فنحن نرى الآن أن تيار المدنية قد جرف كثيرا من عادات عرب الشرقية وتقاليدهم فاندمجوا في المصريين وتركوا عاداتهم القديمة وسكنوا القصور في المدن، وأخذوا يعلمون أبناءهم وبناتهم، ولما كان الامتياز الذي كان ممنوحا لهم قد ألغي في ٨ سبتمبر سنة ١٩٤٧ فسوف ينعدم الفارق الوحيد بينهم وبين بقية المصريين ولن يبقى في مصر محافظ على تقاليد العرب وعاداتهم سوى أولئك القوم الرحل الذين يسكنون أطراف مصر وواحاتها.

مصادر المقال:

أولا — والد كاتب المقال وهو رجل عربي ممن أدرك ثورة عرابي، وكانت سنه حوالي الثانية عشرة؛ كما أنه كثير الاهتمام بكل ماله اتصال بالعرب ويحفظ الكثير عنهم.

ثانيا — كتاب القبائل العربية في مصر لحضرة أحمد لطفي السيد أفندي بدار الكتب، وهو عربي استقى معلوماته عن مصادر كثيرة.

ثالثا — حضرة عبد العاطي أفندي خضر، وهو شاب عربي أديب كتب مذكرات عن العرب ونشر بعضها بمجلة السكة الحديد ومجلة التليفون والتلغراف.

رابعا — خطاب من مصلحة التعداد عن تعداد العرب في سنة ١٩٣٧.

خامسا — حضرة الأستاذ أمين سلامة وهو شاب عربي ومدرس بالزقازيق الثانوية.

سادسا — بعض أفراد عائلة الطحاوية. سابعا — الحاج محمد محمود أبو القاسم سلطان.

ثامنا — قام بتحقيق النقط التاريخية حضرة الأستاذ الحسيني مفتي.

تاسعا — معلومات وملاحظات كاتب المقال.

عبد الباسط منقل جمعة
ناظر مدرسة أبو حماد الابتدائية الأميرية

الأسرة الأباظية

ترددت كثيراً فى الكتابة عن أسرتى ، فقد خيل إلىّ أنى إذا أطنبت وفصلت فسينالنى شىء من هـذا الإطناب ، وإذا أوجزت وقصرت فإنى أعرض نفسى لكثير من النقد والعتاب ، ومع هذا فقد رأيت أن ألبى تلك الرغبة فى طريق وسط بين الإسهاب والاقتضاب ، معتمدا على أصدق ماوصلت إليه من المصادر الرسمية والمراجع الخاصة .

لاشك أن الأسرة الأباظيـة من بطون قبيلة العايد ، والعايد أو العائذ فخذ من جذام ، وقال الحمدانى : « وجذام أول من سكن مصر من العرب ، حين جاءوا مع عمرو بن العاص ، فأقطعوا بلاداً لاتزال بأيدى بنيهم إلى الآن (راجع صبح الأعشى الجزء الأول) .

وقال المقريزى : أما قبيلة العائذ فهى من جذام ، نزلت بين القاهرة والعقبة .

وجاء فى الخطط التوفيقية ، صفحة ٣ ، جزء ١٤ :

« أن أهل العايد فى أول أمرهم نزلوا ببلاد قديمة مثل : عزبة القصور والقصورية ، فاستولوا على أرضها ومزارعها ، واستخدموا من بقى من أهلها بما لهم من البأس والقوة ، واستمروا كذلك زمناً مديداً ، وكان كبيرهم شيخ العرب « إبراهيم العايدى » متكلماً عن قبيلة العايد فى زمن الفرنسيين ، وجاء محمد على وهم فى خشونة العرب ، ولهم مناوشات كثيرة ، وليس عليهم شىء مما على الفلاحين ، وكانوا قد خولهم الله عقارا وأموالا ونخيلا ، فخيرهم محمد على بين معاملاتهم فى أن يعاملوا معاملة العرب ، بشرط أن ينزع ماتحت أيديهم من أرض ونخيل ، وبين أن يعاملوا معاملة الفلاحين ويبقى لهم ماتحت أيديهم ، فاختاروا الفلاحة » .

وقال ابن خلدون : « وكان ورود عرب العايد فى أول القرن السابع من الهجرة ، وكان عليهم ضمان السابلة من مصر إلى عقبة إيلى إلى الكرك » .

وقال القلقشندى : « والعائذ فى الشرقية من جذام ، عليهم درك الحج إلى العقبة » .

والمعروف أن جدنا الثامن تزوج أيام حكم المماليك الشراكسة لمصر بإحدى بناتهم ، وكانت من قبيلة « أباظة » الشركسية ، ولكى يميز أبناء القبيلة ابنها عن غيره من أبناء العايد الخلص ، كانوا يقولون عنه : « ابن الأباظية » فجرت على لسانهم .

وأول من تسمى بهذا اللقب هو « محمد أباظة العايدى » ابن شيخ العرب « إبراهيم العايدى » فيكون رئيس الأسرة الحالى ابن عمنا « سليمان بك عثمان أباظة بن عثمان بك أباظة بن السيد باشا أباظة ابن شيخ العرب حسن أباظة بن سليمان أباظة بن عبد الله أباظة بن محمد أباظة بن سليمان أباظة بن محمد أباظة العايدى ابن شيخ العرب إبراهيم العايدى » كما تقدم ، وإلى هذا الجد ينتهى لقب أباظة .

ولا نعرف الكثير عن أولئك الأجداد فرداً فرداً ، ولكن تاريخ قبيلة العايد نجده مبعثرا فى كتب

التاريخ القديمة والحديثة . وما زال معظمها يسكن مركز بلبيس فى « كفور العايد » المكونة من بضع قرى ، ومنها المرحوم « السيد بك أيوب » والشيخ محمد عسكر الكبير ، مدرس اللغة العربية بمدرسة الإدارة والألسن الذى سجن فى الثورة العرابية ، ومنها المرحوم عبد الحكيم بك عسكر المستشار ، وأمين بك حسونة من كبار موظفى وزارة المعارف الخ .

ونجد فى الجبرتى إشارة إلى مقاومة العرب الأباظية للفرنسيين ، إلى أن تمكنوا من أسر عبد الرحمن أباظة .

ويقول الجبرتى : إنهم استبقوه رهن السجن مدة ليأمنوا ثورة القبائل .

وكان شيخ العرب حسن أباظة رجلا مقداماً ثرياً ، بسط نفوذه على أكثر مديرية الشرقية ، وكان يملك أربعين ألف فدان ، وذلك فى زمن محمد على .

وقد ذهب الكثير من ثروته العقارية فى البذخ والهدايا والتماس الجاه ، فترك لولديه السيد باشا أباظة ، وسليمان باشا أباظة أقل من نصف ما كان يملك .

وكان ساكن الجنان محمد على باشا رأس الأسرة المالكة يجله ويثق به ، ويعتمد عليه ويستشيره فى الأمور الجسام .

ولما ألف للشورى مجلساً سماه : « المجلس العالى » انتخب شيخ العرب حسن أباظة وبغدادى أباظة عضوين فيه ، وقد دام هـذا المجلس ثلاثة عشر عاماً (من ١٢٤٠ — ١٢٥٣ هجرية) — (١٨٢٤ — ١٨٣٧ ميلادية) .



(شكل ١٧) شيخ العرب حسن أباظة

وجاء فى الخطط التوفيقية مانصه :

« ومن أشهر عائلات العائد ، وأعظمها رتبة وأرفعها مكانة ، أولاد أباظة ، تقلبت فى الرتب السنية ، والمناصب الديوانية جملة منهم ، وسبقهم فى ذلك الأمير الجليل ، ذو المجد الأثيل المرحوم حسن أباظة ، وكان كريماً جواداً فصيح اللسان ... الخ . توفى سنة ١٢٦٥ هجرية » .

وأصبح بعده ولده الأكبر السيد أباظة باشا زعيما للأسرة ، فكان مثالا للكرم والنجدة والحزم وسماحة الأخلاق . وقد عين وكيلا للداخلية ثم مفتشاً لعموم الأقاليم ، وكان ولى النعم سعيد باشا يثق به كل الثقة ويجعله أقرب المصريين لعطفه وعنايته .

وكان سعيد باشا أول وال عنى بأن يعرف المصريين حقوقهم فى تولى شئون البلاد ، وكانوا قبل ذلك مقصيين عن الشؤون العامة ، كما كانوا محرومين من الرتب المدنية والعسكرية ، فعدل ساكن الجنان سعيد باشا عن هذا النظام ، وأغدق على المصريين « أبناء العرب » وقربهم ، فكان أول من أحرز لقب باشا بين المصريين هو المغفور له السيد أباظة باشا ، ثم محمد سلطان باشا . وقد توفى السيد أباظة باشا بعد تاريخ مفعم بجلائل الأعمال عام ١٢٩٢ هجرية .

وتزعم الأسرة بعده المغفور له سليمان أباظة باشا ، وكان عالما جليلا وشاعرا كبيرا ، شديد العناية بالأدب العربى ، حتى إنه كان يحفظ المقامات المشهورة عن ظهر قلب . وكان جم النشاط شديد البأس إلى حد القسوة ، كريماً إلى حد الإسراف ، كثير العناية بالشؤون العامة ، حاز رضا ساكن الجنان سعيد باشا ، ثم سمو الخديو إسماعيل ، فتقلب فى مناصب كبيرة ، وما زال يرقى حتى عين مديراً للغربية ، فبقى بها سنتين ، ثم نقل مديراً للقليوبية ثم عين مديراً للشرقية ، وظل بها مديراً ست سنوات .

وغضب عليه المغفور له الخديو إسماعيل باشا ، عندما غضب على إسماعيل باشا المفتش ، لأنهما كانا صديقين ، ثم تمكن من أن يستعيد رضاه . وقامت الثورة العرابية ، فأخذ يزجى النصح إلى المرحوم عرابى باشا ويحاول أن يرده إلى الصواب ، ويجهر بآراء صريحة حرة ، كان لا يجرأ أحد من الأعيان على الجهر بها فى ذلك الوقت .

ومما سكن به المغفور له الخديو توفيق باشا الفتنة فى البلاد أنه أمر باجراء انتخابات عامة ، وعقد مجلس لنواب الأمة ، انتخب له المرحوم سلطان باشا رئيساً عام ١٨٨١ ، وانتخب المرحوم سليمان باشا أباظة عضواً نائباً عن الشرقية ، واكتفى فى افتتاح المجلس بخطبتين ، ألقى الأولى رئيس المجلس وأجاب عنها المرحوم سليمان باشا أباظة بخطبة وطنية معروفة جاء فيها :

« ليس منا من قلد النيابة على علم بعظم واجباتها الوطنية والسياسية ، إلا وعزمه على أداء الحق وحفظ الوعود والرغبة فى خدمة الأمة بما يجلب لها النفع ويدرأ عنها الضرر . لقد علمتم أن الأنظار محدقة إلينا والأفكار تحوم حولنا ، والوطن عزيز محتاج إلى الإصلاح كما قال سعادة الرئيس فلندخل الإصلاح من بابه ونأخذ فيه بأسبابه . . . الخ »

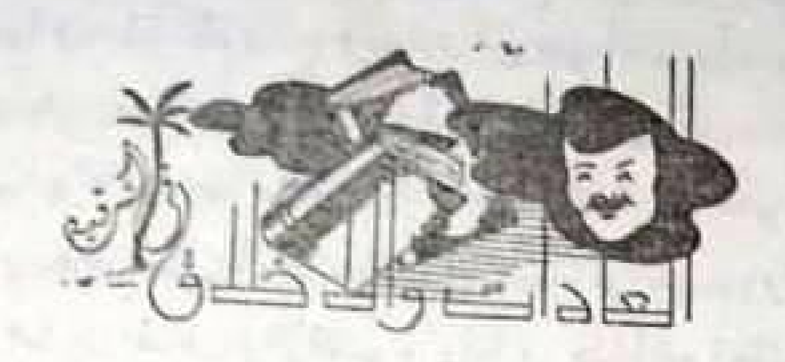
وتوالت الأحداث بعد ذلك وأعلنت الحرب وانحاز سليمان أباظة باشا لأنصار العرش ، ثم عين وزيرا للمعارف فى وزارة راغب باشا ثم فى عام ١٨٨٤ انتخب بدلا من المرحوم أحمد رشيد باشا الذى كان وكيلا لمجلس شورى القوانين . وتوفى فى ٩ مايو سنة ١٨٩٧ .

ثم رأس الأسرة بعده المرحوم أحمد أباظة باشا أكبر أنجال المرحوم السيد باشا أباظة ، وكان رجلا متدينا شديد الوطنية ، لاقى فى سبيل آرائه شدة وعنتا وانتخب عضواً فى مجلس شورى النواب عن مديرية الشرقية عام ١٢٨٣هـ (١٨٦٦م) . وفى عام ١٢٨٥ هـ عين وكيلا لمديرية البحيرة ، وفى عام ١٨٨١ انتخب عضوا بمجلس النواب المصرى عن مديرية الشرقية ، وفى عام ١٨٩٠م كان عضوا بمجلس شورى القوانين عن مديرية الشرقية . وتوفى فى ٣١ أكتوبر سنة ١٩٠٠ م .

وقد رأس الأسرة بعده الوطنى العظيم المغفور له إسماعيل أباظة باشا . ولو كتبت تاريخه بإسهاب لكتبت تاريخ النهضة الوطنية السياسية الحديثة . فعلى يديه نشأت ونجحت وترعرعت ، وله فى كل صرح دعامة الأساس ، ولم يكن زعيما للأسرة فحسب بل كان زعيما للمعارضة الرسمية فى مصر أى زعيما للوطنيين فيها لأن الأمر كان بيد دولة أجنبية كان يقاومها مقاومة عنيفة رشيدة بقلمه وخطبه وبالجموع التى كانت تلتف حوله وتعمل برأيه فى مجلس الشورى والجمعية العمومية والجمعية التشريعية ، وكان الشعب يهتف باسمه فى المظاهرات وفى المناسبات الوطنية الكبرى .

أما وقد وصلت بهذا الزعيم العظيم فأكتفى بهذا القدر فإن اتسع المجال لغير هذا المقال أكملت البحث فى عدد مقبل إن شاء الله .

إبراهيم دسوقى أباظة



فى إقليم الشرقية كثير من العادات ورثوها عن الآباء والأجداد ، وسنتحدث عن الواضح منها فى القرى خاصة ، وهذه العادات التى نسطرها مما رأيناه بأعيننا وسمعناه بآذاننا أو حدثنا عنه الرواة الثقات ممن استفتأنا بآرائهم فى هذا الموضوع ، وعادات أهل الشرقية كثيرة لا يحصيها عد ، ولا يفى بها مقال ، ولا بد للباحث عنها أن يجوس خلال الإقليم ويتعرف إلى قراه ومدنه ، وإلى سكانه من بدو وحضر ، وأن يطيل المقام بينهم حتى يستقصى هذه العادات ، ولكننا كتبنا ما اتسع له وقتنا ، وما نحن به عالمون ، وواثقون ، وعنه مسئولون ، وربما يند القلم عن بعض العادات ولنا العذر فى ذلك .

ففى أفراحهم عند ما يعتزمون الزواج والمصاهرة يقيمون الأفراح عدة ليال تطول وتقصر تبعاً لحال الأسرتين من غنى أو فقر ، فليلة يجتمعون حول شاعر بيده ربابة ويقص على السامعين لهو الحديث وأحسن القصص عن حروب بنى هلال وبنى زناتة من عرب المغرب ، ويطربون ويكادون يحفظون هذه القصص وإن نسى الشاعر ذكروه أو قصر طلبوا تكملة القصص ، وهم فى أثناء ذلك ما بين مصفق بيديه ، وما بين صائح صياح الفرح ، ونداءات عالية مختلفة : وفريق يناصر أبا زيد الهلالى ، وفريق يناصر دياب بن غانم ويعرفون الكثير عن حروب العرب فى طرابلس وأسماء الفرسان والعبيد والموالى والمواقع ، ويرددون أشعاراً جميلة فى ذلك ويستمرون حول شاعرهم فرحين حتى مطلع الفجر فتنقضى ليلة سعيدة ، وليلة ثانية يستأجرون راقصة معها طائفة تمثل وتغنى وتضحك ، فيجتمع أهل القرية فى مكان فسيح قريب من بيت أهل العروس ويقضون ليلة طويلة بين رقص وضحك وغناء وتمثيل ، وكلما أتمت الراقصة أو المغنى أو الممثل أو المضحك شوطه مر بالجالسين وبيده منديل وكل يلقى فيه ما تجود به نفسه ، وليلة ثالثة يحضرون رجلا ذائع الصيت معروفاً بلشد الموال ، فيجتمع أهل البلد فى مكان واسع ويبدأ فى إنشاده ملقيا التحيات اللطيفة على الحاضرين ثم يتقدم إليه فتى بشىء من المال على عصا أو ساعة أو أسورة من ذهب أو عقد من اللؤلؤ فينشد الرجل لصاحب العطاء موالا ، يختمه بتحية تشير إلى ما قدم إليه فيصفق الجميع ويصيحون فرحين بحسن اختيار الشاب وبتوفيق المغنى إلى حد الإعجاب .

وفى اليوم الذى فيه الزفاف وفى ليلة البناء من العصر يجتمع أهل القرية من شيب وشبان لنقل العروس من بيت أبيها لبيت زوجها فى حفل عام رائع ويبدون من بيت أهلها وأمامهم الطبال والزامر ، ويتقدم الجمع رجلان أو ثلاثة ممن يجيدون امتطاء صهوات الخيل وتلعب خيولهم ، ترقص حينا وتنام براكبها ثم تنهض ، ويتسابق الفرسان ، والغالب يضرب المغلوب بعصا ، وهى خيول مسومة ، وفرسانها أبطال .

وأحيانا يتقدم الجمع رجلان يلعبان بالعصا ، ولهما فى لعبتهما قوانين موروثة وتعاليم معروفة ، وبعد أن يقضيا شوطهما يتسلم غيرهما بين الهتاف والإعجاب ، وإذا مر هذا الجمع الحاشد أمام بيت به رجل مصاب بوفاة أو كارثة توقف الفرح وأمسكوا عما هم فيه إجلالا وحرمة لأهل المصاب ، ومن تخطى هذه العادة ولم يرع حرمة ذلك عد خليعا وتربصوا به الدوائر .

وأهل البلد فى ذلك كله فرحون مسرورون ، وزامر الحى يطرب ، ومستمرون حتى يصلوا إلى منزل الزوج فيحمل العروس زوجها بنفسه وفى ذلك فخر له وشرف وشهامة وعند مايدخل البيت يجد أمه فى انتظارها جالسة القرفصاء فتقفز العروس متخطية حماتها للتبرك بها ، وقلما تدوم البركة ، وفى بعض الجهات تقف أم العروس فى باب الحجرة رافعة رجلها اليمنى لتدخل العروس إلى حجرتها من تحت رجلها .

وتمد الموائد للناس ويطعمون الطعام ،كل على قدر طاقته ، وبعد الانتهاء من العشاء يستعد الشبان لزفاف الفتى ، العروس ، فيجتمعون عند منزل أحد اقاربه من أعمام أو أخوال وقلما يخرج من بيت أجنبي وإلا عد ممن لا أهل لهم .

يجتمع الفتيان على هيئة حلقة ويغنون ويصفقون ويهتفون حتى يستحم العروس . فإذا خرج نظيفا معمما فى الغالب توسط أترابه ويسيرون فى صفين طويلين وبيد كل شمعة مضيئة ، وينير لهم مصباح قوى أو مصباحان ، ويسيرون مرتلين أناشيد الفرح والدعوات الصالحات والذكر والصلاة على رسول الله ، ومن عجب أن تسير النساء خلف الرجال مجتمعات مغنيات راقصات وتحمل إحداهن وعاء مملوء بالنار الملتهبة التى وقودها الخشب أو غيره ويحرقن البخور والعود والند والكافور منعا لعيون الحاسدين ، وينثر الملح الخشن أو الناعم على رءوس الحاضرين ، وبعض الموسرين والأحباب ينثرون على الناس ألوان الحلوى فرحا وابتهاجا بالعرس وتقديرا لأهله . فإذا ماقارب الجمع منزل العروس أسرعوا به جريا حتى يزجوا به فى بيته ويدخلوه على عرسه ، وينصرف الكثير فى مكان بعيد ، وكثير من الخلان يقفون على باب غرفتهما مصفقين مهللين مغنين ضاحكين لاعين رافعى أصواتهم بكلام مختلف فيه تشجيع له وحفز لهمته ، حتى لايهاب موقفا حرجا مارآه فى حياته ولأنه يدخل الدنيا ، فإذا ما خرج سمعت أصوات قذائف النار متتالية .

وهنا نشهد المؤلم فقد يكون ضارب القذيفة غلاما طائشا أو لاتواتيه الأقدار فتصيب القذيفة رجلا أو امرأة أو طفلا فينقلب الفرح إلى مناحة ، وهذه عادة سيئة ذميمة كم غرست من أحقاد وعداوات ، وربما تصيب العروس نفسها وإنها لإحدى الكبر ، وإن أطلقت القذائف من رجل مجرب ولم تصب أحداً اجتمع أهل القرية فى مكان واسع وقضوا ليلة زاهية يستمعون إلى ما يسمى « بالسامر » يهيئه لهم الطبال والزامر

والراقصة وجمع ممن يجيد اللهو واللعب ، ويسمرون حتى مطلع الفجر ثم ينصرفون . وفى صبيحة ليلة الزفاف تخرج أم العروس من بيت أبيها ومعها جمع من النسوة وكثير من القينات فى غناء وتحمل البنات ما صنعته الأم على رأسها قطعة من اللباس الأبيض الخفيف النسج الملوث بالدماء تلوح للناس أن ابنتها طاهرة الذيل نقية العرض ، ولتقطع كلام الشامت العادى ، ويتسابق أقارب العروس وزميلاتها والرجال والنساء ليقدم كل لها بعض المال ، وهذا قرض ودين فى عنقها تسدده عند الزواج . وتوزع العروس الهدايا هذا عند أهل القرى من الفلاحين .

وعند البدو وهم كثير فى الشرقية فى بقاع مختلفة فى أبى كبير وفاقوس وكفر صقر وبلبيس قبل العرس بنحو شهر أو نصفه يحتشد كل نساء شبان البلدة ويقفون على شكل نصف دائرة ويصفقون مع مد أيديهم إلى الأمام والخلف ويرتلون غناء عربيا معروفا لديهم وترقص أمامهم امرأة أو فتاة محجبة فى وسطها حزام وبيدها عصا أو سيف تحجل وترقص متنقلة يطلق عليها فى بعض الجهات « الحجالة » وفى بعضها « الحادى » وفى كل فترة قصيرة يقف الرقص والتصفيق ويغنى أحد الرجال أغنية يعقبها تصفيق وتهليل ، وقد تطلق قذائف نارية والغناء يدور حول الشجاعة والمروءة والوفاء والهوى العذرى . وإذا جاء يوم العرس أعد هودج على جمل قوى ثابت وتركب العروس ومعها زميلات لها من أحب الناس إليها وأقربهن ويسير المركب من جمال عدة خلف العروس وقذائف نارية ، وقد يتقدمه خيول أولاعبو العصا ، وإن مر الموكب ببلد به عرب أوفلاحون كرماء فلابد من وقفة طويلة ، وتقدم الدعوة والقهوة والتحيات . وأحيانا تذبح الذبائح وتقوم المعارك والأمر يومئذ لله . ومن عاداتهم فى الأعياد أن يجتمع أهل كل جهة فى مكان واسع منزل (دوار) من عصر يوم وقفة العيد ، وإذا ما أذن المغرب مدت الموائد محملة بأنواع الطعام فيأكلون ويشربون ويسهرون حول قارئ للقرآن أو مستأنسين لحديث ، وكثيرا مايخرج النساء إلى المقابر من عصر ذلك اليوم ومع كل طعامها وماتتصدق به على موتاها ، وقد يقضى النساء ليلة فى المقابر وهى عادة قبيحة مذمومة كاد يقضى عليها . وفى صبح العيد يخرج الناس إلى المساجد رجالا وشبانا فيصلون العيد ويرجعون إلى مكانهم العام ، وعقب خروجهم من المساجد يجدون دائرة واسعة من الناس كل يسلم على أخيه مهنئا له بالعيد ولايترك أحدا وإلا عد خارجا على العادة ثم يجتمعون للطعام ، ويكثر السائلون ولايقل المتصدقون ثم يتزاورون فى البيوت والمجالس والأندية ، وللأطفال فى أيام العيد ألاعيب مفرحة فأرجوحة ولعب صغيرة ؛ وللشبان لهو وعبث قد يكون بريئا وقد يكون بغيضا محرما .

وفى مولد الرسول من أول يوم فى شهر ربيع الأول تنصب الخيام وتقام السرادقات ، وتتزين الأندية ؛ وفى كل ليلة من ليالى هذا الشهر يحتفل مشايخ الطرق ، فيسير كل شيخ فى وسط صفين من رجاله بيدهم الشموع والمصابيح ويرتلون صلوات ودعوات وأذكارا . وفى الليلة الثانية عشرة يتوجه رجال الطرق فى مواكب حافلة ، ولكل شيخ إعلان مكتوب على قطعة من النسج حمراء أو خضراء أو بيضاء ، تعلن عن الطريقة وعن شيخها وعن مكانها ، ويذهب الجميع إلى الزقازيق حيث أعد لهم سرادق كبير ، ويسلمون على النائب العام ويقفون بين يديه طويلا أو قصيرا حتى يأذن لهم ثم يعودون إلى قراهم وبلادهم مسرورين . وفى القرى

تقرأ القصة النبوية بروايات مختلفة وأنغام سارة . من قارئين وقارئات وتحتشد المجالس بالذاكرين الله كثيرا والذاكرات . ويتسابق الناس فى هذه الأيام المباركة بإطعام الطعام على حبه مسكينا ويتيما وفقيرا .

ومن عاداتهم فى المآتم إذا مات كبير موسر أحضر أهله ثورا أو أكثر وذبحوه تحت نعشه طلبا أو ابتغاء مرضاة الله وتقام الساحة (المأتم) ثلاث ليال وقد تمتد إلى أسبوع أو أكثر عند البدو ، وعند الفلاحين يكتفى بليلتين فى الغالب وبليلة واحدة فى القليل . ومن النادر أن يكتفى بالعزاء على المقبرة .

وعند العودة من المقبرة ، يقيم الموسرون القادرون سرادقا كبيرا مفروشا بالبسط الوثيرة وبه كراسى مصفوفة وزوايا مضيئة وأرائك مذهبة وشيخ مشهور يقرأ القرآن وأمامه مكبر للصوت ، ويسارع أهل القرى المجاورة من أهل البلد والأصدقاء والعارفون به لتعزية أهل الميت ، ويغالى الناس فى ذلك أو يقتصدون تبعا لثروتهم . ومن العادات الرديئة أن يسير النساء خلف الميت معولات باكيات ، ويقام لهن سرادق خاص به ثور وطعام وشراب وحديث وقصص وويل المقصر الذى لايقدم لهن مايشتهين .

أما أخلاق الشرقية فهى راجعة إلى عروبتهم الأصلية وطبيعتهم الأبية . ولا يشاركهم فى بعضها إلاقليل من أهل الصعيد وأوطان الكرم . فالضيف الذى ينزل بأهل القرى من أبى كبير وفاقوس وكفر صقر ومعظم بلاد الشرقية حينما يراه صاحب منزل يبدو وجها ضاحكا مستبشرا ويلقى أهلا وسهلا ويسمع حديثا عذبا ويقدم له القرى من أطيب اللحم وأجوده ، ويزدحم الناس حوله مرحبين بمقدمه مكرمين مثواه ، وكل يبسط له الدليل ليكون ضيفه ولسان حاله يقول :

عرج علينا فأقم ساعة   فعندنا إن شئت روح وراح

وإن نزل الواحد ضيفا برجل أصله عربى أو خالط العرب وقبس من طباعهم سارع المضيف وذبح خروفا وقدم للضيف مايشتهى ومايطلبه ومايليق وأى بعيب اللحم ، والعرب خاصة معرفة بأعضاء الذبيحة . فمنها مايقدم ومنها مايحجب عن الضيف . وبعد إتمام العشاء يجتمع خلق كثير حول الضيف ويختارون لهم قاضيا من بينهم عرف برجحان العقل والوقار ويقدم كل له مايجعله أولى بالضيف من غيره ، ويعيد القاضى على الجمع حجة كل ودليله ثم يقضى بينهم بالعدل ، فإن رضوا قبلوا ، وإن اختلفوا اختاروا ثلاثة من القضاة وقدموا أدلتهم من جديد وحكمهم نافذ مطاع والضيف مستمتع مسرور بما يسمع ويرى وشاعر أنه استبدل أهلا بأهل وجيرانا بجيران . ونشأ عن حبهم للكرم وأفعالهم فيه إشاعة أنهم ، أقاموا القطار مأدبة ، ولايعلم فى أى مكان من الشرقية كان ذلك فقيل فى أكياد وقيل بأبى كبير وقيل بالصلوحى وهذه إشاعات للتفكهة .

ومن كرمهم مواساة من عنده مناحة ، إذ يخرجون الموائد مرتين فى اليوم وثلاثا مدة المناحة ، وإطعام الطعام فى شهر رمضان قبيل المغرب للسائل والغريب والضيف .

ومن أخلاقهم الشجاعة ، فهم لايبطئون فى حماية الغريب والجار والضعيف إن نزلت به نازلة أو أصابه دائرة ، أو حل به ضيم ، شمروا عن سواعدهم وحملوا عصيهم وأسلحتهم ومنعوا جارهم وردوا العدوان ؛ إن استغثت بهم أغاثوك ، وإن استنصرتهم نصروك ، وإن لجأت إليهم حموك وأعزوك ، وعندهم الغيرة والعفة ؛ فالمرأة فى الشرقية محجوبة مستورة مصونة ، والرجل يغار على أهله ، ويحمى عرينه ، ويصون عرضه بماله ، ويردد :

أصون عرضي بمالي لا أدنسه   لا بارك الله بعد العرض في المال

ولعل مدن الشرقية التي انبثت من الحضارة والمدنية احتق فيها الكرم والغيرة والعفة وكثير من الصفات التي جاءت بها المدنية .

ومن أخلاق الشرقية صفاء القلب وسلامة النية ونقاء الضمير ، حتى شاع في كثير من الجهات أن أهل الشرقية فيهم سذاجة ، ويسهل التغرير بهم وخداعهم ، فكم من رجل وقع في يد الماكرين والدهاة والشطار، فحتال ، ولص ، وقاتل ، ينزلون عند رجل كريم ، وبالحيل البارعة والأحاديث الملفقة المزورة ، يرجع كل مملوء الوطاب ، وكم من رجل من الشرقية قدم إلى مدن تخدعه الزينة والبهرج وتتقاه البارعون فسرقوا متاعه وماله ورجع خائبا وهو حسير . ولكن انتشار التعلم والتجارب وانقراض الجيل القديم والحرص على الدنيا جعل أهل الشرقية في هذه الأيام في مكانة مرموقة غيرت المعروف عنهم من البله ، بل ربما روى عن بعضهم قصص في الدهاء والمكر تذهل العقول ، وتغلب الساحرين .

ومن أخلاقهم الصدق والصراحة والبرء من الغش والنفاق والمداهنة ، وفيهم روح البر بالوالدين والإحسان إلى الأهل والأقربين .

وحرمة الدين عندهم مقدسة ، فهم يجلون العلماء ويقدمونهم ورجال الدين لهم الكلمة العليا بينهم ، وكثير بينهم المتصوفة والأولياء الصالحون ، وانتشرت مزارات الأولياء .

وفي مولد الشيخ أبي مسلم قرب بلدة بحطيط ينزح أهل الإقليم ومعهم نساؤهم وأطفالهم وخيامهم ومذابحهم، ويمكثون أسبوعا في الصيف ويطعمون الطعام ويوفون بالنذر ، ويزورون الشيخ ويتبركون به ويستمعون المغنين والمغنيات والقارئين والذاكرين ، ويرون أنواعا من اللهو والعبث والمفاتن منها ماهو حلال ومنها ماهو حرام . وبعض الأغنياء ينفقون فيه عن سعة ويعدونه مصيفا لهم ويرجع الناس منه بحمر الحقائب بالحلوى والحمص والسمك المملح . والمعيب فيه اختلاط النساء بالرجال وارتكاب كثير من المحرمات .

ومن أخلاق الشرقية الشجاعة التي ضربت بها الأمثال في القديم والحديث ، فتقوم المنازعات بين الأفراد والأسر لأوهى سبب ؛ وتراق الدماء وتزهق الأرواح ، للذود عن العرض ، وللدفاع عن الحق ، ولنصرة الضعيف والمظلوم ، ولرد العدوان ولا يضعون السيف حتى تضع الحرب أوزارها .

ومن أخلاقهم العفو فإذا نلت أحدهم بمساءة وقدمت إلى بيته فلا جناح عليك فيما فعلت وترى صدراً رحبا وعفواً جليلا وصفحا جميلا .

وأهل الشرقية مسامح . تذهب إلى الكثير منهم طالب حاجة فتنزل عنده منزلا مباركا وتوفى سؤلك وتقضى طلبك وتنقلب إلى أهلك مسرورا . ومن عاداتهم الناشئة عن الشجاعة حبهم لاقتناء الجياد المطهمة والخيل المسومة ؛ إذ يعنون بها عناية فائقة ؛ فيأتون بها من الشام معروفة النسب ، ويربونها ويستولدونها ويركبونها للزينة ، وللسباق ، وللسفر ، ويضعون على متونها سرجا محلاة بحرير كأهداب الدمقس المفتل ، ولها لجم من فضة أو ذهب ، ويرددون قول المتنبي :

وما الخيل إلا كالصديق قليلة ... وإن كثرت فى عين من لم يجرب

وبعد ، فهذه العادات والأخلاق لاتزال منتشرة شائعة بين القرى عند الفلاحين وعند العرب وتكاد تضعف حتى لايرى فيها أثر فى المدن . ومن يحكم على أخلاق الشرقية بما يرى فى المدن فهو ظالم لنفسه ولقوم طبعوا على الفضائل ، وورثوا المكارم . ومن أراد الوقوف على الحقيقة فليزر القرى والعرب وسيراهم :

ضربوا بمدرجة الطريق خيامهم ... يتقارعون على قرى الضيفان
ويكاد موقدهم يجود بنفسه ... حب القرى حطبا على النيران

وما أصدق قول القائل :

لا تمدحن امرأ حتى تجربه ... ولا تذمنه من غير تجريب
فحمدك المرء ما لم تبله خطأ ... وذمك المرء بعد المدح تكذيب

محمد محمد راشد
المدرس بالزقازيق الثانوية

الأخلاق الكريمة

فى مديرية الشرقية

الشجاعة — الكرم — العفاف والغيرة — الصدق — البر والدين

الشجاعة :

إن إقليم الشرقية قد أشربت نفوس أهله شجاعة حقة بما وقر فيها من مظاهر البسالة الرائعة ، لامتزاج الأهلين بالعرب الوافدين على مصر منذ فجر التاريخ . وقد توالت وفودهم على مصر ، واستوطن أغلبهم هذا الإقليم وصاهروا أهله ، وارتبطوا بهم بوسائل مختلفة حتى زالت من نفوس الكثيرين منهم النعرة العربية إلا قليلا من القبائل حافظ على صبغته العربية فى المصاهرة والعادات دون اللغة وأسباب النفع والحضارة ؛ وتجلى مظهر الشجاعة فيهم فى بدء الدولة العباسية لما أراد الرشيد الزيادة عليهم فى الخراج ، فأبوا الخضوع لأمره ، إذ عدوه ظلما صراحا ، وحدثت بينه وبينهم مواقع حربية (بمنية مطر ، وهبا ، وصان ، وفاقوس) واضطر إلى أخذهم بالحيلة ، واستمروا يدافعون عن مبدئهم بشجاعة حتى كان عهد المأمون ، فزارهم فى محرم سنة ٢١٧ ﻫ وخفف من غلوائهم بزيارته . وفى عصره استقل طاهر بن الحسين بإقليم الشرقية ، وجعل بلبيس قاعدة لإدارته . ولما جاء المعتصم أعجب بشجاعتهم ، فاتخذ منهم حرسا سماهم المغاربة ، فناصروه فى الحروب الأسيوية ، وبخاصة فى المواقع التى دارت بينه وبين « بابك الخرمى » وكان قائدهم الأفشين الأكبر سنة ٢٢٢ ﻫ.

وقد حالفتهم الشجاعة حتى عصر المماليك فناصروهم على العثمانيين بالصالحية وغيرها : كما قاوموا الحملة الفرنسية بسالة نادرة، وإباء كريم، حتى أسر زعيمهم عبد الرحمن العايدى زعيم عرب الشرقية (هو رأس أسرة الأباظية بالعايد) وما يبعد مناصرة الحوف الشرقى، مديرية الشرقية، لمحمد على باشا كما يخبرنا التاريخ بذلك، حتى منحهم عطفه، وأصلح أرض «التل الكبير»، وحفر بالشرقية أم بحر، لا نزال آثارها بين ظهرانينا. وغرس بها نحو ألف ألف شجرة من التوت لتربية دودة الحرير. وأنزل بها بعض الأسر النابهة فى الزراعة بالصوة والوادى.

طوى ذلك البساط بما فوقه من الجياد المدربة، والأبطال البسل، والحروب المتشابكة، ونشر بساط آخر والناس فوقه نيام فى حراسة الشرط والجند.

ولكن بذور الشجاعة وإن اعتورها مايمنع نموها وازدهارها لم تمت فى نفوس أهلها، فقد ظلوا كراما يأبون الضيم، ويتمسكون بمبادىء الدين الحنيف الذى يؤيد الشجاعة الحازمة بعيدة عن التطرف، ويقذر الجبان بأفظع عقوبة على جبنه إذ يقول الله تعالى: «ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة، فقد باء بغضب من الله، ومأواه جهنم وبئس المصير».

فإذا أتاحت الظروف لهذه الشجاعة أن تعين أهلها، وتحفظ عليهم كرامتهم وشرفهم لبوا نداءها سراعا، وأمدوها بالنفس والمال، وارتخصوا فى سبيلها كل نفيس وغال.

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

وكثيراً ماترى المشاجرات الدامية تنشب بين بلدين أو أسرتين لاختلاف على سق مشترك، أو كلمة جارحة للشرف، أو اعتداء على حق، ولا يسع المديرين والحكام إلا التوسط بين رءوس تلك البلاد والأسر وإصلاح ذات البين: لأن يد السلطة وصدر القانون لايتسعان لنضال هذه الشجاعة، ولا يقويان على قتل هذه الخصلة المتأثلة فى النفوس: وثم ظاهرة أخرى لهذه الشجاعة التى حالفت أهلها، ولم يقو الجامع الأزهر معهد العلم الشريف — على توديعها على الأبواب ريثما تنفض حلقات الدروس حتى رأينا المعارك تقوم بين طلاب الشرقية وطلاب الصعايدة لأتفه الأسباب: لأنهما يستمدان الشجاعة من الروح العربى الكريم الذى يتغلغل فى نفوسهم، ولئن كانت الحضارة والعلم والدين خضدت من شوكة الشجاعة فأخفت كثيراً من مظاهرها، فإن الشجاعة الأدبية قد نابت عنها لأننا لم نزل بعد فى حاجة ماسة إلى معونتها لنا فى جميع أمورنا: فإن أهل الشرقية لايخشون أن يشهدوا على المجرم الأثيم، والفاتك الجرىء، فيقضوا على أسباب الجرائم، ويعينوا الحكام على أداء أعمالهم، ويخضعوا النفوس لسلطان الحق والقانون والله تعالى يقول: «ولا تكتموا الشهادة، ومن يكتمها فإنه آثم قلبه»، فكل فرد من أهلها تتدفق منه حياة وعناية بجميع شئونها حتى يريك من نفسه فرداً واحداً كأنما أفرغت فيه أمة بأسرها، وليس يضيرها فى ذلك أن تتضاءل فيها نسبة التعليم عن سواها من المديريات الأخرى، فإن العالم الذى يفقد الشجاعة يفوت الناس فى أكثر المواضع أن ينتفعوا بعلمه، وذا الرأى تعوزه الشجاعة ليدلى إلى الناس برأيه، وإن الشخص ليبنى له بيتاً من المجد بخلق واحد

يكون فيه : وإليك أمثال حاتم والسموءل وعنترة والأمة العربية التى لم تبلغ ما بلغت فى الإسلام إلا بالشجاعة والأمجاد .

الكرم :

وهو أخو الشجاعة — رضعا معاً لبان الفضيلة ، وترفعا عن صفات الرذيلة ، وتطلعا إلى النبل ، وضمنا لأهلهما السؤدد والشرف الرفيع ، وقد استبان حظ أهل الشرقية من الشجاعة . أما الكرم فكان الوسيلة للحفاوة بالوفود العربية التى احتلت هذا الإقليم فى أوائل القرن الثانى من الهجرة ، وكانوا من أشرف بيوتات العرب ، وفشو الكرم فيهم حبب إلى العرب مصاهرتهم ومجاورتهم ، ولا تزال هذه الظاهرة فيهم حتى إنهم ليفون لأصدقائهم بواجب الولاء ، ويقومون بضيافتهم ، ولو أدى ذلك إلى انتزاع أموالهم وفقد ضياعهم وأملاكهم ، ولدينا أسر كثيرة هوت إلى هوة الفقر فى مركز فاقوس وغيره من جراء ذلك ولكن بيوتها المجيدة لا تزال تنطق بالفخار لهذه الأسر العريقة فى الكرم والوفاء .

وقد أفضى الكرم بأهل إكياد عندما أنشئت سكة الحديد ومر أول قطار من فاقوس إلى الصالحية أن دعوا موظفى القطار لحفل أقاموه على قضبان الطريق ، رجاء أن ينزلوا على إرادتهم فى ضيافة كريمة ، ولكن سائق القطار كان إنجليزياً فلم يحفل بدعوتهم ، ولم يأبه لكرمهم ، ودهم طعامهم ، وضرب المثل بهم من ذلك الحين « بأن الشرقية عزمت الوابور » .

وقبل انتشار السيارات كانت العرائس تنقل على الجمال فى الهوادج ، فإذا مرت على قرية فى طريقها هب أهل القرية لدعوتها إلى ضيافتهم ، ورفعوا رأس الذبيحة على هراوة طويلة (نبوت) فيأبى وفد العروس الدعوة غالباً اعتزازاً بشجاعتهم ، وإدلالا بها أمام عروسهم كعادة العرب الأولين وائلا يتأخروا عن الساعة المضروبة لوصول العروس إلى بلدها ، فتقوم المعارك الشديدة بين الفريقين ، ويعتبرون الشرف فى انتصارهم ورفض الدعوة .

وإليك بعض عاداتهم فى المآتم إذ لا تزال بعض القرى تخرج الموائد من بيوتها بجانب مائدة أهل المأتم مرتين فى اليوم ، وتستمر طيلة أيام المأتم الثلاثة ، كما أن كثيراً من القرى فى شهر رمضان لا يزالون يخرجون موائدهم ، ويضعونها بعضها بجانب بعض على جانبى الشارع قبيل الغروب ، ليطعموا السائل ، والغريب ، والضيف .

الغيرة والعفاف :

قد حالف عفاف الشرقية الزمان حتى ضرب بأهلها المثل فيه ، فقد شهد أحد أمراء الوجه القبلى ابنة أمير بوباستس فى حفل ، فطلبها لنفسه وعرض عليها أموالا وافرة فردتها قائلة للرسول : « اذهب فلست بغيا أساوم بالمال ، ولن ينال ودى مادمت حية » .

وكان لتعاليم سيدنا سليمان عليه السلام ، صهر شيشنق الشرقاوى أعظم الأثر فى الشرقية ، وكلها تحض على مجانبة المرأة الأجنبية والتحذير من الوقوع فى أشراك النساء .

وعرفت الشرقية بالعرب فى صدر الإسلام ، وكانوا أحرص الناس على الائتمار بأوامر القرآن الكريم التى تحث على العفاف ، وأمامنا الزقازيق ومراكز الشرقية لم تمش نساؤها كثيراً مع المدنية وإن أخذت منها بحظ ؛ فذلك فيما لايمس شعور الغيرة وأنف العفاف .

وإذا رأى الأهلون بعض الخارجات على الحشمة والآداب فى أزيائهن ومشيهن ، ميزوهن وعرفوا أنهن غريبات عن الشرقية .

الصدق :

ولقد التزموا الصدق فدعاهم ذلك إلى الصراحة فبرءوا من الغش والنفاق والمداهنة ، وذهب عنهم الرياء وخلف الوعد والخيانة ؛ لأن هذه الرذائل وليدة الكذب ، والصدق حافظ من الوقوع فيها ، وقد رماهم أهل المديريات الأخرى بالبله (العبط) بسبب ذلك ، ولكن انتشار التعليم ، وكثرة الانتقال ، وتبادل المنافع أزال عن بصائرهم غشاوة البله ، وقلة التجربة ، فأدركوا الحسفيين .

البر :

وقد كشف لنا التاريخ عن صاحب بقرة بنى إسرائيل ، وأنه كان من هيروبوليس (صفط الحنا) وحادثه أقوى دليل فى حوادث التاريخ على بر الوالدين .

فقد حدث البخارى عنه أنه لبث ليلة يحمل كوب اللبن على يده ريثما تستيقظ أمه المريضة ، فلم تتنبه حتى الصباح ، فلما رأته على تلك الحال عز عليها ماتجشمه من أجلها . فقال لها : والله يا أماه ماجزيتك ولا بزفرة واحدة فى الحمل بى .

ولما أخذوا بحظ وافر من الدين الإسلامى على أيدى العرب الفاتحين والمجاورين ، نشأ فيهم روح البر بالآباء والإحسان إلى الأهل والأقرباء ، بخلاف مانرى ونسمع فى المديريات الأخرى من عقوق الأبناء لأهليهم إلى حال تفضى للقتال ، وتنتهى إلى المحاكم .

ولما رأى المتصوفون وأهل الورع والتقوى كرم هذه المديرية وعطفهم على الدين ، وعظيم تقديرهم لأهله وفدوا عليها فصارت مزرعة خصبة لهم ، فكثر الأولياء فى صحاريها وقراها ، وكلهم قد أبدى من الكرامات ما كان له أطيب الأثر فى البيئة وتقوية روح الاعتقاد فى الله ، وجر ذلك إلى إحياء الموالد لأولئك الأولياء فروجت التجارة الوطنية البسيطة ، ونشطت المواصلات ، وأنعشت الفقراء والمساكين ، وأشبعتهم ثريداً ولحماً وفطيراً وخبزاً ، وطأطأت من كبرياء المتفرنجين من الطوائف المتعلمة .

وقد نشأ عن ذلك أن اندس بين المتصوفين كثير ممن لا خلاق لهم تدفعهم المادة والتماس العيش الرغد فلم يخف أمرهم على كثير من المثقفين فطاردهم الناس ، ونكصوا على أعقابهم خاسرين ، وأخذت الأذهان تتنبه إلى أمثالهم ممن خلطوا عملاصالحاًوآخر سيئاً من أبناء الصالحين فقد كشف نورالعلم عن هذه الجرائيم الفاتكة فى جسم المجتمع ، وأعانه على ذلك المنبت الكريم ، والخلق القويم عند الكثرة الغالبة من أهل هذا الإقليم .

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت   فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

المراجع التاريخية :

(١) تاريخ ابن الأثير   (٢) تاريخ ابن خلدون   (٣) تاريخ الطبرى
(٤) النجوم الزاهرة   (٥) معجم البلدان

حرر المقال

ابراهيم والى

المدرس الأول بمدرسة محمد على الثانوية

٦ فبراير سنة ١٩٤٠

لهجة إقليم الشرقية وتقريبها من اللغة العربية

نسمع كل يوم من حديث العامة فى الشرقية ألفاظاً ذات جرس عربى يستعملها تلاميذ هذا الإقليم فيما يكتبون ، وتكون فى أول نظرة عرضة لأن يجنى عليها القلم الأحمر فيقتلها بشبهة عاميتها ، أو تكون عرضة لأن يحبسها قوسان بحجة إسفافها وابتذالها باستعمال العوام لها ، أو بتوهم أعجميتها ، لولا ما يكشفه البحث فى المعجمات من تأصل عربيتها أو سلوكها مسلك المجاز فى استعمالها ، ولولا ما يثبته الاطلاع من براءتها من الإسفاف بإيرادها فى حكمة بالغة ، أو مثل سائر ، أو قول مأثور .

ولما كان من عمل مدرس اللغة العربية إصلاح عبارات التلاميذ وما يكتبونه لفظاً وأسلوباً — وكثيرا ماتجىء عباراتهم مشحونة بألفاظ دخيلة أو محرفة — كان لزاما أن يسير مع عمـل كل أستاذ بحث مستمر فى مفردات اللغة ، وبخاصة مايكثر دورانه فى البيئة التى يعيش فيها الطلاب . فبهذا البحث يحيا من اللغة ألفاظ يتسع بها مجال التعبير فى إفهام العامة من غير التجاء إلى استعمال ألفاظ أجنبية (عامية) .

إذن لاجدال فى أن أساتذة اللغة العربيـة فى كل إقليم هم الذين يستطيعون أن يقربوا كثيراً من ألفاظ العامة إلى لغة الخاصة ، وهم الذين يوجهون الشاذين من الطلاب إلى البحث فى الوشائج والصلات بين العامية والعربية . وبذلك تثرى اللغة ، وتقل الأخطاء التى تتعثر بها أقلام الكاتبين ، فاعملوا يارجال اللغة مااستطعتم .

هذا ولقد نظرت فى لهجة إقليمنا « الشرقيـــة » نظرة قصيرة وقفتنى على صدق ماقاله أساتذتنا : « إن لهجة الشرقية أقرب إلى العربية من لهجات الأقاليم المصرية كلها » فلقد رأيت نطق أهل الشرقية لكثير من الألفاظ يجرى على سنن بعض القبائل العربية ، فن ذلك :

(١) كسرهم حرف المضارعة ، فيقولون فى نحو « لعلك تدخر اليوم ما ينفعك غداً » (لعلك تِدخر اليوم ما يِنفعك غداً) .

ولغة بهراء وهى بطن من تميم كسر حرف المضارعة مطلقا . قال شاعرهم :

لو قلت ما فى قومها لم تِيثم   يفضلها فى حسب وميسم[١]

---

(١) الميسم : الحسن .

أراد ما فى قومها أحد يفضلها . فالفعل « تيثم » أصله تأثم ، فكسر التاء ثم قلب الهمزة ياء .

(٢) قلبهم الهمزة الساكنة حرفا من جنس حركة ما قبلها ، فيقولون فى رأس وبئر وشؤم « راس » و « بير » و « شوم » ، ويقولون فى جئت « جيت » .

وهذه لغة تميم .

(٣) حذفهم نون من ، إذ وليها ساكن فيقولون فى خرجت من البيت ، ورجعت من السوق « خرجت مليت ، ورجعت مسوق » .

وهذه لغة لبعض قبائل اليمن .

(٤) تأنيثهم كل صفة على « فعلان » بالتاء فيقولون فى مؤنث عطشان وغضبان « عطشانة وغضبانة » .

وهذه لغة بنى أسد الذين يصرفون كل صفة على فعلان لأنهم يؤنثونه بالتاء كما فى الأشمونى ، ثم تتبعت طائفة من الألفاظ المستعملة فى كلامهم فرأيت منها العربى الصميم السائغ الاستعمال على سبيل الحقيقة أو المجاز ، والعربىّ المشوب بتحريف فى ضبطه أو بتغيير فى بعض حروفه أو بقلب فى أوضاعها ، وجمعت قدراً من النوعين ، وشفعت كل لفظ بدليله ، وقصدت بما جمعته التمثيل ، وعقدت الأمل على اتساع هذا البحث وإعمال حضرات الأساتذة والطلاب فيه .

وهذه طائفة من الألفاظ العربية الواردة فى أحاديثهم :

(١) يقولون « فلان يكدش من هنا وهنا ويحط فى حجر مرته » .

فالفعل « يكدش » صحيح . قال فى اللسان : كدش لعياله يكدش كدشا : كسب وجمع واحتال . ورجل كداش : كساب ، والفعل « يحط » صحيح أيضا . ففى القاموس الحط : الوضع . زاد الشارح ، حطه يحطه حطا واحتطه ؛ و « المرة » لغة فى المرأة . قال فى المصباح : ويجوز نقل حركة هذه الهمزة (أى همزة المرأة) إلى الراء وتبقى « مرة ، وزان ، سنة » .

(٢) وتقول المرأة لزوجها « كش فى الولد خليه يروح الكتاب » ، تريد ازجره .

و « الكش » بمعنى الطرد والزجر صحيح . قال فى التاج « والكش أيضا الطرد والزجر » .

و « يروح » أى يذهب . قال فى المصباح « والرواح والغدوّ عند العرب يستعملان فى المسير أى وقت كان من ليل أو نهار ، قاله الأزهرى وغيره » ، وعليه قوله عليه الصلاة والسلام « من راح إلى الجمعة فى أول النهار فله كذا » أى من ذهب .

(٣) ويقولون لمن غضب فى تعبس « فلان عليه برطمه شينه » .

قال فى اللسان : « البرطمة ، الانتفاخ غضباً . وبرطم الرجل : أدلى شفتيه من الغضب . وفى اللسان أيضاً الشين معروف خلاف الزين . ثم قال عن أبى منصور : والعرب تقول وجه فلان زين أى حسن ، ووجه فلان شين : أى قبيح ذو شين . فقولهم « شينة » محرفة من وجهين : كسر الشين ولحاق هاء التأنيث ، والشين مصدر لا يؤنث وإن وقع وصفا لمؤنث

(٤) ويقولون لضعيف البصر « يشوف طشاش » .

قال فى مستدرك التاج : الطشاش بالفتح : ضعف البصر ، ومنه المثل «الطشاش ولا العمى» اه . وهذا المثل يجرى كثيراً على ألسنة أهل الشرقية . وفى المستدرك أيضاً : رجل شواف كشداد : حديد البصر . فشواف صيغة مبالغة محولة عن شائف ، فلا بد أن يكون لها فعل ثلاثى عمات ، والعامة أحيته فقالوا : شافه يشوفه إذا نظر إليه . والمستعمل فى اللغة اشتافه : شامه وأبصره .

(٥) ويقولون لمن يكثر الكلام « إنته كثير الدش » .

قال فى التاج : الدش كثرة الكلام ، يقال فلان يدش ، وهو كناية . والتحريف فى ضمير المتكلم لا يخفى .

(٦) ويقولون « فلان يدروش » أى يكثر الكلام ويخلطه .

قال فى التاج : الدروشة : اختلاط الكلام وكثرته ، أهمله الجماعة ، وهو مستعمل فى كلامهم كثيراً فلينظر .

(٧) ويقولون « بلاش وشوشه » و « على إيه توشوشوا » .

فى القاموس وشرحه : والوشوشة : كلام فى اختلاط حتى لا يكاد يفهم ، والسين لغة فيه . وفيهما توشوشوا : همس بعضهم إلى بعض . والتحريف ظاهر فى اللفظين .

(٨) يقولون « إنته خليت الطحين جريشة » أى لم ينعم طحنه

فى القاموس : جرش الشئ : لم ينعم دقه فهو جريش ، والتحريف بالتأنيث .

(٩) ويقولون « رايحين نطبخ جشيشه أو دشيشه » .

فى مستدرك التاج : الجشيش : الحب حين يدق قبل أن يطبخ ، فإذا طبخ فهو جشيشة ، وفى الحديث : « أولم صلى الله عليه وسلم على بعض أزواجه بجشيشة » ويقال لها دشيشة بالدال .

(١٠) وتقول المرأة لبنتها « نزلى الوقيد من على السطح يابه » .

فى اللسان : الوقيد : الحطب كالوقود والوقاد .

(١١) وتقول لها أيضاً « عايرى العجين » تريد كيلى الدقيق الذى يعجن ، فسمت الدقيق عجيناً باعتبار ماسيكون ، والمعايرة التقدير كما فى كتب اللغة .

(١٢) ويقولون إذا سمعوا أصواتا مختلفة «إيه الزيطة دى» ويقولون «فلان زايط» أى فرح . فى التاج : الزياط الصوت المختلف ، وقد زاطت الأصوات وهاطت إذا اختلفت : فالزيطة المرة والتحريف بكسر الزاى وفى القاموس : زاط أى صاح ، ومن شأن الفرح أن يصيح طربا ، وزايط : اسم فاعل والتحريف فيه بعدم قلب الياء همزة .

(١٣) ومن شتائمهم « يانتف » يريدون أنهم مهينون لا قيمة لهم .

فى التاج : النتف : مايتقلع من الإكليل الذى حوالى الظفر ، فالشاتمون يستعيرون هذا اللفظ لحقارة مدلوله ، فيطلقونه على من يهجونهم .

(١٤) ويقول من أفلت حيوانه لمن يمسك عليه : « حوش على يافلان »

فى التاج : حاش عليه الصيد يحوشه حوشا وحياشا : إذا ساقه إليه وجمعه عليه .

(١٥) ويقولون « فلان يحوش كثير كل سنة » .

فى القاموس وشرحه : التحويش التجميع ، وقد حوش إذا جمع

(١٦) ويقولون « عدنا فى الدغشه بدنا نروح » .

عن ابن الأعرابى : هى الدغشة بالضم والدغشة أى الظلمة ، و « عدنا » أى صرنا و « بدنا » بودنا « نروح » نذهب ، وتضعيف عين الفعل تحريف .

(١٧) ويقولون لمن يدعى القوة « الولد عامل نفسه فرفور » .

فى التاج : الفرار كغراب : البهم الكبار واحدها فرفور اه فهم يقصدون بذلك تشبيه بالفتى من البهم .

(١٨) ويطلقون على صدع الجدار أو الخشب « فرز » ، وهذا الإطلاق صحيح .

فى المستدرك ، قال شمر : كنت بالبادية فرأيت قباباً مضروبة فقلت لأعرابى : لمن هذه القباب ؟ فقال لبنى فزارة فزر الله ظهورهم ، فقلت : ماتعنى به ؟ قال « كسر الله ظهورهم » .

(١٩) ويقولون إذا أحدقوا بالطعام « إتخر يافلان أنت متفرشح ليه » . « اتخر » أى تأخر لكن المراد تفسح ، ومتفرشح كلمة صحيحة ؛ فنى التاج تفرشح فلان : أخذ مكاناً واسعاً فى جلسته

(٢٠) ويطلقون على الخالى من العمل كلمة « فاضى » وهو إطلاق سائغ ، فنى اللسان : الفاضى : الواسع والخالى ، فالإطلاق مجازى .

(٢١) ويقولون لمن يكظم غيظه « كمت الغيظ » ولمن كتم الشهادة « كمى الشهادة » وكلاهما صحيح ، فنى القاموس : كمت الغيظ : أكنه .

وفى اللسان : كمى الشهادة يكميها كميا وأكماها : كتمها وقمعها قال كثير :

وإنى لأ كمى الناس ماأنا مضمر مخافة أن يثرى بذلك كاشح

« يثرى » أى يفرح .

(٢٢) وتقول المرأة لجارتها « والله ياختى ماخدنا من الجاموسة إلا شخبة » تريد إلا قليلا من اللبن ، وفى القاموس : الشخب (بالفتح) ويضم : ماخرج من الضرع من اللبن ... والشخبة بالضم الدفقة منه ، فالتحريف بفتح الشين .

(٢٣) ويقول الرجل لمن أطعمه « الحمد لله أنا أكلت هرسه يافلان » يريد أكلت كثيراً .

وفى اللسان : عن ابن الأعرابى هرس الرجل : إذا كثر أكله . الهرسة المرة .

وهذه طائفة من الكلمات التى يستعملونها محرفة بإبدال حرف بآخر أو حركة بحركة أو بزيادة حرف أو حرفين .

(١) فيقولون « ربنا يتعنا من العذاب ده » أى يخرجنا منه ويرفعه عنا

« اتنع الحجر على كتفك » أى ارفعه

ويقولون للمرأة حين تلد ، الله ينتعها ، أى يسهل عليها الولادة ويرفعها عما هى فيه .

، فالنتع ، أصله النتق ، فأبدلوا بالقاف عيناً لقرب مخرجيهما

ففي اللسان : نتق الشئ (من باب نصر) نتقا : جذبه واقتلعه ، وفى التنزيل ، وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة ، أى زعزعناه ورفعناه ، وكلمة ، ده ، فى العبارة الأولى أصلها ذه اسم إشارة .

(٢) ويستعملون الفعل ، مزع ، بمعنى كذب وافتخر افتخاراً زائفاً ، وصوابه مذع بالذال .

فى اللسان : رجل مذاع كذاب ، وقد مذع (من باب فتح) إذا كذب ، ومذع فلان يميناً إذا كذب .

(٣) ويقولون ، كان فى الغوشه عريان ملط ،

، الغوشه ، صوابها الهوشة . قال فى القاموس : الهوشة : الفتنة والهيج والاضطراب والاختلاط .

، والملط ، صوابه مرط . قال فى اللسان : سهم أمرط ومريط ومراط ومرط : لاريش عليه

، وعريان ، صوابه ضم العين

(٤) ويقولون ، الفجرى سرق الجدى ومتح ، .

، الفجرى ، عندهم اسم لكل من لم يتخذ له موطناً ، ومتح ، صوابه متع . قال فى اللسان : متع بالشئ : ذهب به .

(٥) ويقولون ، فطت الفرخة فى الخرابة ، .

،فطت، صوابها : نطت .

قال فى مستدرك التاج : وقول العامة . . . أصله نططت : إذا قفزت فى هوة من الأرض . و ، الخرابة ، صوابها الخربة . قال فى اللسان : الخربة : موضع الخراب والجمع خربات وخرب .

(٦) ويقولون ، فلان نطاط ، إذا كان يكثر الانتقال من مكان إلى مكان ، وهذا الاستعمال صحيح .

قال فى المستدرك : والنطاط كشداد الكثير الذهاب فى الأرض والقفاز والوثاب .

(٧) ويقولون ، القتيلة مدحمسه ، يريدون ضعيفة النور .

، القتيلة ، ذبالة السراج عربية صحيحة .

قال فى المصباح : وفتيلة السراج جمعها فتائل وفتيلات : وهى الذبالة أما ، مدحمسة ، فصوابها مدحمسة بالحاء قال فى اللسان: ودحمس الليل: أظلم .

(٨) ويقولون ، فلان فشار ، يريدون ، كذاب ، . ويقولون ، بلاش فشر يافلان ، إذا كان يفخر بما ليس عنده أو يخبر بغير صدق . والفعل ، فشر ، أصله فجر أى كذب .

فنى الصحاح : فجر فجورا أى فسق وفجر أى كذب .

(٩) ويقولون ، فعص الرطبة أو الليمونة ، يريدون أنه ضغط بالأصابع عليها حتى تبددت أجزاؤها ، وأصله فمع . فنى اللسان : فصع الرطبة يفصعها فصعاً، وفصعها : إذا أخذها بأصبعيه فعصرها ، وكذلك كل مادلكته بأصبعك ليلين فينفتح عما فيه اه .

(١٠) ويقولون « انفقع الدمل » (وأنا فقعته) وأصل الفعلين فقأ وانفقأ .
ففي المصباح : وفقأت البثرة (أي الخراجة) شققتها فانفقأت وتفقأت تشققت .

(١١) ويقولون « فلان مايونش في شغله » يعنون لا يفتر فيه ولا ينقطع عنه .
فالفعل « ون » صوابه ونى . قال تعالى : « ولا تنيا في ذكري » معناه لا تفترا .

(١٢) ويقولون في التحريض على التأديب لمن عصى من الأبناء « إلطشه كف ينعدل » و « اللطش » أصله اللطث . قال في اللسان : لطثه : ضربه بعرض يده ، ولطثه بحجر : إذا رماه ، وتلاطث القوم تضاربوا بالسيوف أو بأيديهم .

(١٣) ويقولون في مقام التأنيب على الخطأ « إنت ملطوش في عقلك » أي مجنون .
والصواب ملطوث على المجاز .

(١٤) ويقولون « زلط الرطبة » و « زغطها » بمعنى بلعها . وأصل الفعلين سرط كنصر وفرح .
ففي المثل : « لاتكن حلواً فتسترط ولا مرا فتعقى » .

(١٥) ويقولون « قزح الترعه » وثب من شاطىء إلى شاطىء ؛ وأصل الفعل قحز .
ففي اللسان : القحز : الوثب .

(١٦) ويقولون « أنا قابلت صاحبك البارح » يريدون أمس فيطلقون « البارح » وصفاً لليوم الذي يليه يومهم ، وهو بهذا الاعتبار صحيح ، ولكن العرب لم تستعمله إلا مؤنثاً وصفا لليلة الماضية .
ففي اللسان : والعرب تقول ، ماأشبه الليلة بالبارحة ، أي ماأشبه الليلة التي نحن فيها بالليلة الأولى التي قد برحت وزالت ومضت . والبارحة أقرب ليلة مضت . تقول : لقيته البارحة ولقيته البارحة الأولى .

(١٧) ويقولون في الإخبار عمن ذهب من وقت قريب « ذهب بس توهه » .
و « تو » أصله توة . قال في اللسان : مضت توة من الليل والنهار أي ساعة . قال مليح :

ففاضت دموعي توة ثم لم تفض   عليَّ وقد كادت لها العين تمرح

وفي حديث الشعبي : فما مضت إلا توة حتى قام الأحنف من مجلسه ، أي ساعة واحدة .

(١٨) ويقولون مثلا للزيت الذي لم يصف نوعه « هذا الزيت مزغول » يريدون مغشوشا ، وهذا صحيح .
قال في المستدرك : الزغل الغش .

(١٩) ويقولون « في البرج حمام زغلول كتير » فيطلقون كلمة زغلول على فرخ الحمام . وهذا الإطلاق صحيح لكنهم يحرفون الكلمة فيفتحون الزاي والصواب ضمها .
ففي المستدرك : والزغلول (بالضم) فرخ الحمام ، ويجمع على زغاليل .

(٢٠) ويقولون « عند فلان مال بالزوفه » يريدون أنه يقدر بالكميات لكثرته . و « الزوفة » أصلها الزفة : وهي الزمرة . ففي اللسان : وما جاء في حديث تزويج فاطمة عليها السلام « أنه صلى الله عليه وسلم صنع طعاماً وقال لبلال : أدخل على الناس زفة زفة » . وفي القاموس : والزفة : المرة ، وبالضم : الزمرة .

(٢١) ويقولون فى وصف من يتلون فى قوله : «فلان زفلوط» وبعضهم يقول «هو قرموط» . «فزفلوط» محرف زحلوط . قال فى القاموس : والزحلوط بالضم : الخسيس ، زاد الشارح من سفلة الناس و «قرموط» محرف قرموط : وهو نوع من السمك كثير الانفلات من يد صائده .

قال فى المستدرك : والقرموط بالضم : نوع من السمك .

(٢٢) ويقولون للمقتر على أهله ، فلان يقرط على عيلته ، وهو على المجاز استعمال صحيح . فى التاج : قال ابن دريد ، أصل القيراط من قولهم قرط عليه أعطاه قليلا ، وفى الأساس : قرط عليه : أعطاه قليلا قليلا من القيراط .

(٢٣) ويستعملون «التقريط» بمعنى التأكيد فى الأمر ، وهو استعمال سائغ على المجاز ، فى المستدرك : ومنه (أى المجاز) استعمال العامة التقريط بمعنى التنبيه والاستعجال والتضييق ، والتأكيد فى الأمر .

(٢٤) ويستعملون الفعل «جعر» بمعنى تكلم مع صياح ؛ وأصله بالقاف بدل الجيم (قعر) ؛ قال فى اللسان : وقعر فى كلامه وتقعر : تشدق وتكلم بأقصى قعر فمه ، وقيل تكلم بأقصى فمه .

(٢٥) ويقولون فى وصف الشره وآكل أموال الناس «هو شفاط» ، وأصله سفات بالسين والتاء بدل الشين والطاء .

فى الصحاح : سفت الشراب بالكسر : يسفته سفتا ، إذا أكثر منه فلم يرو .

(٢٦) ويقولون «الإبرة شكتنى» والصواب شاكتنى . يقال شاك الرجل غيره : أدخل فى جسده شوكة .

(٢٧) ويقولون «النخلة كرمشت» و «وجهه مكرمش» أى متقبض ؛ والصواب تكرش ، فى الصحاح : تكرش وجهه : تقبض .

(٢٨) ويقولون للبخيل «فلان زرام» الصواب زرم ، فى اللسان : عن الأصمعى : الزرم : المضيق عليه ، ويقال للبخيل زرم اه .

(٢٩) وتقول المرأة عند الفزع من شىء «ياندامه» ، وأصلها «ياندامه» ، جعلوا الميم شينا فراراً من ذكر الندامة بلفظها الصريح .

(٣٠) ويقولون للطفل الذكى «وله حدق» ، والصواب حاذق وحذق : قال فى المصباح . حذق الرجل فى صنعته من بابى ضرب وتعب حذقا : مهر فيها وعرف غوامضها ودقائقها .

هذا ماتيسر النظر فيه نظرة عاجلة ؟

عطية الصوالحى

الأغانى الشعبية فى مديرية الشرقية

لقد انصرفت جمهرة الأدباء عن دراسة المواويل والقصص العامية أو الممزوجة بالعامية والعربية الفصحى، ونسوا أن للعامة أخيلة وعبارات تدل على حياة الشعب، كما تدل آراء الخاصة وأخيلتهم على تلك المعانى المملوءة بالثقافة. وما ذلك إلا لأن الأدباء فى مصر فريقان: فريق يتعلق بآثار العرب وأحوالهم ومجتمعاتهم ومجالسهم الخاصة والعامة، وكله خشية أن تمس اللغة العربية الفصيحة وأن تحول إلى طريق ربما كان من وسائل الهدم والبناء. وفريق متشبع بآراء الغرب إلى حد أن فقد جميع الروابط التى تربطه بالأرض التى نما فيها وترعرع. ومن ثم قد خفى على كثير من الأدباء عندنا أن أصول الأدب مأخوذة من التفكير العام للشعوب والأمم، ومن صور مجتمعاتهم وأحاديثهم على الرغم من صيحات كبار النقاد لتوجيههم إلى ذلك منذ أن ضربت حركتنا القومية بجذورها فى مصر.

ولا أبالغ إذا قلت إن الأغانى الشعبية فى مصر كما هى الحال فى كثير من الدول تدل على صور النفوس وأحوال عامة الناس ومجتمعاتهم فى أسلوب ساذج جميل أكثر من أدب الخاصة؛ وذلك لأن هذه المواويل تغنى فى أسلوب تهكمى مملوء بالنكات الطريفة والفكاهات الحلوة والنقد الدقيق البرىء وحسن البادرة. وكل هذه الصفات تكشف عن طبيعة العقل المصرى.

ونظراً لأن هذه الأغانى الشعبية ما هى إلا صورة لنفسية العامة، ونظراً لأن نفسيات عامة الشعوب ماهى إلا نتيجة الغرائز والمشاعر الأولى والدين تجد هناك تشابها بين المواويل والقصص فى جميع أنحاء مصر. بل هناك تشابه بينها وبين الأغانى والقصص الشعبية فى بلاد العراق والشام، ذلك لأنه قد تنازع مصر عدة مدنيات، وكان لحضارة العرب ومدنيات قدماء المصريين أبلغ الأثر. إلا أن درجات ذلك الأثر تختلف من شرق الدلتا إلى غربها ومن شمالها إلى جنوبها. فعلى الرغم من وجود شىء من التشابه الجغرافى فى كثير من أجزاء مصر إلا أن هناك من الاختلافات المحلية فى طبيعة البلاد ومواصلاتها ما يجعل أثر قدماء المصريين ما زال ظاهراً فى جنوب الوجه القبلى بشكل أوضح مما هو فى شمال مصر الشرقى حيث يظهر الأثر العربى بشكل محسوس. فطبيعة الخلق المصرى المتوارث تتغير تبعاً لاختلاف المناخ والمنظر الطبيعى العام. ويتبع ذلك اختلافات فى الأغانى الشعبية فى شرق الدلتا وجنوبها وفى الصعيد.

تتجمع الأغانى الشعبية فى مصر حول محورين:

(١) الغرائز. (٢) والمشاعر الإنسانية.

فتتناول الأغانى الدينية كل ما يتعلق بالقرآن والأحاديث. ولهذه مناسبات مخصوصة للتغنى بها كالموالد أو حلقات الذكر. أما أغانى الغرائز فيتغنى بها الشاب فى حقله والمرأة فى منزلها. ومن الصعب وضع حد فاصل بينهما بل كثيراً ما يمتزج بعضهما ببعض.

لم تلبث الأغانى الشعبية الدينية إلا بين أحضان مشايخ الطرق وغيرهم من المتحمسين للدين وهى تتناول

كثيراً من آيات القرآن وقصصه والآداب الإسلامية وتمزجها بصور حسية ؛ أى أنه يمكن القول بأنها محاولات للتعبير عن الروحيات بأمثلة مادية تنشد أو تتلى بصورة غنائية ؛ فالكثير منها يدل على أن هؤلاء المشايخ على علم بشيء من أصول الموسيقى وفنونها الأولى ونغماتها التي تسرى فى الإنسان سرياناً يتحول إلى حركات منتظمة تتحول إلى رقص توقيعى .

ومن السهل على المدقق أن يحس بساطة صور هذه الأغانى التى يتغنى بها بأن الله فى السماء وحوله الملائكة كأن الله ملك محوط بحاشيته . إذ أن من الصعب على العامة أن يهربوا من أنفسهم أو عاداتهم أو أمثالهم وإن حلقوا فى عالم الروحانيات ، وهم يكدسون أغانيهم بألفاظ القرآن ليسدلوا عليها قناعا كثيفا من الغموض ليكون لصورها روعة وجلال .

ومن الصعب تحديد الأغانى الدينية الخاصة بالشرقية ومقارنتها بأغانى المديريات الأخرى ، وهذا هو الحال فى أغانى المشاعر . إذ أن تاريخها غامض لايمكن الوصول إليه بحيث أصبح من الصعب معرفة ما إذا كانت وردت مع العرب إلى مصر ، أو أنها نشأت بها ، وعلى العموم يلاحظ على هذه الأغانى شيء من جمال الحس وتتجلى روعة الألوان بين سطورها ، يدلك على ذلك بعض الصور ذات الألوان فى هذه السطور :

يابو كعب رمان ولك عود الرُّخام ملفوف
تمشى تهز الفلك تعجب ، وتقول لى شوف
شغلت عقلى ، وخليتنى عليك ملهوف
فوّتنى صنعتى ، وقعـدت أراعى لك
باللى المخبى على شـانك صبح مكشوف

وفى المقطوعة التالية تتنسم المنظر الطبيعى فى مديرية الشرقية بشكل واضح جميل :

يا أبيض البيض ، قوللى وايش بقى يجرى ... واحد وثلاثين سـنة خدام بلا أجره
واحد وثلاثين سـنة الباب قبال الباب ... نقفل نهاتى ولا فيش حد رد جواب
إن جيت من الحيط لقيت الناس وقفالك ... وإن جيت من الباب لقيت الباب عليه بواب
وإن جيت من الجو بعتنا للعقاب جابك ... وإن جيت من البحر دا التمساح أولى بك
إن جيت من الباب لخلى الباب سبع ألواح ... وإن جيت من الحيط لخلى الحيط سداح ومداح
واطـير فى الجو وانشر للعقاب جناح ... واحط صدرى على صدر الحبيب وارتاح
واللى خلقنا ينجينا من التمساح

تمتاز هذه الأغنية بروح قوية قلما تلمسها فى الأغانى الشعبية فى المدن التى تندد بها اللورد كرومر فى كتابه حيث وصم المصريين بالكسل والقعود عن السعى وراء المحبوب فى قول المغنى « حبيى شوفوه لى يا ناس ، شرد منى وفى يده الكاس » بل إن فيها من قوة الرجولة مالايظهر فى كثير من الأغانى الحديثة الينة لعباراتها

القصيرة المتعاقبة التى توحى بخطوات سريعة قوية فى اقتحام المخاطر ما يحضر للذهن صورة من صور الفروسية فى دول الشرق والغرب أثناء القرون الوسطى .

وتظهر روح الكرم والألفة فى أغانى مديرية الشرقية بصورة قوية لم تخف عن كثير من الكتاب الأجانب كلين (Lané) فى كتابه :

قالم منين القبايل ... قلت م الزقازيق
قالم حوالك تقبله ... قلت فى الزقازيق
يارب خلى الحبايب ... كتره فى الزقازيق
ظهر معى جرح جو ... القلب ودهانى
تذون على ياناس إذا طابت جروحانى
لعمل وليمة ... وأقول للوالده هانى
وادبح دبايح ... وا كفى مصر والزقازيق

أما القصص الشعبية التى كانت شائعة فى مديرية الشرقية كما كانت فى بقية القطر المصرى ، فهى « قصة أبي زيد » ويقال إن نواتها عبارة عن حوادث حدثت فى منتصف القرن الثالث للهجرة ، ثم دونت بعد ذلك بزمن ليس بطويل كما هو فى بعض الروايات ، إلا أنه من المجزوم به أنها كونت فى عشرة أجزاء صغيرة فى وقت أكثر تأخرا بعد أن اعتراها كثير من التغيير والتبديل . ونصفها تقريبا عبارة عن نثر ، والنصف الآخر شعر ، ونصفها قصصى ، والنصف الآخر تمثيلى ؛ وهى خير شارح لعادات البدو وأخلاقهم : فمعظم أبطال القصة من وسط بلاد العرب واليمن وبعضهم من بلاد المغرب وأحاديثهم تفيض بالوجدان والنجوى ومخاطبة الناس فى أبيات من الشعر . والرأى السائد أن هذه الأبيات غير موزونة . ولكن هناك اعتقاد بين رجال الأدب أنها كانت موزونة فى بدء صياغتها ثم غيرت عند تدوينها ، وعلى ذلك مازالت على شئ كبير من اللذة للسمع كما هى ممتعة فى مادتها . وبجانب هذه القصة كان الشعراء ينشدون قصة زهير وعنترة .

ويلاحظ على هذه القصص جميعها أنها ظهرت وانتشرت نتيجة لقوة شعور المجتمع بكيانه سواء كان فى شكل قبيلة أو دولة تشتمل على ولايات تربطها وحدة الدين والسياسة أو أمة ناشئة كمصر . فنى العصر الذى فيه أخذت القبائل العربية تشعر بكيانها كانت هناك قصة عنترة ، وفى العصر الذى كانت فيه الولايات العربية تشعر بالصلة القوية بينها نشأت قصة أبي زيد ، وعندما ابتدأ الشعور القومى يدب فى مصر منذ الحملة الفرنسية وتقلص الظل التركى استعار المصريون من القديم قصصاً يتغنون بها ويعوّضون بها ماينقصهم من نواحى البطولة . فكانت المقاهى ، وكان الشعراء ، ورباباتهم ، ينشرون بين الناس فى كل الأصقاع روح البطولة والشعور بالنفس وإثبات شخصيتها .

وما قصة البطل أبي زيد إلا صراع بين قوة الإنسان والقضاء والقدر ، وما التهليل والتحمس الذى كان

يبدو فى المقاهى والمصاطب لأبى زيد إلا تشفيا لهزيمة القدر أمامه، ذلك القدر الذى عانت منه مصر الكثير بسبب موقعها الجغرافى وغيره.

وما قصة أبى زيد إلا قصة غنائية شبيهة بالألياذة والأوديسا فى أدب الإغريق أو " Lost Paradise & Faerie Queen " فى أدب الإنجليز، فهى قصة فيها من مميزات الفن الشئ الكثير ؛ فهناك توازن بين أجزائها وهناك نماذج وقوالب تتكرر من جزء إلى جزء كما هو الحال فى الألياذة، وهناك صراع بين قوتى الخير والشر كما هو بين الله والشيطان، وذلك فى « Paradise lost » لملتن (Milton).

وأبو زيد خير نموذج للبطل كأخيل (Achilles) فى الألياذة، ويليسيز (Ulysses) فى الأوديسا، هؤلاء الأبطال الذين ترنو إليهم الأنظار فى وقت تكون فيه النفوس متعطشة إلى أمثالهم لتحقيق ماتجيش به. كان أبو زيد قويا جميل الطلعة حلو السمات — على الرغم من سواده — شامخ الأنف لايخضع لإهانة تلحقه، شجاعا، كريما، قوى العاطفة فى حبه وبغضه، صديقا قويا يدافع عن صديقه دفاع المستميت، وعدوا لدودا يخشاه الجميع، قلبه قلب أسد، ولم يكن محاربا فقط بل بز أقرانه فى العلوم التى كانت معروفة فى عصره.

فلا غرو أن تعلق به المصريون فى عهد كانوا يتطلعون فيه إلى قائد ينقذهم من براثن القضاء. والقدر كما فعل بأمه خضراء وبأبيه رزيق.

وفى الوقت الذى احتل فيه الإنجليز مصر وكثر الهرج والمرج من اختلال الأحوال وفساد الحكام ظهر فى مديرية الشرقية رجل من أهل الطيبة له ناحية من تلك البطولة التى ينشدها الشعب هذا الرجل هو السيد عبد الله النديم.

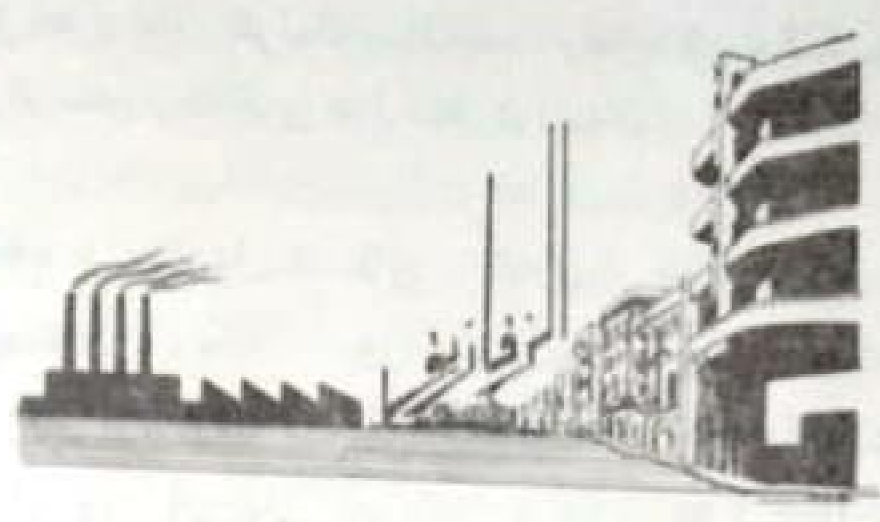
السيد عبد الله النديم

ولد فى شهر ذى الحجة سنة ١٢٦١ هـ، ونشأ فى ضيق من العيش وقلة من اليسار، على أنه كان مفرط الذكاء تعرّف بكثير من أدباء القاهرة وشعرائها مثل محمود سامى البارودى باشا، ثم رحل إلى الاسكندرية حيث انضم إلى لفيف من الشبان وألفوا جمعية سموها «مصر الفتاة» يتآمرون فيها سرا خوفا من بطش الخديو توفيق، واشتغل النديم بالكتابة فى صحف الأخبار فأعجب الكتاب بمقالاته واقتدوا به فى تحسين الإنشاء، ثم سعى مع جمع من الأدباء وألفوا جمعية سموها الجمعية الخيرية الإسلامية، وطفق يؤلف القلوب فى عهد ذلك الخديو وألف قصة تمثيلية سماها «الوطن وطالع توفيق»، وأخرى سماها «العرب»، فكان لهما تأثير كبير فى النفوس، وكان قد شرع فى إنشاء صحيفة سماها «التنكيت والتبكيت»، مزج فيها الهزل بالجد، وظهر فى أثناء ذلك وميض النهضة العرابية فوافقت هوى فى نفس السيد عبد الله النديم، فضمه جماعة عرابى إلى زمرتهم، وشدوا أزرهم به. فلا صحيفته بمحامدهم حتى قامت الحرب بين الانجليز والمصريين بالاسكندرية، فسافر السيد عبد الله إليها مع جماعة من رؤساء الجند، ثم لحق بعرابى، وقد انهزم عند كفر الدوار، ثم انتقل معه إلى التل الكبير، ثم نفى خارج القطر إلى يافا ونابلس واستامبول، ومازال بها حتى عفا عنه الخديو وأباح له العودة إلى مصر.

وكان النديم فى كل أطوار حياته يقول الزجل فيجيده . وقد حفظت له الكتب والصحف شيئاً كثيراً ؛ على أننا نكتفى هنا بإيراد بعض زجله الدينى حول منظر فى رمضان :

اسمع حكاية تهدى الشوق لابن الذوق وتعجب الإنس والجان
رأيت جدع فى إيده مكبه زى القبه فقلت أهلا بالمنصان
مديت إيدىّ أكشفها لجل اعرفها قال لى ارتجع ياشيخ رسلان
فقلت أنا بدى أتفرج حد محرج قال لى تعالى فى البستان
طاوعت شورته ومشينا على رجلينا حتى رأينا غصن البان
دخل يهرول قدامى ع الأقدام وانا وراه أجرى وتعبان
رأيت جماعه فى قاعه تلك الساعه جملة مشايخ مع شبان
يادى الفضيحه والجرسه عيشه نجسه صبح بها العاقل حيران
إحنا بهايم ولا وحوش يا ألله حوش ضاع الشرف والوطن انهان
مافيش رجال فيهم إدراك زىّ الأملاك يتأملوا فعل الشيطان
وينظروا فعل ولادهم ضد بلادهم إن كان رجال ولا نسوان
كان فى الرجال ياناس غيره تعلى السيره فين ضيعوها بالهذيان
آدى المصايب والا بلاش يادى الأوباش بتم لأوربا عبدان
كل الأمم نظروا إليكم إخص عليكم صبح النبيه فيكم خرفان
وما كفاكم خسرانكم فى أوطانكم حتى رضيتم بالضيعان
دى مسخره ياناس زايده من غير فايده إيه دى البلاوى ياعميان
الخبص إن كان يملككم راح يهلككم ويصير العايم وحلان
فوقوا بق ياولاد اليوم من هذا النوم والا العزيز منكم يتهان
يارب اصلح حالتنا مع دولتنا وتب على العاصى الغفلان
ووفق الأمة للخير وادفع الضير واحسن ختامنا يارحمن

محمد محمد عبد الرحمن



نشأتها . تطورها . أهميتها

لنعد الآن إلى قرن مضى من الزمان .

زقازيق ١٠٠٠ زقازيق ١٠٠ .

عندما تسمع ذلك الاسم من شخص يدور بخلدك معنيان مختلفان ، فهذا الشخص إما أنه جائع يحن إلى غذاء يشتهيه فيرد غلة حرارة الجوع ، أو آت من بلدة بعيدة ينشد قرية صغيرة لحاجة يقصدها .

ما هذه الزقازيق التى اشتهاها هذا الجائع ؟ وما الزقازيق التى قصدها ذو الحاجة ؟

الزقازيق اسم يطلق على سمك صغير له شوكة حادة فى ظهره لو أكلته ما سلوته ، ثم تتجاوز معناه .. أتلك البقعة الصغيرة التى عرف أهلها بصيده وبيعه ؟.

تلك بقعة صغيرة كنت ترى فيها أكواخا وخياما ، وبين تلك الأكواخ الفقيرة والخيام الرثة الحقيرة منزلان مبنيان باللبن هما أساس مدينتنا الحاضرة ، وأول بناء فيها ، وفى تلك الأكواخ بين الترع والمستنقعات يعيش قوم من الصائدين تقوم حياتهم ومعيشتهم على صيد « الزقازيق » ، وقد كان سكان القرى المجاورة يفدون إلى هذا المكان لشراء ذلك السمك فإذا سئلوا عن مقصدهم أجابوا « الزقازيق » ، ومن ثم أطلق على هذا المكان اسم الزقازيق .

وإذا سرت فى تلك البقعة تدهش إذ ترى مساحة كبيرة من الأرض تكسوها الحشائش ، تتهادى فى وسطها ترعة كبيرة أو بركة صغيرة . عجيب جدا ماء عذب وبجانبه أرض جرداء ، مما يثبت لنا مقدار اهتمام هؤلاء الناس بالصيد بدلا من الزراعة التى هى مصدر الخير والبركة .. ولا عجب إذا علمت أن تلك الطبقة الفقيرة العفيفة الأبية ، من سلالة العرب عرب البادية الذين يرعون الأبل والأغنام وينفرون من الزراعة لأنها المهنة الحقيرة فى نظرهم ، وتلك شيمة العرب . ازداد عدد هؤلاء القوم ، فاشتغل القليل منهم بالزراعة والبعض الآخر بصناعة الحصر مما ينبت على حافات الترع والمستنقعات ثم تدرجت الحال من جماعة من الصائدين إلى قرية صغيرة .

وفى أثناء تجوال ساكن الجنان المغفور له محمد على باشا عاهل مصر الأعظم بالوجه البحرى مر بتلك البقعة ورأى المياه تنساب بين بور الأرض ، فأصدر أمره الكريم بإقامة قناطر عند بحر مويس الذى يروى أراضى تلك المديرية ليسهل وسائل الرى بها ، وسرعان ما حضر المهندسون والعمال فشيدت لهم أكواخ من الطين والقش لإقامتهم وتم ذلك سنة ١٢٤٨ هجرية .

ولما جاء الوالى (محمد على) ثانية إلى تلك القرية قسم أرضها بين أهل البلدة على شريطة أن يشيدوا بها منازل لإقامتهم ، وأن تحاط أرض كل شخص بالأسوار . وأخذ أصحابها يرغبون التجار والعمال وبائعى المأكولات وغيرهم فى تشييد محالهم على أرضهم ، وصادف فى ذلك الحين أن جاء من الصعيد أحد كبار البساتين يدعى حسين عفاشة ، فأمره الوالى ببناء قصر لنزوله به ومسجد للصلاة . وبعد مدة أصدر الوالى قرارا بتجديد مسجد الصلاة ، وأخذ الناس يفدون إلى المدينة زرافات ووحدانا .

عمرت المدينة واشتملت على منازل لابأس بها ، وميدان فسيح (مكان سراى المديرية) لإقامة الاحتفال بمولد النبى صلى الله عليه وسلم ، وجدد فيها الأمير يوسف بك مسجدا بالشاطىء الغربى لبحر مويس ويعرف الآن بالمسجد الصغير .

ولما دب فيها العمران جعلت رأس المديرية بعد أن كانت بلبيس المعروفة قديماً « بيسه » . وافتتحت محكمة شرعية كبيرة تنظر فى القضايا عامة ، وزرعت فيها مساحة كبيرة من شجر التوت (مكان المدرسة الثانوية) لتربية دود القز . ثم شيد أحد تجارها ويعرف بالعداروس جامعا بناه بالأحجار والآجر وأعمدة الرخام ، وكذلك شيد الحاج سليمان الشريف مسجدا بشارع ترعة عبد العزيز ، وشيدت بها ثلاث كنائس إحداها للأقباط والثانية للشوام والثالثة لليونانيين الذين كان لهم فضل فى تقدم المدينة . وقد قامت بها نهضة صناعية ، وأهم المهن التى يمارسها أهل البلدة هو عصر الزيت وحلج القطن وصناعة الحصر . وقد كان بها كثير من المحالج ، وهاك جدولا لمصانع المدينة .

	ثلوج	قطن	زيوت	طحين	ما يخص الأجانب
قديماً	٢	١٤	٢	٩	١٠ للقطن ، ١ للثلج ، ٧ للطحن
الآن ..	٢	٣	٢	٤	٢ للقطن . . . .

ومن هذا الجدول يتبين أن معظم المصانع فى المدينة كانت فى يد الأجانب الذين اشتركوا فى تحسين المدينة وإحياء الصناعة والتجارة بها .

فقد شيدوا القصور الكبيرة ، تحيط بها الحدائق الغناء ، وأنشئوا المصانع ، وتولوا تدريب السكان على الصناعة وإرشادهم إلى طرق التحسين فى الزراعة .

وفى الجنوب الشرقى للمدينة تل قديم يقال له تل بسطة — يبلغ متوسط ارتفاعه نحو ٢٥ مترا ومساحته نحو ستمائة فدان ، ويأخذ الفلاحون منه السماد الآن ، وهو غنى بما به من آثار ، واسمه بالمصرية القديمة « بيرباست » ويطلق عليه اليونان « بوباسطس » وعلى ذلك التل قامت مدينة من أكبر مدن مصر قد اتخذها بعض الولاة قاعدة لهم ومقرا لحكمهم فى حين أنهم جعلوا صان الحجر مدينة الموتى ، وبها دفنوا — وقد اختار هذه المدينة « بوبسطة » الملك شوشنق سنة ٥٩٠ ق . م عاصمة لمصر وبذلك عرفت بوبسطة فى التاريخ عاصمة للأسرة الثانية والعشرين .

وقد كان بوسط المدينة حلقة لبيع القطن يجتمع فيها التجار ، وبجوارها مخازن لخزنه ، وشمالى المدينة مكان لبيع الغلال والبذور .

وهى أهم مركز للمواصلات فى شرق الدلتا فيها يمر الخط الذى يصل القاهرة ببور سعيد ، وكذلك خط المنصورة ، ودمياط ، ويخرج منها خط عن طريق ميت غمر وزفتى إلى طنطا ، وهى تتصل اتصالا وثيقا بوادى طميلات المعبر التاريخى الهام الذى مر به الفرس والعرب ، كما مرت به جيوش المصريين فى جميع العصور عند فتحهم سوريا وفلسطين وغيرها من دول الشرق .

أهميتها الحربية :

والزقازيق من أهم المواقع الحربية فهى تتصل اتصالا تاما بقناة السويس ، وبها يمر أهم الطرق الحربية من جوية وحديدية وبرية ، فيمر بها الطريق الحربى من الاسكندرية إلى الإسماعيلية ، والطريق الحربى الذى أنشىء أخيرا ، ويصل مصر بفلسطين وسوريا مخترقا الصحراء الشرقية ، وبذلك يمكن أن تتصل جيوش الحلفاء بشبكة من طرق المواصلات . وتقدم الزقازيق لهذه المدن فى وقت السلم والحرب الخضر والطيور والبيض .

فعلى مدينتنا يعتمد المدنيون والحربيون فى الحصول على ما يلزمهم من منتجاتها الزراعية والصناعية ، (ولا يقتصر الإمداد على هذا ، فإن الجيوش فى حاجة إلى الدواب من خيل وبغال وحمير وغيرها ، لنقل المأكولات والرجال واستعمالها فى الأغراض الحربية الأخرى) وقد كانت المركز الرئيسى فى الحرب الماضية لإدارة الإمداد ، كما كانت مخزنا للذخائر ولذلك فإنه كان يتفرع خط حديدى إضافى من الخط العام إلى مدرستنا الحالية التى كانت ثكنات للجيش ومقرا للسلطة .

وقد أخذت المدينة فى الاتساع ، وتزايد عدد سكانها الذى بلغ ٣٩,٠٠٠ : سنة ١٩٠٧ ، ويبلغ عدد سكان المدينة الآن ما يقرب من ثمانية وخمسين ألف نسمة . وأخذت مبانيها فى الترقى ، فأنت ترى المنازل الريفية البحتة على حين تجد بها أرقى العمارات وأجملها ، واتسعت المدينة من جهاتها الأربع حتى على جانبى بحر مويس بالقرب من المدرسة الابتدائية والثانوية .

وقد شيد بها أخيراً تفتيش للشروعات ، وهو من أروع الأبنية ، وتتجلى فيه الفخامة مع سلامة الذوق ، وبالقرب منه شيدت منازل لكبار الموظفين وسيشرع فى تشييد ملاعب للتنس وغيرها من مختلف الألعاب الرياضية فى تلك الجهة — والحكومة تشرع الآن فى تشييد جسر بالقرب من معهدنا الجليل يصل الشاطئ الشرقى بالغربى لبحر مويس ، وبذلك ترتبط الزقازيق الجديدة بمدينتنا القديمة .

كما أنه أنشىء بها أخيرا بعض المعاهد العلمية والمنشآت الصحية ، وهكذا المدينة آخذة فى التدرج والارتقاء تحت ظل المليك المحبوب حرسه الله وأيده بنصره .

يوسف عزب

الزقازيق قديماً وحديثاً

تمر الحوادث على الإنسان سراعا ثم تمضى إلى عالم النسيان ولا يبقى فى الذاكرة منها إلا ماجل أمره وعظم أثره ، وفى ذلك كل الخير للناس ؛ إذ لو كان فى مقدور كل إنسان أن يدخر فى الذاكرة كل شيء مهما هان أمره وتفه شأنه لازدحمت هذه بالخواطر والذكريات الضئيلة الطفيفة ، وفى ذلك البلاء العظيم ، إذ يضطرب التفكير ويتعذر التذكر .

وإن أنس — وهذا طبعى كما قدمت — فإن أنسى يوم قدمت إلى الزقازيق للمرة الأولى . كان ذلك فى اليوم الثالث والعشرين من شهر أكتوبر سنة ١٩٣٨ ، وفيه فارقت مدينة الاسكندرية عروس البحر الأبيض المتوسط وقصدت حاضرة الشرقية . أقلنى قطار الصباح السريع إلى طنطا ، ومنها استقللت قطاراً آخر يمر بميت غمر ، ويقف على جميع المحطات بين طنطا والزقازيق — ولذا يقطع هذه المسافة فى أكثر من ساعة ونصف . سار بى القطار وهو يطوى الأرض وسط المروج والحقول ، وأنا غارق فى لجج من الأفكار والأحلام ، هائم فى بيداء الخيال والأوهام ، أسبح تارة فى ذكريات الماضى السحيق ، وأهيم أخرى فى تقلبات الحاضر القريب ، وبغتة جمح جواد تخيلى ، وأطلق لنفسه العنان نحو الزقازيق فصورتها فى شتى ألوان الصور والأشكال : فتارة كنت أراها على نسق مدينة طنطا قد جمعت بين أبهة المدن وعظمتها وبساطة الريف وجماله . وتارة أتخيلها كالمنصورة فى بهائها وروعتها وسحر موقعها وطبيعتها ، ثم أعود فأتصورها فى شكل أروع من هذه وتلك من حيث البناء والتكوين والانسجام نظرا لحداثة نشأتها وأهمية موقعها ، ولا عجب إذا نحا خيالى هذا النوع من الموازنة والتفكير ؛ فالزقازيق تعد بحق مفتاح مصر من الجهة الشمالية الشرقية ، وحاضرة مديرية من أهم مديريات الوجه البحرى ، وهى فى الواقع من أحدث المدن المصرية ؛ إذ نشأت فى عهد المغفور له محمد على باشا الكبير على أثر بناء القناطر المعروفة الآن بالقناطر التسع ، ومهمتها توزيع مياه بحر مويس لرى أراضى الشرقية ، وقد وصفها المرحوم على باشا مبارك فى كتابه [الخطط التوفيقية الجديدة] ومن هذا الوصف نستطيع أن نكوّن صورة حقيقية للمدينة فى عهد نشأتها[1] .

عند ماشرع المهندسون فى بناء القناطر السابقة الذكر اضطر العمال والمستخدمون أن يستحدثوا أكواخا من الطين وخصاصاً من القصب على جانبي بحر مويس لإقامتهم ، وتبعهم فى ذلك باعة المأكولات ، ثم تكاثرت الناس شيئا فشيئا ، فازداد البيع وكثر بناء المساكن . وبعد الانتهاء من إقامة تلك القناطر سنة ١٢٤٨ هجرية (١٨٣٠ ميلادية) بقيت تلك الخصاص والمساكن عامرة حتى صدر الأمر العالى بالبناء والتجديد فكثر البناء باللبن والآجر ، وعندئذ ، أقيمت المنازل الفاخرة والقصور المشيدة بالمونة والبياض والشبابيك

---

(١) راجع الجزء الحادى عشر ص ٣٩ .

الشيش والزجاج(١) ، ثم بنى ديوان المديرية بها ، وهكذا انتقلت الشهرة من مدينة بلبيس المعروفة قديما ببسة إلى هذه المدينة .

أصبحت الزقازيق بعد ذلك مدينة كبيرة تمتد مبانيها على جانبي بحر مويس ، وأصبح فيها ديوان المديرية والمجلس المحلى وديوان الهندسة ومجلس مشيخة ومجلس تنظيم ومدرسة لتعليم الشبان اللغات والهندسة والحساب ومحكمة شرعية كبرى مأذون لها فى الحكم فى عموم القضايا مثل البيوع والرهن والإسقاط وغير ذلك ، وجدد بها قصر لنزول العزيز حاكم مصر ، وكان بها أربعة مساجد : مسجد الميرى ، والمسجد الصغير الذى بناه الأمير يوسف بك ، ومسجد العيدروس ، ومسجد الشربينى . والأخيران بناهما تاجران من أهل المدينة ؛ كما كان بها ثلاث كنائس إحداها للأقباط والأخريان للشوام والأروام ، وكان فيها عدة أسواق ودكاكين وخانات مشحونة بأنواع البضائع ومنازل تسمى «وكائل» لسكنى الأغراب ، وبها «بنوكات للتجارة» وجملة آلات بخارية بعضها لحلج القطن وبعضها للطحن ولصناعة الثلج وغير ذلك » .

وقد وصف المرحوم على باشا مبارك فى كتابه المحالج والمطاحن التى كانت فى الزقازيق فى ذلك العهد ، وقد أربت على الثلاثين ، وكان بعضها ملكا لتجار وطنيين والبعض الآخر كان يمتلكه الأجانب . وامتازت محالج هذا العهد بظاهرة غريبة ، فالكثير منها لم يكن مقصوراً على حلج الأقطان : بل كان يضم مطحناً لطحن الغلال ومصنعاً للثلج ، وكان صاحب المحلج عادة يبنى منزله بجانب المحلج وتحيط به الحدائق الغناء ، وكان سوق المدينة العمومى يوم الثلاثاء كما هو اليوم ، وكان فى وسط السكن حلقة معدة دائما لبيع القطن ، وحولها الحوانيت والمخازن والفنادق ، وكانت فى الجهة البحرية منها ساحة لبيع الغلال والبذور .

خطرت لى كل هذه الخواطر وأنا جالس فى القطار فتكونت فى مخيلتى صورة رائعة لمدينة الزقازيق الناشئة التى طفرت دفعة واحدة فأصبحت مدينة تجارية عظيمة تضم هذا العدد الموفور من المحالج والمطاحن والمصانع ، فتزداد مبانيها وعمائرها وأهلوها يوما بعد يوم ، ولاسيما بعد إنشاء السكة الحديدية بها ، ثم حاولت أن أتصورها فى عهدها الحالى ، وقد نمت وأينعت واكتمل شبابها وفتوتها بعد أن ولى عهد طفولتها .

استيقظت من أحلامى على صوت صفير القطار مؤذناً بسلامة الوصول فهرعت مع الركاب إلى النزول وسرت خلف الحمال الذى رفع حقائبى على كتفيه بعد أن طلبت منه أن يرشدنى إلى فندق نظيف أبيت فيه . سرنا جميعا وأنا أتلفت ذات اليمين وذات الشمال فلا أرى أثراً مما صوره لى الوهم والخيال ، ثم نزلنا على درج يؤدى إلى قبو يمتد فى قطاع عرضى تحت قضبان السكة الحديدية ، ويفضى إلى أجزاء المدينة المترامية الأطراف على جانبى المحطة ، وما خرجت من هذا القبو ووطئت قدماى أرض المدينة حتى حرت فى أمرى ، وعبثاً ظللت أطيل النظر هنا وهناك على أظفر برؤية وجهة المحطة وميدانها ، وأخيراً أيقنت أنه ليس للزقازيق محطة كسائر البلاد الأخرى ؛ فالإسماعيلية وطنطا والمنصورة والمحلة الكبرى والقاهرة والاسكندرية وكثير

---

(١) اقتبس بعض العبارات من كلام المرحوم على باشا مبارك ، وهى التى بين الأقواس .

غيرها من بلاد القطر المصرى تمتاز بمحطات ذوات وجهات منسقة تنسيقاً بديعاً تشرف على ميادين وحدائق يرتاح لرؤيتها المسافر المقبل ويأسف على فراقها المسافر المدبر ، ولكن الزقازيق خلت من كل ذلك ، وما هى فى رأيي إلا مواصلة للسكك الحديدية تمر بها خطوط تسير فى اتجاه بنها وطنطا والمنصورة وبور سعيد ، ويحيط بها سور من البناء يمتد إلى مسافة بعيدة ، وأمامها كوخ خشبي لصرف التذاكر يقع عند بداية شارع عباس المعروف بشارع البوستة ، وشهرته هذه ترجع إلى أن مكتب البريد كان يقع فيه منذ بضع سنين . ثم انتقل إلى داره الحالية بالشارع التوفيقى على شاطئ بحر مويس الشرقى .

ويجدر بي قبل الانتقال من هذه النقطة ألا أغفل الغرض الذى توخيته من وصف لمحطة الزقازيق . فهذه المحطة قد تكون لاغبار عليها إذا نظرنا إليها من الداخل ، ولا سيما أن محطة البضائع منفصلة عنها كسائر المحطات الكبرى ، ولكن أكبر عيوبها فى الواقع افتقارها إلى وجهة تشرف على ميدان رحب تقف فيه السيارات والعربات لاستقبال المسافرين كما هو الحال فى أغلب المحطات ، وهذا فى نظرى أهم مشروع يمكن أن تجمل وتزدان به مدينة الزقازيق .

ولنعد إلى شارع عباس فأقول إن أهل الزقازيق ينظرون إلى هذا الشارع كما ينظر أهل القاهرة إلى شارع فؤاد أو أهل الاسكندرية إلى شارع شريف . ومن الغريب أن هذا الشارع لايستحق — كما يبدو لى — كل هذه الشهرة وكل هذا الإجلال ، فإنا إذا أغضينا عن قربه من المحطة نراه شارعا عاديا غير رحب يقطعه السائر على الأقدام فى أقل من ثلاث دقائق ، ومبانيه متوسطة وقديمة ، وإذا استثنينا شركة مصنوعات بنك مصر فليس فيه من المحال التجارية مايستحق الذكر ؛ وكل ما يمتاز به هذا الشارع ، ويسترعى الأنظار هو شرفات مستطيلة خشبية ترتكز على أعمدة خشبية وتمتد بامتداد وجهة المنازل .



(شكل ١٨) شارع المنتزه بالزقازيق

وليس معنى هذا أن الزقازيق خالية (بالمرة) من الشوارع الكبيرة والأسواق التجارية الهامة فقد استحدثت هندسة التنظيم فيها شارعا ليس له نظير فى أمهات المدن المصرية هو شارع المنتزه العظيم الذى يبدأ من محطة البضائع ، وينتهى عند ترعة الوادى ، وتتوسطه متنزهات مستطيلة الشكل فتقسمه إلى طريقين وتزيده بهجة وروعة ، ويضاء ليلا بمصابيح كهربية قوية ركبت على أعمدة

من الرخام الصناعى (مزايكو) ترتكز على قواعد من الأسمنت المسلح صنعت فى شكل هندسى بديع ، وسيكون لهذا الشارع فيما بعد أثر كبير فى تجميل المدينة ، وذلك كلما تكاثرت وازدادت « العمائر » والأبنية الفخمة الشاهقة على جانبيه ، ومايتلو ذلك من فتح المحال التجارية والمقاهى والملاهى ؛ ويعتبر هذا الشارع بحق من أهم مشروعات هندسة التنظيم فى المدينة ، فإنه يشهد بحسن الذوق والبراعة والتفانى فى خدمة المدينة ، والدليل على ذلك ما كان عليه هذا الشارع منذ سنوات قلائل . فقد كان جسرا مرتفعا من الأرض تجتازه قضبان السكة الحديدية ، وتقف فيه عربات البضائع للشحن والتفريغ ؛ أو بعبارة أخرى كان مخزنا لمحطة البضائع وكانت القاذورات والأتربة مكدسة على جانبيه .

أما بناء المديرية والبندر ، فيقع فى شارع رحب له مماش جانبية مسقفة تسمى « بواكى » على نسق شارعى كلوت بك ومحمد على بالقاهرة ، غير أنه محدود الطول ، وفيه مخازن الأقمشة القطنية والصوفية . ومن الشوارع الهامة بالزقازيق شارع مولد النبى أو الحريرى ؛ وهو كثير الشبه بشارع عباس فى شرفاته الخشبية المستطيلة وفيه دار الخيالة ، وهى الدار الوحيدة المحترمة فى المدينة وإن كانت فى نظرى لاتضارع دور « السينما » المتوسطة فى كثير من المدن المصرية ، سواء فى البناء أو فى الأجهزة أو فى مكبر الصوت — وهذا أيضاً عيب ظاهر من عيوب الزقازيق ؛ فالمقيمون بها فى أشد الحاجة إلى دار محترمة للصور المتحركة . وقد أسست دار أخرى فى شارع المنتزه ولكنها لاتستحق الذكر .

ومن عيوب الزقازيق كثرة الغبار والتراب فى فصل الصيف ، وكثرة الوحل والطين فى الأيام المطيرة — ولذا كانت شوارعها وأزقتها فى أشد الافتقار إلى التمهيد والتعبيد والكنس والرش . والبلدية هنا لا تألو جهداً فى القيام بواجباتها على الوجه الأكمل ، فقد قامت هذا العام برصف وتعبيد جانب من الشوارع الهامة ولكنها فى حاجة إلى المال لإتمام الجزء الأكبر منها .

وقد أمكن الآن الزقازيق بعد عدة محاولات مخفقة سببت إفلاس بعض المقاولين أن تضم إلى باطنها مثل ما فى بطون المدن الكبيرة من المجارى التى تتوقف عليها حالة المدينة الصحية ونظافة شوارعها وأزقتها ، والتقليل من رطوبة أراضيها ومبانيها وياحبذا العمل لو بادر أصحاب الأملاك إلى إيصال مجارى منازلهم بهذه المجارى العمومية لتصريف ماء المنازل إليها محافظة عليها وعلى صحة ساكنيها ، فإن رطوبة البناء تفضى إلى إخلاله وتفتت الأحجار — ولذلك لايعمر البناء طويلا — كما أنها تؤدى إلى برودة الحجرات ، وعلى الأخص فى الشتاء ، وهذا يضر بالأهلين ضرراً بليغاً ؛ وقد لاحظت عادة سيئة منتشرة بين أصحاب المنازل الصغيرة ، وهى انتهاز فرصة المطر وتوحل الشوارع لالقاء الماء القذر فى الأزقة والحارات ، وبذلك يزيدون الطين بلة ويساعدون على استمرار الوحل أياما حتى بعد جفاف معظم الشوارع ، ولابد أن هذه العادة السيئة ستزول بطبيعتها عند ربط مجارى هذه المنازل بالمجارى العمومية .

وبحر مويس هو أهم ترعة تعتمد عليها الزقازيق فى رى أراضى الشرقية وإمداد السكان بماء الشرب بعد ترشيحه ، ويجف ماء هذه الترعة مدة أربعين يوما تقريبا تبدأ من نهاية شهر ديسمبر فتستمد المدينة ماء

الشرب فى خلال فترة الجفاف من الماء الباطنى فيتغير طعم الماء فى هذه المدة ، ولا يكاد يسيغه الشارب دون تبريد أو إضافة بعض ماء الزهر أو الورد إليه ، ويحف ببحر مويس شارعاه الشرقى والغربى ، وتقع المدرسة الثانوية الأميرية ودار البريد والمصارف العامة كالمصرف الأهلى ومصرف (بنك مصر) ومصرف باركليز ومصرف التسليف الزراعى ونادى رابطة الموظفين ودار الكتب و « وابور » النور والحدائق العامة على الجانب الشرقى ، وعلى الجانب الغربى تقع المدرسة الابتدائية الأميرية ودار المدير ومصلحة المبانى ومشروعات الرى . وللجانب الشرقى أهمية أخرى لأهل الزقازيق فهو طريق منازلهم إذا اشتد قيظ الشمس يسلكه الناس زرافات ووحدانا فى أيام العطلة والأعياد ، وعند الغروب فى أيام الصيف لاستنشاق الهواء الطلق والاستراحة فى حدائق البلدية الواقعة بجوار « وابور النور » ، وهذان الشارعان فى أشد الحاجة لعناية هندسة التنظيم لشدة مايعانيه المارة من التراب والغبار فى الصيف والوحل والطين فى الأيام المطيرة فى الشتاء ؛ والشارع الشرقى على الأخص يفتقر إلى الكثير من التجميل ، وذلك بتوسيعه وبناء إفريز ذى حاجز حجرى يطل على بحر مويس على نمط بعض أرصفة القاهرة والمنصورة النيلية أو على مثال إفريز ترعة الوادى المقابل للصاغة ؛ مثل هذا المشروع يكسب البلد رونقا وجمالا ، ويزيد فى اجتذاب المستريضين ، ولاسيما إذا غرست الأشجار على جانبى هذا الشارع وزوّد الإفريز المقترح إنشاؤه بمقاعد حجرية ثابتة بين كل مرحلة وأخرى لراحة السائرين .

ولن أتعرض إلى حاجة البلد إلى إنشاء الميادين الواسعة والمراحيض والمرافق العامة والإكثار من الجسور ؛ فهندسة التنظيم على ما يبدو لى شارعة ، وجادة فى هذا السبيل ، والأمل عظيم فى ألا ينقضى وقت طويل حتى نرى المدينة قد زودت بكل مايلزمها من هذا القبيل .

ويجدر بى قبل أن أختم هذا المقال أن أوازن موازنة سطحية بين الزقازيق الحالية والزقازيق القديمة الناشئة التى سبق وصفها لاستخلاص مدى تقدمها أومقدار تأخرها — أقول : إن نتيجة الموازنة مع الأسف لاتسر ، فالمحالج والمطاحن ومصانع الثلج التى شاهدناها قد اندثرت جميعها ، ولم يبق منها إلا النزر اليسير الذى لايستحق الذكر ، وهذا أسطع دليل على ركود الحالة التجارية بهذه المدينة الآن ، وحركة البناء والعمارة التى كانت تزداد يوما بعد يوم قد شلت وقتا طويلا بدليل وجود الكثير من المنازل القديمة متهدمة ، والأسواق ليست على حالة من الرواج محمودة بدليل كثرة المتعطلين من العمال .

وقد يرجع ذلك إلى إغلاق آخر مصنع للدخان كان فى هذه المدينة ، وكان يعمل به نحو أربعة آلاف عامل .

وإذا استقصينا علة هذا الركود التجارى والمعمارى وجدنا أنه يرجع إلى جملة عوامل أهمها : —

(١) انصراف موسرى المدينة عنها للإقامة بالقاهرة .

(٢) إهمال بعض الأغنياء منهم بيوتهم إهمالا أدى إلى تهدمها .

(٣) وقوع الكثير من الملاك فى براثن المرابين ، وطبيعى أن يعجزوا عن تعميرها وإصلاحها بل عن الاحتفاظ بها .

والأمل كبير فى أن تستعيد الزقازيق مجدها القديم ونشاطها الغابر ، فقد بدأ فعلا فن المعمار يبعث من مرقده وظهرت آثاره فى القصور العظيمة التى استحدثت بشارع المنتزه وعلى ضفاف بحر مويس ، والظاهر أن ذلك يرجع إلى ازدياد عدد موظفى الحكومة بالمدينة نظرا لإيجاد منطقة التعليم الخاصة بشرق الدلتا الجنوبية بها فضلا عن نقل قسم مشروعات الرى إليها .

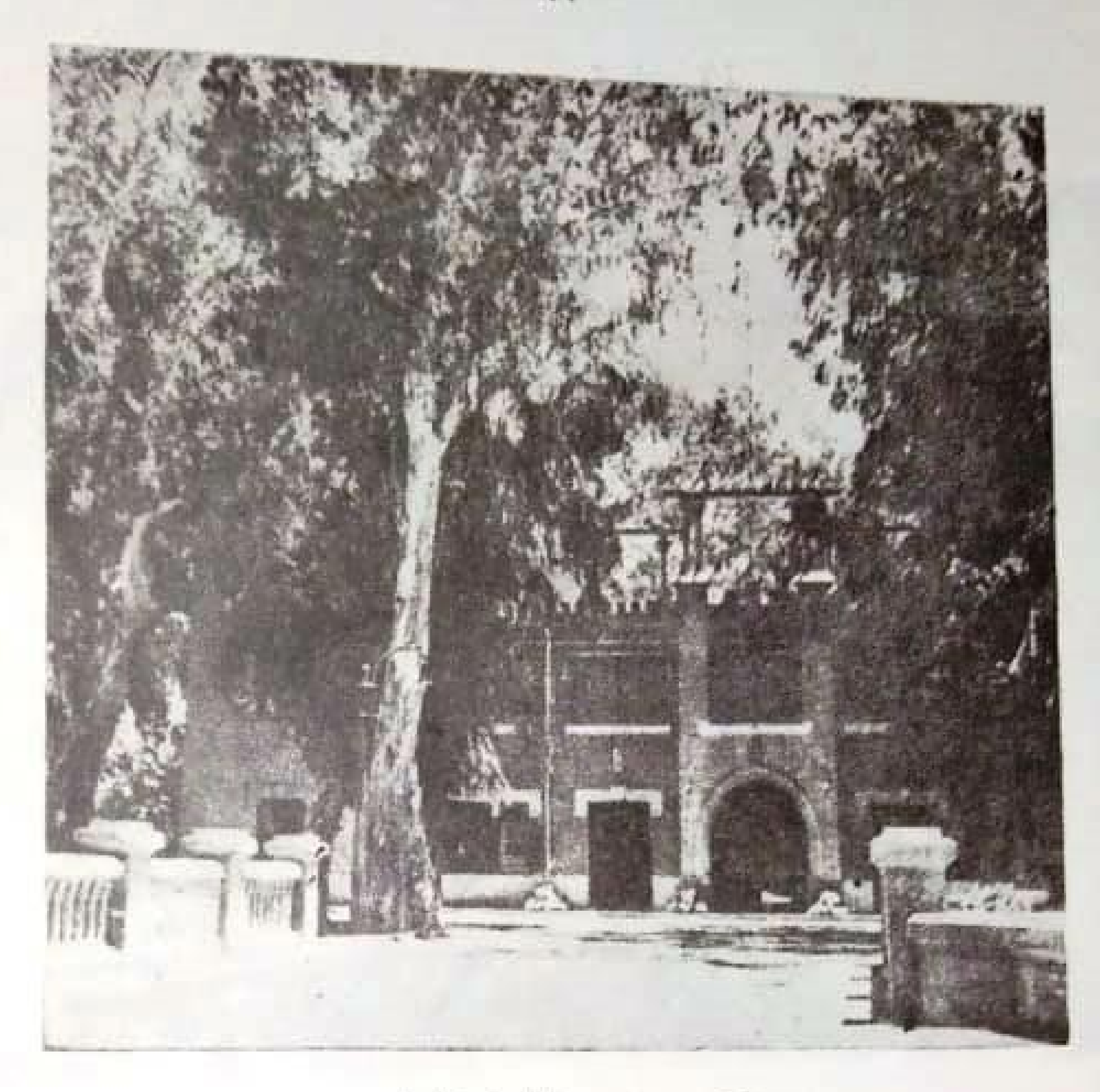
عبد العزيز فياض

أنشاص زهرة الشرقية



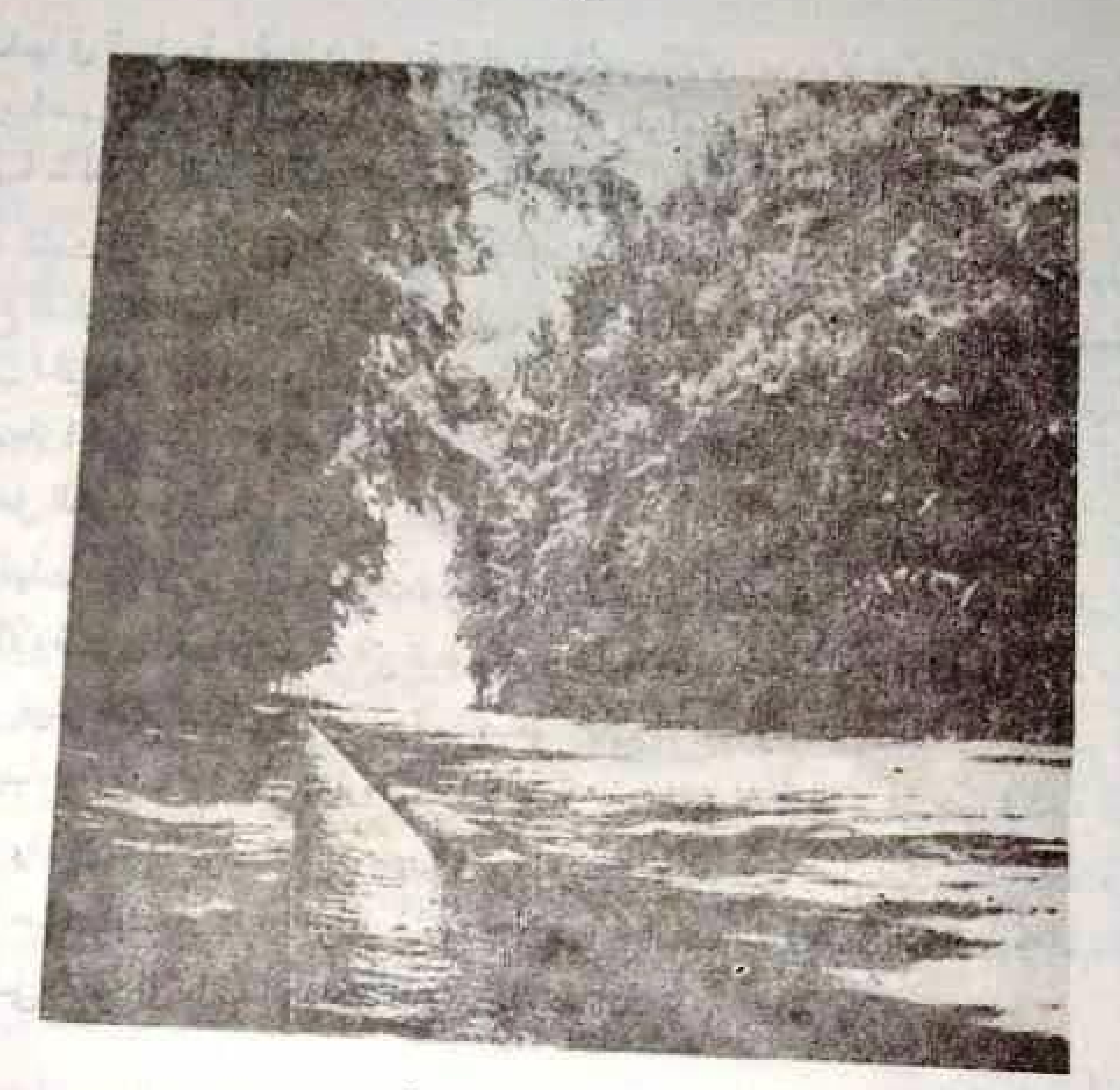
(شكل ٤٢) جلالة الملك فاروق مع ملوك العرب فى اجتماع أنشاص التاريخى

ظهرت فى القطر اليوم حركة مباركة تسعى إلى تحقيق أسس الرفاهية لسكانه وبخاصة الريف وأهله الذين ظلوا أعواما طويلة فى حاجة ماسة إلى ما يتمتع به إخوانهم من ساكنى المدن ، ونظرة عابرة إلى التفاتيش الملكية توضح لنا مبلغ ما تساهم به هذه التفاتيش من العمل على رفع مستوى المعيشة بين الفلاحين وتحقيق أسباب الرفاهية لهم ، وعلى رأس هذه التفاتيش مزارع أنشاص، فى أولها تقوم محطة السكة الحديدية فى بنائها الجميل ومصابيحها الكهربية الحديثة تزينها الأزهار والأشجار ، وإنك لتجد بجوارها المستشفى الذى يقوم بمعالجة الفقراء بالمجان ، كما تجد إحدى عربات التفتيش (الترولى) تنتظر وصول كل قطار لتسهل على القادمين والرائحين مهمتهم ، فإذا ما أقلتك إلى حيث تقوم مبانى الإدارة استرعى بصرك قصر الفاروق العزيز الذى هو آية فى الدقة وجمال الصنع تحيط به حديقة فيحاء كما تحيط به بقية الأبنية فى غير تفريق أو تمييز أو تكلف ، صنعت كلها من الآجر وطليت من الداخل بالملاط والزيت وامتدت إليها أنابيب المياه وعلى مقربة من هذه البيوت تمتد الأراضى الزراعية التى للتفتيش، الفضل الأول والآخر فى تحويلها من صحراء جرداء خاوية من الزرع والماء إلى جنات خضراء فيحاء تجود بأرك الثمرات تتخللها ضياع (عزب) دورها من الآجر يسكنها المزارعون وقد حملت كل منها اسما خاصا مثل أبو هيف والرواشدة وقطة ودوار الجبل والهنادى وما إليها ، ويشتمل كل مسكن فيها على ثلاث غرف وردهة واسعة ودورة مياه صحية .



(شكل ٢٠) قصر الفاروق فى انشاص

ومما يبعث السرور فى النفس توصيل المياه الساخنة إلى الحمامات القائمة على جانب كل ضيعة فى فصل الشتاء ويتخلل كل ضيعة من هذه الضياع شوارع منظمة مستقيمة واسعة تسمح بمرور الهواء والشمس على الطريقة الصحية ، وأمام كل منها مضخة كبيرة للمياه وحوض لشرب الماشية : كما خصصت ناحية من نواحى الضيعة لوضع الروث والسماد المتخلفة من الحيوان فيها . أما المخازن فهى مجهزة بكل أنواع الآلات الحديثة جىء بها من المصانع المصرية كى تسهل على العمال مايقومون به من أعمال الحرث والرى والتخطيط والدرس وما إليها، فترى على سبيل المثال شبكة من الخطوط الحديدية التى تسير عليها عربات (الترولى) و (الديكرفيل) فى جميع أنحاء التفتيش لتسهل ربط أجزائه بعضها ببعض فى وقت قصير وتعين الفلاحين على نقل المحصولات والأتربة من مكان إلى آخر، أما إصطبلات الماشية فقد أعدت وفق مايقتضيه الارشاد البيطرى الدقيق الذى لم يدخر وسعا فى الاحتفاظ بمستشفى صغير وصيدلية لمعالجة الحيوان والسهر على راحته وبذلك امتدت يد الرحمة إليه كما غمرت بفيضها الإنسان ، هذا ويؤدى الفلاحون واجباتهم الدينية فى جامع جميل الصنع مجهز بأحدث دورات المياه الصحية وأرضه مكسوة بسجاجيد أعجمية غالية الثمن ، كما زينت أركانه بمصابيح من البللور فما أبدعه مسجدا يدخل السرور والاطمئنان فى نفس المصلين .



(شكل ٢١) قناة تشق طريقها وسط الأشجار فى الشاس

وزيادة فى السهر على راحة سكان هذه البقعة النائية وبعث الاطمئنان فيها أقيمت فى إحدى النواحى دار تحوى عددا غير كبير من رجال الشرطة والجيش مزودين بالأسلحة والسيارات والهجان السريعة العدو ، ونظام التعامل بين الفلاحين ، والتفتيش يقوم على أساس من التعاون والرحمة ، إذ يستأجر الفلاحون الأرض القريبة منهم فى مقابل عدد من قناطير القطن أو أرادب القمح وغيرها يقدمونها وقت المحصول فى حدود طاقاتهم فلا يرهقون من أمرهم عسرا . وزيادة فى مساعدتهم ترى التفتيش يهيء لمن يريد من الفلاحين صغيرا كان أو كبيرا فرصة العمل فى الأرض التى يزرعها لحسابه الخاص فى مقابل أجر أسبوعى يعينه على شراء ما يلزم له من السوق التى تقوم كل أسبوع ، ومن الفلاحين من يؤثر ادخار أجره لدى التفتيش حتى إذا حل وقت المحصول خصم ماادخره من قيمة الإيجار التى عليه وقد يستفرغها جميعها فيصبح محصول الأرض المؤجرة له من حقه ولا تنس ما ينعم به موظفو التفتيش وعمالهم من ميزات منها أن يخصص لكل منهم جاموسة يتمتع بخيراتها مقابل مبلغ زهيد من المال : كما أن العربات على اختلاف أنواعها والسيارات وخطوط السكك الحديدية كلها تبيح للموظفين الانتقال من جهة إلى أخرى بما يحملون من جوازات تسلمها لهم الادارة وقت الحاجة ، ويصرف للسعاة والخدم ملابس خاصة منها المطرز والمحلى بالنقوش ومنها العادى

لاستخدامها فى العمل وفى الحفلات الرسمية ليظهروا بالمظهر اللائق بهم ، ولا يحرم عمدة التفتيش من مرتب شهرى يساعده فى أمور معاشه هذا ، وحدائق التفتيش الواسعة تنتج أحسن الثمار وأجودها ويقوم على العمل بها طائفة من الفلاحين المهرة ينعمون بالعمل بين الأزهار فى ظلال الأشجار .

وقد شاءت إرادة الفاروق المحبوب أن يخص إنشاص وأهلها بحبه وعطفه فهو يقضى فيها أوقات فراغه بين أنواع التسلية المختلفة والرياضة المحببة إلى نفسه الرفيعة السامية من استحمام فى حوض السباحة إلى الصيد أو ركوب الخيل أو التجوال بين الحدائق الظليلة أو تأمل محتويات المتحف الخاص الذى يحوى أنواعا شتى من الأحجار الجيولوجية والطيور المحنطة ، وغيرها من الحيوان النادر الوجود ، وإن أنس فلا أنسى المذياع الذى يدخل السرور والبهجة فى نفوس السكان من وقت إلى آخر بوساطة مكبرات الصوت التى انتشرت فى كل الجهات حتى لا يحرم أحد من متعة الاستماع بالأخبار والأغنيات ، ويجد جميعهم حاجاتهم فى أى وقت من الأوقات فى الجمعية التعاونية التى تبيعهم كل مايشاءون بأسعار معتدلة يؤدونها على نجوم مريحة ، فعلى هذا النحو يعيش جميع السكان فى ألفة ووئام يجمعهم عملهم الواحد ومصالحهم المشتركة يعطف بعضهم على بعض ، ويتبادلون المعونة فى ظل الفاروق الصالح العزيز الذى لم يتوان فى السهر على مصالح شعبه الوفى الأمين فى الريف والمدن على السواء ، ولم يأل جهداً فى سبيل تحقيق رفاهيـــة أهل البلاد على اختلاف طبقاتهم فما أسعدها حياة وأبشر بمستقبلها الزاهر فى ظل مولانا راعى النهضة الحديثة ، ورائد الديموقراطية الصحيحة ، وفقه الله العلى القدير إلى ما فيه السداد وأبقاه ذخرا وعونا للبلاد .

صلاح الدين أرناؤط
المدرس بالكلية الحربية الملكية

عاصمة الحناء

الصوة بعض أبنائها من مشهوري رجال الشرقية وعظمائها ، وتكاد تكون هذه البلدة عاصمة الحناء بفضل جهود الأهالي واهتمامهم بزراعتها والإكثار منها لملاءمة التربة ودربة الأهالي ودرايتهم بشؤون الزراعة المختلفة التي اكتسبوها بالتجارب منذ أكثر من مائة سنة وقت أن كان محمد علي باشا جد الأسرة العلوية يطارد المماليك في الصعيد وتقدم لمناصرته بعض رجال تلك الأقاليم ، ومن بينهم «الشيخ أيوب» جد الأسرة الأيوبية التي تقطن بلدة الصوة الآن ، فاستقدمه محمد علي إلى «الصوة» وأقطعه أرضا واسعة ونصح له بزراعة الحناء والأشجار فيها على أن يؤدي للوالي نصيبه من الخراج مقابل الأرض الممنوحة ، فاهتم هذا بالزراعة اهتماما كبيرا كان سببا في نجاحها ورواج تجارتها ، فراع هذا الأمر الجليل محمد علي الكبير ، فعمد إلى التوسع في الزراعة والإكثار منها ، واستحضر أحجار الجرانيت من أسوان لإنشاء المطاحن اللازمة التي لاتزال توالي عملها إلى الآن . ولقد كان من أطرف وأظرف مجاملات التاريخ أن يتهز «علي بك أيوب» الفرصة فيهدي حفيد محمد علي الكبير في حفلة زواجه حناء من زراعة جده الأكبر ومطاحنه بعد مائة وعشرين عاما ، تلك الهدية التي حملتها الإبل من عاصمة الحناء إلى عاصمة الدولة . ولا يفوتني أن أخص بالذكر أشجار النخيل المنتشرة في أنحاء البلدة ، فهي تنتج مقادير كبيرة من أجود أنواع التمر الذي تشتهر به بلدة الصوة وما جاورها من البلدان ؛ ويفكر مجلس المديرية في إنشاء مصنع بتلك البقعة لانتقاء أجود أنواع التمر ووضعه في صناديق مقفلة أو علب مرقمة وتصديره للخارج . ولا شك في أن هذا عمل جليل سيعود بالنفع العميم والخير الموفور على أهل الشرقية بأجمعها .

عبد الوهاب محمد مصطفى السيد

تعقيب

أطلعنا حضرة صاحب المعالى وزير المعارف حينما كان وكيلا لمجلس النواب على البحث السابق فتفضل علينا بالكتاب الآتى :

حضرة صاحب العزة مراقب منطقة الزقازيق التعليمية

تشرفت باستلام كتابكم المؤرخ ١٨ الجارى . وأشكر لكم اهتمامكم بإخراج كتاب عن مديرية الشرقية . وقد اطلعت على النبذة المكتوبة عن (الصوة) وإنى أوافق على ماجاء بها وإن كنت ، إحقاقا للحق ، أود أن تنوهوا بأن زراعة الحناء انتقلت من الصوة إلى بعض قرى مديرية الشرقية مثل كفور العايد والسعادات والطحاوية والعدلية وغيتة ، بينما تناقصت المساحة المنزرعة حناء بالصوة فى السنوات العشرة الأخيرة ، بسبب إقبال الأهالى على زراعة المنجو لما استبانوه من صلاحية التربة لهذا الثمر . وتنتج الصوة نوعا من أفخر أنواع المنجو أصبح معروفا فى السوق باسمها .

وقد اختار المغفور له الملك فؤاد الأول هذا الصنف لإرساله هـدية لملك إيطاليا حين مروره بقنال السويس فى رحلة بالبحر الأحمر وشواطئ اريتريا .

والصوة : اسم عربى وتعريفها فى القاموس ، (أنها ما ارتفع من الأرض ولم يبلغ أن يكون جبلا) ، وهذه القرية تقع على أرض رملية مرتفعة عما يحيط بها من المزارع فالاسم على مسماه . ولا بد أن يكون قد أطلقه العرب بعد فتحهم لمصر .

هذا ماعنّ لى أن أمدكم به من معلومات ، ولكم أن تضمنوه ما تكتبونه عن الصوة بالطريقة التى ترونها .

وتفضلوا بقبول وافر الاحترام ؟

١٩٤٨/١٠/٢٠

على أيوب

وكيل مجلس النواب

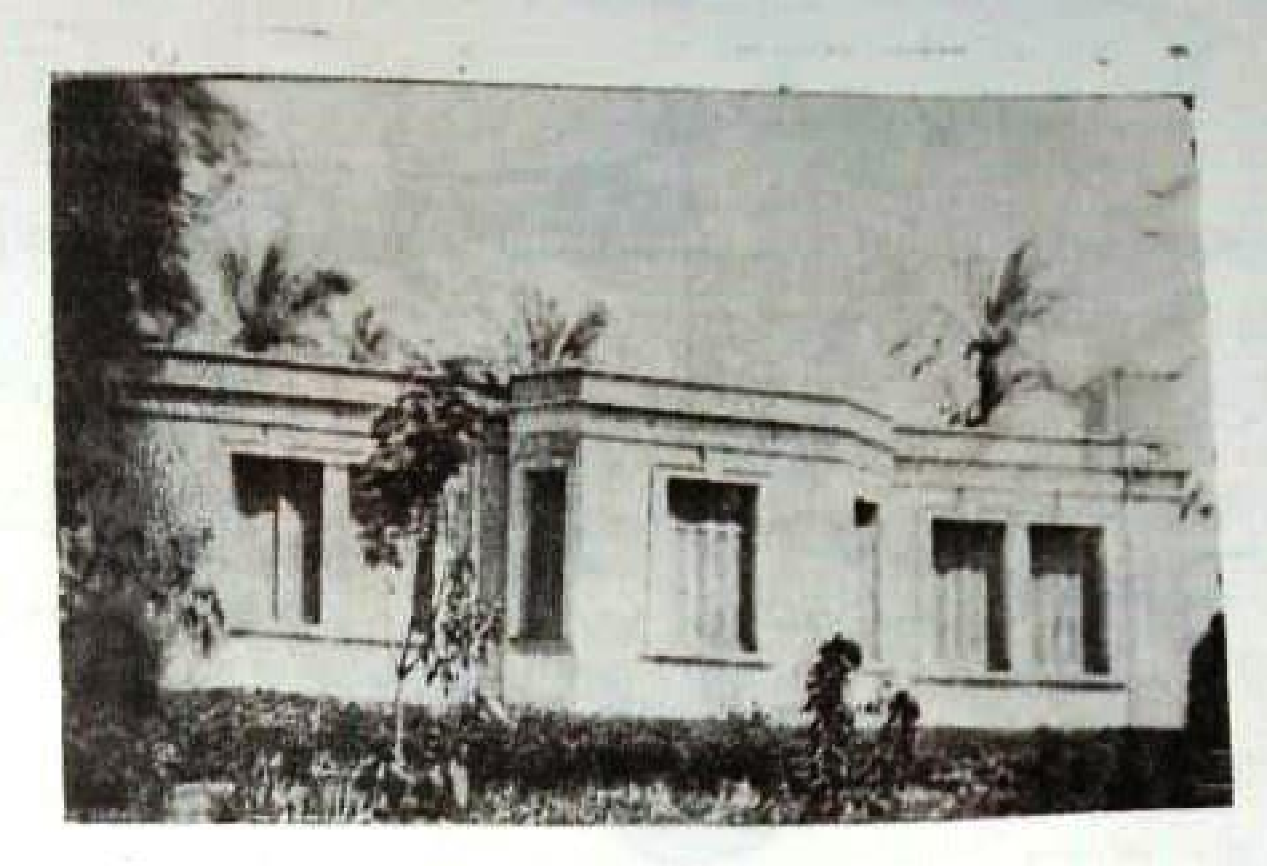


لئن كان للبلاد حظ فى إنتاج العباقر ـ لما يحيط بها من خصب وهواء ـ فإن الصوة فى مقدمة هذه البلاد ، لأنها تقع على ربوة ذات قرار ومعين ، تحدق بها الحدائق والبساتين ، فى مثلث بين فرع النيل البلوزى القديم ، وبين بحر تراجان العتيق الذى احتل مكانه الآن ترعة الوادى . وأما فرع النيل البلوزى فقد أصبح فى مكانه اليوم ترعة الإسماعيلية نحو الجنوب ، وبحر فاقوس من الشمال الشرقى . وكانت الصوة قديما من أقسام آرابيا ثم صارت من كورباتا فى القرون الوسطى . واعتزت بخصبها وحدائقها فى عهدى الشياشقة والبطالمة . ولعل اسمها معرب من Iswi أمير مقاطعة أرابيا . ولما احتلها العرب صادف تعريب الاسم مطابقة فى مكانها الذى هو على أطلال[1] نجدية من العهد الرومانى ، كما ثبت من الآثار التى وجدت بها سنة ١٩٢٩ . ومن تلك الآثار نقود رومانية من البرنز وغيره ، ودمى صغيرة تعرف عند الأثريين باسم شوابتى وكان لها أثرها وقيمتها لدى القدامى . ونسبوا تلك الآثار للملك بينوتم Pinûtem الذى استوى على عرش زان (صان) وبوباستس (تل بسطة) وكانت الصوة وعربط وضواحيهما فى جبهة الدفاع عن الحوف الشرقى (مديريتى الشرقية والدقهلية فى عهد الرشيد كما هو معروف فى المصادر التاريخية الكبيرة .

وفى القرن السابع وفد إلى تخومها السناجرة مع السيد سليم المسلمى العراقى وعززوا أهلها بشبابهم ضد المغيرين عليها . وفى عصر النهضة العلوية حلت بها الأسرة الأيوبية بأمر من محمد على باشا الذى استغل درايتهم بالحنا وشاركهم فى زراعتها والاتجار بها فى الخارج . واستمرت شهرة الصوة وصفط تدوى فى البلاد الأجنبية إلى عهد قريب . وكانت هذه الأسرة الأيوبية من غطارفة العرب بالوجه القبلى .

---

(١) فى اللغة : الصوة المرتفع من الحصى ونحوه ، ومأوى السباع .



(شكل ٢٢) منزل معالى وزير المعارف بالصوة

وزمام الصوة ٢٧٢٥ فدانا جيدة التربة . وسكانها مع السناجرة نحو سبعة آلاف نفس وكانوا ٦٤٠٠ نفس سنة ١٩٣٧ ؛ وقد زارها العلامة جاستون دومروج – Doumergue gaston رئيس جمهورية فرنسا سنة ١٩٣٣ بدعوة من أصدقائه آل أيوب . وتشرفت بطلعة جلالة الملك فى ٢٧ فبراير سنة ١٩٣٧ .

(١) ومن أعلامها العلامة الأديب الشيخ مصطفى الصوى المعروف بالصاوى ونسبته على غير قياس كما جاء فى الجبرتى الذى ترجم له حياته فى زهاء عشر صفحات .

(٢) المرحوم أيوب بك أيوب . وكان عضو مجلس النواب ومن اللجنة التى ردت على خطاب العرش الخديوى سنة ١٨٨٣ .

(٣) عبدالله بك أيوب . وكان رئيس مجلسى الدعاوى والمشيخة كما جاء فى الخطط التوفيقية (ج ٧) .

(٤) صالح بك أيوب . وكان مديراً بالوجه البحرى فمحافظا للإسكندرية وتوفى سنة ١٢٩٤ هـ .

(٥) محمد بك أيوب . وكان مأمور مركز العلاقة فمفتشا للوادى وتوفى سنة ١٣٠٩ هـ .

(٦) السيد بك أيوب . وكان عضو الشياخات وعمدة الصوة وتوفى بها سنة ١٩٢٧ م .

(٧) ومن عباقرها المقدام الحازم الأمين محمد باشا محمد حسين محافظ الاسكندرية الأسبق حفظه الله .

(٨) وحضرة صاحب المعالى فخر الشرقية الأستاذ القانونى الأديب على بك السيد أيوب وزير المعارف .

وقد أنجبت هذه الأسرة المباركة كثيرا من الغطارف والأشبال المعروفين بالعبقرية والجلال ؟

٢/٣/١٩٤٩ صالح محمد فارس



١ – تاريخها ٢ – موقعها الاستراتيجى ٣ – القبائل الضاربة حولها ٤ – بلبيس الحديثة

١ – تاريخها :

بلبيس مدينة عميقة فى التاريخ عاصرت البطالسة والرومان والعرب . ولها فى التاريخ الرومانى والعربى خاصة شأن كبير . قال المقريزى ، إنها (بلبيس) سميت فى التوراة جاشان ، وفيها نزل يعقوب لما قدم على ابنه يوسف عليهما السلام فأنزله بأرض جاشان ، وهى بلبيس إلى العلاقة ، . وفى خطط المقريزى أيضا ، أنها كانت تسمى قديما قلبيس أو فلابيس ، وهى أشهر بلاد الشرقية خصوصا فى الأعصر الماضية . وكانت قاعدة خط الحوف وكرسيه ، كما قيل إنها كانت تسمى بيس بحذف الباء واللام نسبة إلى امرأة من الملوك نزلت هناك فسميت بها ثم ضم إليها كلمة ، بل ، فصارت بلبيس أى بيس الجميلة ، وقيل أيضا إنها كانت تسمى ، بل بلاس ، أى القصر الجميل ، وأكبر الظن أن هذه التسمية جاءت نسبة إلى القصر الذى كانت تنزل فيه ، أرمانوسة ، ابنة المقوقس عظيم القبط وحاكم البلاد فى عهد الرومان .

من كل هذا يتبين لنا أن أول ماظهرت بلبيس فى التاريخ كان ذلك فى عهد سيدنا يوسف عليه السلام . وأنها مدينة قديمة جدا ، وأنها كانت من كبريات مدن البلاد ، بدليل أنها كانت كرسيا لوادى الحوف الكبير.

ولما قدم عمرو بن العاص لفتح مصر عسكر بالقرب من بلبيس فى مكان يقال له الآن كفور العايد على بعد ٥ كيلومترات من بلبيس فى الطريق إلى أبى حماد . وهناك حدثت بينه وبين الروم أول معركة هامة حشدوا فيها فرسانهم حيث انتصر فيها العرب الذين استشهد بعضهم ، وكان فيهم عدد من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدفنوا فى نفس المكان ، وأهل العايد يطلقون عليه اسم المشهد ، منقولا عن آبائهم وأجدادهم جيلا بعد جيل . وقد قتل من الروم فى هذه المعركة زهاء ألف فارس ، وأسر منهم نحو ثلاثة آلاف ، ودخل عمرو بلبيس العظيمة ، وبها أرمانوسة ابنة المقوقس فى عصرها الجميل حيث نقلها أبوها من الفسطاط إلى هناك فى انتظار قسطنطين ابن الأمبراطور هرقل ليبنى بها ، وإن فى اختيار المقوقس لهذا المكان تتزوج فيه ابنته بابن أكبر عاهل فى العالم إذ ذاك لدليلا على أن لبلبيس شهرة تاريخية عظيمة ، وأنها أليق مكان وأطيبه لهذه الزوجة الفريدة ، وأخذت أرمانوسة ، وجميع مالها وسائر ما كان للقبط فى بلبيس ، وسيرت إلى أبيها مكرمة مع قيس بن العاص .

وقد أعطيت بلبيس إقطاعات للعرب الذين فتحت مصر على أيديهم كما نقلت قبيلة قيس إلى هذا المكان في عهد الأمويين . وفي عهد هشام بن عبد الملك رأى عبيد الله بن الحجاب الوالي إذ ذاك أن لا تستأثر قيس بهذا المكان الرغد وطلب إلى هشام أن يسمح له باستقدام بعض بيوت من القبائل الأخرى فسمح له ، فاستقدم مائة بيت من نصر ومائة أخرى من بني سليم وأعطاهم أموالا من صدقة العشور اشتروا بها الجمال والخيول ، واشتغلوا بنقل الغلات إلى بحر القلزم ؛ كما اشتغل كثير منهم بعد ذلك بالزراعة وألفوا حياة الاستقرار ؛ كما استقدم الفاطميون والمماليك أفخاذاً وبطونا من القبائل العربية وأنزلوها ببلبيس ، ولهذا غلبت على هذه المنطقة الروح العربية لانتشار العنصر العربي بها أكثر من غيرها ، ولم تزل بلبيس من مدائن مصر الكبار حتى نزل بها « فيرى » ملك الأفرنج فأخذها عنوة بعد حصار طويل ، وخربها وقتل منها آلافا مما يدل على أنها كانت مدينة قوية زاهرة . وقد ذكر المؤرخون أنه « كان فيها عمارة كثيرة ، وعدة بساتين ، وكان أهلها أصحاب يسار ونعمة » ، ثم عادت فظهرت في التاريخ مرة أخرى ، ونمت وازدهرت لاتخاذها محطة عظيمة للقوافل القاصدة إلى بلاد الشام ، وإلى بلاد العرب عبر برزخ السويس ولموقعها الاستراتيجي الهام .

٢ — **موقعها الاستراتيجي :**

تقع بلبيس على حافة الصحراء الضاربة إلى برزخ السويس فصحراء سيناء فبلاد الشام ، وكانت حتى عهد قريب جدا فوق تل مرتفع يشرف على الدلتا من ناحية وعلى الصحراء من ناحية أخرى ، ولهذا كانت الحصن الأول في وجه المغيرين كما كانت المركز الذي تخرج منه الغارات إلى بلاد الشام ، فهي كالدرع الذي يقي الدلتا شر الغارات الأجنبية ، ولقد رأينا حينما غزا العرب الشام كيف أشار الأمبراطور على المقوقس أن يجعل خط دفاعه الأول في بلبيس فأرسل إليها آلافا من الفرسان الروم وهم الذين التحم بهم عمرو بن العاص ثم رأينا كيف أنزل بها بيوت من القبائل العربية التي اشتهرت بالقتال ، على أنهم على مر الزمن تركوا الحرب واشتغلوا بالتجارة والزراعة فضعفت فيهم الروح الحربية إلى أن دخلها الأفرنج بقيادة ملكهم « مرى » ودمروها لشدة مقاومتها إياهم .

ولم يكن يخفى على أحد في العصر الحديث هذا الموقع الاستراتيجي الهام ، وقد ظهر أثر ذلك جيدا حين اشتد التنافس الاستعماري بين ألمانيا من جهة وبين بريطانيا من جهة أخرى . وحينما بدأت ألمانيا تصادق السلطان ، وتتخذ ذلك ذريعة للولوج إلى الشرق ، لاحظت ألمانيا في موقع بلبيس أهمية خاصة ، فاشتروا في أوائل القرن الحالي إقطاعية على حافة الصحراء على بعد كيلو واحد من بلبيس ليستغلوا هذا الموقع إذا جد الجد والتحم الفريقان ، ولم يكن ذلك خافيا على الانجليز الذين سارعوا عندما أعلنت الحرب سنة ١٩١٤ إلى الاستيلاء على هذه المستعمرة حيث أنشئوا معسكرا كبيرا غص بالجنود الانجليز ؛ كما أنشئوا مركزاً لتموين جيوشهم في هذا المكان ، وكما سارعوا في أوائل الحرب الأخيرة سنة ١٩٣٩ إلى إنشاء مطار في هذا المكان لم يخلوه إلا بعد نهاية الحرب في نهاية سنة ١٩٤٦ ، وقد أنشئت مكانه مدرسة مصرية لتعليم الطيران تابعة لوزارة الحربية والبحرية المصرية .

٣ — القبائل الضاربة فى إقليم بلبيس :

نظرا لما نشاهده فى بلبيس من تغليب البيئة والصفات العربية رأينا أن نفرد بحثا خاصا للقبائل التى نزحت من مواطنها واستوطنت هذا الصقع الذى يلائم طبيعتهم لوقوعه على حافة الصحراء فنقول :

أهم القبائل الضاربة فى هذا الإقليم هى : العايد ، والطحاوية ، والبياضين ، والحويطات ، والمعازة ، والعبايدة ومطير ، والقاطنون منها المتوطنون الذين اتخذوا بلادا وقرى هم قبائل العايد ، والطحاوية ، والبياضين ، ومطير . أما القبائل الأخرى فليس لها موطن معين ولا قرى معروفة ؛ لأنهم عرب رحل يعيشون فى الصحارى وراء أنعامهم .

وأشهر هذه القبائل وأعرقها وأقدمها قبيلة العايد . فإن لها فى كتب التاريخ مثل المقريزى ، والجبرتى ، ومروج الذهب وغيرها من أمهات كتب التاريخ فصولا مسهبة جاء فيها بإيجاز : أن قبيلة العايد بطن من طى أصلها من اليمن نزحت إلى الحجاز عقب الإسلام ، واستوطنت نجدا إلى القرن السادس للهجرة ، ثم قدمت مصر فى القرن السابع حيث استقدمها الملك الظاهر بيبرس أحد ملوك دولة المماليك ، وعهد إليها خفارة المحمل الشريف وحماية الحجاج من غارات العرب الذين كانوا يسلبونهم ، وينهبون المؤن التى كانت ترسل من مصر إلى الحرمين الشريفين وقتذاك ، فحضر شيخ العرب محمد العايدى الكبير وأتباعه حوالى سنة ٦٥٠ هجرية ونزلوا بأرض بطحاء بحرى مدينة بلبيس بنحو ٥ كيلومترات فاستوطنوها وأنشئوا بها بلادا وقرى تعرف الآن ببلاد العايد أو كفر العايد ، وقد أقطعهم السلطان الظاهر بيبرس تلك الجهات فتملكوها واحترفوا الزراعة على مر الزمن ، واختصوا بزراعة النخيل ؛ وقد ساعدهم على زراعته والإكثار منه وجود التمر الذى أحضروه معهم من بلاد العرب فكانوا كلما أكلوا تمرا غرسوا نواه فنما بسرعة لخصوبة الأرض ، ولنخيلهم هذا شهرة فائقة لجودة ثمره وتعدد أنواعه ووفرة محصوله . الأمر الذى حفزهم على تخصيص سوق لتصريفه تعرف « بسويقة العايد » يؤمها التجار من شتى البلاد وأقاصيها لمشترى البلح العايدى والاتجار به طوال مدة موسم البلح ، وهو الذى تنادى عليه الباعة باسم « البلح العايدى » .

وأشهر عائلات العايد عائلة شيخ العرب إبراهيم ، وشيخ العرب أيوب ، وحسن أباظة ، وصيام ، والأعسر .

وسرعان ما اندمجت هذه العائلات فى الحياة الاجتماعية وتثقف أفرادها بثقافة العصور المتتابعة حتى نبغ فيهم فى عهد محمد على باشا الكبير العظماء ، أمثال : شيخ العرب إبراهيم العايدى ، وقد كانت له مكانة ملحوظة عند الوالى ، وكذلك شيخ العرب أيوب سليمان العايدى ، وشيخ العرب حسن أباظة العايدى : والعلماء أمثال الشيخ محمد على إبراهيم العايدى ، والشيخ أبو سالم العايدى ، والشيخ على الأعسر ، والشيخ محمد عسكر ؛ والموظفون أمثال : السيد أباظة باشا ، وسليمان أباظة باشا ، وأحمد أباظة باشا ، وإسماعيل أباظة باشا ، والدكتور خليل العايدى ، والسيد أيوب بك ، والحاج حسين الأعسر . وذرية هؤلاء يمثلون مناصب سامية فى مختلف نواحى الدولة إلى الآن .

أما الطحاوية فهى بطن من قبيلة الهنادى المنتشرة فى شتى أنحاء البلاد انحدرت من جهة الغرب منذ قرنين من الزمان ، ونزلت بناحية الزورة « السعادات الآن » واستوطنتها ، واندمجت بأهلها ، واحترفت الزراعة وعنيت بتربية الخيل . ومنذ بضع سنوات أنشأت القبيلة لها قرية بالبر الشرقى للترعة الإسماعيلية شرق السعادات سميت باسمها « الطحاوية » وعمدتها الشيخ طلب راجح الطحاوى . ومن عرب الطحاوية نجد يسمى « الفواخر» وموطنها ضواحى بلبيس ، ونجد آخر يسمى « البهجة » وموطنها الخاصة الملكية قرب إنشاص . ولهذه القبيلة فرع نما وتكاثر وأصبح له شأن كبير فى مركز فاقوس .

أما البياضين فهم حديثو عهد بإقليم بلبيس حلوا بالقرب من بلدة بردين فى قرية نوبة والدهاشنة وبها عدة مساكن تعرف بعزبة « البياضين » ، وهم فئة قليلة يعيشون على تجارة الأغنام ، ومنهم جماعة احترفوا الزراعة ، وآخرون تخصصوا فى نسج الأكلمة والأخراج وما شاكلها .

ومن القبائل المنتشرة فى مركز بلبيس قبيلة مطير — أو بنو عطا — وهى بطن من عبس كانت تسكن أيام النبى صلى الله عليه وسلم بلاد العرب ثم دخلت مصر بدعوة من الفاطميين أيام العزيز ونزلت بمصر العليا ومصر السفلى . فسكن جزء كبير مركز الصف بالجيزة ، ويسمون بعرب « الحصار » ، وجزء منهم بمديرية الشرقية متفرقين فى قرى مركز بلبيس . ومن هذه القرى عرب تل الجراد ، والعواصية ، ومنية سنتا ، والعبداروس والثفانية ، وسندنهور ، والجبلة .

وهذه القبيلة أكثر القبائل العربية محافظة على تقاليدها وطباعها ، وجلهم مستوطنون . والقليل منهم متجعون وراء الأغنام . ولهذه القبيلة عادات غريبة فى أفراحهم وأعيادهم وسوامرهم يطول الحديث فيها : كما أنها لازالت باقية على تراث السالفين من الأطعمة ، فتجد مآكلهم الحريرة والعصيدة ، والجريشة ، والمجالة ، والمرققة ، والمفورة ، واللصيحة . وكلها تحتوى على الخبز الطازج واللبن مطبوخا بالسمن ، وكل منها يصنع على هيئة خاصة ، وهذه القبيلة لازالت بها النعرة القديمة ، فلا تزاوج مع الفلاح مطلقا مهما علا واغتنى . ومن الأمثلة المحببة إليهم التى تقع من نفوسهم موقع العقيدة « يأكلها التمساح ولا يأخذها الفلاح » ، وهو مثل مشهور من حاد عنه أودى بحياته وحياة أسرته . كما أنها لاتزوج القبائل الأخرى إلا إذا كانت حليفة لها ، ولكن بمهر مضاعف .

٤ — بلبيس الحديثة :

من أكبر مدن الشرقية ، عدد سكانها ٢٣٦٩٤ ، يتبعها ناحية عدد سكانها جميعا ١٨٠٣٠٥ ، وأشهر نواحيها مشتول السوق وعدد سكانها ١٤٢٦٨ ، وإنشاص الرمل ، وكفور العايد ، والزوامل وغيتة ، والعدلية ، وكفر إبراش ، والبلاشون ، وشبرا النخلة . وهى النواحى التى يزيد عدد سكانها عن ٥٠٠٠ نفس — ولقد كانت مدينة بلبيس إلى عهد قريب تقع على تل مرتفع يشق وسطها شارع مسقف يسمى « القيسارية » ، وكان به أهم المحالّ التجارية . وبعد سنة ١٩٣٠ أزيل التل الذى كانت تقام عليه وبنيت مكانه البلد من جديد فى مستوى الأراضى الزراعية المحيطة بها ، وقد استفاد أهلها كثيرا من الأتربة العضوية التى كانت تباع سمادا طيبا للزراعة . والمزروع فى مركز بلبيس ١٠٠٫٠٠٨ فدان ، منها ١٣٫٢٣٨ مملوكة للحكومة ، والباقى وقدره ٨١٫٨٢٠ فدانا

يملكه ٣١٫٨٢٠ شخصا منهم ١١ شخصا يملكون وحدهم ٣٧٫٧٥٣ فدانا يقابل ذلك أن ١٢٫٧٨٣ شخصا يملكون ١٩٫٦١٩ فدانا فقط وذلك كما جاء في إحصائية سنة ١٩٣٩ ، والزمن الذي مر منذ ذلك التاريخ حتى الآن كان في مصلحة الفريق الأول ، ولعل سبب ذلك أن رؤوسا كبيرة وضعت أيديها على مساحات واسعة من الأراضي التي لم تكن صالحة للزراعة وعملوا فيها يد الإصلاح حتى صارت إقطاعات زراعية طيبة تنتج الثمر الوافر ، والخير الكثير .

وجزء كبير من أراضي بلبيس رملي وتزرع به الحناء ، وقد أدخلت زراعتها في هذا المكان في عهد سعيد باشا سنة ١٨٦٨ ثم النخيل والفواكه والسمسم والفول السوداني ثم القمح والذرة فالقطن في الأرض السوداء ، وزراعة البساتين مزدهرة في بلبيس من قديم الزمان . فقد ذكر المقريزي ، بلبيس أشهر بلاد الشرقية وفيها مقدار عظيم من النخيل والأشجار والبساتين ، ولا تزال تحتفظ بهذه الميزة وبساتين الخاصة الملكية وبساتين بركات خير شاهد على ذلك .

والصحراء في بلبيس ميدان واسع للاستغلال باستصلاحها ، وتحويلها إلى أراض زراعية بمجهود غير كبير خصوصا بعد أن أنشأت وزارة الأشغال تفتيشا للصحارى لاستغلالها من الناحية الزراعية ولا يكلف ذلك إلا توصيل الماء إليها بأحد أمرين : إما بحفر ترعة على بعد كيلومترات من الترعة الإسماعيلية في الناحية الشرقية منها تأخذ من النيل رأسا من أمام قناطر محمد علي ، أو بتوسيع الترعة الحالية ثم حفر ترع رأسية بالنسبة لهذه الترعة تشق في الصحراء إلى بضع كيلو مترات ، وينشأ عند نهاية كل ترعة آلة رافعة تصب في ترعتين صغيرتين جانبيتين تتجهان شمالا وجنوبا .

وبلبيس إلى جانب ذلك مدينة صناعية ، أهم مايصنع فيها عصر الزيوت النباتية ، وخاصة السمسم وطحن الحناء في قرية العدلية والنسج بواسطة الأنوال اليدوية ، ولا يضارعها في ذلك مدينة أخرى في الشرقية ؛ ففي بلبيس ونواحيها نحو ٧٠٠ نول يدوي ، ولا يكاد يخلو بيت في بلبيس منها . على أن هذه الصناعة الأخيرة قد نمت وازدهرت أيام الحرب بدليل أنه كان بها سنة ١٩٣٩ : ٨٨ نولا ، وهذه الزيادة جاءت نتيجة حتمية لامتناع الوارد من المنسوجات في أثناء الحرب الأخيرة . ولهذا قد يخشى عليها من الزوال إن لم تجار الزمن وتتبع الطرق الصناعية الحديثة . ويسرني أن أذكر أن بعض المشتغلين بها قد فكروا في استخدام الآلات الحديثة في هذه الصناعة . فإن فعلوا فلبلبيس مستقبل زاهر في هذه الصناعة التي حاز أهلها فيها خبرة ومرانا .

ومن الصناعات التي أنشئت في بلبيس حديثا ولكنها بزت فيها غيرها صناعة بناء السفن ، ويرجع ذلك إلى حفر ترعة الإسماعيلية ومرورها بجانبها وهي القناة الملاحية الهامة . وقد بلغ عدد ملاك السفن في بلبيس حسب إحصائية سنة ١٩٣٩ : ١١ من جملة ملاك السفن في الشرقية البالغ عددهم ١٨ . وبعد فهذا بحث موجز عن بلبيس في قديمها وحديثها رأينا أن نكتفي به لضيق المقام ، ولعلنا نوفق إن شاء الله إلى تأليف كتاب قائم برأسه عن بلبيس ، والمعلومات عنها كثيرة ، وهي جديرة بأن يفرد لها كتاب خاص والسلام ؟

إبراهيم محمد النجار

ناظر بلبيس القديمة

٢ - بلبيس

وأنت تستطيع أن تنطق اسم هذه البلدة كما يحلو لك ، فليس فى وسع أى إنسان أن يخطئ فى ذلك ...

فلك أن تقول (بَلْبِيس) و (بِلْبِيس) كما جاء فى مراصد الاطلاع ، ولك أن تقول (بُلْبَيْس) كما حكى النابلسى

وقد اختلف فى أصل هذا الاسم فقيل : إن أصله (بيس) بحذف الباء الأولى واللام و(بيس) هذا اسم امرأة من الملوك القدامى نزلت هناك فسمى المكان باسمها — ويقال إن اسمها مشتق من (فلبيس) ولعل هذا أقرب إلى المعقول ، فان حرف الفاء والباء قريبان فى النطق وكثيراً ما يحل أحدهما محل الآخر .

وتقع بلبيس على الحافة الشرقية للسهل المزرع من أرض الوجه البحرى عند اتصاله بالصحراء ، وعلى ضفة وادى طميلات المشهور فى التاريخ القديم وضفة من فروع النيل التى طمرت (الفرع البليوزى) نسبة إلى مدينة (بليوز) أو الفرما ، وأيضا على القناة القديمة التى كانت تصل النيل بالبحر الأحمر فى العصور الماضية والتى سدت ثم حفرت عدة مرات ، وكان شارع الخليج المصرى جزءاً منها فى آخر عهد الناس به ، وعلى ضفة ترعة الاسماعيلية الحديثة أو (الحلوة) كما يسميها أهل الشرقية ، وعلى الخط الحديدى الرئيسى الموصل من القاهرة إلى المنصورة فدمياط ، وعلى طريق المعاهدة الكبير الحديث وعلى طرق زراعية أخرى مختلفة .

وقد جعل لها موقعها هذا شأنا عظيما فى التاريخ ، فهى على الطريق الذى سارت فيه جميع الهجرات والغزوات من الشرق . فأكثر المؤرخين يرجحون أنه الطريق الذى سلكه إبراهيم ويعقوب ويوسف عليهم السلام ، وأنه الطريق الذى خرج فيه بنو إسرائيل ، وأقبل منه المسيح ، والذى كان فى كل الأوقات طريق التجار وأهل الأسفار والحجاج ، تجتازه القوافل بين آسيا وأفريقية .

وهو الطريق الذى سلكه العرب فى فتح مصر وسلكته جيوش الصليبيين أكثر من مرة . ذلك لأن كل ما فى الطريق من مشقة للمتقدم من الباب الشرقى لمصر هو وعورة السير فى الصحراء ، أما أى طريق غيره فيحتوى على شبكة من القنوات ، وفروع النيل القديمة تصلح أمكنة للدفاع ولمفاجأة المهاجم الذى لا يعرف تخطيط البلاد ، ولم تكن هناك حينذاك العدة الحديثة لنصب الجسور .

من أجل هذا اقترن اسم بلبيس بالكثير من أحداث مصر ، وتردد فى التاريخ وفى القصص وفى الخيال على السواء . فأرض بلبيس ، هى المعروفة فى التوراة باسم (جاشان) حيث نزل يعقوب على ابنه يوسف ، وتمتد أرض جاشان هذه من بلبيس إلى العلاقة .

وأهم ما يقترن به اسم بلبيس من الناحية التاريخية فتح العرب لمصر بقيادة عمرو بن العاص ، فقد وقف عندها الروم بعد الفرما ، وعندها جاءت العرب جماعة من أهل مصر عليها أحد الأساقفة ليفاوضوا عمرا فطلب إليهم أن يساعدوا المسلمين على الروم لما بين القبط والعرب من قرابة فى النسب ، وأمهلهم أربعة أيام ليأتوا إليه بما استقروا عليه . ولكن القائد الرومى هجم عليهم فى اليوم الثانى بعد المفاوضة ، فدارت عليه الدائرة وتمزق جيشه ، ولبث العرب عند بلبيس شهراً من الزمان ، حدث فى أثنائه قتال شديد ، وقتل من

العرب فيه عدد ليس بالقليل ... وفى بلبيس قتل أيضاً الخليفة الفاطمى العزيز بالله بعد لقاء مؤثر بينه وبين ابنه الحاكم بأمر الله فى شهر أكتوبر سنة ٩٩٦ م .

وعندها أيضا التقت جيوش الصليبيين بجيش ضرغام فى أيام النزاع بينه وبين شاور ، وهو النزاع الذى مهد لاستيلاء صلاح الدين على أزمة الحكم فى مصر . وكانت أيام الحكم العربى قاعدة خط (الحوف) وكرسيه ومحل إقامة حاكمه ، وكان يمر بوسطها خط مقتطع من النيل وقت فيضانه يسمى بخليج المنجى ، ويروى جميع أرض الخط .

هذا من الناحية التاريخية .

وأما من ناحية القصص والخيال ، فأهم مايقترن به حينذاك اسم بلبيس هو قصة (أرمنوسة) ابنة المقوقس كما يسميه مؤرخو العرب حاكم مصر قبل الروم . فقد ذكر (الواقدى) من مؤرخى العرب ونقل عنه غيره من المؤرخين ، أن المقوقس زوج ابنته أرمنوسة من (قسطنطين) بن هرقل وجهزها بأموالها وجواريها وغلمانها وحشمها لتبنى بها فى مدينة (قيسارية) فخرجت إلى بلبيس وأقامت بها فى طريقها حتى وصل إليها عمرو بن العاص فكانت من أشجع من دافع عن المدينة . ولما انهزم الروم أسرت أرمنوسة وأخذت هى وجميع مالها وسائر من كان معها ، وأحب عمرو أن يجامل المقوقس فأرسلها إليه مكرمة وجميع مالها مع قيس بن أبى العاص السهمى ، فسر لذلك وحفظها للخلق العربى الكريم .... وفى رواية هذه القصة من الضعف والتناقض ما يحمل أكثر المؤرخين على عدم تصديقها ، لكنها مع هذا كان لها شأن فى الأدب فترددت فى القصص الشعبى ، (أبى زيد والهلالية) وبنى عليها أحد مشهورى الكتاب الافرنج رواية تاريخية معروفة .

وبقيت مدينة بلبيس مدينة كبيرة ، بل أكبر بلاد الشرقية (إذ كانت قاعدتها قبل إنشاء الزقازيق) حتى دمرت فى أيام الحروب الصليبية ثم استعادت بعض شأنها فى الزمن الحديث .

وهى الآن قاعدة المركز الإدارى المعروف باسمها ، وهى تستوعب ٩٫٨٪ تقريبا من سكان مديرية الشرقية حسب تعداد سنة ١٩٢٧ — ومعظم أهلها من أصول عربية ، فقد استوطن بها عدة قبائل بعد الفتح العربى تلمح ذلك فى وجوههم وفى لهجتهم ولعلها من البلاد القليلة التى ينطق أهلها ، وخاصة المسنين منهم ، (بالقاف) إلى هذه الأيام ، وقد حكى لى أحد الأطباء ممن قضوا وقتا كبيرا هنا ، أنه قد سمع شكوى لامرأة عجوز هكذا :

(كان لى قرش عند عمك القشلان ، قمت رحت الصبح بدرى ، أقول له عليه ، قام وقف ، ورقعنى قلم ، وقعنى على الأرض) ضاغطة على حرف القاف مبرزة إياه طبيعية بلا تعمل ولا تكلف ، وحين يستعرض المرء بعض أسماء العائلات هنا ، يدرك أن هناك أصولا من اليمن ، كعائلة (بزان) — وقد هاجر البعض منهم من بلبيس إلى فلسطين وشرق الأردن والعريش فى سبيل تجارة الخيل والجمال واستوطنوا هناك وإن لم ينقطع نسبهم هنا ، ويقال إن (البلبيسى باشا) الذى تردد اسمه مراراً فى عمان أثناء حرب فلسطين من هؤلاء المهاجرين .

وهم أهل تجارة كما كانوا منذ القدم ، حين كانت بلبيس ممراً تجارياً للقوافل ، وفى هذا الوقت إذ يحيط زمامها القليل من الأراضى الزراعية والتفاتيش الكبيرة وضيعات الأغنياء ، وكلها لا تسمح بالتوسع فى امتلاك الأراضى .

وهذه الضيعات معظمها على الضفة الشرقية لترعة الاسماعيلية غرست فى الزمن الحديث بساتين واسعة عظيمة يسرها الماء الذى لاينقطع أبداً ، أهمها بساتين بركات ، وسراج الدين ، وخليل عامر . ولعل بساتين إنشاص الشهيرة ومزارعها هى جنة الشرقية بلا نزاع ، ويملكها حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول حفظه الله .

ومما يجدر بالذكر أن واضع البذرة الأولى فى استغلال هذه الأرض كبساتين هم جماعة من الألمان تغلبوا على ارتفاع مستوى الأرض بتركيب آلات لرفع المياه ، فاستطاعوا أن ينشئوا هذه الجنان الفاخرة التى تمد البلاد تقريبا بأكبر إنتاج من الموالح والفواكه الأخرى .

وتشتهر بلبيس بتجارة الإبل الآتية من بلاد الشام ، وبيع الحاصلات الصحراوية جميعها (البلح — الحناء — السمسم — الفول السودانى) وتنبه أحدهم إلى استغلال الصحراء فى عشبها ، واكتشف عشب (السكران) الذى ينمو بكثرة فيها ، وهو عشب طبى يدخل فى صناعة بعض الأدوية ، ويصدر إلى معامل انجلترا وأمريكا ، وقد زرعه فى بعض أرضه فزكا فيها .

وقد نشأت فى بلبيس صناعة عصر الزيت والسيرج من السمسم ، ويشتهر بجودته ويصدر إلى كثير من المدن المصرية ، وصناعة (الأكلمة) ونسج الأقمشة الشعبية بالأنوال اليدوية ، كما يوجد بها مصنع للمياه الغازية (الغازوزة) ومصنع للبويات والصبغات يديره أخصائى إيطالى .

وقد أكسبتهم التجارة من الناحية المادية الشىء الكثير ، ولكنها تركت أثرها فى خلقهم ، فلقد يخضعون فى كثير من أمرهم إلى المنطق التجارى الذى ينطوى على النفعية والكسب يزنونه بهذا الميزان ، ويقيسون بهذا المقياس ، فاتسموا بالحرص الشديد على المال وبرعوا فى استغلاله براعة مشهودة لهم من القدم ، حتى الأجنبى لم يستطع أن يعيش بينهم ، أو يزاحمهم .

• • •

وقد كانت مبانى بلبيس إلى سنة ١٩٣٠ تقريبا تعلو على المستوى الحالى بحوالى ثمانية أمتار ، قبل أن يشق فى وسطها شارع فؤاد الأول ، وهو أهم الشوارع التى جملتها حقا ، فكثرت فيه المساكن الصالحة ، واحتوى على المحال التجارية المختلفة ، وبه معظم أبنية المصالح الحكومية ، ويقال إن هذا المشروع وإن أفاد تنظيم المدينة إلا أنه جنى على ميزة ارتفاع المساكن ، وما كان ينتج عنه من جو جاف رائق ، وبعد عن مباوات الذباب والبعوض .

وتبعد محطة السكة الحديدية عن البلدة بحوالى كيلومترين ويصل منها إلى غرب البلدة الخط الحديدى (الضيق) الذى يخترق مديريتى الشرقية والدقهلية ، ويسير فى هذا الشارع الرئيسى المزدحم بالمارة ووسائل النقل فيصبح مصدر انزعاج مستمر وخطر بين ، وحبذا لو اهتم بنزعه ونقله بقرب الخط الأميرى .

وقد نهضت البلدة من الناحية التعليمية نهضة رائعة ، ففيها الآن مدرستان ابتدائيتان ، وملحق بإحداهما فصول ثانوية ، ومدرسة بنات ابتدائية ، ومدرسة نموذجية ، للبنين وأخرى للبنات ، ومدرسة صناعات أولية

وثلاث مدارس أولية للبنين ، والضغط على هذه المدارس شديد جدا للإقبال على التعليم — بعد أن أصبح بالمجان من جهة ولأنه من جهة أخرى لا يوجد فيها مدارس أهلية تساعد على استيعاب الذين لا يقبلون بالمدارس الأميرية .

وأبنية هذه المدارس كلها غير صالحة بالمرة ، وأثرياء البلدة لا يتقدمون بتضحية ما فى هذا السبيل ، ومرد ذلك فى نظرى أن الأبنية لا تغل الفائدة المرموقة . . . وليس فى الحساب جانب إنسانى مفروض فيه بعض البذل وبعض الإيثار .

وبالبلدة حركة عمرانية تتسع بسرعة نظرا لكثرة المصالح الحكومية بها والكثرة فى عدد الموظفين التى نتجت عن هذا ، وينشأ فى غربى المصرف (الرشاح) حى جديد ، سيزيد من أهميته ، أن به عملية المياه والنور الجديدة التى ينتظر إتمامها بعد زمن قليل ، فتساعد على نهضة البلدة العامة . وقد تم تشييد نادٍ جديد ببلبيس وهو مكان فسيح أنيق هو الموئل الوحيد للموظفين ومن شاء من الأعيان ، وقد أثار فيه رجال التعليم وغيرهم نهضة علمية ورياضية تمثلت فى برنامج كبير للمحاضرات والمباريات الرياضية . ويمكن القول بأنه المكان الذى تتركز فيه حياة البلدة الاجتماعية .

وأهل بلبيس محافظون ، لم تستطع بهارج المدنية أن تخرجهم عن ذلك . فالغالبية الكبرى من النساء محجبات يلبسن (البرقع) الطويل ذا (القصبة) الكبيرة الحجم المرصع (بالغازى) وهى قطع مستديرة من الذهب أو تقليده ، ويتلفعن بالملس الحرير الأسود فوق رداء أسود أيضا يغطى (الفستان) الزاهى الملون ، وهن فى منتهى الحشمة ، ويندر أن يقع النظر على امرأة سافرة ، وإن حدث ذلك فلا بد أن تكون من غير أهل البلدة .

وهم شديدو الاعتزاز بعصبيتهم ، والألفة سائدة بينهم ، ويبدو ذلك واضحا فى مجاملة بعضهم بعضا فى أحزانهم وأفراحهم ، ويخيل إلى أن جل أهل بلبيس الأصليين على صلة نسب بعضهم ببعض ، فهم يؤثرون الزواج فيما بينهم .

وهم يؤدون الفرائض الدينية بانتظام فى المساجد الكثيرة ، ومما يلفت النظر إقبالهم الشديد على تأدية فريضة الحج ، وتكاد لا تلقى واحداً إلا قد أداها مرة إن لم يكن أكثر .

والبلدة بعد ذلك تضم مقامات لأولياء الله الصالحين ومنهم شهداء المجاهدين الأبرار ، ولعل هذه الروح الدينية المتأصلة هى فيض من بركتهم ونفحة من خيرهم ينعم بهما هذا البلد الأمين .

عبد الفتاح حسن ابراهيم
ناظر المدرسة الابتدائية الجديدة

من مصادر البحث — :

١ — الخطط التوفيقية لعلى باشا مبارك .
٢ — فتح العرب لمصر (لبتلر)
٣ — كلمة عن بلبيس أذيعت (لمحمد بك بدران) مراقب الثقافة . أطلعنى عليها مشكورا .
٤ — حياة الشرقية — ماضيها وحاضرها ، بحث نشرته مدرسة الزقازيق الثانوية سنة ١٩٤٠ م

نساء بلبيس بين القديم والحديث



بجوار الصحراء الممتدة الفسيحة تقع مدينة بلبيس، بين الرمال الصفراء من ناحية، والمزروعات الخضراء من الناحية الأخرى، فهي بين هذه المناظر الطبيعية الخلابة من أشجار ناضرة، إلى حدائق مزهرة، ومن مزارع مخضرة إلى رمال مصفرة تتيه بجوها الصافي، وسمائها الزرقاء.

نساؤها يتمتعن بقسط لابأس به من الجمال، وهبته لهن البيئة البدوية الجميلة. وقد وهبت لهن تلك الصحراء الصامتة المنقبضة كثيراً من الصمت فأغلبهن لايجارين المرأة الحديثة فى الخروج إلى ميدان الحياة الصاخب، وإنما يقبعن فى دارهن لايفارقنها إلا لحاجة ملحة، وربما يرجع هذا الانقباض أيضا إلى تأصل العادات القديمة فى نفوسهن. فبلبيس مدينة تاريخية قديمة، مر عليها الفتح الإسلامى على يد عمرو بن العاص، ونزلت بها جالية عربية فتأصلت جذور الدين الإسلامى فى نفوس أهلها رجالا ونساء. فالنساء — كالرجال أيضاً — متدينات محتشمات يقدسن الحجاب ويصلين ويصمن وينبذن من الجديد ماينافى شعورهن الدينى، وقد أثرت لغة العرب فيهن تأثيراً يتجلى فى نطقهن بالقاف مما هو بمنأى عن اللغة الدارجة التى يتكلم بها أهل مصر فى القرى والمدن فيقلن ... قالوا، وقلنا ...

ولقد أثرت تلك البلدة التجارية فى عادات نساء بلبيس، فقد نحت المرأة فيها ناحية الاقتصاد لتوفر لرجلها رأس مال تقوم به تجارته مؤثرة ذلك على ظهورها بمظاهر الترف اللازمة للانخراط فى سلك الحياة الاجتماعية الحديثة. فهى بذلك ربة بيت مثالية تشرف على شئون بيتها بنفسها فى دأب وصبر راضية بالقليل حتى لاترهق الرجل بالمال ولكنها تدبره له.

ويخرج النساء إلى الشارع لضرورة قصوى مبرقعات ببراقع مزينة بالذهب الأصفر اللامع ، مرصعة من الوسط والجانبين ، ولا يرتدين إلا ما كان حالك السواد حتى لا تلتفت إليهن الأنظار ، وتشير كمية الذهب التى يرصع بها البرقع الواحد إلى درجة أسرة السيدة التى ترتديه فى الثراء . ولا تبدى النساء شيئاً من زينتهن فى الطرقات ، لأنهن يملن إلى الحشمة والوقار ، ولا يخرجن عن العادات الموروثة من قديم الأيام ، وغابر الأزمان . ولعل هذا راجع إلى عدم وجود أجنبيات بالمدينة يبذرن بينهن التفرنج والميل إلى السفور ، والفرار من الحجاب المضروب ، والتقليد الموروث ، ومع هذا فهن يجتمعن بالمنازل بعيداً عن أماكن الرجال فيسمرن ويضحكن ، ولكنه السمر البرىء والضحك المشرق الجميل ، فإذا أحسسن بوقع أقدام رجل كففن عن الحديث ، وامتنعن عن الضحك واللهو ، وفررن إلى حيث لا تراهن عين ، ولا يبصرهن طرف ، فهن حييات خجولات ، يسوءهن أن يراهن الرجال فى أثناء المرح وتجاذب أطراف الحديث .

وبالرغم من كل ما تقدم فقد ساقهن التيار الجارف نحو تعليم بناتهن بين أمواجه فخرجت البنت إلى المدرسة لتتعلم وتتهذب ، وأصبح الأهلون لا يجدون فى ذلك حرجاً ، وكانت عقيدتهم فى مبدأ الأمر أن تترك لتتعلم حتى إذا نما جسمها احتجزها أهلها فى المنزل ولو لم تتم مرحلة التعليم الابتدائى إبقاء على عادة الحجاب التى يحتفظون بها ، وميلا إلى إدماجها فى الحياة المنزلية التى تؤهلها لتكون ربة بيت فى المستقبل . أما الآن فقد بدأت الأنظار تتطور ، وأصبح بعض الآباء والأمهات يميلون إلى أن تواصل البنت التعليم .

وكم كانت دهشتى عندما زارنى بعض الأهلين راجين التوسط لدى الجهات المختصة فى فتح مدرسة ثانوية حتى يتسنى لبناتهم مواصلة التعليم .

فبعد أن كانت الأم تحلم باليوم الذى تفارقها فيه ابنتها ، بين ترنح الطبول والزغاريد إلى بيت الزوجية فى سن مبكرة ، أصبحت تبحث مستشيرة ذوى الخبرة عن أحسن ما يمكن أن تصل إليه ابنتها من الدرجات التعليمية .

حقاً ، فإن عجلة الزمان تدور والمرأة تشارك الرجل وتنازله فى ميدان الحياة ، ولا بد للمرأة فى هذه المدينة أن تسير فى موكب تلك الحياة وتساير التقدم إن عاجلا أو آجلا ، فإقبال التلميذات على التعليم وسهولة اندماجهن فى الحياة الاجتماعية المدرسية التى هى بمثابة صورة مصغرة للمجتمع الكبير لأكبر دليل على مستقبل حياة المرأة فى هذه البلدة المتحفظة .

فالبنات يشغفن بالألعاب الرياضية والاندماج فى جمعيات النشاط المدرسى فيلعبن ويتعلمن الرقص التوقيعى وينتجن بأيديهن نماذج عظيمة من أشغال فنية وحياكة وأدوات للزينة وحلوى وما إلى ذلك ، مبديات مهارة وبراعة فائقتين ممتزجتين بشعور عميق من اللذة والزهو .

ولست أغالى إذا قلت إن « بنت بلبيس » بما جبلت عليه من خلق قويم موروث وما يضفيه التعليم عليها من رجاحة فى العقل ستكون نواة لأصلح فتاة يشار إليها بالبنان .

فوزية المنياوى

ناظرة مدرسة بلبيس الابتدائية للبنات

القنايات

التعريف بها الآن :

القنايات فى الشمال الغربى من مدينة الزقازيق على بعد ٥ كم ، يخترقها على شكل ضلعى مربع ترعة عبد الرحمن بك ، التى تستمد مياهها من بحر مويس ، جنوبى قناطر التسعة ، وعلى مقربة منها بمدينة الزقازيق ، ويتبعها فى الإدارة سبع وعشرون عزبة ، منبثة حواليها .

وهى ملتقى خطين حديدين ضيقين ، لشركة « الدلتا » بين الزقازيق وكل من السمبلاوين وميت غمر ، وخطين للسيارات العامة التابعة لشركة « أمنيبوس الشرقية » بين البلاد المذكورة على طريق زراعى عرضه اثنا عشر مترا .

نشأة مبانيها :

قامت بيوتها لأول عهدها بالوجود ، على تل يصل ارتفاعه عن سطح الأرض المجاورة فى بعض نواحيه إلى خمسة أمتار ، وكانت من اللبن ، وسقفها على شكل أقبية ، وقد أدركنا بيوتا قديمة على هذا النحو ، والظاهر أنها بقيت على غرار ماسلف من البيوت الأولى فى العهد الأول .

ويعرف تراب هذا التل عند العامة « بالكفرى » ومعناه عندهم المتخلف من بيوت مهدمة ، موغلة فى القدم ، ويجاور هذا التل تلال ثلاثة أخرى من نوعه ، وعلى أبعاد مختلفة من البلدة :

أولها تل « أبو عبد الله » فى الشمال الشرقى من البلدة ، وعلى بعد كيلومتر تقريبا .

وثانيها تل « صالح » فى الجنوب الغربى منها ، وعلى بعد يقل عن نصف كيلومتر .

وثالثها تل « أبو رمانة » فى امتداد التل الثانى حيث يبعد عنه بمائتى متر تقريبا .

ولا يعرف أحد من المعمرين الآن شيئا عن هذه الأسماء التى نسبت إليها تلك التلال .

وقد نقصها أهل القرية من أطرافها ، فنقلوا ترابها لتسميد الأراضى الزراعية ، كما نقلت الحكومة جزءا كبيرا منه لردم المستنقع الذى كان يحيط بالبلدة .

ولم يبق من أرض تل « أبو عبد الله » إلا جزء يسير يقوم عليه الآن قبر كبير لموتى المسيحيين بالبلدة ، ومن تل « أبو رمانة » إلا جزء تبلغ مساحته ثلاثة أفدنة به مدافن المسلمين من أهلها .

ويقال إن الأهلين كانوا يعثرون على قطع من الذهب فى أثناء نقلهم التراب من تل « أبو عبد الله » ولعلها من أنواع الحلى التى كانت لسكان هذا التل ، وأزقتها ضيقة مقفلة من الداخل ، يصل إليها السالك من محيط البلدة ، ولها أبواب من الخشب السميك ، تسمى « بوابات » ، كانت تقفل ليلا على أهل الزقاق ، خشية سطو اللصوص ، وقد أدركناها كآثار غير مستعملة .

ولكل زقاق طاحونة أو أكثر لطحن الحبوب ، وقد بلغ عددها سنة ١٩٠٦ م اثنتين وأربعين طاحونة تديرها الماشية ، وقد أغفل أمرها بعد انتشار آلات الطحن البخارية الحديثة ، فأصبحت تعتمد فى طحن الحبوب على ثلاث آلات من ذوات الاحتراق الداخلى .

وعلى بعض حجارة هذه الطواحين نقوش ورسوم يرجع عهدها إلى الفراعنة بركب البلدة من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرق بركة عميقة تبلغ مساحتها أربعة وثلاثين فدانا ينتشر على حوافيها تلال من السرجين والسباد ويكثر فيها السمك ، وتفد إليها الطيور الرحالة ، ويسميها الأهلون « الوز العراقى » أو « الغطيس » لأنها كانت « تغطس » فى الماء وتطفو ، يؤمها صيادون من الجاليات الأجنبية بالزقازيق ، وأقلية ضئيلة من أهل البلدة ، لاصطياد هذه الطيور ، وقد والت الحكومة ردم هذه البركة ثلاث مرات فى المدة من سنة ١٩١١ م إلى سنة ١٩٣٤ م ، حتى لم يبق لها أثر ، وأقيمت على مساحات واسعة منها بيوت حديثة .

ويقال فى تسميتها « القنايات » إن مكانها كان بستانا يكثر فيه العنب ، وكان الأولون الذين يسكنون التلال المجاورة يعصرون العنب فى أوان من الحجارة الصماء على شكل قنوات ، ولما باد ذلك العهد ، وتخلفت هذه القنوات « جمع قناة » أطلق عليها الذين وضعوا أول لبنة فى بنائها « القنايات » جمع قناية ، لأنهم أقاموا حيث كانت تلك القنوات ، وقد استخدموها قنوات للسواقى بعد إدخال تعديل فيها ، وأدرك آباؤنا بعضا منها فى السواقى المستعملة .

الإدارة :

كانت القنايات مركزا من مراكز الشرقية ، يتبعها كثير من البلاد النائية كالعزيزية ، وتجد فى المستخرج الرسمى لتاريخ ميلاد شيوخ العزيزية بيان محل الميلاد على هذا النحو : « العزيزية مركز القنايات » . وبقيت مركزا حتى سنة ١٨٩٦ ثم انتقل المركز إلى الزقازيق .

الحالة العلمية :

كانت تعتمد قديما فى تعليم الأبناء على الكتاتيب ثم الجامع الأزهر . وقد سايرت النهضة العلمية الحديثة العامة ، فأعدت أبناءها الى ورود مناهل العلم ، فى المعاهد العالمية ، على اختلاف نواحيها العلمية ، وتخرج فيها كثيرون . وبها الآن مدرسة ابتدائية للبنين ، وثلاث مدارس أولية ، إحداها للبنات .

أمين أحمد العطار

ناظر مدرسة القنايات الابتدائية الأميرية



موقعها الجغرافى وميزاتها :

أبو كبير إحدى مراكز مديرية الشرقية ، وهى على ربوة مرتفعة ساعدتها على اعتدال جوها وفى الصيف بخاصة لبعدها عن شاطىء البحر وقربها من الصحراء الشرقية ، كانت أمطارها الشتوية قليلة ، وقد ساعدها توسطها بين مدن مديريتى الشرقية والدقهلية على أن تكون مركزاً هاما للمواصلات فى شرق الدلتا فتمر بها أو تبدأ منها الخطوط الحديدية التابعة للحكومة المصرية أو لشركة سكك حديد الدلتا . هـذا عدا السيارات المختلفة للركاب والبضائع .

لمحة تاريخية عن أبى كبير :

لم يمكنا الوصول إلى تاريخ نشأة البلدة . وإنما الذى شاع بين أهلها أنها سميت أبو كبير نسبة إلى كبير بن عامر بن الحليس من بنى سعد بن هزيل العدنانى أخو قريش ، وربما كان ذلك صحيحا ، فلقد ثبت من سلسلة المحاضرات التى ألقاها يوسف أحمد باشا على مدرسى وطلبة المدرسة الخديوية الثانوية سنة ١٩١٧ والتى دونها فى كتابه « مدينة الفسطاط » أن قبيلة هذيل سارت فى جيش عمرو بن العاص وكان لها فى الفسطاط خط فلعل هؤلاء الهذليين هم الذين استوطنوا أباكبير فنسبت إلى رجل منهم .

ولكن أقدم المراجع التى ذكرت اسم « أبو كبير » كتاب « قوانين الدواوين » لمؤلفه أسعد بن المهذب ابن مماتى الذى تولى ديوان المالية سنة ٥٧٧ هـ . كتبها « بو كبير » باللهجة العربية الشائعة فى عهده لقوة نفوذ المغاربة أصحاب الجاه والسلطان فى عهد الدولة الفاطمية ثم ذكرت بين أسماء المدن المصرية فى كتاب « التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية » لابن الجيعان الذى توفى سنة ٨٣٢ هـ . فى عهد المماليك الجراكسة .

ولما جاء محمد على باشا رأس العائلة العلوية نهض بالبلاد فكانت من آثاره العمرانية فى أبى كبير أن شق ترعة الصادى سنة ١٨٢٠ م . التى سميت باسم ملتزم الناحية من قبل « شاهين الصادى » وبنى بها تفتيشا للجفالك — تلك الأراضى التى خص بها محمد على باشا أفراد أسرته وكبار حاشيته وأعفاها من الضرائب ، وكانت فى أول الأمر مقصورة على حق الانتفاع بها ولكن محمد على باشا خول للأمراء حق التصرف الشرعى فى هذه الأراضى ولورثتهم فى أواخر حكمه سنة ١٨٤٢ م . وفى عهد سعيد باشا تقرر حق ملكية الأراضى بمقتضى قانون سنة ١٨٥٨ م . فأصبحت أراضى أبى كبير ملكا للست حشم أمينة هانم .

وفى عهد الخديوى إسماعيل باشا قضى على ملك الست حشم أمينة هانم . إذ حدث أنه لما ساءت حال المالية المصرية تدخل الأجانب لمراقبة المالية المصرية وتألفت لجنة التحقيق العليا التى اعتبرت الخديوى نفسه هو المسئول عن مبالغ الديون وطالبته بالتنازل عن أطيانه المعروفة بأطيان الدائرة السنية والدائرة الخاصة فتنازل فى ذلك الوقت بعض الأمراء والأميرات عن بعض أملاكهم . ولما كان بعض الديون لتجار ومقاولين ورواتب ومعاشات متأخرة للموظفين أخذ هؤلاء أرضا بأبى كبير بدلا من ديونهم وهذا هو السر فى أن عزب أبى كبير لا تسمى باسم أهلها الأصليين مثل عزب حامد وفاضل ونسيم والصبان والباشا وعبد الرحيم حجازى محمد لا يمتون لأهل أبى كبير بأى صلة . وفى عهد الخديوى إسماعيل مد الخط الحديدى الذى يصل الزقازيق بالمنصورة ماراً بها سنة ١٨٦٥ م ، ثم الخط الحديدى الذى يصلها بفاقوس والصالحية سنة ١٨٦٩ م . كما حفرت فى عهده ترعتا الجنابية فى وسط أبى كبير والرمل فى جنوبها سنة ١٨٧٠ م

ولقد حدثنا على باشا مبارك وزير المعارف فى عهدى الخديوى إسماعيل والخديوى توفيق عن أبى كبير فى كتابه المشهور « الخطط التوفيقية » (الجزء الثانى) لأنه اشتغل فى أبى كبير فى حداثته كاتبا للأنفار لدى مأمور زراعة القطن عنبر أفندى السودانى بمرتب ضئيل وذلك قبل أن يختاره محمد على باشا للسفر مع أبنائه إلى فرنسا لإتمام دراسته قال :

أبو كبير هذه الناحية عبارة عن عدة كفور من قسم الصوالح بمديرية الشرقية وجميعها ذات نخيل بكثرة ، وهى واقعة فى جزيرة مرتفعة عن المزارع بنحو مترين ، ويجاورها فى الجهة الشرقية السكة الحديد الذاهبة للمنصورة وبها محطة المرور وديوان التفتيش التابع (للجفالك) وبها بساتين مشتملة على الليمون ، وبها دكاكين وتجار من الدول المتحابة يتجرون فى القطن والأبزار ونحوها ، وبها أرباب حرف ومكاتب أهلية ومجلسا مشيخة ودعاوى وأبنية البلدة باللبن الرملى وسقوفها من خشب النخيل والجريد ، وتمر بها السكة الحديد الموصلة إلى الصالحية وبعدها عن قرية فاقوس نحو عشرة آلاف متر إلى الجنوب . ومن شرقيها جزيرة أبو كبير (يقصد جزيرة فاضل سنتريس) وهى رمال غير صالحة للزرع ومرتفعة عن المزارع نحوا من ثمانية أمتار إلى ثلاثة أمتار . وتكسب أهلها من الزراعة سيما البطيخ وثمر النخيل وعدتها ذكورا وإناثا ٣٢٤٣ نفسا وأطيانها ٣٣٣٢ فدانا وكسر .

هذه صورة صادقة لأبى كبير فى عهد محمد على باشا حتى نهاية عهد إسماعيل ، إلا أنه يمكننا أن نقول إن على باشا مبارك لم يتحر الحقيقة فى كتابته عن تعداد أهل أبى كبير أو عدد أطيانها ، وإن ما كتبه كان من باب التخمين فقط لأنه عثر على مخطوط عديم وزنه حضرة صاحب العزة أحمد بك السيد سالم نائب أبى كبير عن جده سالم السيد ناظر الزراعة بإدارة تفاتيش الجفالك بالشرقية فى عهد المغفور له سعيد باشا ، وقد ذكر فى هذا المخطوط أراضى أبى كبير المتنوعة التربة من منزرع ورمال والبالغة ٧٧٦٣ فدانا وربما كان تخمين على باشا مبارك فى تعداد الأنفس غير صحيح أيضا ، إذ أن أبا كبير هى الآن أول بلد آهلة بالسكان بعد الزقازيق بمديرية الشرقية فتعدادها حسب سنة ١٩٤٧ : ٢٦٣٩٢ نسمة .

وفى عهد الخديو عباس الثانى ظهرت الملكيات الفردية بين أهالى أبى كبير عندما عرض القومسيون الذى

حل محل إدارة الجفالك الأراضى الضعيفة للبيع بالمزاد فاشتراها الكونت سليم شديد وأخوه رزق الله شديد ، ومنذ ذلك الحين بدأت صفقات البيع منها للأهالى وكانت أول الملكيات الفردية بأبى كبير للمرحوم السيد بك سالم والمرحوم سيد أحمد نمر سنة ١٨٩٣ .

وفى عهد الخديو عباس أيضا أنشأت شركة الدلتا الإنجليزية بالبلدة الخط الحديدى الضيق سنة ١٩٠٠ الذى يوصلها بمعظم بلاد مديريتى الشرقية والدقهلية كما يظهر من الخريطة الموضحة لذلك .

وفى عهد المغفور له الملك فؤاد الأول تعبدت الطرق الزراعية الموصلة بين أبى كبير وجاراتها القريبة والبعيدة من مدن مديريتى الشرقية والدقهلية ، فساعد ذلك على سير سيارات الركاب والبضائع منها وإليها مما يسر المواصلات إلى مختلف بلاد القطر . كما كان من نتائج اهتمام الملك فؤاد الأول بالرى والتعليم أن بنيت هندسة الرى عام ١٩٢٢ وشيدت بها مدرسة ابتدائية أميرية سنة ١٩٢٧ كانت نتائجها دائما ممتازة .

ولم تكن هذه المدرسة بأولى مدارس أبى كبير الابتدائية ، فلقد أنشئت بها مدارس ابتدائية من قبل ، وكانت أولى هذه المدارس مدرسة النجاح التى أنشأها الأستاذ نافع محمد قبل سنة ١٨٩٠ م ، ولكنها توقفت عن الدراسة لعدم وجود المال اللازم للقائمين بأمرها ، فأنشأ إسكندر وكيرلس مدرستين للتبشير المسيحى لم يلقيا إقبالا فأغلقتا عندما خشى أهل البلدة أن تتزعزع عقيدة أولادهم فعقدوا اجتماعا وقرروا فيه إنشاء المدرسة الحميدية الاسلامية سنة ١٩٠٤ م ، وكانت هذه المدرسة محل إعجاب الأهالى جميعا فأحرزت نجاحا باهرا وحصلت على نتائج لايستهان بها ، كما كان لها نشاط ملحوظ فى المباريات الرياضية والموسيقية . فى سنة ١٩٠٦ تغلبت على مدرسة جمعية العروة الوثقى بالاسكندرية فى مباراة حضرها الخديو عباس نفسه وأمراء البيت المالك وولى عهد اليونان الذى كان يزور مصر فى ذلك الوقت .

وفى عهد مولانا جلالة الملك المعظم فاروق الأول دبت فى البلدة نهضة مباركة أتت بأطيب الثمرات فاتسعت فيها دور العلم وأصبح بها مدرسة ثانوية أميرية تضم نحو ثلثمائة طالب ومن بين تلاميذها ـ عدا أبناء أبى كبير وقراها المختلفة ـ أبناء فاقوس والصالحية وكفر صقر وههيا وأعمالها .

وفى البلدة مدرسة ابتدائية أميرية بها عشرة فصول مزدحمة ، ومدرسة أهلية ابتدائية ، ومدرسة للصناعات الأولية ، ومدارس أخرى أولية للبنين والبنات ، ومدرسة لتحفيظ القرآن مما رقى من مستوى البلدة الاجتماعى وجعلنا نترقب حظا سعيدا لأهلها فى المستقبل القريب خصوصا إذا تم إنشاء مدرسة ابتدائية للبنات اللاتى يذهبن إلى مدارس الزقازيق فى القطار ، وهذا يتنافى مع ما فى طباع أهلها من العادات والمحافظة ، وإنشاء مدرسة تجارية للبنين ، إذ أن عماد الثروة فى أبى كبير هى التجارة .

تاريخ التجارة فى أبى كبير :

كانت التجارة فى عهد محمد على باشا محدودة فقد كانت الحكومة فى ذلك الوقت مهيمنة على التجارة ، وكانت محتكرة للمحصولات الزراعية تستولى عليها وتحدد أثمانها وتبيع الفائض منها بعد أن تستهلك مايلزم لحاجة الجيش ، والموظفين فبالرغم من أن محمد على باشا أنشأ محلجا للأقطان بأبى كبير لم تكن تجارة الأقطان

والحبوب متداولة بين أهلها بل كانت تجارتهم مقصورة على الماشية والخيول والجمال والأغنام والبضائع القليلة التى ترد من الأقطار القريبة لقلة وسائل النقل فى ذلك الوقت وعدم ثقة الأوربيين فى أمن البلاد ونظمها وقوانينها لم يهبط أحد منهم أبا كبير لاستثمار أمواله بها . فلما ألغى سعيد باشا نظام احتكار الحكومة للحاصلات وتودد للأجانب وفد كثير منهم إلى مصر خصوصا بعد حفر قناة السويس فى عهد الخديوى إسماعيل التى حولت التجارة من رأس الرجاء الصالح إليها فتدفقت الأموال الأجنبية على مصر لاستثمارها ولسهولة المواصلات إلى أبى كبير فى عهد الخديوى إسماعيل وسذاجة الأهالى فيها فى ذلك الوقت وجد الأجانب فيها مرتعا خصيبا لتجارتهم وبخاصة تجارة القطن فربحوا أموالا طائلة بطرقهم الخاصة . ولما نشأت حلقات القطن بعواصم المديريات كانت أقرب الحلقات إليها حلقتا المنصورة والزقازيق فبدأ الأهالى يمارسون الاتجار فى فضلات القطن ثم مالبثوا أن عرفوا الأنظمة المتبعة فى تجارة القطن ومهروا فيها ثم أنشئت حلقة للأقطان بها سنة ١٩١٢ م . ولما نشبت الحرب العالمية الأولى ربح تجارها أرباحا وفيرة وتضخمت ثروة المشتغلين بتجارة القطن بعد سنة ١٩١٨ عندما عقدت الهدنة وبدأت الملاحة البحرية وارتفعت أسعار القطن حتى لقد قدرت ثروة أحدهم (الجبيرى) بأكثر من نصف مليون من الجنيهات . وفى عام سنة ١٩٢٤ م . عندما عملت وزارة سعد زغلول باشا على تعميم إنشاء غرف تجارية فى عواصم المديريات والمراكز أنشئت بأبى كبير غرفة تجارية بالرغم من عدم وجود مركز بها فى ذلك الوقت وكانت هذه الغرفة حائزة لتقدير وثقة أولى الأمر فى مصر فأصبحت عضوا فى لجنة وضع مشروع الغرف التجارية الذى كان برأسه ويصا بك واصف واستمرت بخطا ثابتة ناجحة حتى عام ١٩٣٢م ؛ وفى البلدة الآن عدد كبير جدا من المتاجر لجميع أنواع البضائع والحبوب . ولقد حدثت عدة محاولات لتكوين جمعيات تعاونية بأبى كبير منذ سنة ١٩١٢ حتى سنة ١٩٤٥ ولكنها فشلت جميعا وربما كان سبب ذلك الخلق التجارى الذى لا يعرف من التعاون إلا الربح ولا يستسيغ فرض الأسعار وتحديدها . فلقد تأثر الشعب فى أبى كبير بصفات التاجر حتى لتجدهم غيورين نشطين مغامرين يهدفون إلى الثروة والغنى بكافة الطرق والوسائل . ولقد أصبحت التجارة لديهم عادة وعزيزة يتوارثها الأبناء عن الآباء فتأثروا بها إلى الحد الذى صرف كثيرا منهم عن المثابرة على تلقى العلم قبل هذا الوقت . أما الآن وقد نمت ثروة الأهالى وتقدمت بلدتهم وكثر عدد المعاهد فيها فقد أقبلوا على العلم بشغف وساعدتهم التجارة على حيازة أراض شاسعة داخلها وخارجها .

الزراعة والصناعة بأبى كبير :

أما الزراعة فقد كانت قبل عهد محمد على باشا تعتمد على مياه الأمطار أو ما ترفعه السواقى من الآبار أو ما يتسرب من ترعتى بحر مويس وفاقوس من ماء وقت الفيضان . ولكن عندما حفرت ترعة الصادى فى عهد محمد على باشا ، وترعتا الجنابية والرمل فى عهد الخديوى إسماعيل باشا انتظمت الزراعة بأبى كبير وزرعت جميع محاصيل القطر المصرى ، وبمرور الزمن أصبحت أرضها خصبة ومحاصيلها جيدة وافرة وحلت بساتين المانجو والجوافى والبرتقال واليوسفى محل بساتين البطيخ والنخيل والليمون التى حدثنا عنها على باشا

مبارك فى « الخطط التوفيقية » . ولقد ساعد هواؤها واعتدال مناخها على قلة إصابة المحاصيل الزراعية بالآفات وخاصة القطن ، كما ساعد على تقدم الزراعة فى البلدة إرشادات رجال وزارة الزراعة الكثيرين بها ، وما زالت البلدة إلى الآن مشهورة بالفول السودانى ولكن اهتمام الأهالى منصرف إلى زراعة المحاصيل المهمة كالقطن والأرز والقمح والذرة .

ولم يعن أهل البلدة بالصناعة كما اعتنوا بالتجارة والزراعة،فمعظم صناعاتهم ريفية فتشتهر أبو كبير بصناعة الحصر وعمل الأثاث من جريد النخل وكثير من أهالى أبى كبير لهم إلمام بتصليح آلات السيارات وتركيبها ولعل ذلك قد حصل لقرب البلد من التل الكبير والقرين معسكر الجيش البريطانى مدة الحرب واشتغال كثير من العمال به حتى حذقوا هذه الصناعة . وفى البلد عدا مطاحن الغلال ومحالج القطن ومعاصر الزيوت مصنع حديث للثلج يصدر إلى جميع البلاد القريبة كفاقوس وههيا وكفر صقر ، وقيل إن إنتاجه وصل إلى الزقازيق كما توجد بها مصانع للمياه الغازية .

ضواحى أبو كبير الأثرية :

ومع أن أبا كبير ليس لها شأن يذكر فى تاريخ مصر القديمة إلا أن بعض أعمالها لهـا قيمة أثرية عظيمة فبلدة هربيط مثلا من أعمال مركز أبى كبير ، وتبعد عنها بنحو خمسة كيلومترات ، وهى بلدة قديمة توالت عليها العصور منذ عهد الفراعنة وخلفت فيها آثارا قيمة ، وقيل أنها كانت حاضرة لإحدى مديريات الوجه البحرى ، وعلى تلها الكفرى مبان من اللبن أقيمت فى عهد أجدادنا الفراعنة القدماء . وقيل أنه كان فوق التل قلعة كبيرة ترجع إلى عصر حكم الرومان أخذت عمدانها الجيرية المكسورة ووضعت الآن فى زوايا الشوارع وأمام المنازل وعلى الأضرحة كما وجدت تماثيل كثيرة مكسورة من الجرانيت ، وقد رأينا أثناء تجوالنا فيها تمثالا يكون جزءا من مصطبة فى أحد المنازل[1] ، كما توجد مبان كثيرة ترجع إلى العهد الرومانى أيضاً ذات أبواب سرية ربما بنيت فى عصر الاضطهاد الدينى الذى شنه أباطرة الرومان على أقباط مصر فقد كانت معظم عائلات هربيط قبطية[2] ، وهى فى ذلك تخالف عائلات أبى كبير المتسللة من العرب ، إلا أن عائلات هربيط القبطية أسلمت بعد الفتح العربى مباشرة ، واختلطت بعائلات أخرى عربية صميمة[3] ، نزحت إليها من الحجاز ، وكان من آثار الفتح العربى فى هربيط حى الأربعين قيل إنه سمى كذلك نسبة إلى أربعين مجاهداً عربيا قتلوا فى سبيل الله ، ودفنوا فيها ، وعلى تل أثرى أيضا مقام لشيخ يدعى الأمير نجم قتل فى سبيل الله فبنى المقام تخليدا لذكره وأمام قبره عمودان رخاميان مكتوب على أكبرهما « بسم الله الرحمن الرحيم . قل هو الله أحد الله الصمد . لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد » ، « كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » هذا قبر العبد الشاب المنعم

(١) وجد هذا التمثال فى منزل شخص يدعى الحاج عبد الوهاب إبراهيم شموخ .

(٢) عائلات غبن وسلام وغارات وبرسى وفوقة والدبلى .

(٣) عائلة أبو عليوة من قبيلة الياسين من الحجاز وعائلة أبو جبل من نفس القبيلة .

فى شبابه المأخوذ من بين أهله وأصحابه المقتول ظلما وعدوانا الأمير معين الدين نجم بن الأمير معين الدين إبراهيم قتل فى العشرة الأولى من شهر رمضان سنة ٦٠١ هـ إحدى وستمائة هجرية رحمه الله ورحم من ترحم عليه ، وعلى العمود الرخامى الصغير ، كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ، فبأى آلاء ربكما تكذبان » .

وفى عصر الظاهر بيبرس بنى حماد البقرى مسجدا له مئذنة ارتفاعها ١٦ مترا مبنية من القرميد ما زالت موجودة سليمة إلا قمتها التى أزيلت حديثا وبها رسوم وزخارف ترجع إلى هذا العهد ، وبها سلم ذو ٥٣ درجة وهناك طريق يوصل من التفتيش إلى المسجد ينار بالكهرباء ، وبالبلدة حى يدعى حى الجبخانة قيل إنه يرجع إلى العهد التركى كانت توضع فيه الأسلحة والذخائر ، وبهذا الحى سراديب كبيرة يبلغ طول كل منها نحو ٢٠ مترا وعرض الحائط نحو متر ونصف متر . والغريب أنك تجد المنازل فى هربيط تتكيف حسب الأحجار البازلتية الضخمة الموجودة على الأرض أو تبعا لجدران هذه السراديب التى تبيت فيها المواشى .

وفى عصر سعيد باشا أصبحت معظم أراضى هربيط تفتيشا ملكا للست ماهوش البيضاء بنت المغفور له عباس باشا الأول المعروفة بوالدة المغفور له إبراهيم إلهامى باشا ، وأصبح التفتيش معروفا بوقف الحلمية ، ولقد قام الأستاذ عبد السلام عبد السلام بحفريات هربيط ، ولكننا لا نعلم ماذا نتج عن حفرياتها سوى ما ذكرناه .

ولأبى كبير أعمال أخرى أثرية مثل أبو ياسين ، وتقع فى الجهة القبلية من هربيط التى قيل إنه كان يربطها بها فى قديم العهد طريق سرى ممهد مرصوف تحت الأرض طمست معالمه فى العصر الحديث . وفى أبو ياسين اكتشفت مقابر للعجول وبها الآن خمسة توابيت من حجر الجرانيت الأحمر لعجول آبيس طول كل منها أربعة أمتار وعرضه متران ونصف وارتفاعه متران .

كما وجدت أوان فخارية كثيرة وطيور محنطة وأصبحت أبو ياسين قبلة للسائحين الذين يهبطون مصر للتمتع برؤية آثارها لسمعتها التاريخية ، وهذه البلدة تعتمد على أبى كبير اعتمادا كليا فأبناؤهم الذين بالمدارس الابتدائية والثانوية يذهبون إليها يومياً ، ومن أبى كبير يشترون ما يلزمهم من لباس وطعام والفلاح فيها يحيا .

وعائلات أبو ياسين أغلبها قبطية قديمة ، ولكنها اختلطت بعائلات عربية ، وهم الآن يعيشون متكاتفين فيساهمون فى المآتم والأفراح وتحضر العروس دائماً على هودج كعادة العرب يتقدمها رتل من الفتيات يغنين بأعذب الألحان البلدية ، وكثير من الرجال الذين يطلقون بنادقهم ابتهاجا وفرحا بمقدمها إلى بيت زوجها .

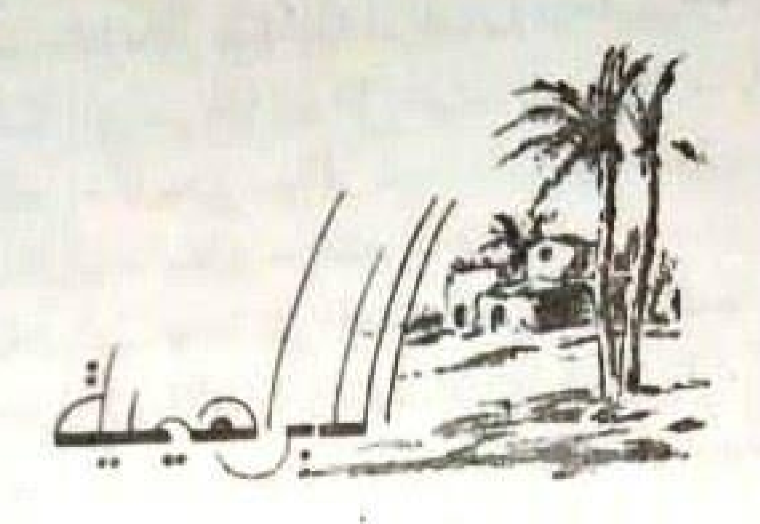
ويقال إن بين أبو ياسين وطوخ القراموص سراديب تحت الأرض ، إذ أن طوخ القراموص بلدة أثرية أيضا ، وهى من أعمال أبى كبير ، وقيل إن اسمها معناه القلعة التى على الحدود ، وتوجد قرائن على أنها من العصر الرومانى ، ولقد عثر أحمد بك الألفى عمدة البلدة سنة ١٩٠٦ على آثار موجودة الآن فى دار الآثار المصرية فى قاعة التحف مكونة من رأس صقر من الذهب له عيون من أحجار كريمة ، كما وجدت دمالج ذهبية للملك أو الملكة وتاج ، وقد قال مفتش الآثار إن السبائك الذهبية التى وجدت فيها إلى أكثر من

٢٠٠٠ عام ، وقد وجدت نقود فى حجم القطعة الفضية ذات الخمسة قروش وأوان فضية أهلكتها الأرض كما يوجد بالبلدة الآن على تلها الكفرى شجرة للأراك يقال إنها عمرت ٢٠٠٠ سنة ، وبالبلدة آبار أثرية أيضا تماثل آبار صان الحجر .

ويقطن بطوخ القراموص الآن ٨٠٠٠ نسمة يعتمدون على الزراعة فى كسب قوتهم والفلاح فيها كزميله فى أبى ياسين يعيش على الفطرة ، وكان يوجد بالبلدة كفر للأقباط يدعى كفر مركيس منصور ولكنه اندثر من قبل مائة عام ، والأقباط فيها الآن قلة لا تذكر . ويعتمد الأهالى فيها على أبى كبير فى تعليم أولادهم وشراء حاجياتهم .

رمزى مسعود أبو سيف

المدرس بأبى كبير الثانوية



هى إحدى بلاد — مديرية الشرقية — المعروفة ، ويرجع تاريخ إنشائها إلى أوائل القرن التاسع عشر سنة ١٨٢٩ م . ولا غنى للباحث عن تاريخها من الرجوع إلى تاريخ حرب المورة إحدى الجزر اليونانية .

— حرب المورة :

قد ثارت اليونان فى عام سنة ١٨٢٠ ضد الحكم العثمانى ، وحاول الباب العالى إخمادها بمختلف الحملات فلم يوفق ، بل استفحل شرها ، وعظم خطرها ، وتعددت مذابحها وأخيراً لجأ الباب العالى إلى محمد على باشا والى مصر ليستعين بجيشه على قمع هذه الثورة ، وتقابل الأسطولان المصرى والتركى فى جزيرة رودس ، وولى إبراهيم باشا قيادة هذه الحملة التركية المصرية سنة ١٨٢١ ، فخضعت له معظم بلاد المورة ، وسقطت أهم مدن اليونان ومنها أثينا .

عند ذلك تدخلت الدول الأوربية خوفا من نتائج ذلك النصر ، وحدثت معركة - نفارين - المشهورة التى انتهت بتدمير الأسطول المصرى العثمانى بينما كان البطل إبراهيم باشا فى داخل البلاد يطارد اليونانيين .

وتحت تهديد الدول الأوربية المنتصرة استدعى محمد على باشا ابنه إبراهيم باشا من بلاد اليونان ، فعاد إبراهيم باشا من المورة ، ومعه بعض الأسر الإسلامية التى ناصرته وساعدته فى هذه الحرب ، والتى خافت على نفسها شر الفتنة الدينية التى اشتعلت بين المسلمين والمسيحيين هناك .

عاد إبراهيم باشا ومعه هذه الأسر ليسدى لهم من المعروف جزاء ما أسدوه له من نصر ومساعدة .

بدء تاريخ الإبراهيمية ١٨٢٨/١٨٢٩ :

وهنا يبدأ تاريخ الإبراهيمية حيث وقع اختيار إبراهيم باشا على مكانها لتكون مقرا لبعض هذه الأسر التى حضرت معه من المورة ، ولذلك سميت بالإبراهيمية نسبة إلى منشئها إبراهيم باشا ، كما عرفت باسم المورلية - لأن تأسيسها كان على أيدى المهاجرين المرلية حيث أنعم عليهم بأراضيها إبراهيم باشا ، وقسمها عليهم فجعل لكل عائلة منهم ٣٠ فدانا فأقاموا بها ، وبنوا فيها منازل ، وصارت بلدة عامرة من ذلك التاريخ

بعد أن كانت مستنقع مياه ، ولذا أطلق عليها أيضا اسم العمارة لهذا السبب[١] .

وأهم هذه الأسر التى أسكنها إبراهيم باشا ببلدة الإبراهيمية هى : حفيظ — والأسطى — والحاج بليغ والى الكبير — العجوز — شوك — المرعشلى — بكير ليده — مرتضى عبدوش — أبو زيكو — عريف — دليب — خربوطلى — اشكدرلى — ملطيلى — جليل — شكرى .

وقد كانت الإبراهيمية فى أول عهدها تمثل الحضارة العربية والروح الدينية . فقد كانت بيوتها منظمة منسقة كما اشتهر أهلها بالتفنن فى طهو الأطعمة والحلوى على الطريقة التركية ، كما كانوا يحيون الليالى بالغناء والموسيقا ترفيها عن نفوسهم . وفى شهر رمضان كانوا يفتحون بيوتهم ، ويستحضرون مشاهير القراء لتلاوة القرآن وإحياء لياليه إذ كان يفد عليهم كثيرون من أهل القرى المجاورة .

نظام الإدارة بالإبراهيمية :

وقد نصب إبراهيم باشا على المورليين فى بلدة الإبراهيمية أربعة من أعيانهم كالعمد فى بلاد الريف فلما ماتوا خلفهم أخلافهم ، وكان بها مجلسان للدعاوى والمشيخة[٢] .

ولما استفحل العمران بالإبراهيمية ، واستوطنها كثير من سكان البلاد الأصليين الذين كان يلقبهم المرليون — بالمصريين — نشأ بين الفريقين حب التنافس ورفض كل منهم أن يخضع لحكم الآخر . لذا أجابت الحكومة إلى مطالب المصريين الأصليين ، واختارت لهم من بينهم عمدة . وبذلك صار للإبراهيمية عمدتان أحدهما مورلى لأبناء جنسه ، والآخر مصرى لبنى جنسه ، ولم يستمر هذا النظام إلا فترة وجيزة عاد بها الحكم لعمدة واحد يختار من بين أهل البلدة جميعا بعد أن ارتبط الفريقان برباط المحبة والنسب .

عطف البيت المالك على المورليين :

وقد كان هؤلاء المورليون الذين استوطنوا الإبراهيمية محل عطف ورعاية من البيت المالك الكريم ، كما كان لهم من الحظوة ما مكنهم :

١ — من أن يجيروا الفارين من السخرة والعمليات والجندية .

٢ — كما منحوا امتيازات كثيرة منها إعفاء أولادهم من الجندية وأعمال السخرة التى ذاق الأهلون فى ذلك الحين مرارتها .

وهذا مما ساعد على زيادة عدد سكان الإبراهيمية زيادة كبيرة .

مركز بوليس الإبراهيمية :

قامت الحكومة بإنشاء مركز بوليس بها سنة ١٨٨٠ م . ولقد كان من حسن حظ هذا المركز أن عمل

---

(١) يراجع كتاب الخطط التوفيقية لعلى باشا مبارك سنة ١٣٠٦ هـ طبعة أولى جزء ٨ صفحة ١٣ أسر الإبراهيمية المورلية .

(٢) يراجع كتاب على باشا مبارك سالف الذكر .

فيه (شاعر النيل الكبير المرحوم حافظ بك إبراهيم) بوظيفة معاون بوليس المركز من ١٨٩٥/٣/٢٤ إلى ١٨٩٥/١٠/١٥ (١) .

مدرسة ابتدائية قديمة :

كما أنشأت نظارة المعارف بالإبراهيمية مدرسة ابتدائية أميرية للبنين سنة ١٨٩٧ م تخرج فيها كثير من ذوى الحيثيات والشأن

مكانتها الاقتصادية والتجارية :

وفى ذلك الحين بلغت الحالة الاقتصادية والتجارية فى الإبراهيمية مستوى عاليا . فقد كان فيها محج محلج لحلج الأقطان ، ومعامل لتربية دودة الحرير وصناعة الحرير ، وقد استحضر لذلك إبراهيم باشا عائلة متخصصة فى ذلك من القليوبية ، وعلى رأسها المرحوم الحاج إبراهيم التخشونجى ، ومازالت هذه العائلة بالإبراهيمية إلى الآن : كما تعددت متاجرها الكبيرة التى كانت مقصدا لكثير من تجار الأقاليم المجاورة ، وقد كانت ملاحتها النهرية تجلب لها كثيرا من الخيرات لاتصالها بالنيل وبالبحيرات

مبانيها :

ومن نشاط أهلها أنهم كانوا يتبارون فى إنشاء المبانى على أحسن طراز . ومن أهم دورها حينئذ ذلك القصر العظيم الذى ابتناه إبراهيم باشا لنفسه فيها فى الناحية الشمالية منها . وفى المكان المعروف الآن - بعزبة القصر - نسبة إلى هذا القصر العظيم الذى كان يتخذ منه إبراهيم باشا مقرا له عند تشريفه للإبراهيمية ، وكثيرا ما كان يشرفها .

نكبة بالإبراهيمية :

وفى سنة ١٨٤٨ أصيبت الإبراهيمية فى منشئها وراعيها - البطل الخالد - إبراهيم باشا فأصابتها نكسة واضمحلت بعدها تدريجيا ، وكان من أثر ذلك حرمانها من المدرسة الابتدائية سنة ١٩٠٣ ومن مركز البوليس سنة ١٩٠٢ فنقلت المدرسة إلى مصر القديمة ، ونقل المركز إلى كفر صقر

وظلت الإبراهيمية محرومة من مركز البوليس حتى سنة ١٩١٥ م حيث أنشأت فيها وزارة الداخلية نقطة للبوليس ، وظلت الإبراهيمية كذلك محرومة من المدرسة الابتدائية حتى سنة ١٩٤٥ حيث أنشأت وزارة المعارف بها المدرسة الابتدائية للبنين فى ١٩٤٥/١١/٥ الموجودة الآن وعدد تلاميذها ٢٤٠ تلميذا سنة ١٩٤٨ ، ويقوم الآن إلى جوار هذه المدرسة الابتدائية :

١ — مدرسة ريفية نموذجية
٢ — مدرسة أولية للبنين
٣ — مدرسة أولية للبنات

} تضم أكثر من ٥٠٠ تلميذ وتلميذة

ملاحظة : تعداد الإبراهيمية منذ ٦٠ سنة : ٣٩٢٢ نسمة ، والآن أكثر من ١٤٠٠٠ نسمة

زمام الإبراهيمية منذ ٦٠ سنة : ٢٥٥٦ فدانا ، والآن ٣١٥٨ فدانا .

صدقى أحمد العجوز

من أهالى الإبراهيمية ومدرس بالمدرسة الابتدائية بها

---

(١) يراجع ديوان حافظ إبراهيم طبعة ١



ابراهيم باشا

موسم البلح فى فاقوس

لا غرابة فى أن يتحدث عن البلح وموسمه طالب من أبناء الشرقية عاش فى فاقوس حيث تقوم معارض البلح مدة من الزمن وقف فيها بالتجارب والدراسة على الكثير من المعلومات عن هذا الحاصل الأساسى من حاصلات مصر الذى اهتمت به الحكومة أخيراً وأعدت المشروعات والقوانين التى تمكن من استغلال البلح وتصديره إلى الأسواق الخارجية .

يقع موسم البلح فى فاقوس وضواحيها ما بين أغسطس وأكتوبر من كل سنة . ولأجل أن نقف على كثرته فى هذه الجهات يكفى أن نعلم أنه لا تكاد تخلو بقعة من الأرض من نخلة أو أكثر على حسب اتساعها ، حتى الدور والشوارع فى القرى يزينها النخل ويجعل فيها شبه مآذن يتوجها الجريد والسعف . وكأن الله أراد لهؤلاء القوم أن يكونوا كرماء بطبيعتهم ، فهم يطعمون الضيف (حتى يمسح) من البلح ويعملون له القهوة بنار الكرناف .

والبلح أنواع مختلفة : فمنها ما يؤكل رطباً فقط ، وهذا النوع يعرف بالجهل ويغلب على بسر (البلح الأحمر) الجهل أن يكون عسر البلع لا يكاد الإنسان يزدرده حتى يقع فى شبه اختناق . ومن البلح ما يؤكل جافا وهو نوعان : (١) العامرى وهو أجود أنواع التمر . (٢) والعجلاوى وهو أقل من ذلك جودة . أما العجوة فمن الحيانى ومن رطب العجلاوى وابن عيش وبعض الجهل . وأما الكبيس فمن ابن عيش والسروجى وهو أعلى أصناف البلح فى هذه المنطقة ويشبه البلح « الأمهات » .

وفى موسم البلح يفد التجار بمتاعهم وأهلهم إلى هذه البلاد ، وأغلبهم من سكان مركز المنزلة ودكرنس من مديرية الدقهلية . ولكل تاجر ملاك للنخيل يتصل بهم قبل الموسم ليحجزوا له ما يشاء من النخل : وقد يدفع بعض الثمن عاجلا . وهؤلاء التجار يكرمون كرما شرقاويا من إيوائهم وتوفير راحتهم فتعمل لهم المشرات من السعف لتجفيف البلح والخصاص للسكنى ووضع الأمتعة . وهذه المجموعة من المشرات والخصاص تشبه فى رؤيتها وازدحامها بالناس وحركة العمل فيها من كل الوجوه (الحمامات فى المصايف على الشواطئ) . ولا تهدأ هذه الحركة إلا إذا خيم الظلام على الكون .

فيشتغل البلاحون حينئذ بإعداد العشاء — وأغلب ما يكون من الأرز بحتاً أو مع السمك — أما أغلب غذائهم بقية اليوم فمن البلح أو السمك المملوح الذى يعدونه لهذا الموسم أو الكوامخ (أعنى المخللات) لأن البلح يضطرهم إلى ذلك .

والبلاحون أغلبهم غرباء جاءوا لأخذ نصيبهم من البلح نظير عملهم فيه لأن كل أجر يدفع عن العمل فى البلح لا بد أن يكون بلحاً ماعدا أجور الطلاعين الذين يطلعون النخل فإنهم يأخذونها نقوداً لأنهم لا يعدون أن يكونوا من أهالى البلاد الذين يحترفون بهذه المهنة ويقصرونها على أنفسهم بشتى السبل ، فهم والحالة هذه ليسوا فى حاجة إلى بلح .

مستخرجات البلح

يتخذ من البلح أنواع كثيرة ، فيعمل المربب من الشيص ، وأجوده من بسر العمرى بالطريقة المعروفة .

أما التمر فيعد بتجفيفه فى الشمس وتقليبه على الدوام فى أوقات مختلفة حتى يقبين نضجه (مدة تحمله للبقاء) ،

وإن كان تجاريا لم يبالغ فى تجفيفه حتى يتوافر للبائع مقدار كبير من وزنه — هذا إلى عدم التدقيق فى فرزه ، لأن التاجر لايهمه إلا أن يكون البلح فى مجموعه مما يرغب فيه .

ومثل هذا التمر لايصلح للبقاء إلا ريثما يفرغ التاجر من توزيعه : وهو فى هذه الحالة يبيعه رخيصاً لأنه اشتراه رخيصا ولم يخسر فيه شيئا ولم يتعب فى علاجه .

أما أهالى البلاد فيقون البلح مدة لاتقل عن العشرين يوما فى الشمس حتى يسلم من كل مايسبب إسراع تلفه ، وهم يفرزونه ثلاث مرات . إحدى هذه الفرزات تساوى تماما البلح التجارى ولذلك تباع هذه الفرزة بثمن البلح التجارى

أما العجوة فتصنع من الرطب بعد أن ينزع منه النوى وبعد أن يقشر ويغسل ويوضع فى الشمس أياما ثم يعجن وقت الظهيرة باليد أو الرجل، ومنها نوع تجارى هو فى الواقع من فضلات العجوة الممتازة (القشور والبلح المعطوب وغيرها) تصلح الشمس فاسدها وتصيرها فاكهة عند بعض الناس ، وهذا النوع من العجوة يعرف عند الفلاحين بالعجوة السوداء .

أما البلح الكبيس فهو دقيق الصنع إذ لابد أن يوجه البلح على النخل بطريقة مخصوصة حتى يتيسر جنيه سليما ، وذلك بأن تشد العراجين من قطب النخلة بلطف وتدلى على الجريد كذلك وتترك حتى يصير ما فيها رطبا ثم يجنى الرطب فى الصباح الباكر كل يومين أو ثلاثة (بحسب سرعة الإرطاب) بشرط ألا يخدش قشر البلحة وأن يظل فى الرطبة غطاؤها (القماع) حتى يسيل ما فيها من العسل فيصبح البلح غير صالح للكبس .

فإذا ماجنى الرطب بهذه الطريقة وضع فى الشمس رطب كل جمعة على حدة وترك يومين من غير تقليب ثم يبدأ بعمله فيقلب كل صباح قبل طلوع الشمس ثم يجمع أكواما بعد الظهر بقليل ويغطى من الندى ، فإذا جاء الصباح نشر كما كان أولا ثم يجمع بعد الظهيرة كذلك . ولايزال الفلاحون يتعهدونه بهذه العملية (النشر والجمع) فى المواعيد السابقة بالضبط حتى يصلح للتخزين ويصير شكله كالزيتون الأسود إذا كان ابن عيش ، وكالزبيب إذا كان من نوع السروجى .

• • •

هذه خلاصة وافيه تبين بعض المعلومات عن البلح وموسمه يتضح منها أنه نوع من الثروة المصرية يدر ربحا لايستهان به ، فإذا ما تعهدته الأيدى العاملة وتولى صنعه خبيرون على الطريقة الحديثة كان بلا شك موردا عظيما يزيد فى ثروة هذا البلد الأمين .

متولى أحمد متولى

مركز منية القمح

لمحة عن الحياة الاجتماعية فيها

الشرقية هي المديرية التي تأثرت أكثر من غيرها بمختلف أنواع الفتح منذ القدم حتى وقتنا هذا ، وذلك لأنها كانت دائما طريقا للغزو . . ولو أن الباحث دقق النظر في الظواهر الاجتماعية المتباينة وأرجعها إلى أصولها لوجد أن لمختلف الغزاة منذ الهكسوس أيام الفراعنة حتى الفتح الانجليزي في أخريات القرن التاسع عشر آثاراً وإن خفي طابعها المباشر وظاهرها المميز إلا أن نتائجها العميقة ذات أصول وعروق ممتدة في الأصلاب ، ولو أن الزمن قد أعمل فيها بالتحوير والتشكيل .

فبينما نجد أن سكان الجزء الشرقي من الشرقية أعراب أقحاح في كل طباعهم ، نجد أن للأتراك أثرا ظاهرا في الجزء المتوسط منها ؛ كما أن جزءها الغربي — وسكانه فلاحون — فلا تزال بعض معالم الحياة العامة للفراعنة بادية فيه . . .

نعلم أن الأعراب من سكان مركز بلبيس وبعض بلاد مركز الزقازيق وأبي حماد يتميزون بكل صفات العرب من سكان أي جزء من بلاد الشرق العربي مع اعتبار تباين المدينة والمناخ وفعل الزمن — ففيهم لا يزال الكثير من « المدّاحين » الذين يجوبون البلاد على ظهور خيولهم يمدحون أثرياءها لا بالشعر كما كان الحال أيام الولاة وأمراء المؤمنين ، ولكن بالزجل والموالي وإن كان لا يزال للشعر المنظوم بقية في نفوسهم . . .
ومعلوم لسكان هذا الجزء من الشرقية أن (المدّاح) أو (المواوي) كما يسمونه قد لا يشتري بقرة بدل بقرته التي نفقت أو ذبحت لكنه يشتري حصانا بدل الذي هرم أو مات ولو اضطر إلى الاستدانة والاقتراض ، لا لشيء إلا لأنه لا بد وأن يعتلي صهوة جواد وهو يمدح المثرين من أرباب البيوت على النمط العربي القديم ، وآخرون لا يمكن أن يعيش الواحد منهم من غير سلاح وإن استطاع الحياة أياما من غير طعام معقول . . .

ولذوي المال من سكان هذا القسم الأقصى من إقليم الشرقية قصص تروى في الكرم العربي والعنجهية العربية بما فيها من فضائل كثيرة وإن كانت لا تخلو من الإسراف الذي يقلب طبيعة الأشياء أحيانا .

ومركز منية القمح هو آخر مراكز الشرقية إلى ناحية الجنوب الغربي ، ولذلك كان سكانه أكثر سكان مديرية الشرقية احتكاكا بالمدنية أو بالجديد الذي يتمركز عندنا في منطقة القاهرة ومدن الساحل الشمالي التي تتأثر قبل غيرها بكل وارد من أوربا .

ولقد ساعدت طبيعة الأرض نفسها على تمكين هذه الظواهر المتباينة في إقليم الشرقية وهو كما نعلم الإقليم الوحيد في مناطق القطر الذي يختلف شرقيه عن جنوبيه وشماليه عن غربيه بينما يكاد سكان باقي الأقاليم في القطر يكوّنون وحدة متسقة إلى الحد الذي يجعلك تصدر حكما عاما على الإقليم كله بعد دراسة بلد واحد أو مدينة واحدة من مدن ذلك الإقليم

لقد ساعدت طبيعة الأرض على تمييز كل جزء من أجزاء الشرقية عن غيره . فبينما نجد أن الشرق من الشرقية رملى التربة يزرع زراعة الواحات ويصنع صناعة الصحارى مع وضع سهولة المواصلات بينها وبين مختلف أجزاء القطر موضع الاعتبار ، فمن اهتمام بزرع النخيل وصناعة التمر إلى جانب الصناعات الصغيرة الأخرى التى تقوم على أشجار النخيل كصناعة ، المقاطف والقفف وصنع الحبال من أليافها ، ومن زراعة السمسم والفول السودانى إلى تجارة الإبل والأغنام وما يتبعها من صناعة الألبان - وكان من الممكن أن تقوم هناك زراعات مثل التى تتميز بها باقى مدن القطر إلا أن الناس قد انحرفوا وطبعوا من حيث لايعلمون واستمرءوا الحياة التى تلائم جوهم وطبيعة أرضهم . ولكنهم استعاضوها بخير منها - فهم يتاجرون أكثر مما يزرعون ولهم فى الاستبدال ظاهرة لاتلحظها فى باقى أقاليم القطر ، فهم يبيعونك سلعهم من سمسم ومقاطف وحبال بما يعادلها أذرة وقمحا وفولا . ويفضلونها على النقد فى أداء الثمن . وتعتبر تجارة الخيول والتمر من أوليات نشاطهم . بينما نرى كل هذا فى الأجزاء الشرقية من الإقليم نرى أن الأجزاء الغربية وبها مركز منية القمح قد قامت فيها الزراعة الحديثة التى تعتمد على شئون الرى والصرف . وقد شجع الناس الحكومة على شق الترع وحفر المصارف فقامت الزراعة عندهم على أحدث الأسس ولا تزال تتقدم يومابعديوم حتى لاحظنا أن زراعة الأرز قد كثرت فى السنين الأخيرة فى حين كانت زراعته وقفا على شمال الدلتا حيث يسهل أمر الرى والصرف هناك - ولقد كثرت تبعا لذلك المصانع التى تضرب الأرز وتبيضه كما كثرت قبلها مصانع حليج القطن وفرزه وكبسه للتصدير . حتى لقد كان للزقازيق شأن أى شأن قبل أربعين سنة إذ سمعنا أن بعض أهل القاهرة من هواة السهر والسمركانوا يحضرون إلى الزقازيق لقضاء يوم أو بعض يوم لأن البلد كانت تعج بالملاهى والمساهر التى امتازت بالرقص والموسيقى والغناء نتيجة لنشاط تجارة القطن وما يتبعها من كثرة النقد المتداول فى أيدى التجار منهم حيث كان فيها من تجار القطن الكبار مايفوق غيرها من البلاد - عدا الاسكندرية - حتى إننا أبناء هذا الجيل نذكر أن مدينة الزقازيق كانت من البلاد المشتهرة بصناعة الحصير وحلج الأقطان ، واستخراج الزيوت وعمل الكسب كما علمونا فى دروس الجغرافيا فى تلك السنين .

كل ذلك وماشابهه جعل من سكان المنطقة الوسطى فى الشرقية زراعيين تجاريين يكادون يتجرون فى كل مايصل إليهم من غلات ومنتجات - فهم يتاجرون فى الماشية والأغنام ومختلف أنواع الحيوان ، كما يتاجرون فى القطن والأرز والفول السودانى ، وما جرى على شاكلتها إلى الحد الذى جعل من المصارف الوطنية والأجنبية تفتتح لنفسها فروعا فى منطقتى الزقازيق ومنية القمح - ويتاجرون أيضا فى المنسوجات البدائية التى تقوم على الأنوال فى الأغلب ... وهم زراعيون يكادون لايتركون صنفا أونوعا إلامارسوه فزرعوا الأرز كما قلنا وهو من غير أنواع النبات التى تجدد فى أرضهم وزرعوا قصب السكر للاستهلاك المحلى تقريبا وليس للصناعة التى احتكرتها شركة نجع حمادى : هذا إلى أن صناعة الفخار انتشرت فى بلاد هذه المنطقة انتشارا يلفت النظر - وإنه لمن المشاهد اللطيفة المسلية أن تقف يوما على ضفة النهر المسمى «بحر مويس» لترى السفن - وقد حملت خليطا من الأشياء - تروح وتغدو عبر إقليم الشرقية من شرقيه إلى غربيه وبالعكس .

وحياة الناس الاجتماعية هي نتاج هذا التباين والتنوع حتى إن معظمهم نفسه قد جمع بين أمور الدنيا والدين فلا تكاد تجد واحداً من أهل الشرقية لا يعرف «الشيخ أبا مسلم» في «بحطيط» أو «الشيخ جودة» في منية القمح أو «الشيخ أبا خليل» في الزقازيق، ولكل من هؤلاء الصالحين مولد يقام في كل سنة يكاد يجتمع فيه جزء ظاهر أو نسبة ملحوظة من سكان الإقليم كله، ولو أنك خبرت هذه الموالد بعين الباحث لوعيت المجتمع «الشرقاوي» ففي كل من هذه الموالد تشاهد قاسما مشتركا هو سباق الخيل وهو ظاهرة عربية، وتشاهد التحطيب وهو رياضة مصرية فرعونية، وتستمتع بالرقص البلدي وملاعب ترويض الوحوش، ولا يكاد يخلو واحد منها من «الحواة» أو «السحرة» الذين يعتمدون على «خفة اليد» وهي حرفة تستهوي أكثر ما تستهوي الفلاحين الذين يرجعون ما يرون إلى قوى خارقة علوية أو أرضية — وهم إذ يعتقدون ذلك إنما لأنهم حسنو النية سليمو الطوية إلى حد استبعاد طبيعة الشر والإتيان بالمستحيل على البشر ومن هنا شاعت الفكاهة بأن أهل الشرقية «عبط» ذلك لأنهم كما أسلفنا يرجعون كل ما هو غير عادي إلى قوة قادرة مستمدة من روح قادرة أو عقل غير محدود حتى إنهم يخافون الدراويش ويتبركون ببعض البلهاء اعتقادا فيهم بأنهم أبعد الناس عن الدنس والشر وبأنهم أقرب من غيرهم إلى رضا الله. ويخشى الكثير منهم الحيوان الوديع الأليف كالقطط فلا يؤذونها بالليل أبدا توهما منهم أن الأرواح الطيبة تتناسخ وأن لها قدرة على التشكل والتلون وليس أقرب إلى طبيعتها من الحيوان الصغير الأليف الوديع.

ولهذه الأشياء وغيرها أستطيع أن أقول إن سكان مديرية الشرقية وعلى الأخص سكان منطقة منيا القمح من أشد الناس تمسكا بأمور دينهم والمحافظة على شعائره عن إيمان راسخ وعقيدة ثابتة حتى إن العاقين منهم مستترون على الأغلب فلا تكاد ترى في بلاد الشرقية كلها من يشرب الخمر علانية أو يقامر على مرأى من الناس إذا ما قسنا ذلك ببلاد الصعيد المعروفة بالحرص والمحافظة حيث ينظرون هناك إلى هذه المسائل وأشباهها نظرتهم إلى مسائل خاصة بمن يأتيها ولا يضرهم ذلك ما لم يسبب ضررا أو مساسا بالعرض أو أذى للآخرين .. أقول على العكس من ذلك نرى أن أهل الشرقية ينظرون إلى السكران أو المقامر نظرتهم إلى مصاب بالطاعون أو كافر زنديق لا يجوز التعامل معه أو التقرب إليه أو أخذ كلامه كما ينبغي أن يؤخذ كلام غيره من الناس، وفي رأيهم أن ذلك الضرب من الناس خارجون على الدين أو مارقون .. ولقد بلغ الأمر ببعضهم أنهم يخافون الدنس أن ينطقوا بكلمة «الخمر» فيطلقوا عليها اسم «المية الحمرا» فلا تكتب لهم سيئة إذا ما جرى ذكر المنكر على لسانهم.

وإنك لتجد في الكثير من قرى الشرقية أن أهلها كثيرا ما يحتفلون بليلة الجمعة «المباركة» بإقامة الأذكار على شكل متسع — ومن ذلك ما يؤيد القول الشائع بأن الجنود المصريين بقيادة عرابي باشا وهو في «هرية» مركز الزقازيق كان يفرض عليهم أن يقيموا الأذكار للحمد والتسبيح وأن أهل الشرقية كانوا ممن أبلوا بلاء حسنا في قتال الإنجليز «الذين كفروا» رغم حادث الخيانة الفردي الذي اقترفه بعض الأعراب الرحل في الجزء الشرقي من الشرقية.

ولطبيعة أهل مديرية الشرقية السمحة الهادئة وجد الكثير من الهاربين من وجه العدالة مرتعا كريما بينهم،

ولقد اختلط بهم — على الأخص — كثير من أهل الصعيد وتزاوجوا وأنسلوا وكان من نتيجة ذلك أن أصبحت مديرية الشرقية من المديريات التي تمتاز بكثرة النازحين إليها لسببين :

(١) اتساع رقعتها إلى الحد الذي يمكن أن تستوعب عددا كبيرا من الغرباء .

(٢) كرم الضيافة التي اشتهر بها أكثر سكان المديرية ورحابة صدورهم وتأصل روح « العشرة » في نفوسهم .

وأكاد أعتقد أن النازحين إليها من أهل مصر العليا هم الذين نقلوا إليها عادة شرب الشاى الأسود « الزردة » . فأضافوا بذلك مخدرا جديدا لايعاقب عليه القانون إلى الحشيش والأفيون اللذين فتحا سوقا مربحة للأعراب الرحل الذين اتخذوا تجارة الإبل صناعة يروجونها بين فلسطين ومصر ويخفون تحتها التجارة الآثمة الأخرى — تجارة الحشيش والأفيون .

ولذلك بينما نجد أن بعض سكان باقي المديريات وعلى الأخص الصعيد « خمارون » نرى أن بعض سكان القسم الشرقي من الدلتا وعلى الأخص بعض أهل الشرقية من مدمني الحشيش والأفيون : والفرق بين طبيعة الفريقين من أهل الصعيد وأهل الشرقية هو كالفرق بين أثر الخمر على العقل والمجموعة العصبية وأثر الحشيش عليهما . فالخمار ثائر أبدا مندفع لأتفه الأسباب غير مبال بالعواقب أو النتائج لأن الخمر تصور له الكبير من الأمور صغيرا والعظيم من الناس حقيرا . بينما نجد « الحشاش » متواكلا متسامحا لايتحرك إلا بعد لأي وإعمال فكر وروية فلا يقدم على أمر إلا بعد أن يستطلع النجم ويقرأ الكف ويستخير الأولياء . فإذا ما اقتنع بدأ وإذا بدأ فهو عنيد لايرجع عن الوصول إلى غايته أو يموت دونها ، ويؤيد ذلك ما نلاحظه في جرائم القتل . ففي الصعيد يسلم القاتل نفسه على الأغلب أو تقبض عليه الشرطة لأنه لا يقترف الجرم على الأعم إلا جهاراً أو نهاراً لأنه لا يفكر كثيراً قبل البدء في الإقدام على خير أو شر . بينما نرى هؤلاء في بلاد الشرقية دهاة وذوى مكر شديد حتى أن جرائم القتل عندهم تقيد عادة ضد مجهول . أما الحالات التي يعرف منها القاتل أو المجرم فهي استثناء لايؤخذ به ولا يقاس عليه ، لأن الفاعل الممسوك باليد هو واحد من اثنين : إما متهور مقسرع لايبالي بالعواقب وذلك لايتأتى إلا في الحالات التي يفقد العقل فيها سيطرته على الأعصاب ونادراً ما يكون ذلك في غير حالات العرض وما يتعلق به ، وإما أن يكون غبيا ضيق التفكير يترك وراءه في كل خطوة دليلا ينم عليه أو شاهدا يرشد إليه وذلك ليس من طبيعة أهل الشرقية . ويحضرني في هذه المناسبة قصة طريفة رواها لي أحد الأصدقاء من وكلاء النائب العام اشتغل زمنا في إقليم الشرقية . وتتلخص القصة في أن النائب أخطر للقيام للتحقيق في جريمة قتل اتهم فيها أهل القتيل شخصا معينا بالقتل ، وقد قامت الشرطة بتفتيش منزل المتهم ولكنهم لم يعثروا على شيء يفيد التحقيق وقد حاور المتهم وكيل النيابة وداوره حتى لم يفز منه بطائل يلقى ضوءا على ماغمض من القضية وذلك كله رغم اعتقاد وكيل النيابة وإيمانه بأن ذلك المتهم هو القاتل لا ريب ولم يجد المحقق بدا من أن يقوم ويفتش منزله بنفسه وهناك في الدار لاحظ أن زوج المتهم كانت تحاول إبعاده عن مكان معين ولكنها كانت بعملها هذا أقرب ما تكون إلى من يلفت النظر إلى ذلك المكان بدلا من أن تبعده عنه وهناك عثر المحقق في الفرن على ثوب من ثياب المتهم قد غسل حديثا

ولف على سكين ملوث بالدم ففرح المحقق بذلك الدليل فرحا شديدا واستجوب المتهم الذى أوحى إلى المحقق عن طريقة إنكاره ملكية الثوب والسكين بأنه هو الفاعل من غير شك ، واكتفى المحقق بذلك وزج بالمتهم فى السجن حتى تصل نتيجة التحليل من الطب الشرعى لبقع الدم التى وجدت على الثوب والسكين ، وكم كانت دهشة المحقق حينما وصلت النتيجة بعد أكثر من أسبوع تقول إن الدم دم دجاجة مذبوحة وبذلك استطاع المتهم بالتعاون مع زوجه أن يبعد أنظار المحققين عن مكان معين قد خبأ فيه دليل ارتكابه الجريمة بأن ألهاهم بتلك الخدعة التى تدل على المكر الشديد حتى يبعدوا عنه فرحين بما عثروا عليه ليستطيع هو أو زوجه — إن سجن هو — إخفاء معالم الجريمة كلها فلا يبقى أساس واحد يمكن أن يقام عليه الاتهام بعد مضى أكثر من أسبوع ، ولقد كان ذلك ماحدث بالضبط إذ ما كادت نتيجة التحليل تصل على هذا الشكل إلى المحقق حتى أفرج عن المتهم فوراً حيث لاوجه لإقامة الدعوى .

ولقد أوردت هذه القصة لأدلل أن أهل الشرقية ليسوا كما وصفهم غيرهم « بالعبط » ولكنهم كما قلت قبل هذا قوم لايستطيعون تحميل الحال أكثر مما تحتمل فإن رأوا أمراً يعرفون أنه فوق طاقة البشر أرجعوه فى الحال إلى القوى الخارقة سواء كانت خيرة ممثلة فى الله أو شريرة ممثلة فى الشيطان ، وهم قوم يمتزج دمهم امتزاجا شديداً بالدم العربى كرماء إلى حد كبير حتى إنه يقال إنهم دعوا القطار يوما إلى وليمة وضعوا فيها الأوانى على السكة الحديدية فكان طبيعيا أن يحطمها القطار فتشاوروا فى الأمر ظانين أن القطار غاضب منهم حتى أخرجهم واحد منهم من حيرتهم بأن القطار لا يأكل وإنما يدخن فأحضروا له التبغ بكميات وفيرة وانتظروا على المحطة وقدموا هداياهم إلى السائق بطبيعة الحال ، وكان السائق ذكيا ماكراً أراد أن يفوز بتلك الكميات الوفيرة . فرمى أمام أعينهم بسلة من تلك السلال التى ملئت تبغاً إلى موقد القطار ثم ضغط على مفتاح خاص لإخراج البخار فخرج البخار كثيفاً حتى قال واحد من الداعين « ياه .. ! داتكته تمن » وذلك بمعنى « يا لله ..! إن نفاثة القطار تستنفد ثمن أقة من التبغ » والثمن كمية كبيرة قد تملأ سلة صغيرة فعلا .

ولذلك كان بعض هؤلاء الذين يقيمون الولائم لكل ضيف أو غريب ويصدقون كل ما يقال لهم مستبعدين الكذب على الناس مثار فكاهات لطيفة تروى فى شىء كثير من المبالغة يثير ضيق أهل الشرقية ولا شك .

ولكن يجدر بنا فى هذا البحث القصير أن نشير إلى أن منطقة منية القمح أصبحت على اتصال دائم مباشر بالعاصمة وسكانها — فالقطار السريع يقطع المسافة الآن فى ساعة واحدة أو أقل — وكثيراً مازى بعضهم يذهب إلى القاهرة ظهراً ليحضر حفلا افتتاحيا لشريط جديد فى إحدى دور الخيالة فى القاهرة ويعود فى نفس اليوم ليقضى الليل فى بيته — وكثير جداً من موظفى الحكومة فى منطقة منية القمح يسكنون القاهرة ويحضرون صباحا فى الموعد المحدد ويتناولون طعام الغداء فى بيوتهم فى مصر .

ومنية القمح بلد هادىء لا بأس به على الإطلاق يشقه نهر صغير هو « بحر مويس » وعلى الضفة منه يقوم ناد نظم مؤسس تجاوره بعض البيوت الحديثة — والنادى لموظفى الحكومة والأعيان والبيوت للمتيسرين من الناس . وبالبلد متنزهات للأطفال والسيدات وأخرى للرجال ، والمدينة مزودة بالضوء الكهربائى والماء

القطر يصل إلى معظم الدور فيها . . . ومنية القمح وإن كان يغلب عليها الطابع الريفي إلا أنها آخذة بأسباب التقدم وبكل ماهو جديد مع الاحتشام التام والترفق في الخطو السريع .

وليس الطابع الريفي الذي يغلب على هذه المنية إلا أثرا من آثار اكتظاظ المنطقة بالسكان اكتظاظا نسبيا جعل بلاد المركز متقاربة ، متصلة بخطوط منتظمة من السيارات العامة وقطر الدلتا فضلا عن الخط الرئيسي الذي يتبع مصلحة السكك الحديدية .

وبلاد المركز أكثر من تسعين ناحية يقوم على شئون الأمن فيها — بجانب عمدها — قرابة خمس نقط للشرطة . . . وأهل المنطقة كلها أبعد الناس عن الشر حتى ليتفكه رجال النيابة العامة أحيانا إذا نقل أحدهم إلى مركز منية القمح فيقولون « فلان قد نقل إلى مركز منية القمح في إجازة ! » .

عبد الخالق العلمي

المدرس بمدرسة الألفي الثانوية



لقد كان الأساس الذى ترتكز عليه أرض الشرقية الغرينية طبقات من حجر الجير تكونت فى قاع البحر فى العهد الطباشيرى والعصر الثالث ، ثم ارتفعت بسبب حركات القشرة الأرضية ، فانحسر عنها الماء ، وكان ارتفاعها عظيما ، فأصبحت نجداً عالياً ، تهب عليه الرياح الغربية بعد مرورها فى طريقها إليه على بحر عظيم يسمى بحر التثر ، كان يغمر جزءاً كبيراً من الصحراء الكبرى ، فتحمل منه مقداراً عظيما من بخار الماء ، فتسقطه أمطاراً غزيرة عليه . وكونت هذه الأمطار الغزيرة نهيرات جانبية تصب فى النيل أو فى أحد فروعه ، فتزيد من مياهه ، ومن قوة اندفاعه ، ومن قدرته على حفر مجراه ، ومن طاقته على حمله الحصى والغرين ، والقذف بهما إلى بعد كبير فى عرض البحر . ومالبث هذا النجد أن انخفض فغمر سطحه البحر ، ثم ارتفع مرة أخرى ، وجف بحر التثر ، وربما كان جفافه هذا نتيجة لهذا الارتفاع الذى يظهر أنه كان شاملا لجزء كبير من شمال إفريقية .

ولقد كان من نتائج جفاف بحر التثر أن قل نزول الأمطار فى مصر فنضب معين نهيرات النيل الجانبية ، ولم يبق منها إلا مجاريها التى يشاهدها الجتال فى الصحراوين الغربية والشرقية . وأقرب مثل لها وادى الطميلات الذى تمده أراضى الشرقية الخصيبة كذراع يخترق جوف الصحراء ؛ ليكون طريقاً للأسر المهاجرة ، وفيالق الجيوش الغازية ، وفلولها الهاربة ، فقلت سرعة النيل ؛ فأخذ فى بسط غرينه على سطح النجد ، الذى انخفض مرة ثالثة فأصبح قاعا لخليج مثلث الشكل ، قليل الغور ، لم يلبث أن ملأه النيل تدريجا حتى إذا ما انحسر عنه ماء البحر اخترقه النيل بفروع سبعة ، كان يخترق الشرقية منها اثنان : التانيسى ، والبليوزى .

ويذهب « بترى » إلى أن النيل لم يبدأ فى تكوين تربة مصر الخصيبة إلا منذ زمن قريب جداً قدر بنحو عشرة آلاف سنة .

ولقد أتى على أرض الشرقية ، وعلى ماجاورها من الأراضى الصحراوية قبل هذا التاريخ حين من الدهر كان مناخها فى حال وسط بين الممطر الذى أشرنا إليه والجاف الذى نعرفه الآن ، وكانت تنمو فيها الحشائش الكثيفة التى كانت مسرحا لعدد كبير من الظباء والحيوانات البرية الأخرى .



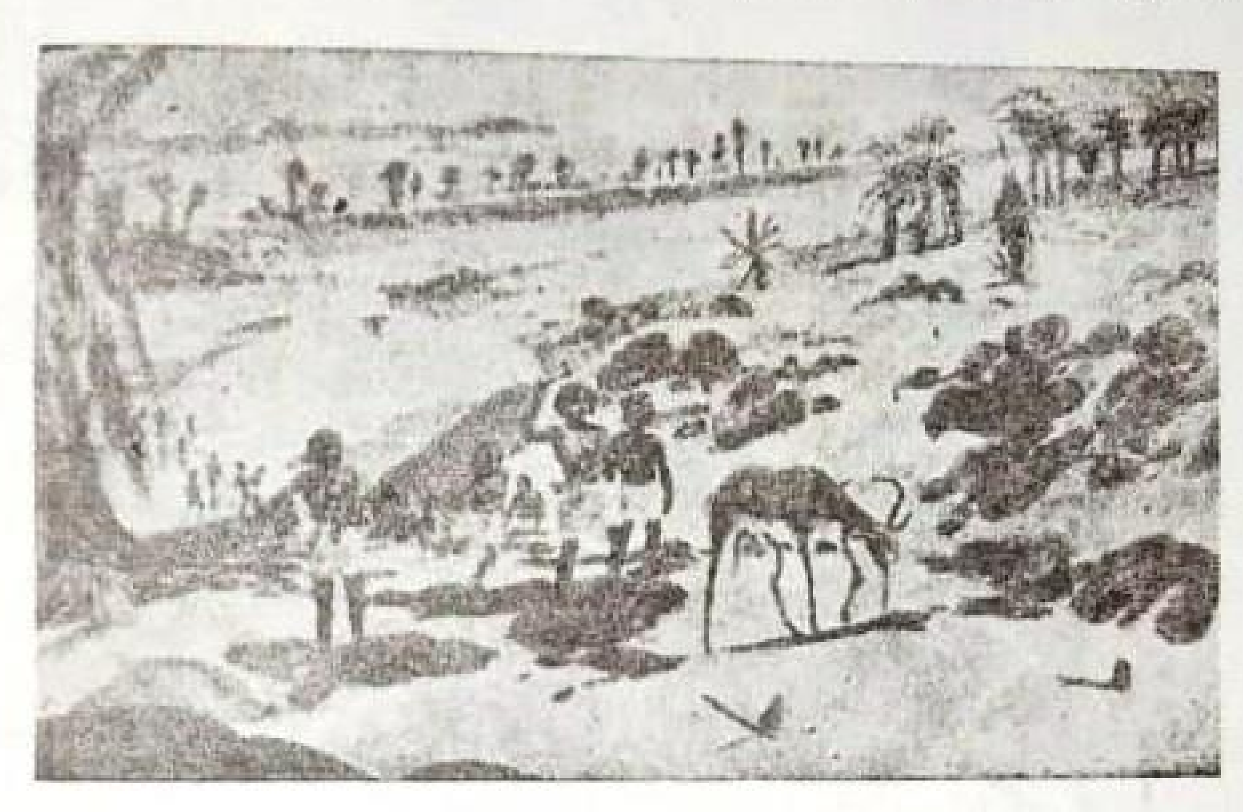
(خريطة شكل ٢٣)

وأول ما اتخذها وطنا له قبيل من الناس لا نعرف عنهم على وجه التحقيق غير شيء واحد ، وهو أنهم كانوا يعيشون على صيد الحيوانات وبخاصة الغزلان . ويذهب بترى إلى أنهم كانوا شديدى الشبه بالبشمن[1] (Bushmen) فى أشكالهم وصفاتهم وطرق معيشتهم .

---

(١) قوم حفاة عراة ، إلا مما يستر عوراتهم ، يسكنون صحراء كلهارى شمالى أحياء قبائل الهوتنتوت ، ويعيشون على الصيد وجمع الجذور وبيض النمال البيضاء والجراد والحيات والضفادع ويأوون إلى الكهوف والغيران ، وإذا ما أصحروا أوطلبوا الصيد فى الأجمات نصبوا بيوتا حقيرة من الجلود أو الخرق البالية ، أو ناموا فى العراء . وأهم سلاحهم القوس والسهام المسمومة : وهم كالأعراب مهرة فى ارتياد الصحراء ، وفى اقتفاء آثار الإنسان والحيوان ، ولكنهم يبذونهم فى القدرة على استنباط الماء من حنايا الأراضى الصحراوية ، ومعرفة مستقره .

والبشمن والمصريون الأول قد يكونان من أصل إفريقي واحد، ومن منبت واحد، هجراه لسبب لا نعلمه، ثم افترقا وطوّفا ما طوفا فى أنحاء أفريقية، وانتهت خاتمة المطاف بأحدهما إلى صحراء كلهارى، وبالآخر إلى هضاب مصر الغربية فكان أفراده أساسا لسكانها.



(شكل ٢٤) سكان مصر الأولون

كان أولئك المصريون الأوائل يتخذون من الكهوف بيوتا، أو ينزلون خصاصا مشرفة من رءوس الربا على بطون الوادى الريان، يصيدون الطير ويطردون الوحوش الضارية تاركين شئونهم الهينة إلى رؤساء البطون والعشائر، شأنهم فى ذلك شأن الأمم المتبدية التى لا يجتمع لها شمل ولا تخضع لسلطان عام.

لقد دامت هذه الحال فى مصر ماشاء الله أن تدوم، حتى أذن الله ذات حين أن تمسك سماؤها، وكانت جوادا لجف الكلأ من النجاد المحيطة بالوادى دونه، لاعتمادها فى ريها على الأمطار وحدها واعتماده عليها وعلى ماء النهر، فانحدر سكانها مهاجرين إليه وإلى سهول الدلتا التى انحسر عنها الماء بعد غمرها، فلقوا فى أرضها السوداء سهلا، ووجدوا فى ماء النهر غنية عن ماء المطر، واطمأنت بهم الحياة الجديدة. ولم يلبثوا أن وفدت عليهم قبائل وبطون من سكان الجهات المجاورة التى أصابها الجدب فاندمجوا فيهم.

فلما وفدت تلك القبائل إلى مصر تضاعف عدد سكانها، ولم يعد جمع الثمرات والقنص كافيين. فاستأنسوا بعض الحيوانات البرية فكانت طعامهم وحمولهم وفرشهم. واضطر فريق من السكان إلى الاشتغال بالزراعة فكثرت الثمرات، وتنوعت الغلات، وأمكن القليل من الأرض أن يعول الكثير من السكان الذين استبدلوا بحياة التنقل حياة الاستقرار، فأنشئوا القرى والبلدان؛ ونتج عن هذا قيام صناعات متعددة كصناعة اللبن والبناء والنجارة والنحت، وتخصص فيها أفراد عرفوا بها، وورثوها أبناءهم، وتحسن ماعون البيت وأثاثه وفرشه، وارتبط أفراد الأسر برباط متين، وتوثقت عرى الصداقة والتعاون بين أفراد القرية والبلد الواحد؛

فتواصلوا وتآزروا وتعاونوا ، وما لبث أن قامت فى هذه البيئة الراقية حكومات منظمة للمحافظة على الأنفس والأموال ، وللقيام بمشروعات الرى العظيمة ، كإقامة الجسور على ضفاف النهر وفروعه ، وحفر الترع ، وتشييد السدود والقناطر ، التى يعجز الفرد أو الجماعة القليلة عن القيام بها . وبذلك نشأت على مر السنين بيئة زراعية راقية ابتدعت زراعة القمح والشعير وغيرهما من المزروعات ، ونقلها عنها العالم ، كما نقل عنها طرق الزراعة وأساليبها ، وأصول الفنون والعلوم المختلفة التى نشأت فى هذه البيئة الراقية وأتقنت فيها[1] .



(شكل ٢٥) رجل ليبى

وبقدوم أولئك المهاجرين إلى مصر ، واستقرارهم فيها بدأ عصر الحضارة المصرية الأولى ومدته ألف سنة أو تزيد بدأت منذ نحو ١٠,٠٠٠ سنة وانتهت منذ نحو ٩٠٠٠ سنة . وتمتاز بميزات أهمها : إنشاء المدن الكبيرة ، وإقامة الأسوار القوية حولها لاتقاء غارة الأعداء ، وكثرة استعمال السفن للتجارة ، والقوارب للصيد بالشص ، وتقدم صناعة الخزف ، وزخرفة الأوانى الفخارية بالرسوم الهندسية الدقيقة ، واستخدام الصوان فى صناعة أسنة الرماح المتفرعة والعصى ، وبعض الآلات الزراعية الأولية ، وظهور معدن النحاس ، واستخدامه فى صناعة بعض الآلات ، واستعمال الأمشاط للزينة وانتعال الأخفاف .

وتشبه هذه الحضارة فى كل ما ذكرنا من مظاهر حضارة الماوارى وهم سكان زيلاندا الجديدة ، وحضارة بعض القبائل التى تسكن طرف الصحراء الكبرى فيما يلى الجزائر .

وإن شبهها العظيم بحضارة القبائل الجزائرية يحملنا على الظن بأنها نتيجة لهجرة واسعة النطاق قامت بها قبائل ليبية ، وسميت لذلك بالحضارة الليبية .

ولقد كان تأثر مديرية الشرقية بهذه الحضارة قليلا ؛ لبعدها عن مصدر الهجرة . على أن تناقص الأمطار الذى أشرنا إليه لم يكن مقصوراً على الصحراء الكبرى بل شمل طور سينا وجزيرة العرب ، فأصاب أرضهما الجفاف الذى تأثر به سكانهما فهاجر إلى الشرقية عدد منهم ، وبذلك فتح باب مصر الشرق لمهاجرة المشارقة . غير أن

---

(١) هذا ما يراه فريق من علماء الانتربولوجى ، ويسمون الانتشاريين ، إذ يعتقدون أن الكتابة والتعدين والبناء وغيرها من الفنون العالية الأخرى انتشرت من مصر شرقا إلى الهند والصين واليابان ، ومن ثم عبرت المحيط الأعظم إلى أمريكا لتكون أساسا للمدنية المايية .

عددهم كان فى بادىء الأمر قليلا ، ثم زاد تدريجاً حتى بلغ مداه فى أواخر القرن الواحد والستين قبل الميلاد إذ أغار على مصر قبائل شرقية فأناخوا بالشرقية التى تأثرت بهذه الغارة أو الهجرة أيما تأثر ، فقد خالط المشارقة أهلها الأقدمين فتأثروا بهم ، وأثروا فيهم ، فى الدم واللغة والدين والعادات . و بقدوم المشارقة توارت تدريجاً مظاهر الحضارة الليبية ، وحلت مكانها مظاهر أخرى ، لابد أن يكون قد جاء بها المشارقة وبذلك بدأ عصر الحضارة الثانية أو الشرقية ومدتها نحو ألف ومائتى سنة (٧٠٨٠ — ٥٨٨٠ ق م)



(شكل ٣٦) رجل شرقى

ومن مميزات هذه الحضارة استعمال الفضة واللازورد والذهب والرصاص فى الصناعة ، واستبدال صناعة الحجر بصناعة الفخار ، فصنع من الأحجار المجلوبة من الصحراء الشرقية كثير من الأوانى المنزلية كالأباريق والأكواز ، التى كانت غاية فى إتقان الصنعة ، ونهاية فى جمال المنظر . ومن أهم مظاهر هذه الحضارة السفن الضخمة التى يبلغ طول إحداها ستين قدما ونيفاً ، ويبلغ عدد مجاديف بعضها ١٢٠ مجدافاً .

وعلى هذه السفن العظيمة حملت مصدرات مصر من بضاعات صناعية وزراعية إلى البلدان المجاورة ، ووارداتها من زمرد وكهربا من الأناضول ، والزيت من جزيرة أقريطش ، والخشب من سواحل سوريا .

وفى هذا العصر تقدمت صناعة الآلات النحاسية ، وظهرت صناعة الحديد على الرغم من ندرته وغلو ثمنه ، وكذلك صناعة المنسوجات الكتانية ، وارتقت الحياة الاجتماعية رقيا كبيرا ، فصفت فى المنازل الزرابى والسرر والكراسى ، التى تجلى فيها جمال الفن ، وفرشت بالوثير من الفراش ، ولبس الرجال الملابس الكتانية البيضاء والخفاف ، ولبست النساء حلات طويلة واصلة إلى أخمص أقدامهن وتزين بالأقراط والقمارى والخواتم والأساور والعقود ، وزججن حواجبهن ، وكحلن عيونهن ، وصبغن وجوههن ، ولكن كن يلبسن النقاب الشبيه بما يلبسه نساء أعراب الشرقية فى الوقت الحاضر .

وكانت مصر فى هذا العهد مقسمة أقساما سياسية صغيرة ، يحكم كل قسم منها قيل من أهله وكانت له عاصمة شيدت فيها المعابد والقصور ، وأقيمت حولها الأسوار ، وكان لكل منها شعار مميز ومعبود خاص ، وقد كانت باست إحدى هذه العواصم القديمة .

ولم تلبث هذه الأقسام أو الممالك الصغيرة أن انضم بعضها إلى بعض ، فتكونت منها ثلاث ممالك واحدة فى مصر العليا ، واثنتان فى مصر السفلى لم يلبثا أن اتحدتا وصارتا مملكة واحدة قوية غزت مملكة الجنوب

وأخضعتها . وأوحت الحكمة للملك الأول لمصر المتحدة أن يتخذ لها قصبة يحسن موقعها الجغرافى ، تتوسط المصرين : العليا والسفلى ، وتشرف عليهما ، وتسيطر على المسالك المفضية إليهما فاتخذ عون والذى سماها العرب عين شمس أول مهد للعلم ومهبط للحكمة ومشرق للفلسفة الدينية على أن سلطان عين شمس لم يدم طويلا إذ استقلت مصر العليا واتخذت نخن قصبة لها ، واختارت الدولة الناشئة نبات البشنين شعارا لها ، ولبس ملوكها تاجا أبيض ، عرف فيما بعد بتاج مصر العليا ، ولذا أصبح البياض بعد ذلك اللون الرسمى لتلك الدولة . وانتقل ملك مصر السفلى إلى بوتو (ابطو الحالية) القريبة من دسوق ، واتخذت شعارها نبات البردى ، ولبس ملوكها تاجا أحمر ، وكان اللون الأحمر لذلك اللون الرسمى ، على أن مملكتى الجنوب والشمال لم يقدر لهما أن يصمدا طويلا أمام عوامل التفكك والانقسام ، فانقسمت كل منهما أقساما أى أن مصر عادت مقاطعات صغيرة كما بدأت فضعفت قوة مقاومتها واستهدفت لغارة قوم لايمتون إلى أهل الجنوب بصلة ولايشبهون المغاربة (الليبيين) أو المشارقة فى اللمحات والشكل ، هذا إلى أنهم كانوا أقصر قامة منهم جميعا .

جاء هؤلاء القوم من موطنهم الأول عيلام بحرا عن طريق الخليج الفارسى وبحر العرب والبحر الأحمر حتى وصلوا إلى فم وادى الحمامات . وهناك تركوا سفنهم وساروا فيه ، وكان أكثر ماء ونباتا حتى صاروا بالقرب من بلدة قفط ، حيث انتشروا فى وادى النيل وفى دلتاه شمالا وجنوبا ، مبتغين الحلول فيما طاب لهم من بقاعه . ولما استقر هؤلاء فى مواطنهم التى اتخذوها ، نشأت مدنية جديدة أوفى من سابقتها : ومن مميزاتها استخدام دولاب الفخارى فى صنع الفخار وانتشار الكتابة الرمزية (الهيروغليفية) واستعمال الأختام الأسطوانية، والسيطرة على ماء النيل ، وتصريفه بمقدار بإقامة القناطر والسدود ؛ وتقدم الفنون وبخاصة فنا النحت والبناء تقدما عظيما ، وتجلى قوة الملاحظة ، وخصب الخيال .

(شكل ٢٧) مصرى من عهد الأسر الأولى

ولم يمض إلا زمن قليل على قدوم العيلاميين ، حتى ظهر فيهم فى مدينة طينة أمير أيد متين ، وقائد ماهر ، وسياسى محنك يسمى مينا (٥٥٠٠ ق م[1]) ، فقاد جيشا مظفرا ، وأخضع المصرين العليا والسفلى ولما أصبحت مصر دولة متحدة قوية وضع بها القوانين وسن لها الشرائع ، واستخدم المهندسين

(١) هذا تقدير بعض المؤرخين على حين يرى بعضهم أن حكم مينا بدأ فى سنة ٣٤٠٠ ق م .

الراجحين فى فهم لتنظيم طرق الرى ، ولإزحوحة النيل عن مجراه فى مسافة بضعة أميال نحو الشرق ليكون ردءاً لمدينة « من نفر » التى أنشأها وشيد معابدها وقصورها وأوفى فى زخرفتها وتنسيقها ليتخذها مقراً للحكم ، ومقعداً لتاجه .

ولقد كان جل هم فراعنة الأسرة الأولى والثانية (٣٤٠٠ ق م — ٢٩٨٠ ق م) مصانعة سكان الشرقية ومعاملتهم بالحسنى لأهمية موقعها الجغرافى . إذ أن أطرافها الشرقية أهم ثغور الخافق فى مصر ، ولأنها الطريق إلى مناجم طورسينا الغنية بمعادنها ، والتى بعثوا إليها بعوث المهندسين والعمال لاستخراجها ، وتلها الجيوش لحمايتها ، وحمايتهم من عبث سكان الصحراء .

ولأن الشرقية أقرب أقسام مصر إلى هذه المناجم كان عليها أن تمدها بالعمال غير الفنيين وبالمؤن والأقوات . والمرجح أن الملك سمرخت كان أول ملك قاد جيشه بنفسه إلى طورسينا ، وأخضع الشرقيين سكانها وأثبت ذلك على صخور وادى مغارة ، ولم يرتدع أولئك البدو سكان الكهوف بما نالهم من الملك سمرخت من قتل وأسر ، بل تمردوا وضيقوا الخناق على المهندسين والجنود الحامية ، فخف لنجدتهم الملك يوسفايس فأنزل بهم مايستحقون من عقاب ، وقفى الملك يوسفايس على أثر هذه الحملة التأديبية بحملة أخرى دونت أخبارها على حجر بالرمو المعروف .

(شكل ٢٨) الملك مينا

وكانت موانى الشرقية فى عهد الأسرتين الأولى والثانية أهم المنافذ لتجارة مصر الخارجية وبخاصة ما كان بينها وبين موانى حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقية والشمالية .

انقضى عهد الأسرتين الأولى والثانية ، وجاء عهد الأسرة الثالثة (٢٩٨٠ ق م — ٢٩٠٠ ق م) عهد المبانى الحجرية الضخمة كالأهرام التى دلت على قوة الملوك وغنى الدولة ، ورقى فن العمارة . وأول ملوكها زوسر الذى أسعده الحظ بأن يكون وزيره ومشد أزره أمحتب الحكيم . عنى زوسر بأمر مناجم النحاس فى طورسينا كما عنى بها الملك سنفرو آخر ملوك هذه الأسرة ، وأرسل إليها جيشا اخترق الشرقية معتمداً على مواردها ، فدوخ قبائلها الثائرة وأذلهم ، وأدبهم أدبا صار بعد ذلك مضرب الأمثال ، وبذلك ثبت نفوذ مصر فى طورسينا ، وتوطد حكمها فيها ، وأمن المهندسون والعمال الذين كان يرسلهم خلفاؤه الفراعنة إليها للاشتغال فى مناجمها ، وقام سنفرو بأعمال جليلة فى الشرقية ، فنظم حدودها الشرقية وقواها بالمعاقل

والحصون ، وأقام فيها الجسور ، وعبد طرقها ، واتخذ موانيها قواعد لأساطيله التجارية التى كان يرسلها إلى سوريا حاملة مصنوعات مصر ، ثم ترجع بخشب الأرز من صفحات جبال لبنان .



(شكل ٢٩) زوسر



(شكل ٣٠) امنحتب الحكيم

وجاءت الأسرة الرابعة (٢٩٠٠ق م — ٢٧٥٠ق م) وعلى رأسها الملك خوفو ، وكان ندبا شميرا ماضيا فى الأمور ، فعنى بالشرقية فجمل بابست ، وشيد فيها معبداً ضخماً يليق بباني الهرم الأكبر أعجوبة الدهر ومفخرة الزمن ، ولما ولى خفرع بانى الهرم الثانى زاد فى مبانى معبدها .

وجاءت الأسرة الخامسة (٢٧٥٠ق م - ٢٦٢٥ق م) التى بلغت الفنون الجميلة فى عهدها الأوج العلى فزخرفت معابدها وحبست عليها الأوقاف .

وفى عهد الملك بيبي الأول أحد ملوك الأسرة السادسة (٢٦٢٥ ق م — ٢٤٧٥ ق م) ثار بدو طورسينا وهجموا على حاميات المناجم وقتلوا بعضهم وأسروا البعض الآخر ، واقتحموا الحدود ، وغزوا



(شكل ٣١) الملك خوفو

الشرقية ، ونهبوا بعض قراها وقتلوا فريقاً من أهلها ، فأرسل قائده المظفر يونى على رأس جيش كبير فشتت شملهم وبدد جمعهم ، وغزاهم فى ديارهم لخربها ، ثم عاد إلى منف عودة الظافر المنتصر ومعه بعض الأسرى مقرنين فى الأصفاد ، ولكنهم شقوا عصا الطاعة مرة ثانية ، فعاد لعقابهم ، ثم نقل جيشه على أسطول البحر الأبيض إلى سواحل فلسطين الجنوبية فغزا أهلها ، وخرب ديارهم وقراهم ، وقتل منهم خلقاً كثيراً، جزاءاً وفاقاً لهم لإثارتهم أهل طورسينا وتحريضهم على الثورة ضد الحكم المصرى .

ثم خلف ببى الأول فراعنة لم يتركوا أثراً معلوما فى الشرقية ، ولكنهم — أو على الأصح قوادهم — قاموا بفتوح وكشف جغرافى فى الجنوب ، وبإرسال بعوث تجارية إلى بلاد بنت ، ومن هؤلاء الفراعين ببى الثانى الذى حكم مصر تسعين سنة ونيفا ، وهو رقم قياسى لطول الحكم لم يبزه أحد فيه . ومنهم نيتوكريس (ولعلها الملكة خنت كاوس بانية الهرم الرابع ومكملة الهرم الثالث) التى حيك حول اسمها كثير من القصص والأحاديث الخرافية .

وفى أواخر عهد هذه الأسرة ضعفت الحكومة المركزية فزاد نفوذ الأمراء أو حكام الأقسام فاستقلوا بحكمها ، وأصبحت مصر بذلك مقسمة ممالك صغيرة كما كانت قبل عصر مينا .

(شكل ٣٢) الملك ببى

وخيم بمصر فى هذا الوقت ظلام دامس لا نكاد نستبين منه إلا فتنة عمياء ، وحبلا مضطربا ، وزمرا مائجة ، وحروبا شعواء لا نعرف من مثيرها ، ومن مدبرها ومديرها ، ولا ندرى أين وقعت وقائعها ؟ ولكننا نلمح آثارها من تخريب المعابد ، وتدمير القصور ، وتحطيم التماثيل ، وإلقاء أشلائها فى الآبار .

ولم يلبث هذا الظلام أن انجاب فلمحنا أسرة قوية فى سوتن هنن (أهناس) تعيد النظام والأمن فى مصر وبخاصة فى مصر الوسطى ؛ ويغلب على الظن أن أمراء الشرقية انتهزوا فرصة ضعف حكومة منف ، فاستقلوا بأمر ولاياتهم ؛ كما فعل ذلك أمراء مصر العليا الذين كونوا اتحاداً تحت زعامة أمراء أرمنت الذين اتخذوا مدينة تابى (طيبة) مقر ملكهم فيما بعد ، وقرر هؤلاء الأخيرون مناهضة أهناس فتصدت لهم سيوط لأنها كانت تدين بالولاء لأهناس فهزمتهم فى البر وفى البحر ، ولكنهم لم يفقدوا العزم ولا الحمية ، فعاودوا الكرة وتغلبوا على سيوط ، وانتزعوا الملك من أهناس ، وأخضعوا الشرقية وبقية الوجه البحرى ، ولكنهم لم يقوموا بأعمال ذات بال فيها ، لأن أمراءها كانوا كغيرهم من أمراء أقسام المصريين فراعين صغاراً لم يفقدوا استقلالهم نهائيا إلا فى عهد الأسرة الثانية عشرة .

ولما جاءت الأسرة المذكورة (٢٠٠٠ ق م — ١٧٨٨ ق م) وعلى رأسها الملك أمنمحعت الأول، وكان داهية الأمور والسياسة وطد الملك بالدم والمال والحكمة، ودانت له أقسام الشرقية كما دانت له بقية الأقسام، وفى أواخر أيامه ثار سكان الكهوف فى طورسينا، وهددوا الشرقية بالغارة فنفر للأمر فى الحال وأخضعهم وأنزل بهم عقابا صارما، ولأجل أن يأمن على الشرقية من شرهم شيد حصونا قوية فى فم وادى الطميلات، وترك فيها حامية كبيرة، فعادت الطمأنينة إلى قلوب أهلها، وإلى قلوب السيارات التجارية التى كانت تجوب صحراء طورسينا بين مصر وأقطار غربى آسيا.

واهتم ملوك هذه الأسرة بالشرقية، وبخاصة سنوسرت الثالث، فشيدوا بها فى زان معابد عظيمة وقصورا جميلة كانوا يقضون فيها أشهر الصيف حين يشتد القيظ فى مصر، وفى عهد سنوسرت الثالث حفرت قناة وصلت الفرع التانيسى بالبحر الأحمر الذى كان ممتداً وقتئذ إلى البحيرات المرة، وبذلك اتصل البحر الأبيض بالبحر الأحمر أول مرة فى التاريخ.



(شكل ٣٣) سنوسرت الثالث

وفى عهده أيضا غزت الجيوش المصرية سوريا، فنزح تجار مصر إليها، وانتشروا فى ربوعها، وخالطوا أهلها.

وقد أخذ سكان آسيا الغربية بجنات مصر الوارفة، وبخيراتها المتوافرة بعد سماعهم ذلك عن مخالطوهم من أهلها، فهبطوا إليها زرافات ووحدانا ليتخذوها موطناً لهم، وبخاصة بعد أن اعترى الجدب أرضهم.

وكانوا إذا ما أتوا إليها قبض عليهم وجىء بهم إلى قصر حاكم الشرقية للفحص عن أمرهم ثم يوجه من يقبل منهم إلى الجهة التى تختار سكنا لهم

وما لبث هؤلاء الآسيويون أن كثر عددهم فى الشرقية كثرة وطأت لغارة الهكسوس، ومهدت لاستيلائهم على مصر.

وفى عهد أمنمحعت الثالث اتسعت الأعمال فى طورسينا، فانكشفت فيها مناجم جديدة، وشيدت حصون، وأنشئت ثكنات، وبنيت معابد، وحفرت آبار، وأقيمت خزانات للمياه. قام عليها حراس بنيت لهم وللمهندسين مساكن ثابتة تحيط بها جنات وعيون.

فنعمت الشرقية برغد العيش فى عهد هذا الملك العظيم، كما نعم غيرها من جهات القطر المصرى وزادت محصولاتها الزراعية زيادة كبيرة لتحسن وسائل الرى فيها.

وإن ما يرى الآن فى زان وبابست من آثار المعابد الضخمة ، والمبانى العظيمة ، والتماثيل الجميلة التى تحمل اسمه وأسماء أسلافه لأكبر دليل على عظم ماقاموا به من ضروب الإصلاح وصنوف العمارة .



(شكل ٣٤) امنحتب الثالث

ولقد خطت الفنون الجميلة ، والصناعات الدقيقة فى عهد هذه الأسرة خطوات واسعة نحو الكمال ، وارتقى الأدب المصرى ، وامتاز النثر بحلاوة أسلوبه ، وطلاوة ديباجته ؛ كما امتاز الشعر بعذوبة ألفاظه ، وسمو معانيه .

ولقد كثرت رحلات أساطيل مصر التجارية فى هذا الحين إلى بنت ، وبلاد العرب ، وجزائر البحر الأبيض وسواحله الشرقية مما أدى إلى توسيع أفق التفكير المصرى ، وتأثير ذلك فى أدب المصريين القصصى فتناول المخاطرات البحرية : كقصة « البحار الغريق » .

وما إن زالت الأسرة الثانية عشرة حتى عمت البلاد الفتن ، وكثرت بها الثورات ، ودب فى مرافق حياتها الاختلال والفساد .

ولما انتقل الملك إلى خاسوت « سخا » فى وسط الدلتا عاد للبلاد بعض الهدوء ، وشملها بعض النظام إلا أن « سخا » لم تلبث أن أدركتها يد الزمن وطوحت بدولتها فتردت البلاد فى هوة الفوضى وحمأة الانقسام ، فاختل نظام الرى ، وساءت حال الزراعة ، واشتد الكرب بالناس ، وضعفت قوة الشعب المعنوية ، ولم يخف هذا الحال عن دولة الهكسوس جارة مصر الشرقية التى كان يمتد ملكها إلى العراق براً ، وإلى جزائر البحر الأبيض بحراً ، فاقتحم جيشها حدود مصر ، وكان خليطا من أمم آسيا الغربية ، واستولى على الشرقية ، وملك بروجها دون حرب أو قتال .

وربما كان مجيئهم هذا بدعوة من بعض سكانها الذين يمتون إليهم بصلة الجنس ، وتربطهم بهم رابطة اللغة أو الدين أو هما معا . لهذا لم يجدوا كبير مقاومة فى الاستيلاء عليها ، وقد جعل الهكسوس الشرقية مقراً لهم ، ونزلوا بمدنها الكبيرة مثل « زان » و « بابست » ثم مالبثوا أن أعجبوا بموقع إحدى القرى بمقاطعة ستروبت شرق الفرع البلوزى ، فشيدوا فيها قصورا فخمة وثكنات لجنودهم ، وقد حاطوها بسور قوى ذى أبراج وحصون منيعة ، وسموها « أفاريس » ولكن لم يلبث « الشرقاويون » الأقدمون الذين يجرى فى عروقهم الدم المصرى الذى لاتشوبه شائبة أجنبية أن رجعوا لأنفسهم يتهمونها بالجبن والتفريط فى حق الوطن مما أدى إلى سريان الحمية فى نفوسهم ، وإذكاء نار الحماسة فيهم ؛ فثاروا على هذا الأجنبى المغتصب ، لكن شتان مابين الهكسوس الأجلاف الخشوشنين والمصريين المترفين ، ومع هذا فقد قاتلهم المصريون حتى خانهم المجال

فوطئتهم العربات الحربية التى جاء بها الهكسوس أول مرة فلم يتعود المصريون لقاءها فى حروبهم قبل ذلك .

ولقد عامل الهكسوس المصريين معاملة وحشية ، فقتلوا الرجال ، واستحيوا النساء ، وخربوا القصور ، ودمروا المعابد ، وطردوا نبلاء مصر السفلى وأهل المعرفة من أهلها وقساوستها شر مطرد ، فأصابوا بذلك المدنية المصرية فى صميمها .

ولكن كان من حسن الحظ أن يد التدمير لم تتناول إلا الوجه البحرى ، أما الوجه القبلى فقد اكتفى الهكسوس بأن يدفع أمراؤه خراجا معينا (جزية) كل سنة ، وبذلك نجا أهله من الهلاك ، وسلمت مدنه من الخراب .

ولم يلبث الهكسوس أن تأثروا بالمدنية المصرية فبنوا ، وشيدوا ، وزخرفوا ، ونجدوا ، واتكئوا على الوثير من الأرائك والفرش ، وتخلقوا بأخلاق المصريين ، واعتنقوا دينهم ، وعبدوا أربابهم ، وتعلموا لغتهم وفنونهم ، وتمثلوا بالفراعنة الشداد ، فأقاموا التماثيل والمسلات فى زان وبابست وأفاريس ، واتسع ملكهم وامتد من العراق إلى مصر وجزائر البحار ، وحكموا هذا الملك الواسع فى مديرية الشرقية . ونشطت التجارة بين غربى آسيا ومصر وزاد عدد القوافل التجارية بين مصر وجاراتها .

وفى عهد الملك « خيان » أو « الريان بن الوليد » أعظم ملوكهم ، وأوسعهم شهرة ، جاءت قافلة يوسف ابن يعقوب وباعوه من العزيز ، فأحسن مثواه ، واتخذه ولداً له ، وكان يستوطن « زان » وفيها بلغ أشده ، وقد آتاه الله الحكمة والعلم وتأويل الأحاديث ، وفيها سجن ، ومكث فى محنته بضع سنين ، ثم أفرج عنه ، واصطفاه الملك لنفسه ، وجعله على خزائنه ، ومكن له فى الأرض ، فسير البلاد بحكمة وكياسة وحسن دراية وادخر من السنين الخضر للسنين الممحلات ، فأنجى البلاد بعمله هذا من مجاعة محتومة .

وقد جاءه إخوته فعرفهم وهم له منكرون ، ثم عرفهم بنفسه وأمرهم أن يأتوه بأهلهم أجمعين . فلما دخلوا مصر أقطعهم أرض « جاشان » . ويرى الدكتور فيليب تشان أن أرض « جاشان » التى أقطعها يوسف أهله كانت تشمل المثلث الواقع بين « بابست » (الزقازيق الآن) وبلبيس وتل المسخوطة (التل الكبير الآن) . وكانت قليلة السكان غير ذات زرع ينمو فى بعضها الكلأ ويغمر بعض أجزائها مياه البرك والمستنقعات ، فكانت لذلك أصلح مكان لهم ولأنعامهم .

ولم يلبث الإسرائيليون (بنو يعقوب) أن زاد عددهم وكثرت قطعانهم ، فامتدت جاشان شرقا إلى وادى « الطميلات » وجنوبا إلى أنو (هليو بوليس) وشمالا إلى « زان » ، أى أنها شملت معظم النصف الشرقى من مديرية الشرقية . وقد تعلم الإسرائيليون فن الزراعة وأجادوه ، وأصبحت حقول « جاشان » مضرب الأمثال فى جودة المحصول .

ولما تم للهكسوس إخضاع مصر الثائرة ، وأصبحوا سادتها ، ألقوا السلاح جانباً ، وركنوا إلى حياة الدعة والترف . ونشئوا أبناءهم تنشئة غير تنشئتهم ، فشبوا فى بحبوحة العز وأحضان النعيم ، وفقدوا بذلك كثيراً من صفات آبائهم العسكرية .



(شكل ٣٥) يوسف الصديق يفسر رؤيا فرعون

أما المصريون الذين غلبوا على أمرهم ، فقد حرموا كثيراً مما كانوا فيه ينعمون ، فاخشوشنوا مضطرين وتعلموا من الهكسوس بعض فنون القتال ، واقتنوا الخيل التى جاءوا بها . وتدربوا على الكر والفر فوق متونها ، وأتقنوا صنع العربات الحربية ، ومرنوا على استعمالها ، وبدأ أمراء طيبة يرفعون رءوسهم بعد طول تنكيسها ، وعاودتهم عزة النفس ، وتذكروا ملكهم المسلوب فأجمعوا أمرهم على طرد المغتصب الدخيل .

وكان لملك الهكسوس جواسيس فى كل مكان فى مصر ، فبعثوا إليه بطرف من هذه الأخبار ، فهاجت خوفه ، وأقضت مضجعه فأرسل لسكننرع أمير طيبة يقول له : إن صياح أفراس البحر فى بحيرة طيبة يطن فى أذن الملك طنيناً مزعجاً فيزيد شغله نهارا ، وسهده ليلا .

ولم يمض زمن طويل على هذه الحادثة الطريفة حتى امتشق سكننرع الحسام بعد وثوقه بمظاهرة أمراء الكاب له ، ونشبت حرب الاستقلال ، وكانت ضروسا لقى سكننرع مصرعه فى إحدى وقائعها . وقد انتصر المصريون فيها على الهكسوس انتصاراً باهراً . وخلف سكننرع ابنه كيموزى فاستنهض همم المصريين وألهبهم بخطبة الحماسية فنفروا معه إلى مقاتلة الهكسوس ، فهزمهم هزائم عدة وطردهم من مصر الوسطى وخلفه أحمس الأول (١٥٨٠ ق م) فواصل الجهاد ضد الغاصبين بهمة لم يعترها فتور ولا ملل ، وهزمهم

فى البر والبحر . وظهرت شجاعة كثير من أبطال مصر فى وقائع هذه الحرب ، فجوزوا على بلائهم الحسن بالأنواط والوسم . وكانت الشرقية أهم ميادين القتال فى هذه الحروب ، التى خربت كثيراً من ديارها ، وأهلكت حرثها ونسلها .

وتتابعت على الهكسوس الهزائم ، وأخذ المصريون عليهم مهاربهم ، فاعتصموا بأفاريس ؛ وكانت عزيزة المنال ، وعرة المرام — فضرب المصريون نطاقاً حولها ، وحاصروها وطال حصارها ، لأن الهكسوس دافعوا عنها دفاع المستميت ، ولكنهم اضطروا آخر الأمر إلى التسليم ، وأخرجوا من مصر وهم أذلة صاغرون وتركوا من أهلهم من احترفوا بالزراعة ، واختلطوا بالمصريين ، وارتبطوا بهم بصلة المصاهرة . ولا يزالون يفلحون الأرض فى شمالى الشرقية ، ويصطادون الأسماك من بحيرة المنزلة حتى يومنا هذا ، تعرفهم بسماتهم الهكسوسية .


شكل (٣٦) تحوتمس الثالث

وجاء بعد عصر الهكسوس عصر بلغت فيه مصر ذروة المجد ، ذلك هو عصر الفتوح الخارجية التى قام بها الفراعنة الشداد فى بادئ الأمر للدفاع عن مصر . ثم حبب إليهم الفتح والاستعمار بعد أن تذوقوهما واستمرءوهما فأوغلوا فيهما من غير رفق ولا هوادة . وبلغت الفتوح أوجها العلى فى عهد تحوتمس الثالث (١٤٨١ ق م — ١٤٤٧ ق م) الذى قام بسبع عشرة غزوة ، دوخ بها زاهى ، ومدائن الأرض المقدسة ، وبلاد الخفتيو ، وبلاد متانى ورتنو ، وسكان جزائر البحر الأبيض وسواحله ، والليبيين ، وسكان الأراضى الرملية ، فدانت له الدنيا ، وجبى الأرض ، وأصبح البحر المتوسط لجته . ولم يعن الفراعنة العظام بالشرقية ، وربما اتهموا أهلها بممالأة الهكسوس ، ووجهوا جهوداً جبارة إلى عمارة طيبة وتجميلها . فأضحت بما شيدوا فيها من معابد وقصور ، وما خططوا فيها من شوارع وميادين لا تلحقها مدينة .

واستمرت مصر سيدة العالم القديم حقبة من الزمن خرجت فيها من عزلتها ، فاتسع أفق تفكيرها ، وأثرت فى ثقافات الأمم الخاضعة لها ، وتأثرت بثقافاتهم المختلفة ، وربما كان الإصلاح الدينى الذى قام به أخناتون أول شخصية فذة فى التاريخ نتيجة لهذا الاختلاط .

ولقد ألهى أخناتون فلسفته الدينية عن التفرغ لشئون الامبراطورية فأعوزها الحامى فدالت أو كادت . أما خلفاؤه الأولون فقد كان جل همهم القضاء على دينه الجديد ، والإتيان على ما ابتدعه من آراء جريئة ، ولم يعنوا أقل عناية بأمورها .

ولما انقرضت أسرة أخناتون ، وآل الملك إلى الأسرة التاسعة عشرة (١٣٥٠ ق م — ١٢٠٥ ق م) صمم فراعنتها على استرجاع مستعمرات مصر الأسيوية ، فقام سيتى الأول بإصلاح الطريق بين الشرقية وفلسطين ، وبتجديد القلاع المعدة لحراسته ، وترميم حياض المياه المخصصة لسالكيه ، وأعد جيشا عظيما قاده بنفسه ، وأخضع به فلسطين وعاد يجرر أذيال النصر ، وغزا سيتى فلسطين مرة أخرى ، وسار فى سوريا شمالا ، حتى وصل إلى أطراف دولة الحيثيين . والتحمت الحرب بين جيشه وحاميات ثغورهم الجنوبية فهزمهم ودفع بهم نحو الشمال ولكنه جنح إلى السلم ، فعقد صلحا بينه وبين ملك الحيثيين متلا (Metella) .



شكل (٣٧) رمسيس الثانى

ولما عاد سيتى إلى مصر وجه عنايته إلى الإصلاحات الداخلية ، وإلى العمارة ، فجدد معابد بابست ، وكان يقضى فيها وفى زان أشهر الصيف .

وخلف سيتى ابنه رمسيس الثانى أو الأكبر ، وكان فارسا مغواراً ، ود لو يعيد مجد تحتمس الثالث ويسترجع أمبراطوريته ، وكان يتشبه به ، ويحاكى أعماله ، فبدأ باتخاذ سواحل فلسطين قاعدة لحملته على الحيثيين ، الذين عرفوا نواياه ، فكونوا حلفا قويا من ملوك أرواد ، والنهرين ، وكاركميش ، وحلب وكودوكدش وأوجارت ، واستقدموا ألوفا من مرتزقة جزائر البحر الأبيض المتوسط وسواحل آسيا الصغرى . وأعد رمسيس لمنازلتهم جيشاً لا يقل عن جيشهم عدداً وعدة ، والتقى الجيشان أمام كادش . وكادت تدور الدائرة على الجيش المصرى لولا شجاعة رمسيس الشخصية ، فإنه وأسده فعلا الأعاجيب وانتهت المعركة بانتصاره على الحلفاء انتصاراً عظيما . وعاد رمسيس إلى مصر نشوان بخمر هذا النصر الذى لم تنته بعده حروبه مع الحيثيين بل استمرت نحو خمس عشرة سنة ختمت بمعاهدة سلام نقشت شروطها على لوح من الفضة . واتخذ رمسيس زان مقراً له ، وشيد فيها معبداً ضخماً ، أقام أمامه نصباً هائلا بلغ ارتفاعه تسعين قدما ونيفا ، ووزنه تسعمائة طن ، صنع من قطعة واحدة من الجرانيت . وبنى فيها قصرا عظيما له ، وحذا حذوه الأمراء والقواد فتسابقوا فى تشييد البيوت والقصور ، وبذلك عظم شأن زان وأمها العلماء والمهندسون والفنانون ، وكذا الصناع والتجار وأصحاب الحاجة .

وعنى رمسيس عناية كبيرة بوادى الطميلات ، فعبد الطرق التى تخترقه ، وشيد فى منتصفه مدينة بيتوم (Pithom) ، وبنى فيها مخازن للغلال والسلاح ، وأكمل مدينة أخرى غربى بيتوم كان قد أسسها أبوه

سيتي الأول ، وتعرف آثارها الآن بتل اليهودية ، ثم شيد رمسيس مدينة على الفرع التانيسي ، وقيل على القناة التي كانت تصله بالبحر الأحمر ، أسماها بر رمسيس أي بيت رمسيس . واختلف المؤرخون في تعيين موقعها بالضبط ، إذ يرى بعض المؤرخين أنها كانت ضاحية لزان ، على حين يرى محمود بك حمزة العالم المصري الأثري أنها قنطير . في الطرف الشمالي الشرقي من الشرقية . وقد بالغ المؤرخون في وصف جمالها ، وإطراء محاسنها . ولما تمت مبانيها وأخذت زخرفها ، انتقل رمسيس إليها واجتباها مقرا له ومقاما .

ولقد وصف أحد الشعراء زان وضاحيتها في عهد رمسيس الأكبر في رأي كثير من المؤرخين ، فقال : إنها جميلة ، جميلة حقا . فاقت مبانيها ما ابتدعته عقول جبابرة المهندسين في طيبة من معابد وقصور . حقولها منتجة ، وحدائقها غناء وغلب ، وبحيراتها ملأى من الأسماك ، وبركها مفعمة بالبط ، وخزانتها التي تناطح السحاب ملأى من الغلال ، وخمرها أحلى مذاقا من العسل ، ومرفؤها الجميل موئل للسفن التي تغادرها زوارقات محملة بصادرات مصر ، والتي تأتي إليها مئات مشحونة بالبضائع الأجنبية . لا يشعر أحد من أهلها بفاقة ولا هم . فقد حالفها السعد والسرور ، وجاورتها البهجة والعزة والمتعة .

ولقد تطاول على رمسيس الأكبر العمر ، وطال أمد السلم في عهده . فانصرف إلى العمارة وأبدع فيها ، وافتن وأسرف ، فأصبحت مصر في حاجة ماسة إلى الأسرى ، الذين كانوا يقومون بعمل اللبن ، وقطع الأحجار ، ونقلها إلى حيث تقام المعابد والقصور فرأى رمسيس في بني إسرائيل الذين لم يحاولوا الاندماج في المصريين ، والاتصال بهم بصلة المصاهرة ، فكانوا يعدونهم لذلك أجانب ويعتبرونهم بقية من الغاصبين تذكرهم بعهد فيه استعبدوا وذلوا — رأى رمسيس منهم خير بديل من الأسرى .



(شكل ٣٨) موسى يلتقطه آل فرعون

وسيق الإسرائيليون إلى المحاجر زمرا ، ولقوا من العنت والاضطهاد ما توجعوا له وبكوا منه ، ودونوه في كتبهم المقدسة .

وسرعان ما برم بنو إسرائيل بحالهم التعسة ، وعرف منهم ذلك عيون فرعون وأعلموه بما عرفوا فأوجس منهم خيفة ، فأمر أن يذبح أبناؤهم الذكور فيقل عددهم ثم ينقرضون .

وفى أثناء هذا الحول ولد موسى[1] بن عمران ، وخافت أمه عليه أن يكون من الهالكين ، فأوحى إليها أن تضعه فى التابوت وتلقيه فى اليم[2] . فالتقطه آل فرعون ، وقصته أخته ، ودلتهم على أمه لتكفله لهم وربّاه فرعون تربية عالية ، ونشأه تنشئة حسنة . ولما بلغ أشده واستوى ، آتاه الله حكما وعلما ، ودخل يوما المدينة[3] ، فرأى رجلين يقتتلان ، هذا إسرائيلى ، وهذا مصرى . فاستغاثه الإسرائيلى على المصرى ، فوكزه موسى فقضى عليه ، فأصبح فى المدينة خائفاً يترقب ، وائتمر به المصريون ليقتلوه قصاصاً ، ففر من مصر إلى مدين ، وهناك بنى بإحدى ابنتى شعيب عليه السلام ، ومكث فيها حتى سمع بخبر موت رمسيس الأكبر ، فرجع بأهله ، ونودى بالوادى المقدس طوى ، وأرسل إلى فرعون .

وكان منفتاح قد خلف أباه ، فذهب إليه موسى وهرون وزيره ليدعواه إلى دين الحق فأبى واستكبر ، وأصر على دينه ثم خرج بنو إسرائيل من مصر بقيادة موسى ، وفرق الله بهم البحر وأنجاهم من آل فرعون وأوغلوا فى سيناء وضربوا فيها غورا ونجدا وتاهوا فى معاميها ولواهم القوت من حيث أموه فأنزل الله عليهم المن والسلوى ، وعز عليهم الماء فتفجر لهم موسى الحجر عيونا ، وانتهز السامرى طلوع موسى الجبل ليكلم ربه فأضلهم وصنع لهم من الذهب عجلا له خوار ، فعكفوا عليه عابدين ، إلى آخر قصة بنى إسرائيل المدللين .

ولم يتول منفتاح الملك إلا بعد أن بلغ أرذل العمر ، وكانت تنقصه لذلك قوة الشباب وحميته . ولكن سرعان ما اضطر لإخماد ثورة فى أرض كنعان . وصد الليبيين الذين ظاهرهم سكان سواحل البحر الأبيض وجزائره وغزوا غرب الدلتا .

وحذا منفتاح حذو أبيه فى اتخاذه زان (تنيس) معقداً لتاجه ، ومن ذلك الحين كانت سياسة الفراعنة التزام خطة الدفاع عن مصر ، وهذا دليل واضح على انطفاء جذوة النزوع إلى الفتح والاستعمار .

وخلف منفتاح فراعين ضعاف ، فحلت الفوضى ، ودب دبيب الشقاق والانقسام فى المصريين فى عهدهم ، وطمع الليبيون فى مصر ، فغزوا غرب الدلتا ، وعاثوا فى الأرض فساداً .

وما زالت حال مصر تزداد سوءاً حتى تولى رمسيس الثالث (١٢٠٢ ق . م) فأصلح حالها ، وفى عهده غزا سكان جزائر البحر الأبيض بلاد الحيثيين وسوريا ، ثم تقدموا فى البر والبحر قاصدين غزو مصر . وكان رمسيس الثالث يقظاً حازماً ، وأيدا مقداماً ، فأعد جيشاً لجباً ، وأسطولا قويا ، وتقدم لملاقاة العدو فى البر والبحر ، والتقت جيوشه وجيوش الحلفاء ، فهزمهم هزيمة نكراء ، وقتل وأسر منهم خلقاً كثيراً ، وغنم غنائم لا تحصى ، ورجع رمسيس إلى الشرقية يجرر أذيال النصر ، ويجرى الأسرى مقرنين فى الأصفاد والأغلال .

وخلف رمسيس الثالث على مصر خلفاء ضعاف مترفون ، فسقوا فيها فتدهورت الأخلاق ، وانغمس الناس فى الشهوات والملاذ ، ولا غرو فالناس على دين ملوكهم ، فضعف أمر الدولة ، فانتهز أحد أمراء زان

---

(١) موسى : «مو» يعنى طفل أوابن . و «شه» يعنى النيل أو بركة . فموسى بالمصرية القديمة معناه ابن النيل
(٢) بحر موبس . (٣) قيل بلبست ، وقيل زان ؛ والأرجح أنها بر رمسيس ضاحية زان .

واسمه نيسو بنبتت (Nessu-ba-neb-Tet) هذه الحال المضطربة فثار على رمسيس الثانى عشر ، وغلبه على أمره ففر رمسيس إلى طيبة ، واستولى نيسو على الوجه البحرى ، واستحوذ على أساطيل مصر الحربية والتجارية ، فأصبحت تجارة مصر الخارجية فى يده ، وبذلك انقسمت مصر قسمين . مصر السفلى وعاصمتها زان (تنيس) ومصر العليا ومقر ملكها طيبة . وفى عهد نيسو ظهر الأشوريون وعظم شأنهم ، وعرف عنهم جيرانهم شدة البأس ، وقوة المراس والقسوة والغلظة ، وطارت شهرتهم فوصلت إلى أسماع نيسو ، فرأى أن يكسب صداقة ملكهم تجلات بلسر فأهداه تمساحاً وفرس بحر وهدايا أخرى .

ولما مات نيسو خلفه ابنه بسيب خنو الأول[1] الذى يعد بحق أبعد ملوك تنيس همة وأحبهم للعمران ، بنى معبداً عظيماً فى تنيس ، وأقام حوله سوراً ضخماً سمكه ثمانون قدماً .

وكان على طيبة الملك بينزم (Painetchem) فتواصلا وتزوج الثانى بابنة الأول . ولما مات الأول أصبح الثانى بحقه وحق زوجه ملك المصريين ، فهجر طيبة ، واختار زان مقراً له ولحكومته فأصبحت زان عاصمة القطر المصرى جميعه .



(شكل ٣٩) الملك بسيب خنو الأول

وفى عهد ملوك زان ضعف مركز مصر فى سوريا ، فتهيأت الفرصة لدعم ملك بنى إسرائيل فى فلسطين وفى عهدهم كثر استخدام الجنود المرتزقة من اللوبيين ، ورقى كثير منهم إلى مناصب الدولة العالية ، واعتمد

(١) كشف قبره فى صان الحجر عام (١٩٣٩ — ١٩٤٠) الأستاذ منتيه .

عليهم فى تصريف الأمور . وما زال شأنهم يعظم ، ونفوذهم يقوى ، حتى استبدوا بالأمر ، وتفردوا به .

وفى عام ٩٤٥ ق . م ، تمكن أحدهم المسمى شيشنق[1] من اغتصاب العرش من غير حرب ولا قتال ، وجعل مقره بابست ، وزوج ولى عهده ابنة بسيب خنو التنيسية ليصبح ذا حق شرعى فى الملك .

وكان شيشنق هذا من أحزم الفراعنة وأنجعهم وأبصرهم بالأمور ، فعزم على استرجاع مجد مصر العظيم ، وتجديد عهد عزها القديم ، فبدأ بالضرب على أيدى المفسدين من حكام الأقاليم ، وبإصلاح مرافق الحياة المختلفة ، وبتنظيم الجيش ، ثم وجه جهوده بعد ذلك إلى استعادة نفوذ مصر فى فلسطين ، فقاد جيشه بنفسه وغزاها ، واستولى على بعض مدنها وكانت قد استعصت على سليمان فأهداها له ، ويغلب على الظن أن سليمان كان حليفه . وقد تزوج إحدى بناته .

وبعد موت سليمان غزا شيشنق فلسطين ، وفتح بيت المقدس ، واستولى على خزائنها ، وفتح مدناً غيرها ، وعاد بالغنائم والأسلاب وبالأسرى مقرنين فى الأصفاد ، فجدد بذلك عهد تحتمس الثالث ورمسيس الأكبر .

ولم ينس شيشنق نصيبه من العمارة ، فبنى فى بابست وشيد وزخرف وجمل .

وتولى بعد شيشنق أوزركن الوهاب الذى بلغ ماوهبه إلى المعابد نحو ٥٦٠ ألف رطل من الذهب والفضة ، وخلفه ابنه تاكلت فنازعه أخ له كان قد عينه والده رئيساً لكهنة طيبة .

وتولى بعده ابنه أوزركن الثانى فتمكنت فى عهده بابست من بسط نفوذها وسيطرتها على طيبة ؛ وفى السنة الثانية والعشرين من حكمه شيد بهواً عظيماً فى بابست ليحتفل فيه بذكرى السنة الثلاثين من توليه ولاية العهد وتم الاحتفال فيه ، وكان مهيباً عظيماً .

وخلف أوزركن الثانى خلفاء ضعاف عادت بهم البلاد إلى سابق ضعفها واضمحلالها . وانقسمت البلاد وأعلن كثير من المقاطعات استقلاله وبدأت تختلف فتتقاتل ، ومهد هذا الانقسام لاستيلاء أمير النوبة بيعنخى — وكان من أصل مصرى — على مصر العليا ، واعترف به ملكا شرعياً فى عين شمس ، وجاءه أمراء الشرقية . أوزركن الثالث أمير بابست ، وبويت أمير تفت رمو ، وأمير كسم (سفط الحنة) مقدمين فروض الطاعة ، ثم لم تلبث الشرقية أن غزاها بوكوريس أمير صا الحجر الغربية (عام ٧١٨ ق م) الذى قاتله النوبيون بعد ذلك وأسروه وأحرقوه حياً .

واتخذ النوبيون أو النباتيون بعد فوزهم زان عاصمة ملكهم لقربها من الحدود الشرقية أهم ثغور المخافة فى مصر لأنهم كانوا يتوقعون غزوة الأشوريين .

وفى سنة ٦٧٠ ق م صدق حدس النباتيين وغزا الأشوريون مصر ، ففر الملك طهراقة وجنوده إلى مصر العليا وحاصر الأشوريون منف فاستولوا عليها .

---

(١) كشف قبره العالم منتيه فى صان الحجر سنة ١٩٤٩ م .

وسام الأشوريون المصريين سوء العذاب ، وحكموهم بيد من حديد ، فانتهز أمراء مصر السفلى فرصة رجوع الجيش الأشورى لبلاده فأرسلوا إلى طهراقة يغرونه بالأشوريين ويعدونه بالمشايعة عليهم . وكان زعماء الأمراء شارولودارى أمير زان ، ونيخاو أمير صالحجر وباكرورو أمير كيم (سفط الحنة) ونما خبر هذه المؤامرة إلى سمع أشور بانيبال فأسرع إلى مصر على رأس جيش عظيم ، وسار طهراقة بجيشه إلى الشرقية ليصده عنها ؛ ووافى بانيبال طهراقة فى كارابانيتى ، وهى مدينة لانعرف موقعها الآن ، ويغلب أنها كانت فى الشمال الشرقى من الشرقية فوجده مستعداً للقائه ، واقتتل الفريقان قتالاشديداً ودارت الدائرة على طهراقة وجنوده وفروا هاربين .

وقبض على الأمراء المتآمرين ، وأرسلوا إلى بانيبال مقرنين فى الأصفاد ، ولما مثلوا بين يديه تمكن نيخاو بدهائه ومكره من استدرار رحمة بانيبال عليهم ، وكسب صفحه عنهم ، ورد نيخاو إلى صالحجر أميراً .

وخلف نيخاو ابنه بسامتيك الأول (٦٦٦ ق م) ، وكان كيسا طموحا فحز فى نفسه أن يرى بلاده ترزح تحت نير الأشوريين ، فعزم على تخليصها من هذا البلاء ، ولقد واتاه الحظ فاشتعلت نار الفتنة فى بلاد الغاصبين فهان عليه طردهم من مصر .

ولما تم له طرد الأشوريين من مصر اتخذ صالحجر عاصمة إمارته مقعداً للتاج ومقراً للملك فانتقلت بذلك عاصمة البلاد من الشرقية .

وجه بسامتيك بعد ذلك عنايته إلى توحيد مصر وتطهيرها من الفساد ، ولما لم يأنس فى بنى وطنه الروح العسكرية ، والحمية الوطنية اللتين كانتا من أبرز صفاتهم فى عهد أحمس الأول وتحتمس الثالث كون جيشاً عظيماً من الأيونيين والكاريين والسوريين وغيرهم من مرتزقة الأقطار الأجنبية ، وبهذا الجيش خضد شوكة الليبيين المتمصرين الذين كانوا فى أواخر أيام ملكهم كالمماليك فى أول عهد محمد على باشا الكبير خطراً جاثما ، وبلاء عظيما على مصر .

ولما استتب الأمن فى مصر وسادها النظام عنى بسامتيك بالثغور فأقام حامية قوية فى دفنى فى الشمال الشرقى للشرقية وفى غيرها من مواضع المخافة .

على أن الجيش الكبير الذى أعده بسامتيك الأول تطلب مالا ، ولأجل أن يجمع المال من غير أن يبتزه من الأهلين نظم مالية البلاد على أسس ثابتة ، وجبى ضرائب عادلة ، وشجع اليونانيين والفينيقيين على متاجرة مصر فأدرت المكوس عليها مالا كثيراً ، ونزح عدد كبير من اليونانيين إلى مصر ونزلوا فى أماكن خصوا بها ، وخالطوا المصريين فتأثروا بثقافتهم وأثروا فيها .

ورقت الفنون وحييت الآداب فى عهد بسامتيك الأول وخلفائه ، ولذا يسمى المؤرخون عصرهم عصر النهضة والإصلاح .

وخلف بسامتيك ابنه نيخاو الثانى (٦١٢ ق م) وكان من الملوك الفاتحين الهمامين ، غزا فلسطين وسوريا وجباهما ولكن أملاكه الأسيوية لم تدم طويلا ، إذ استولت عليها بابل بعد أن هزمته جيوشها فى كاركيش .

وعنى نيخاو بتنظيم شئون مصر وتنمية مواردها وترويج تجارتها ، وحاول لهذا الغرض إعادة حفر القناة التى كانت توصل النيل بالبحر الأحمر فى عهد سيتى الثانى ، ولكنه خذل عن إتمامها بعد أن استخدم فى حفرها نحو ١٢٠,٠٠٠ عامل هلك منهم خلق كثير ، وبنى نيخاو أسطولين بحريين كبيرين جعل مركز أحدهما فى البحر الأحمر ومركز الثانى فى البحر الأبيض ، وكان هذان الأسطولان أساس عظمة مصر البحرية فى عهد البطالمة .

وخلف نيخاو ابنه بسامتيك الثانى ، ولم يترك بسامتيك أثراً يذكر فى الشرقية ، وكانت جل أعماله فى بلاد النوبة .

وخلف بسامتيك الثانى ابنه حا آب را (ابريز) (٥٩٢ ق م) ، وفى عهده راجت التجارة ، وكثرت أسواقها فسعد الناس بذلك وأثروا .

وتولى بعده أحمس الثانى (أمازيس) (٥٧٢ ق م) بعد ثورة وطنية انتهت بقتل حا آب را ، وحكم أحمس طويلا ، وكان عهده قليل الحوادث الهامة ، ونعم الناس فى أيامه كما نعموا فى عهد سلفه ، وحاول البابليون فى عهده غزو مصر ولكنهم ردوا على أعقابهم خاسرين .

وتولى بعده ابنه بسامتيك الثالث ، ولم يهنأ بملكه أكثر من ستة أشهر إذ غزا الفرس مصر من الباب الشرقى بقيادة الطاغية قمبيز فى الشهر السادس من حكمه .

حسن محمد جوهر
مراقب منطقة الزقازيق

BIBLIOGRAPHY.

(١) سليم حسن بك : مصر القديمة الجزء الأول والثانى .

1 — EMIL LUDWIG : The Nile in Egypt.
2 — FLINDERS PETRIE : The Arts and Crafts of Ancient Egypt.
3 — « « : The Egyptians (H. O. N.)
4 — J. BREASTED : A History of Egypt.
5 — G. EBERS : Egypt, Descriptive, Historical and Picturesque. Vol. I.
6 — PHIL. SCHAN : Through Bible Lands.
7 — BRITISH MUSEUM : A Guide to the Egyptian Collections.
8 — S. H. ROBINSON : Civilisation.
9 — L. W. KING, M.A.F.S.A. : The Hittites (H. O. N.)
10 — « : The Assyrians (H. O. N).
11 — SIR CHARLES WILSON: Picturesque Palestine, Sinai and Egypt, Vol. IV.
12 — F. E. GRIFFITH : The Religious Revolution in Egypt.
13 — H. R. HALL, D. Litt etc. : Egypt in the Brilliance of Decay.

الشرقية فى عهود

الفرس واليونان والرومان

الفرس :

كاد المؤرخون يجمعون على أن فتح الفرس لمصر يرجع إلى سببين :

أولا : أن أمازيس الثانى (Amasis II) ملك مصر فى الأسرة السادسة والعشرين تحالف مع كروسيس (Croesus) ملك ليديا الذى كان العدو اللدود والخصم العنيد لقمبيز (Cambyses) ملك الفرس .

ثانيا : كان قمبيز يعتبر مصر ولاية من الأمبراطورية البابلية التى سبق أن فتحها أبوه قورش (Cyrus) .

انتصر قمبيز ودخلت جنوده منف ظافرة بعد اجتيازها الجزء الذى تحتله مديرية الشرقية الآن ، وقد ذبح قمبيز نحو الألفين من المصريين وكان يريد الانتقام من أمازيس ولكنه كان قد مات قبل أن يتم لقمبيز فتح مصر فأخذ « إبسماتيك الثالث » أسيراً وأمر بإخراج جثة « أمازيس » ومثل بها أبشع تمثيل وأمر بخلع شعر رأسه . ولما كانت الجثة محنطة واستعصى عليه التمثيل بها أمر بإحراقها .

ثم إن قمبيز احتقر معبودات قدماء المصريين وذبح كثيراً من الكهنة . وبينما كان المصريون يحتفلون بتكريم « عجل أبيس » أمر بإحضاره وطعنه فى فخذه طعنة نجلاء قضت على حياته بعد أن أصابت منه مقتلا .

ومن غريب الأمر أن قمبيز عند عودته إلى بلاده سقط من فوق جواده على سيفه الذى أصابه إصابة بالغة فى فخذه أيضا ففاضت على أثرها روحه الخبيثة .

خلف دارا الأول قمبيز فعمل ما فى وسعه لإزالة سوء الأثر الذى تركه قمبيز فى نفوس المصريين بأن سمى نفسه « ابن رع » معبود المصريين فى ذلك الوقت . واحترم ديانة المصريين وقدم إليها القرابين وأنشأ مدرسة للكهنة .

وأهم عمل حيوى جليل قام به الفرس فى مصر وكان له أثر بالغ فى حياة مصر الاقتصادية بوجه عام وبخاصة مديرية الشرقية ، أن دارا الأول أعاد حفر قناة سيزوستريس (بين النيل والبحر الأحمر) التى كانت تستمد ماءها من النيل قرب مدينة بوباست (تل بسطة) ومكانها الآن الزقازيق عاصمة الشرقية . وكانت هذه الترعة تخترق وادى طميلات، وتخترق ترعة الإسماعيلية بعض أجزائها الآن . ويمكن تتبع مجرى هذه القناة الآن فى وادى طميلات بما وضعه دارا من شواخص حجرية (Stelae) تخليداً لذكرى هذا المشروع الجليل الذى كان يبغى من ورائه مصلحة مصر الاقتصادية وتنشيط حالتها التجارية .

وكان على كل شاخص حجرى صورة دارا وألقابه الفخمة وهى « الملك العظيم » ملك الملوك ، وملك شعوب الأرض طرا » . ووجد على شاخص منها شمال السويس العبارة الآتية « إن الإله العظيم أرموزدا (إله الخير عند الفرس) هو الذى خلق الأرض والسماء العليا والإنسان الذى خصه بالسعادة والبركات وجعل

دارا ملكا وأنعم عليه بالسلطان الواسع والنفوذ العظيم لأنه الرجل العظيم ذو الثروة الطائلة فى الخيل والرجال.
ثم بعد ذلك يقول دارا « أنا فارسى وبمعونة الفرس امتلكت مصر وإنى أمرت بحفر هذه القناة من النيل إلى البحر الأحمر الموصل إلى الفرس وحفر هذه القناة إنما هو بإرادتى ومشيئتى ».

ويقال إن دارا أمر بردم نصف هذه القناة لأن المهندسين الفارسيين أوجسوا خيفة من فيضان ماء البحر الأحمر على مصر لأنهم ظنوا خطأ أن مستوى البحر الأحمر أكثر ارتفاعا من مستوى مصر . وهذا شبيه بالخطأ الفاحش الذى وقع فيه مهندسو الحملة الفرنسية .

وعلى الرغم مما كانت تنعم به مصر من الرغد والرخاء فى عهد دارا كان المصريون يتحينون الفرص لتحرير بلادهم . وانتهز المصريون فرصة اشتباك الفرس واليونان فى حرب ضروس ، واضطرارهم إلى سحب جيشهم من مصر ، وهبوا على بكرة أبيهم وثاروا بزعامة أحد أمراء بوباست (Bubastis) المدعو خابشا (Khabbesha) (محبوب رع) وكان حاكما لولاية شرق الدلتا من قبل دارا .

وأعلن خابشا نفسه ملكا على مصر . وكان أهم عمل قام به أن مسح أراضى شرق الدلتا وحصن الشواطئ المصرية بأن وضع حواجز وسدودا فى المستنقعات القريبة من مصبات النيل حتى تحول دون دخول سفن الأعداء إلى داخل البلاد . ولكن لسوء الحظ تمكن أجزرتسيس خليفة دارا من استرداد مصر ثانياً .

الشرقية فى عهد اليونانيين

يرجع عهدهم فى مصر إلى أيام بسماتيك الأول منقذ مصر من الآشوريين ومؤسس الأسرة السادسة والعشرين وعصر النهضة فى تاريخ مصر القديم .

وكان بسماتيك أميراً تنبأ له أحد الكهنة بملك مصر بمعونة جنود من البرنز وتحققت هذه النبوءة بأن ألقت عاصفة هوجاء فى البحر الأبيض ببضع سفن عليها بحارة يونانيون أشداء مسلحون بأسلحة حادة من البرنز وتحالف معهم بسماتيك الأول واستأجرهم وكوّن منهم جيشا منظما استعان به فى التغلب على سائر الأمراء والفوز بعرش مصر .

وقد حصن بسماتيك حدود مصر شرق الدلتا وغربها وعند أسوان بوضع حاميات من الجنود اليونانيين وكان مركز حامية شرق الدلتا فى مدينة دفنة (Daphne) قرب القنطرة على حدود مصر الشمالية الشرقية لصد غارات الشعوب الأسيوية .

لما فتح الإسكندر المقدونى مصر رحب به المصريون عند بلوزة (Pelusium) ، وذلك :
أولا : لأن المصريين كانوا يبغضون الفرس ويضمرون لهم العداء لما لاقوا منهم من صنوف الذل وألوان الظلم والاستبداد .

ثانياً : لاعتقادهم أن الإسكندر المقدونى كان ملكا شرعيا يجرى فى عروقه الدم المصرى كما أخبرهم بذلك كهنة الإله آمون الذين كانوا يروّجون أسطورة خلاصتها أن الملك نكتنيباس الثانى (Nectanebus II) ملك مصر عند غزو الفرس والذى فر منهم إلى الحبشة ثم اليونان وكان منجما ساحراً وعرافا ماهرا تنبأ للملكة

أولمپاس زوجة فيليب والد الإسكندر أن الإله آمون سيقضى معها ليلة وتنجب منه مولوداً ذكراً يكون له شأن عظيم فى العالم . وقضى معها نكتنيباس ليلة حملت عقبها فى الإسكندر المقدونى .

ولما استتب الأمر فى مصر للإسكندر ومكث بها خمسة أشهر وضع نظاماً جديداً لحكمها وعين حكاماً للأقاليم من قبله وكان من بين القواد الذين عينهم فى شرق الدلتا بولمون (Polmon) على ولاية بلوزة (Pelusium) وكليو مينز (Cleomenes) أحد يونانى نقراطيس على ولاية هيروبوليس (Heroopolis) بين الاسماعيلية والقنطرة وغيرهما . ولقد ناط بهم إدارة الأقاليم وجمع الضرائب له .

بعد وفاة الإسكندر كانت مصر من نصيب أحد قواده بطليموس الأول الذى فاز بنقل جثة الإسكندر إلى منف ثم نقلت فيما بعد إلى الإسكندرية الأمر الذى أثار سخط برديكاس الوصى على عرش الإسكندر الصغير نجل الإسكندر الأكبر علاوة على استقلال بطليموس بملك مصر فصمم برديكاس على غزوها وجرد جيشاً عظيماً استخدم فيه كثيراً من الفيلة الضخمة وتحصن برديكاس عند ميناء بلوزة وحفر الخنادق ولكن الفيضان أغرقها ، ولما أراد برديكاس أن يعبر بجنوده الفرع البلوزى للدلتا غرق ألفان من جنوده وأكلت التماسيح ألفاً وتمرد الآخرون عليه وقتلوه .

أما بطليموس الثانى فقد أعاد حفر قناة سيزوستريس التى ساعدت كثيراً على رواج التجارة وانتشارها وهى كما سبق أن ذكرنا تخترق وادى طميلات بالشرقية وتبتدئ من النيل عند بوباستة إلى كلزما (Clysma) على البحر الأحمر .

ولقد دفن كثير من اليونانيين والبطالسة بمدينة دفنة (Daphne) بين الاسماعيلية والقنطرة ، وفى سنة مائة وخمسين قبل الميلاد أذن بطليموس السابع أونياس (Onias) حاخام اليهود بفلسطين ببناء مدينة (Onien) أونيون (مكانها الآن تل اليهودية) قرب شبين القناطر لتكون مصراً لليهود ، وبنى بها معبداً كبيراً .

وذلك لاضطهاد انتيوكوس (Antiochus) ملك سوريا خصم بطليموس العنيد لليهود فاستمالهم بطليموس إليه بهذه الطريقة .

الشرقية فى عهد الرومان

بقدر ما كانت أحوال مصر مستقرة والرخاء شاملاً والهدوء سائداً فى عهد البطالسة بقدر ما اضطربت الأحوال وسادت الفتن وعمت الفوضى فى عهد الرومان وكلنا يعلم أن مصر كانت فى عهدهم بمثابة مخزن للغلال .

أبقى الرومان نظام الحكم فى مصر كما كان عليه فى عهد اليونان واستمر حكام الأقاليم يساعدون الحكومة المركزية فى الإسكندرية والمرجع الأعلى هو الوالى الرومانى الذى يساعده فى الحكم ثلاثة من كبار الموظفين يمثلون مصر العليا والوسطى والسفلى .

وعلى الرغم من استحكام الفوضى واضطهاد المسيحيين الأبرياء أعاد الأمبراطور تراجان الرومانى فتح

قناة سيزوستريس التى لعبت دوراً هاماً فى تجارة مصر وكانت عاملا قوياً فى رواجها وجعل الشرقية بحق ميداناً للنشاط الاقتصادى فى مصر ، ولقد بلغ عرض هذه القناة فى عهد تراجان مائة وخمسين قدماً .

وظلت مصر فى نزاع مستمر وخلاف مستحكم بين المذاهب المسيحية المختلفة حتى تمكن الفرس من استردادها سنة ستمائة وتسع عشرة ، ثم استردها الرومان ومكثوا بها حتى فتحها العرب سنة ستمائة وأربعين بقيادة عمرو بن العاص . ولقد تأثرت الشرقية كثيراً بالفتح العربى ، بل كانت أكثر المديريات تأثراً به بالنسبة لموقعها الجغرافى . وأترك الكلام بالتفصيل على هذا الأثر لأحد حضرات الأساتذة الباحثين .

محمد عبد الرحمن قمحاوى

---

1. HANOTAUX : *Histoire de la Nation Egyptienne.*
2. BUDGE : *Books on Egypt and Caldaea,* Vol. XIV. XV. XVI.
3. BRESTEAD : *A History of Egypt.*
4. AALLET : *Histoire Romaine.*

ومراجع عربية مختلفة .

تاريخ الشرقية فى العصور الوسطى

كانت مصر منذ بداية العصور الوسطى خاضعة للرومان الذين أجلاهم عنها العرب فى صدر الإسلام فى عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الذى قابل إلحاح عمرو بن العاص عليه فى فتح مصر بشىء كثير من الحذر والتردد خاشياً سوء مغبة الإغراق فى الفتوح التى تؤدى إلى تشتت قوى العرب وتناثرها فى الأقطار المختلفة فضلا عما سمع به الخليفة عن جرأة عمرو التى قد تصل أحياناً إلى التهور . ولكن عمرو بن العاص هون الأمر على الخليفة وسهل عليه فتح مصر بقوله « إنه ليس فى البلاد ماهو أقل منها قوة أو أعظم غنى وثروة » ثم قال له إن « أريطون » حاكم الروم على بيت المقدس — وكان قد هرب من المدينة قبل تسليمها إليهم — قد لاذ بمصر وإنه يجمع فيها جنود الدولة وأن على العرب ألا يضيعوا الوقت بل أن يوقعوا به قبل أن يستفحل أمره ... الخ » وقد كان لحسن منطق ابن العاص تأثير كبير فى نفس عمر الذى قبل أخيراً أن يأذن لعمرو بن العاص فى أن يمضى على بركة الله فى فتح مصر .

سار عمرو بن العاص على رأس جيش مكون من أربعة آلاف مقاتل حين هبط رفح . فالعريش التى استولى عليها بسهولة على الرغم من أنها كانت مدينة ذات حصون وكانت أسوارها لاتزال منها بقية ماثلة بإزاء البحر . وقد روى بعض المؤرخين أن سور مصر [1] العظيم كان يبدأ من هناك ويتجه إلى القلزم (وهى السويس) ويغلب على الظن أن هذا السور كان قد تهدم فإنه لم يعق سير الجند فى القرن السابع . وفى هذه البقعة حل على العرب الغزاة عيد الأضحى من العام الثامن عشر للهجرة فاحتفى به جيش العرب احتفالا فيه شىء من الجلال والجد .

هبط العرب بعد العريش إلى الصحراء حيث اقتحموا الكثبان والتلال الرملية ، ولم يعترض مسيرهم أحد من جنود الروم حتى وصلوا مدينة « بلوز » التى تسمى بالقبطية « برمون » ويسميها العرب « الفرما » وكانت على ربوة من الأرض على نحو ميل ونصف ميل من البحر وكانت مدينة منيعة حاصرها العرب شهراً أو أكثر ثم أخذوها عنوة . وقد روى المقريزى وأبو المحاسن أن قبط الفرما ساعدوا العرب فى أثناء الحصار ، ولكن هذه الرواية تفتقر إلى الإثبات وليس أدل على تفنيد هذا الزعم من أن « حنا النقيوسى » المؤرخ المعاصر لتلك الحوادث أثبت فى ديوانه أن القبط لم يساعدوا المسلمين إلا بعد أن استولوا على الفيوم . ولكن الذى سهل على العرب انتزاع الفرما أن الروم اعتمدوا على حامية المدينة فى الذود عنها ولم يكلفوا أنفسهم مشقة إمداد

---

(١) بتلر ص ١٧٥ .

المدينة لنجدتها وتخليصها ويقع أمر التقاعد على أكتاف المقوقس الذى يعزو المؤرخون سبب إهماله لمآرب في نفسه يبغى أن يقضيها من العرب . سار عمرو بعد ذلك من السبخة التى حول الفرما حتى مكان بلدة القنطرة الحالية حيث العشب والقصب والغاب ولعلهم قصدوا بعد ذلك إلى مكان الصالحية الآن ملتزمين جانب الصحراء ومخالفين في ذلك أكثر من عداهم من فاتحى مصر ، فقمبيز مثلا سار من الفرما متجها نحو الغرب إلى سبهود وتانيس (صان) ومن ثم إلى بوباستيس (الزقازيق) ولكن في أثناء الفتح العربي كانت مياه بحيرة المنزلة قد طغت على ماحولها فأصبحت الطريق من هناك صعبة المسالك ، وكان جيش عمرو كله من الفرسان ولم يكن عندهم شىء من وسائل بناء القناطر على الترع والأنهار فسار من القصاصين جنوباً واجتاز تلال وادى الطميلات في موضع قريب من التل الكبير حتى بلغ بلدة بلبيس وهنا بدأ من الروم شىء من المقاومة وكانت طلائعهم قد خرجت ترقب قدوم العرب من الصحراء ولم يكن جيش عمرو قد نقص إذ لحق به من البدو من عوض الذين قتلوا في مناجزة الفرما ، بل لقد زاد عليهم لحق به هؤلاء البدويون حباً في القتال وطمعاً في الغنيمة . وفي أثناء وجودهم أمام مدينة بلبيس — كما روى الطبرى — يتقدم إلى عمرو راهبان يفاوضانه في أمر الصلح وتقوم بينهما وبين القائد العربي مناقشة طريفة يجهر لهما فيها عمرو برأيه وشروطه في الصلح فيقول « نحن ندعوكم إلى الإسلام فمن أجابنا إليه فمثلنا ومن لم يجبنا عرضنا عليه الجزية وبذلنا له المنعة وقد أعلمنا نبينا أننا مفتتحوكم وأوصانا بكم خيراً ، حفظاً لرحمنا فيكم وإن لكم إن أجبتمونا إلى ذلك ذمة إلى ذمة » وهنا طلب إليه الراهبان الأمان حتى يرجعا إليه بعد مفاوضة قومهما ، فأجلهما ثلاثاً زيدت إلى أربع يصبح بعدها في حل من مناجزتهم ، ولما أدليا بالحديث إلى المقوقس عظيمهم هم بإجابة الطلب وعول على التلويح بغصن الزيتون لأصهاره العرب ، ولكن أبى عليه قائد جيوش الروم إذ ذاك « أريطبون » أو « الأرطبون » كما كان يسميه العرب فقد كان جد موتور من العرب الذين أقصوه عن بيت المقدس بعد أن كان حاكمها كما بينا فعول أريطبون على مناجزة العرب ولما يمض من هدنة الأيام الأربعة سوى يوم واحد حتى انقض الروم بعده على جيوش العرب في بلبيس ولكن دارت عليهم الدوائر وطاش سهمهم ومزق جيشهم شر ممزق . وروى بتلر في كتابه « فتح العرب لمصر » أن الروم خسروا ألف قتيل وثلاثة آلاف أسير في معارك بلبيس حين نشوب الحرب كما قتل من المسلمين عدد ليس بالقليل ؛ ولقد قيل إن ابنة المقوقس كانت في بلبيس حين اشتداد المعارك فأرسلها عمرو إلى أبيها معززة مكرمة ، فبادل بذلك المقوقس جميلا على حسن استعداده للاتفاق مع العرب فكسب بذلك محبة المصريين[1] وبعد أن أمضى العرب في بلبيس قرابة شهر هبطوا منها إلى أم دنين لاستكمال الفتح حتى تم لهم ماأرادوا وأصبحت مصر قطراً إسلامياً كان ولا يزال درة في تاج الدولة الإسلامية .

---

(١) يرى بتلر في رواية ابنة المقوقس وقصة الراهبين رأياً يخالف فيه جمهرة المؤرخين من العرب .

وبعد أن استقرت أحوال مصر فى يد عمرو بن العاص واستتبت أمورها أقام المسلمون منها حكومة عادلة عاملت القبط — أغلبية سكان القطر إذ ذاك — معاملة مبنية على العدل والتسامح حتى شعر المسيحيون بالفارق الكبير بين حكام الرومان وحكام المسلمين الذين امتاز أغلبهم برعاية القبط والحدب عليهم ولم يشذ من هؤلاء الحكام سوى نفر قليل أخصهم بالذكر عبد الله بن الحبحاب الذى أمر فى سنة ٧٢٢ م بتحطيم الصور المقدسة عند المسيحيين بأمر من الخليفة الأموى (يزيد بن عبد الملك) ولقد أدى ذلك إلى تمرد أعراب الشرقية (الحوف الشرقيين) وإعلانهم العصيان على ولى الأمر . حقيقة إن هذا التمرد سرعان ما قمع ولكنه كان يتجدد بين آونة وأخرى حتى اضطر ابن الحبحاب أن يجلب إلى الشرقية نحوا من خمسة آلاف عربى أقامهم بها يخضدون من شوكة الأقباط .

ولقد جاء مصر فى العهد الأموى اثنان من خلفائهم وهما مروان الأول ومروان الثانى (آخر خليفة أموى) الذى هبط مصر بعد هزيمته أمام خصومه العباسيين فى واقعة الزاب الأكبر المشهورة . وقد أقام فى طريقه فترة فى بعض قرى الشرقية ومنها أرسل قوات للاستيلاء على مصر الوسطى والإسكندرية ولكن دهمته جيوش العباسيين بقيادة صالح بن على فى بلدة بوصير بإقليم الفيوم حيث لقى حتفه . ولقد أرشد عنه أعراب الشرقية الذين كان قد انتشر فى ربوعهم المذهب الشيعى .

ولم تقف ثورات أعراب الشرقية بزوال الدولة الأموية بل كانت أكثر التهابا فى عهد العباسيين ، حتى إن الوالى العباسى ، أبو صالح ، — وقد كان أول الولاة من العنصر التركى وعرف بالشدة وقوة المراس — قد أخذ أهالى الشرقية الثائرين بالبطش والعنف لأنه قد أصبح كثير منهم قطاع طرق لا يأمن المارة معهم على حياتهم وأموالهم وأقام بينهم حراسا مسئولين عن الأمن وعن المتاع

(شكل ٤٠) جندى عربى

ولقد بلغ من شدة ثقته بنفسه أن أمر أن تظل أبواب المنازل والحوانيت حتى الحانات مفتوحة طول الليل فكان الناس ينشرون شباكا على أبواب منازلهم تمنع دخول الكلاب إليها . وفى عهد موسى بن عيسى خلفه ثار سكان الشرقية فى وجه الوالى الذى ضاعف من الضرائب المفروضة على الأراضى وفرض مكوسا على المتاجر ودواب الحمل ، وبلغ من شدة تمردهم أن تغلبوا على الوالى وقتلوه .

وولى ذلك تغيير كبير فى ولاة مصر حتى انتهز أعراب الشرقية هذه الفرصة وشقوا عصا الطاعة ، فرفضوا دفع الضرائب المقررة وبدءوا ينهبون المسافرين والماشية وعملوا على أن يمتد لهيب الثورة إلى فلسطين بمعاضدة أعراب الحدود .

وعلى أثر وفاة الرشيد ونشوب الخلاف بين ولديه الأمين والمأمون عاد أعراب الشرقية إلى ثورتهم القديمة لأن الأمين قد تحبب إليهم بأن عهد ببعض الوظائف الكبرى إلى رؤسائهم ، فضمن بذلك ولاءهم له ، حتى ثاروا فى وجه نائب المأمون عليهم وتغلبوا عليه وقتلوه ، وبهذا الاعتراف الرسمى من الأمين صار لأعراب الشرقية سلطان يذكر وأصبحوا قوة يرهب جانبها .

ولما استتب الأمر للمأمون عين عبد الله بن طاهر والياً على مصر فاستطاع بحزمه وسداد رأيه أن يقف ثورات المصريين عامة ويعيد الهدوء إلى ربوع القطر بأجمعه . حتى إن المأمون أهداه خراج مصر البالغ ثلاثة آلاف دينار تقديراً لحسن صنيعه . وعندما نقل ابن طاهر إلى خراسان عاد أعراب الشرقية مرة أخرى إلى ثورتهم وتقدموا هذه المرة إلى الفسطاط وكمنوا عنــد المطرية وانقضوا على الوالى الجديد « المعتصم » (أخى الخليفة) وأحرقوا أمتعته واختبئوا وراء جدران الفسطاط ، ولكن المعتصم فتك بكثير من زعمائهم ونجح فى تفريقهم . ولقد عزز الأقباط فى الشرقية ثورة الأعراب ضد العباسيين حتى قرر الخليفة المأمون أن يحضر بنفسه إلى مصر ليقمع الثورات المتأججة التى لم تكن لتقف عند حد .

وعند وصول المأمون إلى ضاحية العسكر أرسل جيشا تحت إمرة أحد القواد الأتراك إلى بلاد الشرقية التى كان أعرابها بمساعدة الأقباط فى ثورة وعصيان فأوقع جيش المأمون بالأقباط وأحرق قراهم وسبى نساءهم وأطفالهم حتى فنى الكثيرون منهم . ومنذ ذلك التاريخ زاد عدد المسلمين على عدد الأقباط ، واستقر العرب فى القرى والمزارع بعد أن كانوا يلازمون المدن .

وفى غضون القرن الثالث الهجرى انقطع مابين مصر ودولة بنى العباس من أسباب ، وانفصم ما كان يربط مصر بمركز الخلافة ببغداد من عرا الروابط ، وتربع على عرش مصر إذ ذاك أحمد بن طولون الذى أنشأ له فى مصر دولة دانت لها الشام وبعض أقطار أخرى وخشى بأسها الخليفة العباسى الذى راض نفسه على الاعتراف بالدولة الطولونية فى مصر . وهنا يجىء ذكر لتاريخ الشرقية ويبرز اسم بلدة العباسة التى تقع على الطريق بين الزقازيق والاسماعيلية عند مدخل وادى الطميلات ، فقد تألق نجمها فى عهد الطولونيين وكانت موضع اهتمامهم .

روى المقريزى أن العباس ولد أحمد بن طولون — وقد ثار فى وجه أبيه فى أثناء زحف ابن طولون على الشام — سمى باسمها لأنه ولد بتلك البلدة التى كانت رياضة الأسرة الطولونية المالكة .

ولقد زاد المقريزى فى خططه على ذلك فقال : إن العباسة بنت أحمد بن طولون قد خرجت لتوديع أسماء بنت أخيها خمارويه المشهورة بقطر الندى والتى بنى بها الخليفة العباسى المعتضد ، فضربت خيامها عند بلدة العباسة وأقامت مع وصيفاتها وصديقاتها مدة على أرض تلك القرية لتلقى نظرة الوداع على سفيرة مصر لدى قصر الخليفة . ويرجح المقريزى من هذه الرواية أن اسم بلدة العباسة اشتهر لإقامة شقيقة خمارويه فى تلك المناسبة السعيدة .

وبعد وفاة خمارويه ولى أمر مصر ابنه أبو العساكر جيش فرأى فيه فقهاء المسلمين وقضاتهم سفاكا للدماء لسفكه دم عمه (مضر بن أحمد بن طولون) فأفتوا بعزله وخلفه شقيقه « هرون » وكان إذ ذاك حدثا لا يصلح للولاية ، فجاء ضغثا على إبالة حتى طمع القرامطة فى بلاد الشام ولم يقو على صدهم مما يدل على مدى الضعف الذى تردى فيه القطر المصرى على يد أحفاد ابن طولون حتى ازور وجه الزمن عن الملوك الطولونيين . ووقف الخليفة العباسى « المكتفى » فى بغداد على جلية الأمر فى مصر ، فأرسل أسطولا بقيادة محمد بن سليمان ليعيد مصر من جديد إلى مكانها القديم من الدولة العباسية . ولقد أصاب أسطول العباسيين نجاحا يذكر على أسطول مصر عند بلدة تانيس « صان الحجر » من بلاد الشرقية حتى تحطم الأسطول المصرى إلى آخره . ولما بلغ أمر تلك الهزيمة مسامع الأمير الطولونى « هرون » فر هاربا إلى بلدة العباسة ، حيث لقى حتفه على يد عمه « شيبان » الذى خلفه على ولاية مصر .

ولقد جاء هروب الأمير الطولونى إلى بلدة العباسة دليلا على ما كان لتلك البلدة من منزلة فى نفوس حفدة ابن طولون حتى فى أيام محنتهم . ولم يلبث « شيبان » طويلا فى ولاية مصر حتى أجلاه عنها محمد بن سليمان ، فزالت بذلك الدولة الطولونية بعد أن حكمت مصر ثمانية وثلاثين عاما عادت بعدها إلى حظيرة الدولة العباسية وأخذت ترزح تحت الفوضى والاضطراب ثلاثين سنة أخرى بعد نهاية حكم الطولونيين . وليس أدل على ما أصاب مصر من فوضى شاملة بعد زوال حكم الطولونيين من ظهور رجل شاب من جنود الطولونيين يدعى « محمد بن على الخلنجى »[1] وكان قد نقل من مصر إلى الشام مع فلول الطولونيين وأتباعهم ثم أتيحت له فرصة العودة إلى مصر فاستولى فى طريقه على الرملة ودعا على منابرها للخليفة ثم للطولونيين ثم لنفسه . ولما بلغ والى مصر ما كان من أمر الخلنجى جهز جيشا لملاقاته وهو فى الطريق إلى مصر ولكنه استطاع بمعونة من وافاه من كل فج ممن تفيض نفوسهم بغضا للعباسيين من أهل مصر والشام أن يطارد والى مصر وجيشه من غزة إلى العريش حيث أوقع بهم الخلنجى ففروا أمامه إلى بلدة العباسة ومنها قفل راجعا إلى مصر فرارا من بطش الخلنجى الذى دانت له مصر بأجمعها ، وظل يحكمها سبعة أشهر واثنين وعشرين يوما (كرواية صاحب النجوم الزاهرة) .

وبعد أن أقصى الخلنجى عن حكم مصر اختلف عليها ولاة من قبل العباسيين استبد بهم الجند وأصحاب الخراج وضاع سلطان أولئك الولاة بين جشع الجند فى طلب المال وضن عمال الخراج به على الولاة . فلا عجب أن تكون مصر فى أثناء هذه الفترة نسيا منسيا تغط فى سبات عميق إلا من الدسائس يحيكها الجند وضباطهم فيقع فى حبائلها الولاة الذين ظلت أمورهم معلقة بيد رجال الجيش ، إلى أن ولى مصر من قبل الخليفة العباسى « الراضى » محمد الإخشيد الذى ما لبث أن أنشأ فى مصر حكومة مستقلة قوية مهيبة الجانب يخشى الخليفة بأسها لدرجة أحفظت قلبه على الإخشيد فعين له منافسا بمصر وهو محمد بن رائق الذى وهب له الخليفة مصر على الرغم من وجود الإخشيد بها ، وبينما كان يهم ابن رائق بالحضور إلى مصر لتسلمها خف الإخشيد لملاقاته واتخذ لنفسه ولجيشه من بلاد الشرقية طريقا إلى العريش حيث هزم ابن رائق ومن التف حوله ، ولكن

---

(١) وردت روايات كثيرة فى اسم الخلنجى فى هوامش الطبرى والنجوم الزاهرة وصلة تاريخ الطبرى للقرطبى .

الإخشيد كان — مع الانتصار — سخيا سمحا كعادته فرضى بمنح ابن رائق شمال الشام وقبل أن يدفع له جزية سنوية وأن يصاهره ليأمن جانبه حتى يتفرغ هو لصد خصوم آخرين طامعين فى مصر كالفاطميين والحمدانيين.

لقد رنا الفاطميون منذ تأسيس دولتهم فى بلاد المغرب إلى مصر فأرسلوا حملة إليها قبل قيام دولة الإخشيد كان الإخفاق حليفها، وأعادوا الكرة فى زمن محمد بن طغج فلم يكن حظهم من النجاح بأسعد من حظهم فى الحملة الأولى كما عرف الإخشيد كيف يقف أطماع سيف الدولة الحمدانى.

وبعد وفاة الإخشيد تولى بعده ابنه أنوجور (وهو اسم أعجمى معناه بالعربية محمود). ولما كان لايزال صغير السن صار أستاذه «كافور» مدبر مملكته. ولقد رأى سيف الدولة الحمدانى فى ولاية «أنوجور» فرصة موائية لينقض عهوده التى أبرمها مع والده فانقض على الشام ولكن سار إليه «أنوجور» مع «كافور» ورجال الجيش حتى بلاد الشام متخذين بلاد الشرقية لهم طريقاً حتى أوقعوا به الهزائم المتكررة فى كثير من بلاد الشام وفاجأ الموت «أنوجور» وخلفه أخوه «على الإخشيد» وكان أيضا دون سن الملك فوقع تحت إمرة «كافور» الذى مالبث أن أصبح حاكم مصر الفعلى بعد موت الإخشيد وقلده الخليفة العباسى حكم مصر «بلقب أستاذ مصر ومتلكاتها» ولكن عكر صفوه ماحل بمصر إذ ذاك من قحط لانخفاض النيل حتى ندرت الأقوات، كما فشا الموت بحالة عجز معها الناس عن تكفين الموتى ودفنهم.

عادت مصر إلى الفوضى بعد وفاة كافور ولكن لم يطل بها العهد إذ استولى الفاطميون على مصر، ولم تأت جيوشهم إلى مصر عن طريق الشرقية كما فعل أغلب الفاتحين قبلهم ولكن جاءوا عن طريق الصحراء الغربية إلى الاسكندرية لمواجهتها لبلاد المغرب مقرهم الأصلى، فلم تصب الشرقية من هذا الفتح بأذى، ومائبتت أقدام الفاطميين فى مصر حتى جعلوا لها الصدارة الدينية والسياسية حتى على بلاد العرب وبلاد الحجاز ثم أخذ الفاطميون فى مصر ينافسون العباسيين فى بغداد أبهة وثراء حتى نمت القاهرة وذاع صيتها كما كان لبعض بلاد الشرقية فى العهد الفاطمى شأن يذكر، فعادت لمدينة تانيس بعض شهرتها القديمة وصارت إذ ذاك مدينة صناعية هامة ازدهرت فيها صناعة الحرير وكانت فى وقتها تضارع المحلة الكبرى الآن من هذه الناحية، فقد كان لخلفاء الفاطميين ميل إلى التدثر بالحلل من الخز والديباج. ولم تقتصر شهرة تانيس على ذلك فى العهد الفاطمى بل كانت كذلك مدينة تجارية هامة ومرفأ من مرافئ مصر عند ما كانت تقع على الطرف الشرقى لبحيرة المنزلة، فقد رابط فيها بعض قطع الأسطول الفاطمى فكانت بذلك درعا يقى مصر طمع المتربصين بها.

ولقد اتسعت الدولة الفاطمية فى النصف الأول من حياتها، ولكن لم يلبث الزمن أن تنكر لخلفائها فى النصف الأخير، فضعف سلطانهم وكثر عدد الخارجين عليهم وأصبحوا نهباً للجند ومطمعاً لمن ولى الوزارة ممن قست قلوبهم، وبدت ظاهرة غريبة فى ذلك الحين إذ أضحت الوزارة شبه وراثية يتوارثها الأبناء عن الآباء يوم كان لايتربع على كرسى الخلافة إلا من يقر الوزراء توليته من أبناء الفاطميين، وكان فى مكنة الوزير أن يقصى الخليفة عن مركزه إذا لم يرقه تصرفه أو إذا اصطدمت رغبة الخليفة ببعض أغراض الوزير. وليس أدل على الخلط وذبذبة الأمور فى تلك الأثناء من أن يلى بهرام الأرمنى المسيحى مقاليد الوزارة فى عهد الخليفة الحافظ المسلم الشيعى! ولقد جرّت تلك الظاهرة الغريبة فى أذيالها كثيراً من الدسائس والثورات عصفت ببعض خلفاء ذلك العهد وأغلب وزرائه.

استمرت أحوال مصر كذلك حتى الفصل الأخير من الرواية الذى أسدل بعده الستار على عهد الفاطميين وتألق نجم صلاح الدين بعد ذلك على مسرح السياسة المصرية . وإنما نقصد بالفصل الأخير من الرواية التى مثلت الفوضى والاضطراب ذلك النزاع بين الوزيرين المصريين شاور وضرغام الذى امتد لظاه خارج حدود مصر، إذ عول كل منهما — إمعانا فى الكيد لخصمه — على أن يستعين بجيوش غير مصرية الفتك بمنافسه وما هم فى الواقع إلا لداته وذوو قرباه وبنو وطنه متناسيا كل مصريته ضاربا بكل ما أمامه عرض الحائط سوى كرسى الوزارة حتى دفع كل منهما — ثمناً لذلك العقوق — حياته رخيصة على سيوف من طلب العون منهم .

وبينما مصر ترسف تحت نير الشهوات الشخصية ، وبينما المصريون وقادتهم فى ضلالهم يعمهون ، إذا بشبح الحرب الصليبية الذى كان قد لاح فى الشرق يهدد مصر وينذر بالويل والثبور ويرى فى مناجزة الوزيرين المصريين خير فرصة لأن يدعم انتصارات الفرنجة فى الشرق بوضع أغلالهم فى أعناق مصر ، فيؤكدون بذلك نجاح أغراضهم .

ولولا أن الكنانة ربا يحميها لأدى ذلك النزاع بين وزراء مصر إلى أسوإ العواقب ولتغير وجه التاريخ فى مصر ، لذا يجب أن نسهب بعض الإسهاب فى هذا الدور من تاريخ مصر لأهمية النتائج التى ترتبت عليه من جهة ، ولأنه من جهة أخرى يلمس الموضوع الذى نحن بصدده فى كثير من نواحيه .

استعرت نيران الحروب الصليبية على أثر صيحة البابا إربان الثانى الفرنسى الذى أثار فى الأمم الغربية روح الحرب الدينية لافرق فى ذلك بين فرنسى وألمانى ولا بين الملوك والأشراف والأرقاء . وتكتل الجميع حول راية واحدة هى راية الصليب وشخصت جموعهم نحو الأراضى المقدسة وهم يبلغون قرابة ألف ألف نسمة حتى كان لهم ما أرادوا ، وانتزعوا بيت المقدس وكثيراً من مدن الشام ، واقترفوا من الجرائم والآثام بمسلمى تلك الأصقاع مالايصدق مثله إلا فى قصص الخيال والروايات التمثيلية مما جاء فى الواقع درساً مريراً قاسيا يتلقاه الأمراء المسلمون فى الشرق على مذبح الحروب الصليبية فكتبوه بدماء أشلائهم على قراطيس هى فى الواقع البلاد التى أصبحت فى حوزة أعدائهم ، وما كان ذلك إلا نتيجة الفرقة تسعى بينهم والدسائس تمزقهم أيدى سبا .

وكان الدرس قاسيا والعظة بالغة حتى اجتمع شملهم حول زعيم قوى هو عماد الدين زنكى ، أتابك الموصل ثم ابنه ، نور الدين ، فأخذ الواحد منهما يسدد ما فى جعبته من سهام إلى صدر الصليبيين حتى ذهب ريح الحملة الصليبية الثانية على الرغم من وقوف بعض ملوك أوربا فى الصف الأول من الحرب . وهنا اشرأبت الأعناق إلى مصر كنانة الله فى أرضه وجوهرة بلاد الشرق لاسيما أن حبل الأمور فيها قد اضطرب فى يد الخليفة العاضد آخر خليفة فاطمى بين نزاع الوزراء على تولى الوزارة وبين تسخير جهود البلاد وقواها فى مهاترات شخصية لاطائل تحتها .

ولقد كفى ذلك النزاع الصليبيين مئونة البحث طويلا ، فهد لهم ضرغام طريق الاتجاه إلى مصر بأن طلب إليهم الحضور إليها ليضمنوا له الوزارة دون شاور غريمه الذى استعان بدوره بسلطان حلب ، نور الدين ،

لنفس الأمر . فما هي إلا عشية أو ضحاها حتى كانت جيوش نور الدين بقيادة أسد الدين شيركوه وصلاح الدين الأيوبي على أبواب مصر تحارب جيوش ضرغام من المصريين عند بلبيس حيث انتصر شيركوه وهبط بعد ذلك إلى الفسطاط فوجد شاور يستعد ويتحفز . ولم يلبث ضرغام أن قتل وفاز شاور بما كان يبغى ولكنه تنكر لحلفائه وناصريه ، ولم يف بما تعهد لهم به من الاضطلاع بنفقات حملة « نور الدين » وتخصيص ثلث إيراد مصر لسلطان حلب كجزية سنوية ، وياليته اكتفى بهذا الموقف السلبي، بل إنه مد يده إلى الصليبيين واتخذ من أعدائه بالأمس أصدقاء ضد شيركوه الذى كان قد احتل بلبيس نكاية فى شاور . فتقدم أملريك ملك بيت المقدس إلى بلبيس وضيق الخناق على جيش السلاجقة ولم يرفع الحصار إلا بعد أن جاءته الأنباء بأن نور الدين أخذ يهوى بجنوده على أملاك الصليبيين فى الشام فصمم أملريك على العودة سريعاً قبل أن يستفحل الأمر وفاوض شيركوه فى الصلح — ولم يكن يدرى أنباء انتصارات نور الدين — فقبل واتفقا على أن تغادر جيوش الطرفين مصر . وفى أكتوبر سنة ١١٦٤ أخذ يبتعد جيش شيركوه عن بلبيس وسار فى مؤخرته شيركوه يحمل فى يده آلة الطعان وكأنه — وهو خارج من مصر — يعرض جيشه عرض الظافر .

ولم تقف مطامع الصليبيين والسلاجقة عند هذا الحد نحو مصر بل نرى الرواية لم تتم فصولا . فقد عول نور الدين على أن يرسل جيشه هـــذه المرة غازياً بعد أن تكشفت أمام رجاله مواطن الضعف فى مصر كما طلب شاور . وقد خشى مغبة مجىء السلاجقة — من الصليبيين أن يرسلوا حملة إلى مصر لتمنع هجمات جيوش نور الدين . ولم يلبث الجيشان السلجوقى والصليبى أن هبطا مصر معاً فى وقت واحد ودارت بينهما معركة البابين عند المنيا ، انتصر فيها شيركوه ثم سار إلى الإسكندرية واستولى عليها ونصب صلاح الدين حاكما عليها ولكن حاصرت الجيوش المصرية والصليبية الإسكندرية براً وبحراً ، وانتهى الأمر بأن تصالح الهاجمان على إخلاء مصر منهما معا واتفقا على عدم التدخل فى شئون مصر أو الاعتداء عليها . وعاد الفرنجة إلى فلسطين أشد ما تكون نفوسهم تحرقا إلى مصر وخيراتها ، وعاد شيركوه إلى الشام . وقدعز على إملريك أن تفلت مصر من يده فلم يمض عام واحد على الهدنة حتى نقض عهوده وعاد من جديد تحت تأثير طمعه وجشعه وتحت إلحاح الصليبيين بالشام ، عاد ليغزو مصرمن جديد ناسيا ماأبرمهمن مواثيق بحجة أن لاعهد عليه لكافر !

وفى أيام قلائل كانت جيوش الصليبيين عند بلبيس وأمعنوا فى أهلها فتكا وقتلا وتمت مجزرة هائلة كان أبطالها ممن يدعون أنهم جنود المسيح وفرسانه الذين ذبحوا كل من وقع فى أيديهم من الرجال والنساء والأطفال حتى أسقط فى يد شاور وبهت بما حدث، فعول على أن يقف تيار أملريك فأحرق الفسطاط فى وجهه وظلت بها النيران أربعة وخمسين يوما حتى تركها قاعا صفصفا، ثم أخذ فى مفاوضة أملريك وعرض عليه المال بقصد كسب الوقت ريثما تأتى النجدة من لدن نور الدين الذى استعان به الخليفة العاضد بنفسه حتى أرسل إليه خصلا من شعور نساء قصره داخل خطاب رقيق جاء فيه :

« هذه شعور نسائى من قصرى يستغثن بك لتنقذهن من الإفرنج » فلم يسع نور الدين إلا أن أرسل جيوشه تحت إمرة أسد الدين شيركوه وصلاح الدين . ولما رأى الصليبيون جيوش شيركوه لم يسعهم إلا العودة إلى بلادهم دون إراقة دماء أكثر مما أراقوا فى مجزرة بلبيس وبذلك دخل شيركوه القاهرة دخول

الظافر المنتصر، وقابله المصريون بالترحيب إلا شاور الذى عاوده مكره القديم ففكر فى أن يبيت النية لجيوش السلاجقة، ولكن الله رد كيده فى نحره فقبض عليه صلاح الدين وأسره. ولما أحاط الخليفة العاضد بالأمر علما أرسل من يطلب رأس شاور ثم تابع الرسل خشية أن يتردد القابضون عليه فى قتله حتى قتل وجىء برأسه إلى العاضد الذى جن فرحا للتخلص من غدار أثيم.

عهد العاضد بعد ذلك بالوزارة إلى شيركوه ثم إلى صلاح الدين من بعده الذى ما لبث أن تألق نجمه فى سماء مصر فأصبح سلطانا لا على مصر فحسب بل عليها وعلى الشام وغرب آسيا وغير ذلك، إذ انتقلت إليه أملاك سيده، نور الدين، بعد وفاة ابنه، الملك الصالح، ووقع على كاهله عبء طرد الصليبيين من الشرق فقدر المسئولية قدرها وأخذ يعد نفسه لتنفيذ رسالته حتى أتيحت له فرصة هزيمة الصليبيين فى واقعة حطين هزيمة كبيرة سقط فى يده بعدها كثير من مدن الصليبيين حتى، بيت المقدس، حصنهم الحصين.

هال أوربا تلك السرعة التى استولى فيها صلاح الدين على حصون الصليبيين فى الشرق، فقام بعض ملوكها بحروب صليبية لم تحقق لهم النجاح الذى كانوا ينشدونه.

اتجهت جهود الفرنجة بعد ضياع بيت المقدس من أيديهم وبعد وفاة صلاح الدين نحو مصر فجيشوا الجيوش لامتلاكها ولعلهم نسوا أو تناسوا مجهودات أمورى فى هذه السبيل ومقدار ما أصابه من فوز! أو لعلهم أرادوا أن يختبروا دولة صلاح الدين بعد وفاته، ولكن خيب الله آمالهم فما أفادوا من حملاتهم على مصر إلا الوبال والخسران. ولقد تتبع سلاطين مصر من المماليك البحرية الصليبيين فأجلوهم عن الشرق فى عهد السلطان قلاوون وابنه الأشرف خليل، إذ سقطت عكا آخر حصونهم سنة ١٢٩٠؟

عبد القادر البنداري

هيرودوت فى زيارة تل بسطة بالزقازيق

حوالى عام ٤٥٠ ق . م هبط مصر الرحالة الإغريقى هيرودوت دارسا أهم معالمها وكان دائما يسير هذه المعالم وقد أسهب فى وصفها .

حقا إنه كان كثير الظن والتوهم ، وكان ظنه يخطئ ويصيب ، وإنه ليروى لنا على أية حال ما استمعه وأصغى إليه من قول الأدلاء فى عهده ، وقد أصاب الحقيقة فى وصفه لكثير من المعالم التى رآها ، وكان منها معبد القطة « باست » فى مدينة « بوباستة » وهى تل بسطة الحالى قرب الزقازيق .

وكانت « القطة » تعبد فى هذه المدينة باعتبارها إلهة حياة وحب وفرح وسرور ، واعتقد القوم بأن فيها قوة سحرية خاصة ، كما زعموا أنها أكبر بنات « آتوم » إله الشمس . وقد أطلق عليها هورودوت اسم أرتميس (ديانا) معبودة الإغريق التى اجتمعت لها خصائص القطة « باست » وكانت تعد إلهة القمر وملكة الأدغال والجبال والطاهرة النقية ، المشغوفة بالصيد فى أثناء الليل ، حتى إذا طلع النهار أرخت قوسها وانغمرت فى عالم أخيها « أبولون » إله الشمس .

وقد حدثنا هيرودوت عن زيارته لتل بسطة واهتمام القوم فى مصر بعيد الآلهة فى قوله « يعد من أعظم الأعياد التى يهتم المصريون باحيائها ويؤمها عدد كبير منهم أكثر من أى عيد آخر . ذلك العيد الذى يقام فى مدينة بوباستس تمجيداً لأرتميس » .

وإنك لتشاهد فى هذا العهد الرجال والنساء يجيئون أرسالا تترى ويقبلون إليه جماعات شتى من جهات متفرقة فى القوارب والمراكب التى تتهادى بهم على مياه النهر وكل سفينة منها تحمل أفواجا كثيرة .

وترى بعض النساء فى هذه السفن يضربن بالصنوج والدفوف ويعزف الرجال بالمزمار طوال وقت الرحلة ، أما بقية الجمع الحافل من النساء والرجال فإنهم كانوا يغنون ويصفقون بأكفهم . وكلما وصل سيرهم إلى إحدى المدن الواقعة على جانبى النهر اتجهت السفينة بهم نحو الشاطئ وتظل بعض النساء يلعبن ويغنين على حين تسمع من الرجال تصفيقا وقهقهة وهتافا ثم ينادى بعضهم نساء الحى ويوجه إليهن السباب ، وكان البعض يرقص ويعبث ؛ أما البعض الآخر فيقف ليبدى عن سوأته ، ويظل القوم على هذه الحال مازحين عابثين مرحلة بعد مرحلة على طول مجرى النهر حتى يصلوا فى النهاية إلى مدينة « بوباستس » حيث يقيمون العيد ويقدمون الضحايا .

وكان النبيذ الذى يرتوون منه هناك فى أيام العيد يفوق ما كان يستهلك طوال أيام السنة .

ويقدر عدد رواد العيد من الرجال والنساء فيما عدا الأطفال بسبعمائة ألف نسمة .

أما معبد الآلهة « بوباستس » فهو جدير بالوصف حقا ، وقد تكون المعابد الأخرى أكبر منه اتساعا ، وأعظم كلفة ، ولكن ليس بينها ما يساميه بهجة ورواء ، ومن يتأمله يسر قلبه وتقر عيناه بإشراق حسنه وبهائه وجمال روائه ، وإنه يترك فى النفس أثرا عظيما لتناسق أجزائه وإحكام وضعه .

وتحف به من الخارج قناتان تتصل كل منهما بالنيل وتضمانه بينهما فيصبح المعبد كأنه جزيرة ، وعرض كل قناة مائة قدم ، وهناك أشجار باسقة تظلهما وتضفى على هذه البقعة جمالا وروعة .

ويقع بين القناتين ممر ضيق يؤدى إلى المعبد الذى يصل مدخله الرئيسى إلى ارتفاع ستين قدما ويزدان بنقوش جميلة محفورة فى الحجر .

وهذا المعبد يتوسط المدينة التى ترى مطلة عليه ، لأن تقدم الزمن جعلها ترتفع شيئا فشيئا لإقامة المساكن الجديدة على أنقاض المبانى القديمة، فهى لذلك فارعة والمعبد مفترع ، وإنك لتراه من كل جانب أينما توجهت فى أرجاء المدينة .

وقد غرست الأشجار حول السور الخارجى للمعبد وغدت تحف بالمحراب الذى تظله الرهبة والجلال لأنه يضم تمثال المعبودة بوباستس .

وكان الطريق المؤدى إلى المعبد يمتد مسافة ثلاثة فراسخ ويتصل فى نهايته بسوق المدينة فى اتجاه شرق ، وإنه ليبلغ أربعمائة قدم فى العرض ، وقد رصفت رقعته بالأحجار وغرست على جانبيه أشجار مرتفعة تظلله وتكسبه ، غضارة ونضارة ،

ذلك ماجاء فى وصف هيرودوت لمدينة تل بسطة ومعبدها القديم،وقد أثبتت الأيام صحة قوله فيما وصل إلينا من أعمال الحفر فى تلك الجهة .

وإن هذا الوصف ليدل على ما كان للمدينة من أهمية ويثبت قيام عبادة القطة فيها .

هذا إلى أن هيرودوت يحدثنا أيضا عن الأهمية التجارية التى كانت لتلك المدينة،فقد ذكر أن الملك «نيكاو» الثانى (٦٠٩ — ٥٩٤ ق م) جعل عندها بداية القناة الواصلة بين النيل والبحر الأحمر وحدثنا أيضا أن هذه القناة كانت تقطعها السفن الشراعية فى أربعة أيام . وكان يقوم بحفرها عدد كبير من العمال الذين فنى منهم مائة وعشرون ألفا ، وقد توقف « نيكاو » أخيراً عن إنجاز مشروعه الضخم عندما حذره المتنبئون من الكهنة بأن الدابرة سيجنون ثمار كده ونصبه ، وحدث بعد ذلك أن حققت النبوءة فأتم دارا ملك الفرس حفر القناة وازدهرت التجارة من جراء ذلك بين الشرق وتل بسطة [١].

كنوز تل بسطة :

ولما كان العمال فى عام ١٩٠٦ ينقلون الأتربة من هذا التل الذى بقى من أنقاض المدينة القديمة لاستعمالها فى مد الخطوط الحديدية ظهر كنز هام من الحلى الذهبية التى يحتفظ بها المتحف المصرى الآن (رقم ٤٢١٠— ٤٢١٨) ومن بينها أساور جميلة من الذهب للملك رمسيس الثانى وكأس ذهبية بهيئة زهرة اللوتس وآنية من الذهب والفضة على جانب عظيم من الجمال والدقة، وكان كثير من هذه الحلى مما يستعمل فى التجارة ، وإنها لتدل فى مجموعها على تقدم الذوق والصناعة، وهى أجمل ما بقى لنا من ذكرى تل بسطة .

محمود درويش
مفتش النقابة العامة

(١) انظر George Rawlinson, The History of Herodotus, Vol. 1 pp. 143,185,196 .

بوباسـتة

مقدمة :

تشرفت بكتاب من سعادة أستاذى الجليل حسن بك جوهر يطلب إلى فيه أن أكتب فى أى موضوع خاص بمديرية الشرقية من النواحى الجغرافية أو التاريخية أو الجيولوجية ، فراقنى وسرنى هذا التكليف النبيل ما أخذت أتخير موضوعا أكتب فيه فى إيجاز وكان تخير الموضوع شاقا على كل المشقة محيرا لى الحيرة كلها،لأن مديرية الشرقية غاصة بالمعالم الأثرية والتاريخية التى لا ينضب لها معين؛ وأخيرا آثرت أن أكتب عن بوباستة .

إشارة إلى جغرافيتها :

الزقازيق حاضرة مديريتنا العزيزة تقع فى بقعة تاريخها عتيق مجيد يرجع إلى آلاف السنين هـــذه البقعة كانت جزءا من المقاطعة السابعة عشرة من مقاطعات الوجه البحرى المعروفة باسم « أم خنت » أى أم الجنوبية . ولعل القارئ يعلم أن الوجه البحرى كان مقسما إلى مقاطعات يطلق على كل منها « سبات » باللغة المصرية – وذلك منذ عصر ماقبل الأسرات الذى ينتهى حوالى سنة (٣٢٠٠ ق.م) حين استوى مينا على عرش مصر . وقد تكون حاضرة المقاطعة السابعة عشرة برباست باللغة المصرية أى مكان المعبودة باست Qox Baco بالغة القبطية و Boubāotos باللغة الإغريقية .

بوباستة كما يراها الكاتب :

زارها هيرودوت فى القرن الخامس قبل الميلاد ، وتحدث عنها مرتين : تحدث فى المرة الأولى عن تلك الحفلات الصاخبة المرحة البهيجة التى كانت تقام فيها كل عام . والتى كان يشترك فيها آلاف من المصريين يفدون إلى بوباستة من كل فج . ثم وصف فى المرة الثانية معبد باستت الذى كان له من الشهرة والأهمية مايدنيه من معبد الكرنك بالأقصر أو يكاد يساويه به، إذ أن تاريخ كل من المعبدين يكاد يكون موجزاً لتاريخ مصر بأسرها اشترك فى إقامته فراعنة كثيرون عنوا بتخليد ذكراهم فيه كل بأسلوبه الخاص ، ولقد ذكر هيرودوت فيما ذكره أن بالقرب من بوباستة كانت تخرج من النيل قناة تصل إلى البحر الأحمر ، وأن جداول المياه كانت تجرى حول معبد باستت إلا من جهته الشرقية حيث المدخل ، وأن المعبد كان يرى من جميع أنحاء المدينة لوقوعه فى بقعة منخفضة مستطيلة الشكل . وأنه لم يكن بين المعابد التى رآها فى مصر معبد أبهى من معبد باستت منظرا وأجمل رونقا ، وأن حول حجرة تمثال الآلهة أشجارا باسقات وارفة الظلال ، وأن الطريق الذى يصل المدينة بالمعبد طريق مرصوف بالأحجار طوله حوالى ثلاثة فراسخ وعرضه حوالى أربعمائة قدم .

وفى الربع الأول من القرن الميلادى الأول زارها استرابون Strabo ، وقال : إن مقاطعة بوباستة Bubastite Nome تقع على مقربة من رأس الدلتا وتتاخم مقاطعة أون (عين شمس) ، وكذلك تكلم عنها

المقريزى مرارا وتكرارا ، وقال إن القبائل العربية التى اشتركت فى فتح مصر منحت إقليم بسطة جزاء حسن بلائها ، وأخيراً وصف أنقاضها ، مالوس Malus ، أحد العلماء الفرنسيين الذين صحبوا حملة نابليون فقال : إنه رأس البهو الرابع من أبهاء معبد ، باستت ، ذلك البهو الذى شاور الملك نقتنبو الأول مؤسس الأسرة الثلاثين ، ولم يكن قد شيد حين زار هيرودوت مصر ، ورأى أطلالا وأحجارا وكتلا جرانيتية عليها نقوش وكتابة ، ومن بين هذه الأطلال جزء من مسلة عليها نقوش تمثل السماء ونجومها ، وقد اتضح فيما بعد أن ماحسبه مالوس جانب مسلة إن هو إلا جزء من سقف معبد باستت ، هذا وقد كتب ولنكنسون عن بقايا بوباستة ، وكتب عن أعمدة رآها على شكل براعم اللوتس أو سعف النخل واستطاع أن يقرأ على كتل الأحجار أسماء رمسيس الثانى وأسركون الأول .

فلا ريب عندى أن بوباستة كان لها من الأهمية والمكانة ماجعل هؤلاء الكتاب يكتبون عنها فيما كتبوه عن مصر مثلها مثل أهرام الجيزة وطيبة وتانيس .

معالم بوباستة :

تل بسطة الحالى يذكرنا بالمدينة القديمة وبتاريخها المجيد . هذا التل يشمل بقايا دور شيدت من اللبن فى عصور مختلفة ، وكذلك كانت مساكن الدلتا بل مساكن مصر القديمة كلها ، وفى الجهة الجنوبية الغربية من التل بقايا معبد باستت إلهة المدينة وحاميتها . ذلك المعبد الشهير الذى أعجب به كل من زاره من الكتاب أيما إعجاب ، والذى كان يحتوى على أربعة أبهاء كبيرة كانت تقام فيها أعياد باستت المرحة الطروب ، ولقد جاء فيما كتبه هيرودوت عنه أن آلافا من المصريين كانوا يفدون إليه كل عام فى مواكب كلها مرح وكلها بهجة ، وأن الحجيج كانوا يبحرون فى قوارب تتهادى فى النيل وفروعه ويختلط نساؤهم برجالهم وصبيانهم بفتياتهم وأطفالهم كما يختلط الغناء بالتصفيق والتهريج فإذا ما وصل الحجيج بوباستة وهم على هذه الحال بدأ الاحتفال ونحرت الذبائح واحتسى النبيذ .

ولعل القارئ الكريم يرى معى أن مايجرى الآن فى مولد أبى مسلم رضوان الله عليه شبيه بما يحدثنا به الكاتب اليونانى هيرودوت عن عيد باستت والآلاف المؤلفة من المصريين الذين كانوا يشتركون فى إحيائه .

وأغلب الظن أن المعابد كانت حين الحرب تتخذ قلاعا وحصونا وأنها لهذا كانت عرضة لأعنف ضربات العدو ، وربما يعزى لهذا وإلى غيره مالحق معابد الدلتا كلها ومن بينها معبد بوباستة من تدمير وتخريب ، لاسيما أن هذه المدينة فى طريق كل من جاء من سوريا من الغزاة سواء أقدموا من الشمال عن طريق الفرما ودفنة وصان ، أم من الجنوب عن طريق پيثوم ـ هيروبوليس .

إشارة إلى أهم الحفائر التى أجريت بتل بسطة :

إن أهمها تلك التى قام بها الأستاذ إدوارد نفيل ، وقد أسفرت عن نتائج باهرة . بدأ نفيل أعمال الحفر والتنقيب سنة ١٨٨٧ وانتهى سنة ١٨٨٩ . فوجد أكواما من أحجار مختلفة الحجم وتماثيل مهشمة وعمدا

مدمرة ، وبين هذه الأكوام ثغرات استطاع أن يعرف منها أن المعبد كان يحتوى على أربعة أبهاء كما جاء فى كتاب وصف مصر للحملة الفرنسية : البهو الأول فى الجهة الشرقية ، والرابع فى الجهة الغربية ، ولقد سار فى تنقيبه من الشرق إلى الغرب ، وأخذ يقلب الأحجار وما عثر عليه من تماثيل وعمد ، وينقل ما عليها من نقوش وكتابة طبعها وترجمها فى مجلد قيم . هذه الكتابة تشمل أسماء فراعنة من أغلب عصور التاريخ المصرى لم يفتهم تخليد ذكراهم فى بوباستة ، فمن بين ملوك الدولة القديمة نجد اسمى خوفو وخفرع ، وكذلك اسم ببى الأول من أشهر ملوك الأسرة السادسة . أما ملوك الدولة الوسطى فممثلون خير تمثيل ولعل أهم هؤلاء هو الملك سنوسرت الثالث ، ولا يبعد أن يكون بهو الأعمدة ، وهو البهو الثالث قد شيد فى عهده ، وهنا وجد نفيل قطعا من أعمدة الجرانيت الوردى بعضها على شكل حزمة من اللوتس وبعضها على شكل حزمة من البردى وتيجانها على شكل براعم اللوتس أو سعف النخل ، ولا يخفى أن هذه الأعمدة قطع فنية لها فى عالم العمارة شأن عظيم .

ومن أهم آثار الهكسوس التى وجدت فى معبد باستت الجزء الأسفل من تمثال دقيق الصنع من الجرانيت الأسود يحمل اسم الملك خيان أشهر ملوك هؤلاء الغزاة ، ولهذا الأثر أهمية كبيرة إذ لا يخلو كتاب من كتب التاريخ الهامة من الإشارة إليه .

أما ملوك الدولة الحديثة أمثال أمنحتب الثالث ورمسيس الثانى فذكراهم خالدة على أطلال بوباستة ولو أن رمسيس الثانى كعادته كثيرا ما محا أسماء أسلافه ونقوشهم ليكتب اسمه وينقش نقوشه ; وأغلب الظن أن ملوك الأسرة الثانية والعشرين الليبيين المعروفين باسم شيشنق وأسركون الذين حكموا مصر قرنين كاملين (٩٤٥—٧٤٥ ق م) اتخذوا بوباستة مقراً لهم وحاضرة للقطر وعبدوا باستت وأخلصوا لها فى العبادة . هذا وقد كشفت حفائر نفيل عن أن عصر البطالمة كذلك كان ممثلا فى معبد بات .

عبد المطلب أبو زيد

مدرس أول المواد الاجتماعية
بمدرسة الأمير فاروق الثانوية
روض الفرج

تل بسطـــة

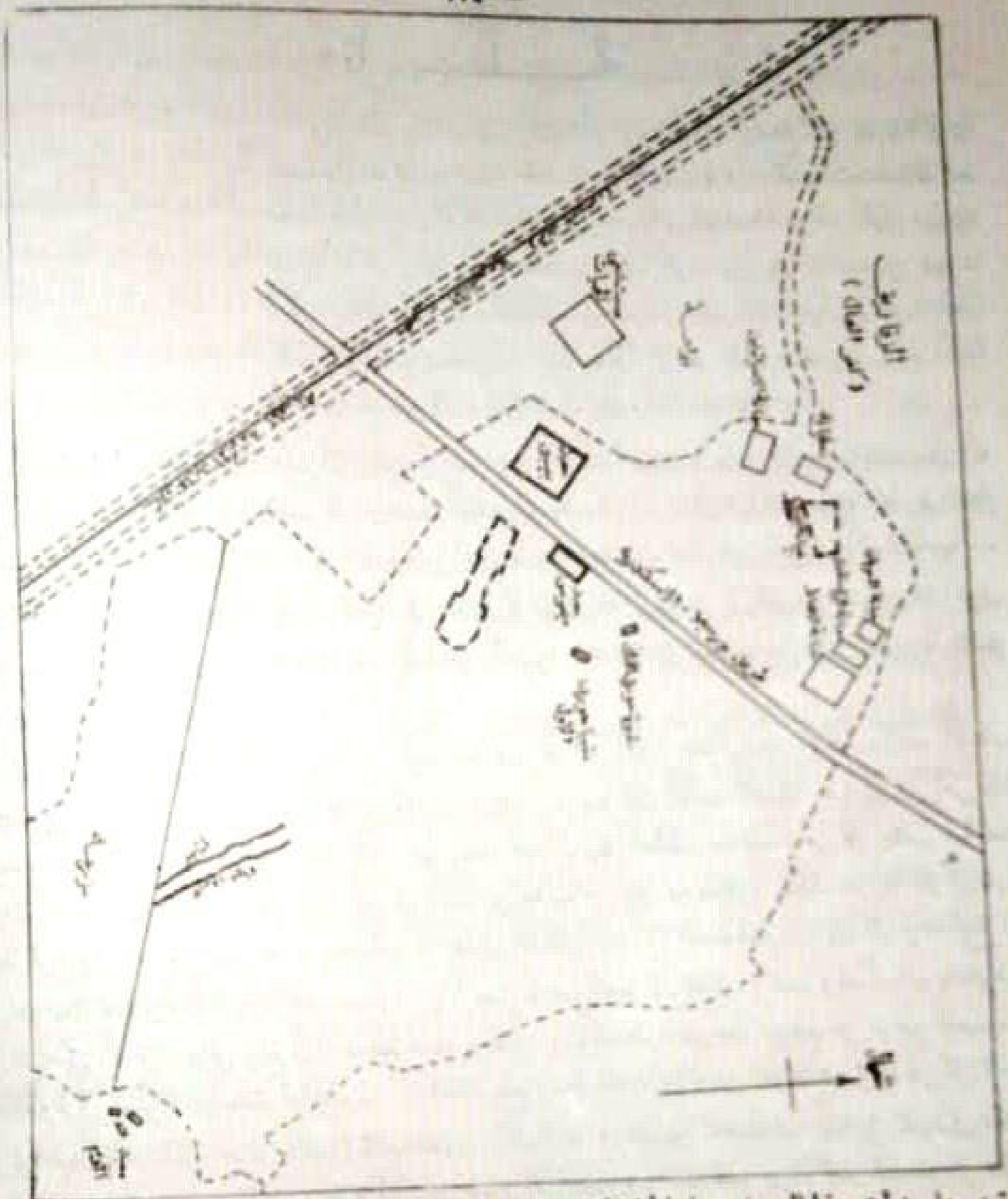
ولن تجد بين المدائن الكثيرة التى وصلت إلى ارتفاع كبير مدينة أخرى بلغت مابلغته المدينة المعروفة باسم « بوبسطس » فى ارتفاعها — هناك تجد معبداً مقاما باسم الآلهة بوبسطس يجدر بحق أن نصفه ، فلقد يكون من بين المعابد الأخرى ما يفوقه فخامة ، ولقد يكون من بينها ما استدعى مجهودا أكبر لإقامة مبانيه . ولكنك لن تجد من بينها معبداً جميلا ترتاح له العين كمعبد الآلهة بوبسطس — تلك الآلهة التى هى لدى المصريين بمثابة الآلهة أرتميس عند اليونان » هيرودوت الجزء الثانى بند ١٣٧ » .

بهذه الكلمات القليلة أراد شيخ المؤرخين أن يعبر عن قدم هذه المدينة فأحسن التعبير . فالمعروف أنه كلما أوغلت المدينة المصرية فى القدم كلما ارتفعت أنقاضها وعلا منسوب المبانى فيها.فلقد درج المصريون على أن يبنوا منازلهم من اللبن ، فإذا ما تداعت مبانيها للسقوط هدموها وبنوا منازلهم الجديدة فوق أنقاضها — ولهذا فقد وصلت إلينا أنقاض مدنهم القديمة فى بعض الأحيان وقد ارتفعت لأكثر من عشرين مترا فوق منسوب الأراضى المجاورة وتمثلت فى تلك الأنقاض العصور المختلفة التى تعاقبت على تلك المدن بما كانت عليه من انحطاط ورفعة واضمحلال ورقى .

وبهذه الكلمات القليلة أراد شيخ المؤرخين أيضا أن يعبر عن إعجابه بجمال معبد الآلهة وكيف أنه فاق فى جماله بقية المعابد الأخرى . وكأنه عز عليه أن يترك قراءه بعد تلك المقدمة الشائقة حيارى من أمر هذا المعبد ، فأخذ يحدثهم عن مواطن الجمال فيه ، فهو يصفه لهم : « وقد أحاطت به المياه من كل جانب فيما عدا مدخله إذ مدت إليه ترعتان من النيل لتمر كل منهما على جانب من جوانبه ملتفين بذلك حواليه تاركين ممراً ضيقا للوصول إليه » ، ويمضى بعدئذ ليحدثهم عن هاتين الترعتين ومدخل المعبد فيقول « إن كل ترعة تبلغ فى اتساعها مائة قدم وقد أظلتها الأشجار بغزارة ، بينما يصل مدخل المعبد لارتفاع ٦٠ قدما وقد ازدان بالنقوش التى تستحق الانتباه والتى تبلغ فى ارتفاعها ست بوصات » . ويستطرد من هذا ليدلهم على موقع المعبد من المدينة وفرق مستواه من مستواها فيقول « إن المعبد يقع وسط المدينة وإنه من المستطاع رؤيته من كل ناحية من نواحيه إذا مر المرء حوله ، فلقد ارتفع منسوب المدينة بما أقيم فيها من تحصينات، بينما بقى المعبد فى مكانه دون تغيير محاطا بسور منخفض ، عليه كثير من صور الأشخاص وبداخله عدد من الأشجار الباسقة التى تظلل الهيكل الذى يحوى تمثال الآلهة » ، ويختم حديثه عن المعبد بذكر أطواله وأطوال الطرق المؤدية له ، فيذكر « أن حرم المعبد يبلغ الفرسخ فى طوله ومثل ذلك فى عرضه وأن الطريق المؤدى لمدخله والمرصوف كله بالأحجار يبلغ ثلاثة فراسخ فى طوله وأربعمائة قدم فى عرضه وأنه يمر بالسوق من الجهة الشرقية بينما تنمو أشجار ذات ارتفاع شاهق على جانبى الطريق الذى يصل معبد الآلهة بوبسطس بمعبد الآلهة مركورى » [1]

---

(١) المقصود من مركيورى هو الإله تحوت إله الكتابة ولكنه اتضح أخيراً أن هذا المعبد كان مقاما لتمجيد الإله أتوم ، وقد كان الإله مع الآلهة باستت والإله ميحوس يكونون الثالوث الذى يعبد فى بسطة . انظر: Naville, Bubastis P. 48



ترى هل ينطبق هذا الوصف على الحقيقة ؟ وهل امتازت المدينة بقدمها والمعبد بجماله ؟ وهل زار شيخ المؤرخين هاتين المدينة إبان زيارته لمصر فى منتصف القرن الخامس السابق للميلاد ؟ أو أنه لم يكلف نفسه مشقة السفر الطويل واكتفى بأن يردد ما سمعه من أفواه الذين قابلوه أو صادفوه فى أسفاره القديمة ؟

إن المار اليوم بالطريق الزراعى الذى يصل بلبيس بالزقازيق ليرى إلى الجهة الشرقية منه إذا ما اقترب من الزقازيق خرائب واسعة لا يلبث أن يمر فى وسطها إذا ما عرج عن هذا الطريق إلى الطريق المرصوف الجميل المعروف بطريق المعاهدة والذى يربط ثغرى مصر الرئيسين بعضهما ماراً بالاسماعيلية فالزقازيق فيت غمر فطنطا فدمنهور.

عرفت هذه الخرائب منذ زمن طويل باسم تل بسطة ولازالت تعرف بهذا الاسم حتى اليوم . وفى هذه الخرائب عثر فى بعض العصور على آثار كثيرة ومن ضمنها جثث القطط وتماثيلها التى كانت تعتبر كحيوان مقدس للآلهة باستت ، ومن هنا عرفت منذ أن نشأ علم الآثار بأنها تمثل بقايا المدينة القديمة التى عرفها مؤرخو اليونان وعلماء الإفرنج باسم بوبسطس والتى عرفها مؤرخو العرب باسم بسطة ، وقد اتضح أن الاسم الأول انحدر إلينا من الاسم الذى ورد فى أوراق البردى وعلى بعض الآثار التى يرجع لعصر متأخر وهو «برباستت» أو « مكان الإله باستت » وأن الاسم الثانى قد وصل إلينا من الاسم القديم الذى عرفت به المدينة منذ أول العصور الفرعونية وهو « باست » . وبهذا ظهر جليا أن الاسم الحالى وهو « تل بسطة » ماهو إلا الاسم القديم للمدينة بعد أن أضيفت إليه كلمة « تل » دلالة على خراب المدينة وتحولها إلى أنقاض .

يمر المرء فى تلك الخرائب اليوم فلا يجد إلا بعض الأجزاء القليلة وقد ارتفعت فى منسوبها أقل من عشرة أمتار فوق منسوب الأراضى الزراعية المجاورة،ويرى بعض الأجزاء الأخرى ترتفع أقل من خمسة أمتار، كما يرى بقية الأراضى وهى أغلب الأجزاء لاتكاد ترتفع مترا أكثر من هذا المنسوب . أما مساحة التل جميعه فلا تزيد عن المائة والستين فدانا . فهل هذه هى مدينة بسطة التى حدثنا عن قدمها هيرودوت ، والتى ذكرها المؤرخون أمثال استرابون وبطليموس ويوحنا أسقف نيقوس والمقريزى وعلماء البعثة الفرنسية لنابليون ؟

طالما حدثنى سعادة سابا حبشى باشا المعروف بحبه للآثار وقد أمضى العهد السعيد لطفولته وصباه بالزقازيق كيف كان يمر كثيرا فى تلك الخرائب وكيف كان يجوس خلالها فيرى فيها ضخامة وعظمة واتساعا لا يجد منها إلا شيئاً يسيرا اليوم . . . لقد كانت خطوط السكك الحديدية ممتدة فى جهات عدة من التل لترفع الأتربة وتنقلها لمسافات بعيدة لاستخدامها فى إقامة الجسور ورفع منسوب الطرق — وبقى الأمر على هذه الحال عشرات السنين حتى انخفض منسوب التل فى كثير من المواضع[1] ، وضاعف هذا الانخفاض ما ثبت فى عقل الكثير من أصحاب الأراضى المجاورة بأن أرضهم لن ينصلح لها حال مالم ينقل إليها أتربة التل لتسميدها والذى يشاهد اليوم قمائن الطوب منتشرة حول التل جميعه يدرك إلى أى مدى يبنى الجزء الأكبر من حاضرة الشرقية من بقايا الحاضرة القديمة لشرق الدلتا .

وإذا ما مر المرء حول التل ورأى كيف أقيمت مزرعة المجارى والمستشفيات والسلخانة والجبانات ، ومساحتها تقرب من السبعين فدانا فوق أراضى التل،ثم إذا أمام الإنسان بالأراضى الزراعية المجاورة، ورأى بعينى رأسه كيف تختلط قطع الطوب والشقف والأحجار بالزراعة أدرك إلى أى حد اقتطعت الأراضى المتسعة من تصميم التل ومن بقايا المدينة القديمة .

---

(١) بدأ ذلك فى أوائل القرن الحالى واستمر حتى حوالى عام ١٩٣٠ — ولقد اكتشف أثناء رفع الأتربة مخزنان للأوانى الفضية والذهبية عام ١٩٠٦ ؛ كما اكتشف مقبرة لأحد حكام السودان سنة ١٩٢٥ مما سنفصله فيما بعد .

واليوم يجاهد خفيران ضد عشرات بل مئات الأفراد من الأهالى الذين يعملون ليل نهار لنقل ما يمكن نقله من الأتربة ولانتزاع مايمكن انتزاعه من أراضى التل ولسرقة ماتصل إليه أيديهم من آثار ، يساعدهم على هذا اتساع التل وإحاطته بالأراضى الزراعية وضعف قانون الآثار الذى بحت أصوات رجال الآثار فى سبيل تعديله دون أى نتيجة .

هكذا تقلصت الخرائب التى تمثل مدينة بسطة وهكذا تسربت وتتسرب آثارها لتذهب إلى المتاحف الأجنبية أو إلى المجموعات الخاصة سواء أكان فى مصر أم فى الخارج ، وهكذا ضاع الكثير من تاريخها ولا زال يضيع بسبب ما يخرج من التل من آثار دون معرفة المكان الذى وجدت فيه هذه الآثار والظروف المحيطة باكتشافها .

على أنه من حسن الحظ أن أتيح لهذه الخرائب من اهتم بها قبل أن تعبث بها الأيدى ومن عنى بدراستها قبل أن تتناولها عوامل التخريب ، إذ وصل إليها العالم السويسرى المعروف إدوارد نافيل عام ١٨٨٧ ؛ فلم يلبث أن عثر على المعبد وسط المدينة فى مكان منخفض منها ولهذا استقر بها وأخذ يعمل ثلاثة مواسم متتالية انتهى فيها بالكشف عن المعبد الرئيسى كله وعن جبانة القطط والمعبد الصغير .

وقد اتضح من هذا الكشف أن المعبد الرئيسى يمتد لمسافة تقرب من مائتى متر طولا وحوالى الثلاثين متراً عرضا، ويبدأ بصالة متسعة من الجرانيت الأحمر بناها أزوركن الأول ثانى ملوك الأسرة الثانية والعشرين (٩٢٩ — ٨٩٣ ق م) وزين جدرانها برسوم تمثله أمام الآلهة المختلفة التى كانت تعبد فى تلك المدينة وأهمها الآلهة باستت[١] وتليها صالة أخرى كانت مشيدة من الحجر الجيرى فى الغالب ولكن مدخلها كان من الجرانيت الأحمر وقد شيد هذه الصالة أزوركن الثانى (٨٧٠ — ٨٤٧ ق م) بمناسبة تذكار جلوسه على العرش فى العام الثانى والعشرين من حكمه، ولقد هدمت الصالة وضاعت الأجزاء التى بنيت من الحجر الجيرى لاستعمالها فى أعمال البناء وغيرها ؛ أما الأحجار الجرانيتية فلقد ضاع بعضها ونقل البعض للمتاحف ولا زال الكثير منها فى موضعه يغمر بعض أجزائه فى مياه الرشح ويتأثر بالعوامل الجوية برغم أنه يحوى رسوما فريدة ومناظر هامة تمثل الملك وسط الاحتفالات الدينية التى كانت تقام فى مثل هذه المناسبة مما لم نعثر عليه مجتمعا فى أى بناء من الأبنية التى أقامها الفراعنة فى أى جهة أخرى[٢] .

---

(١) انظر كتاب نافيل الذى سبقت الإشارة إليه ص ٤٦ — ٤٨ ولوحة ٣٩ — ٤٠

(٢) أشار نافيل إلى هذه الصالة فى نفس الكتاب ص ٥٠ ولكنه خصص لدراسة هذه الصالة ورسومها كتابا خاصا أسماه The Festival Hall of 6 sorkon II in the great temple of Bubastis

وقد تمكن من هذه الدراسة أن يوضح أمكنة جميع الرسوم التى عثر عليها وأن يعطينا فكرة واضحة عن شكل الصالة وبوابتها والرسوم التى كانت تزدان بها .



(شكل ٤٠) معبد أزوركن الأول

وتأتى بعدئذ صالة من الأعمدة وقد ازدانت بشتى أنواع الأعمدة الجميلة التى ترجع جميعها لعصر الأسرة الثانية عشرة (حوالى ٢٠٠٠ — ١٨٠٠ ق م) ولعل أجمل ما عثر عليه فى تلك الصالة هى أربعة تيجان ذات رسوم بارزة تمثل رأس الإلهة حاتحوت إلهة دندرة على وجهين متقابلين من التاج بينما يزدان الوجهان الآخران برسم زهرة اللوتس أو البردى بين ثعابين على رأسيهما تاج الوجه القبلى والبحرى — وقد أرسلت هذه التيجان الأربعة لمتاحف برلين وباريس ولندن وبسطن[١] غير أنه من حسن الحظ أن عثرنا على تاج خامس من نفس النوع استطعنا أن نرسله للمتحف المصرى ليزين مع بعض آثار تل بسطة وغيرها من آثار شرق الدلتا واجهة المتحف المصرى .



(شكل ٤١) رأس الإلهة حتحوت

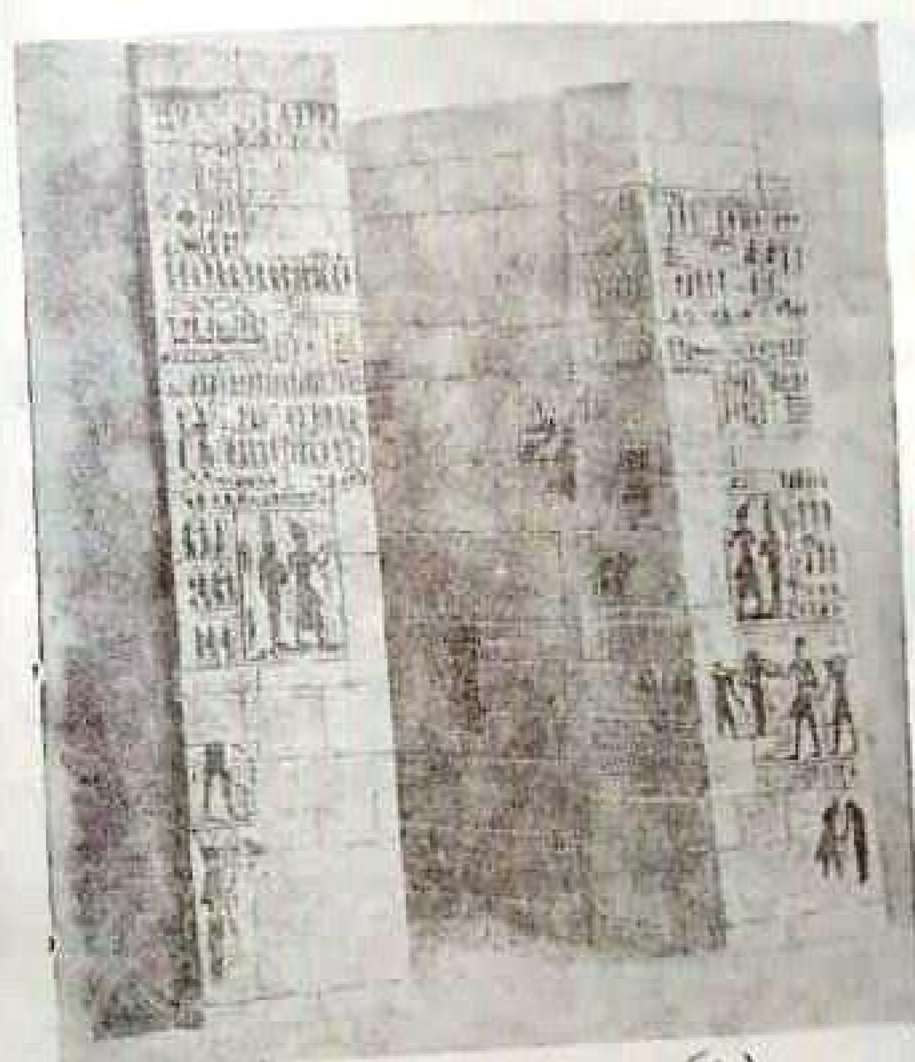
وينتهى المعبد الرئيسى للإلهة باستت بمعبد صغير أقامه الملك نكتانبو الثانى (٣٥٩-٣٤١ ق م) آخر ملك من ملوك الفراعنة الذين حكموا مصر قبل أن يستولى عليها اليونان فالرومان فالعرب ، ويبدو من مظهر هذا المعبد مبلغ اهتمام هذا الملك

(١) انظر كتاب Naville, Bubastis PPII, 12 Pls IX, XXIII A, B, XXIV

بمدينة بسطة حيث كان بالمعبد سبعة هياكل على الأقل بكل منها ناووس يحوى تمثالا لإله من آلهة المدينة[١].

وإلى جانب هذا المعبد الرئيسى كشف نافيل عن معبد آخر صغير[٢] وعن الجبانة التى كانوا يدفنون فيها القطط المقدسة والتى كانوا يضعون بجوارها بعض التماثيل البرونزية الجميلة التى تمثل هذا الحيوان[٣] والتى يزدان بها اليوم بعض المتاحف فى مصر وفى الخارج وبعض المجموعات الخاصة، كما وفق للعثور على كثير من اللوحات ذات النقوش الهامة والتماثيل الجميلة الصنع أرسل معظمها إلى متاحف العالم فى لندن وباريس وبرلين وبوسطن وجنيف وسدنى، ولم يرسل إلا القليل منها للمتحف المصرى[٤].

ولئن كان لنا أن نعتب على نافيل إهماله للمتحف المصرى الذى كان يجب أن يكون له النصيب الأكبر من الآثار المكتشفة بمدينة بسطة فإننا لاشك مقدرون له اهتمامه ودراسته لآثار تلك البلدة، ذلك الاهتمام وتلك الدراسة اللذين استطاع بهما أن يوضح الخطوط الرئيسية لتاريخها منذ أول العصور حتى وقت هجرتها نهائياً.


(شكل ٤٢) ببى الأول أمام الإلهة باستت

ومنذ أن قام نافيل بحفائره لم يهتم أحد بالحفر فى هذا التل حتى كان عام ١٩٢٩ أى بعد مرور نصف قرن بالضبط من نهاية حفائر هذا العالم السويسرى عند ما كنا نمر فى تلك الخرائب لنشاهد لأول مرة ما تبقى فيها من آثار وما يزال بها من معالم وإذا بنا نسمع أن العمال المكلفين رفع مستوى طريق المعاهدة قد عثروا على أحد الأحجار الجيرية قبل ذلك بيومين — فى هذا اليوم أخذنا نزيل التراب عن هذا الحجر وإذا بنا نعثر بجواره على حجر ثان فثالث، فرأينا على واجهة هذا الحجر الثالث منظرا جميلا يمثل الملك ببى الأول من الأسرة السادسة (حوالى ٢٨٠٠ ق م) أمام الإلهة باستت وهى تقرب علامة الحياة من أنفه وخلفه الإلهة حاتحور. وفى نفس اليوم نطلب من المصلحة الاعتماد اللازم للحفر فسرعان ماتجيبنا إليه وإلى بعض الاعتمادات الأخرى التى يستلزمها العمل فنستطيع بذلك أن نكشف عن معبد يكاد يكون كاملا لهذا الملك مما لم يعثر على مثله فى أى جهة من جهات القطر المصرى.

(١) نفس الكتاب ص ٥٦ — ٥٩ لوحة ٤٤ — ٤٨
(٢) نفس الكتاب ص ٥٩ — ٦٢
(٣) نفس الكتاب ص ٥٢ — ٥٥
(٤) أورد نافيل فى الصفحات ٦٤ — ٦٦ من نفس الكتاب كشفا بصور القطع الأثرية التى أدرجت فى لوحات الكتاب وذكر بهذا الكشف الجهات التى توجد بها هذه القطع فى الوقت الحاضر، ومن هذا الكشف يتضح أن أكثر الآثار أرسلت للمتاحف الأجنبية خصوصا المتحف البريطانى بلندن.

إذ أن معابد الدولة القديمة التي عثر عليها كلها معابد جنائزية ملحقة بالمقابر ، أما المعابد التي أقيمت لعبادة الآلهة فلقد تخربت جميعها ولم يبق منها إلا بعض القطع الحجرية المكتوبة التي أعيد استعمالها في بناء بعض المعابد الأخرى للدولة الحديثة أوما بعدها ، ويشجعنا هذا الكشف لندرس المعبد الذي سبق أن كشفه نافيل فنتهى إلى نتائج هامة ونعثر على آثار لها شأنها في تاريخ مدينة بسطة ثم نوفق أخيراً للعثور على مقبرة لأحد أشراف هذه المدينة[1] الذي كان هو وأبوه من قبله حاكماً للسودان[2] في عصر الرعامسة والذي شاء بعد أن قام بنصيبه في خدمة مصر في الجزء الجنوبي من وادي النيل أن تستقر عظامه في مدينة بسطة حيث رأى النور لأول مرة في الحياة .

هذه هي الحفائر التي أجريت في تل بسطة خرجت منها بعض الآثار التي لازال بعضها في المتحف المصري وانتقل منها البعض الآخر للخارج ليوضع في متاحف أوروبا وأمريكا واستراليا ويذكر القوم بعظمة مصر وبتاريخ المدينة التي كانت يوما من الأيام مفتاح مصر من الشرق — على أن هذه الآثار لاتقاس بالآثار التي ظهرت في غير الحفائر والتي عرف البعض منها بأنها كانت يوما من الأيام قائمة في خرائب هذه المدينة والتي بقي البعض الآخر منها حتى اليوم مجهول المصدر — فمنذ أن عرف علم الآثار حتى يومنا هذا حيث ندعي أننا نعمل كل ما في وسعنا للمحافظة على آثار أجدادنا تجري بتلك الجهة وبغير تلك الجهة حفائر خلسة من وقت لآخر، ومنذ أن عرف علم الآثار حتى اليوم تتسرب الآثار أثناء الرخص التي تعطيها الحكومة لشيال الأتربة والأنقاض من التلال الأثرية لاستعمالها في تسميد الأراضي أوردم البرك أوما أشبه ذلك، إذ يجري هذا العمل تحت مراقبة بعض عمال الآثار الذين يتقاضون أجوراً يومية أقل من أجرة العامل العادي، فإذا ما ظهرت بعض الآثار القيمة كانوا بين عاملين إما تسليم الأثر للحكومة كما يقضي الواجب أو العمل على استغلال الفرصة وبيع الأثر، وكثيراً ما ينتصر العامل الثاني على العامل الأول — ولقد نسمع حتى اليوم في الزقازيق أو فيما يجاور التل من قرى كيف أثرى بعض الناس نتيجة لما صادفوه من آثار في خرائب المدينة المجاورة ، ولقد يكون في هذه الروايات بعض المبالغة ولكن شيئاً واحداً نستطيع أن نتأكد منه وهو أنه كثيراً ما عثر على آثار هامة في تلك الخرائب ولكن هذه الآثار للأسف لم تصل للأيدي التي يجب أن تتسلمها حتى نضيف بها شيئاً جديداً لتاريخ المدينة .

ولقد يكون من أهم الآثار التي عثر عليها في تل بسطة مخزنان للأواني والحلي الذهبية والفضية ، فلقد حدث في الثاني والعشرين من شهر سبتمبر سنة ١٩٠٦ بينما كان يقوم عمال السكك الحديدية برفع الأتربة من التل إذ عثروا على مخزن أو محل للمصوغات على بعد حوالي ١٦٠ متراً إلى الجهة الغربية من المعبد الرئيسي ، وقد

---

(١) سوف تنشر مصلحة الآثار المصرية نتائج هذه الاكتشافات في وقت قريب.

(٢) اكتشفت مقبرة والد هذا الحاكم في ٢٢ أغسطس سنة ١٩٢٥ أثناء قيام عمال السكك الحديدية بشيال الأتربة، ولكن لم يوجد بالمقبرة إلا التوابيت الجرانيتية الضخمة مما يدل على أن العمال قد سطوا على محتويات المقبرة قبل أن يصل خبر اكتشافها لمصلحة الآثار — انظر كتاب H. Gauthier, Un Vice-Roi d'Eitreopie enseveli à Bubastis in Annales du Service, t XXVIII P. 128-137 .



(شكل ٤٢) إناء فضي

استطاعوا أن يخفوه ويقسموه فيما بينهم في أثناء الليل ، ولكن لا يأتي اليوم التالي حتى تنتشر الإشاعات ، وتصل إلى سمع رجال الآثار الذين يستطيعون أن يضعوا أيديهم على الكثير من القطع الفنية الهامة ، ومن ضمنها الإناء الفضي الجميل الذي شكل مقبضه المصنوع من الذهب الخالص بشكل ماعز تحاول أن تستق من الإناء ، وفي الشهر التالي يكشف على بعد أمتار قليلة من مكان اكتشاف هذه الآثار عن مخزن آخر ، وفي تلك المرة لا يستطيع العمال أن يخبئوا شيئا فيوقف العمل بمجرد ظهور أول قطعة منه ويمكن بذلك العثور على مجموعة فريدة من الأواني والحلي الفضية والذهبية الجميلة الصنع مما يستطيع أن يراه المرء اليوم في حجرة المجوهرات بالطابق الأعلى للمتحف المصري[١]

من هذه الآثار التي وجدت أثناء مشال الأتربة ، ومن تلك القطع التي ظهرت في الحفائر العلمية ، والحفائر الخلسة نستطيع أن نتتبع خطوة خطوة تاريخ مدينة بسطة فنعرف منها أن هذه المدينة كان لها شأن منذ العصور الأولى للتاريخ . فلقد كانت أهم بلدة يمر بها المصريون في طريقهم إلى شبه جزيرة سيناء في عصور الدولة القديمة وما بعدها حيث كان يعمل الفراعنة في استجلاب النحاس والفيروز ، كما تدلنا على ذلك النقوش التي تركوها من هذه العصور — ولهذا نرى ملوكهم وقد اهتموا بإقامة المعابد في بسطة أمثال الملك بيبي الأول (حوالي ٢٨٠٠ ق.م) .

ويأتي بعدئذ العصر المظلم الأول حيث تعم الفوضى أنحاء مصر ، وحيث يتفشى الغموض تاريخها ، فلا نعرف عن هذه المدينة أو عن غيرها إلا القليل ، ولكن يعقب ذلك عصر زاهر يحكم فيه ملوك الدولة الوسطى فينال مصر من الرقي والرخاء ما لاينالها في عصر آخر وتسمو فيه العلوم والفنون إلى أقصى حد فتشمل هذه الحالة بعض مدن الوجه البحري ومن ضمنها مدينة بسطة ، ويقيم الملك امنمحعت الأول مؤسس هذه الأسرة (٢٠٠٠ — ١٩٧٠ ق م) بعض المباني فيها ومن ضمنها بوابة ضخمة من الجرانيت الأحمر[٢] ، ويعقبه بعض الملوك الآخرون من الأسرة فيحذون حذوه . فلقد بدأت مصر في ذلك العهد توطد علاقتها بالشرقية وعملت جموع المصريين والشرقيين على تبادل السلع والزيارات .

(١) كتب عن هذين الاكتشافين المرحوم المستر إدجار الذي كان كبيرا لمفتشي آثار الوجه البحري في ذلك الوقت انظر The Treasure of Tell Basta in Le Musee Egyptian t II P 93-108 Plo XIII-L V .

(٢) انظر Naville, Bubastis; P8, Pl XXXIII A .

وبعضى العصر الزاهر للدولة الوسطى ليأتى فى أثره العصر المظلم الثانى — إذ ذاك يأتى ملوك الرعاة من الشرق (١٧٣٠ — ١٥٨٠ ق م) ليحتلوا البلاد فتعود الفوضى لتتحكم فى أحوال مصر وتهدم المدن والمعابد[1] ويشتد الصراع بين المصريين والدخلاء حتى يقيض الله لمصر محرراً فى شخص الملك أحمس الأول (١٥٨٠ — ١٥٥٨ ق م) أول ملوك الأسرة الثامنة عشرة، ومؤسس الدولة الحديثة فينجح فى إجلائهم نهائيا عن وادى النيل.

وفى الفترة الأولى من حكم الأسرة الثامنة عشرة تهمل بلاد الوجه البحرى. فلقد دنسها الدخلاء فترة ما ولكن عندما يعتلى الملك أمنوفيس الثالث عرش مصر (١٤٠٥ — ١٣٧٠ ق م) نجد أن بعض بلاد الوجه البحرى قد عمها ماعم مصر من رخاء ورقى، ونراه يقيم بعض المبانى فى تلك البلاد خصوصا البلاد الواقعة فى شرق الدلتا، حيث كانت تلتقى الحضارتان المصرية والأسيوية — ولقد بنى هذا الملك فى مدينة بسطة معبدا من اللبن له مدخل من الحجر الجيرى، كما ترك كبار موظفيه كثيرا من التماثيل الجميلة التى تحتوى بعض النقوش الهامة[2].

وباعتلاء الرعامسة عرش مصر (١٣٢٠ ق م) تبدأ بلاد الوجه البحرى فى الازدهار: فالمعروف أن أول ملوك هذا العصر قد نشأ فى شرق الدلتا، فلا غرو بعدئذ إذ رأينا بعض هؤلاء الملوك قد اختار إحدى مدنها لتكون عاصمة لملكه المترامى الأطراف[3] — إذ ذاك ينال مدينة بسطة بعض ما تناله البلاد الأخرى من رقى وعمران، فتقام فيها بعض المبانى التى تتناسب وعظمة هذا العصر.

على أن أهم فترة قد مرت على هذه المدينة هى ولا شك الفترة التى حكم فيها مصر ملوك الأسرة الثانية والعشرين. فلقد دعى ملوك هذه الأسرة والأسرة التى تليها باسمها مما يحملنا على الاعتقاد بأنهم اتخذوها عاصمة لملكهم — ومما قد يعزز هذا الاعتقاد أن بعض ملوك هاتين الأسرتين اهتموا اهتماما كبيراً بهذه المدينة واختصوها ببعض المبانى الفريدة مثل الصالة الكبيرة التى أقامها أوزوركن الثانى تخليدا لذكرى جلوسه على العرش[4].

---

(١) عثر فى تل بسطة على تمثال لأحد ملوك الرعاة المدعو خيان، انظر نفس الكتاب ص ٢٣ لوحة ٣٥ A — مما قد يدل على أن البلدة كانت مزدهرة أيام حكم هؤلاء الملوك.

(٢) عثر ناقيل على أربعة تماثيل لبعض حكام هذا العصر (انظر نفس الكتاب ص ٣١ — ٣٤ لوحة ١٣)، وقد عثرنا أخيراً على تمثال بشكل أبى الهول للملك نفسه، وعلى تمثالين لأحد الأشراف الذين عاشوا تحت حكمه وسوف ننشر عنهم قريبا.

(٣) المعروف أن هذا الملك اتخذ لنفسه فى شرق الدلتا عاصمة دعاها «بى رمسو» أى مدينة الملك رمسيس. وقد اختلف الأثريون فى تحديد موقعها اختلافا كبيرا إلا أنهم انتهوا أخيراً إلى رأيين: الأول يقول بقنتير على بعد ١٠ ك. م بحرى فاقوس ويتزعمه صاحب العزة محمود بك حمزة، والثانى يقول بتانيس أوصان الحجر على بعد ٤٢ ك. م بحرى فاقوس ويتزعمه الأستاذ بيرمونتيه، وفى اعتقادى أن الرأى الأول هو الأرجح.

(٤) دعيت هاتان الأسرتان باسم The Bubastites كما قال بعض المؤرخين بأنهم اتخذوا هذه المدينة عاصمة لملكهم انظر W. H, Flirders Petrie, A History of Egypt (1905) vol III P. 240 وكتاب J. H. Breasted, A History of Egypt (1945) P. 527، ولكن لم يظهر للآن أى دليل يؤيد هذا الزعم — فزعم أن ملكهم من ملوك هاتين الأسرتين قد شيدوا مبانى ضخمة بها. فلقد ظهر أن كثيرا من ملوك هاتين الأسرتين قد دفن فى صان الحجر.

ويتناوب حكم مصر بعدئذ ملوك يختلفون قوة وضعفا فتزدهر أحوال مصر أحيانا ، وتسوء أحوالها أحيانا أخرى حتى يكتب على مصر الفرعونية أن تطوى ، ولكن قبل ذلك يعاود مصر فترتا صحو . الفترة الأولى فى عهد الأسرة السادسة والعشرين (٦٦٣ — ٥٢٥ ق م) التى حكمت فى صا الحجر . فلقد عمل ملوكها على إحياء القديم توسلا لإذكاء الشعور القوى فنجحوا ، ولكن إلى حين ، والفترة الثانية فى عصر الأسرة الثلاثين (٣٧٨ — ٣٤١ ق م) التى حكمت فى سمنود ، ولكن هذه الفترة لم تدم طويلا . فلقد كانت صحوة الموت التى يعقبها النهاية — فى هذين العهدين كان لمدينة بسطة نصيب وافر . فلقد ترك ملوك الأسرة السادسة والعشرين وأشرافها بعض اللوحات والتماثيل الجميلة التى تدل على اهتمامهم بها ، وخلف ملوك الأسرة الثلاثين معبدا هاما به كثير من الهياكل والنواويس [١] . ويتعاقب على حكم مصر اليونان والرومان ، فلا نسمع فى حكمها إلا القليل عن تلك المدينة مما يدل على أن نجمها قد أخذ فى الأفول ، ولا يأتى حكم العرب حتى لا يكون لها شأن يذكر ويحتل مكانها فى الأهمية مدينة بلبيس المجاورة ، وتحتاج هذه المدينة للأحجار الصلبة لإقامة بعض مبانيها الجديدة فلا تجد سوى خرائب المعبد لتستجلب منها ماهى فى حاجة إليه ، والآن وقد أتينا على وصف خرائب المدينة وما أجرى فيها من حفائر وما كشف فيها من آثار واستعرضنا تاريخها من أول العصور حتى وقت هجرتها — ترى هل نستطيع أن نجيب على السؤال الذى ألقيناه فى مستهل هذا المقال فنعرف إن كان الوصف الذى أورده هيرودوت عن قدم المدينة وجمال معبدها ينطبق على الحقيقة ، وإن كان شيخ المؤرخين قد زار حقا المدينة ، ورأى ماقصه علينا أو ردّد ماسمعه من الآخرين ؟

لقد رأينا فيما سبق كيف كانت خرائب المدينة قبل أن تعبث بها الأيدى متسعة عالية ، ورأينا كيف أن تاريخها يرجع إلى أول العصور التاريخية مما يجعلنا نصدق ماقاله هيرودوت عن قدمها ، ورأينا إلى جانب هذا كيف كان المعبد واقعا وسط المدينة فى أكثر الأمكنة انخفاضا ، وقد ازدان بشتى الرسوم والصور الجميلة ، ولو أنه ليس باستطاعتنا اليوم أن نقطع بوجود الأشجار التى كانت تظلل مبانى المعبد والطرق المؤدية له فإن لنا أن نلاحظ بأن وجود الأشجار فى المعابد لم يكن شيئا غير عادى ، وإلى هذا فلقد ثبت من حفائر نافيل صدق ماذهب إليه هيرودوت من أن المعبد كان محاطا بالترع ، وأنه كان هناك معبد صغير يتصل بالمعبد الرئيسى بأحد الطرق الهامة [٢] .

كل هـــذا يجعلنا نصدق هيرودوت فيما رواه لنا ونرجح أنه زار بنفسه المدينة حيث شاهد الأنقاض المرتفعة التى شيدت عليها مساكنها فى القرن الخامس السابق للميلاد ، وزار معبدها ، ورأى فيه جمالا لم يره فى المعابد الأخرى التى زارها بالقطر المصرى ؟

لبيب حبشى

(١) انظر كتاب نافيل سالف الذكر ص ٥٥ عن آثار الأسرة السادسة والعشرين وصفحة ٥٦ — ٥٩ عن الأسرة الثلاثين .

(٢) انظر مايقوله نافيل فى نفس الكتاب ص ٣ بخصوص الترع المحاطة بالمعبد وصفحة ٦٠ — ٦٢ بخصوص المعبد الصغير ، وفيه يتضح صدق ماذهب إليه هيرودوت .

نابليون والشرقية

خضعت الشرقية كما خضعت مصر بأسرها لحكم فرنسا مدة قصيرة لاتزيد على ثلاث سنين وشهرين ، وعلى الرغم من قصر هذه الفترة كانت ذات شأن عظيم فى تاريخنا القومى ؛ لأن هذا الاحتلال تمثل فيه أول دور من أدوار حركتنا القومية وأشعل أول شرارة من المقاومة الوطنية ، وإن المتصفح لمؤلفات هذا الدور من أدوار مصر ليجد أن الشرقية كانت من أولى المديريات التى جادت بكل تضحية واحتملت صنوف العنت وضروب الأذى لتتخلص من الاحتلال الأجنبى .

كما أن الشرقية كانت تضم إذ ذاك بين أحضانها زعماء القوم الذين فروا من العاصمة بعد هزيمة أنبابة، فلجأ إليها إبراهيم بك ومعه نحو ألف وخمسمائة من المماليك ، وصحبهم والى مصر العثمانى وهو بكر باشا ونقيب الأشراف ، وزعيم الشعب السيد عمر مكرم ، وحمل أولئك الفارون ما أمكنهم حمله من أموال وتحف وذخائر، وعسكروا فى مدينة بلبيس حاضرة الشرقية حينئذ فتطلعت إليهم أنظار المصريين ، وأصبحت تلك المديرية مركز المقاومة ضد الفرنسيين لما فيها من قوة سليمة لم تصل إليها مدافع الفرنسيين حتى الآن . أضف إلى ذلك أن الشرقية كانت فى ذلك الوقت صاحبة الزعامة الدينية لأن أحد أبنائها وهو الشيخ عبد الله الشرقاوى كان متولياً منصب مشيخة الأزهر فتقرب إليه الفرنسيون واستمالوه بشتى الطرق لاعتقادهم أن كلمته هى العليا وأن لها قيمة فى تصريف الأمور ، فآلت إليه رياسة الديوان الوطنى ، وكان يشارك نابليون فى إدارة شئون البلاد المختلفة . والحق أن هذا الزعيم الشرقاوى كان قد اتبع سياسة الخضوع والخنوع بعكس سياسة الشرقاويين الذين رفعوا راية العصيان مع إبراهيم بك وبكر باشا فالتفوا حولهما وأخلصوا للسلطان أمير المؤمنين .

وكثيراً ماحمل أعراب الشرقية منشورات أولئك الزعماء التى كانت تفيض ثورة وتثير حماسة المسلمين ضد الغاصبين ، يدلنا على ذلك ما قاله الشيخ الجبرتى فى كتابه « عجائب الآثار » فى حوادث سنة ١٢١٣ هـ (سبتمبر سنة ١٧٩٨م) « إنهم نهبوا على الأغراب من أعراب الشرقية وغيرهم والخدامين والبطالين ليسافروا إلى بلادهم » ويقول فى موضع آخر من نفس حوادث السنة « إنهم قتلوا شخصين من الشرقية وطافوا برأسيهما ينادون ويقولون : هذا جزاء من يأتى بمكاتيب من عند المماليك أو يذهب إليهم بمكاتيب » .

وعلى العموم لحركة العصيان ضد نابليون ولدت فى صحراء الشرقية ، ثم أخذت فى النمو والتطور شأن الكائن الحى وتعاقبت عليها الأدوار المختلفة فحيناً كانت تقوى ، وآونة تضعف ، وطوراً تشتد وتنشط ، وتارة تخمد وتفتر ؛ على أنها طوال هـــذه السنين الثلاث كانت تسير قدما مجددة قواها منتفعة من التجارب طامحة فى حركتها إلى المثل الأعلى .

وهذان الأعرابيان قد ضبط معهما منشور هام وردت فيه عبارات طعن قاسية على الفرنسيين فيها تسفيه لأحلامهم واستهزاء بمعتقداتهم ويقول « لاكرو » : « إن المطلع على هذا المنشور وما فيه من الاستهتار بمبادئ الثورة الفرنسية يرى من خلاله أنه كتب بقلم أوربى » ، ولعله يشير بذلك إلى أنه كتب بإرشاد الإنجليز

وبتعليماتهم ، والغريب أن هذا المنشور لم يذكره الشيخ الجبرتى لأن الفرنسيين صادروه وأحرقوه ، وقد وقفت على نص هذا المنشور باللغة الفرنسية فوجدته مستفتحا بالبسملة والصلاة على النبى محمد خاتم المرسلين وعلى آله وأصحابه والتابعين إلى يوم الدين . ثم يقول : « إن الفرنسيين أباد الله ملكهم ونكس أعلامهم قوم كفار ملاعين لايؤمنون بالله واليوم الآخر ، ولايعتقدون فى رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ويسخرون من جميع الأديان وينكرون البعث والنشور . . . . » إلى أن يقول : « فما أنتم فاعلون ياحماة الإسلام وأنصار الدين الحنيف ؟ يامن تؤمنون برسالة محمد بن عبد الله !! إن أولئك القوم الضالين قد ساء فألهم فظنوا المسلمين كأولئك الكفار المنافقين الذين صدقوهم واتبعوا مبادئهم الفاسدة وغاب عنهم أن الإسلام منقوش على صفحات قلوبنا وأنه يجرى بجرى الدم فى عروقنا . فهل يمكن أن نترك ديننا الطاهر الحنيف بعد أن أنار الله قلوبنا بنوره وهدانا إلى الصراط المستقيم ؟ كلا ثم كلا ! إن الله لايرضى لعباده المؤمنين أن يزعزع إيمانهم وقد قال سبحانه وتعالى : « إن ينصركم الله فلا غالب لكم » . فكونوا ياعباد الله على حذر منهم ولا تقعوا فى أشراكهم وحبائلهم ولاترهبنكم كثرتهم ولا تدهشنكم هيئتهم ؛ فالأسد لايرهب الثعالب مهما كثر عددها ، والنسر لا يخاف البغاث مهما استنسر ، وستصلكم الجيوش الجرارة على الصافنات الجياد لتقضى على عدو الله وعدوكم وتقذف به إلى النار وبئس القرار . فلا تيأسوا من روح الله فإنه تعالى حارسكم ومؤيدكم ، فبعونه تعالى وحول رسوله الكريم ستمحق جيوشنا أولئك الكفرة الضالين والساعة آتية لاريب فيها . . نصر الله جيوش الموحدين وأعز سلطان المسلمين » هذا مثل من أمثلة المنشورات التى كان يحملها أعراب الشرقية إلى القاهرة لتسليمها إلى العلماء أو مصطفى بك كتخدا والتى أدت فى نهاية الأمر إلى قيام القاهريين بثورتهم الشهيرة التى اضطرمت نيرانها فى ٢١ أكتوبر .

وبعد موقعة أنبابة قدم نابليون إلى القاهرة فاستقامت له الأمور فيها وبدأ يفكر فى تتبع المماليك فى الشرقية وفى الصعيد ، فاكتفى بأن أرسل «ديزيه» خلف مراد بك ليقضى على أتباعه فى الوجه القبلى ، أما إبراهيم بك فإنه كان موضع تفكير نابليون ومصدر الانزعاج للحملة ، إذ كانت قوته سليمة كما كان على اتصال بسوريا والإنجليز فى البحر الأبيض ، ولكل ذلك وجه نابليون معظم قواته لسحق إبراهيم بك فى شرق الدلتا حيث كان مرابطا فى بلبيس . أضف إلى ذلك وصول قوافل الحجاج من الحجاز مما أدى إلى تخويف نابليون من تفاقم الخطر لأنه علم بأن جلهم رغبوا فى الانضمام إلى أميرهم إبراهيم بك ، كما خشى أنه ربما يتهم بعدم تأمينه لطرق الحج ؛ فلم يجد نابليون بدأ من الخروج للقضاء على هذه البذرة قبل أن تنمو وتتفرع ، كما أسرع إلى إعلان تأمين سبل الحج فى خطاب تاريخى أورده لنا « لاكرو » بعث به إلى شريف مكة إذ ذاك وهاك نصه :

« فى الوقت الذى أنبئك فيه بدخول الجيش الفرنسى إلى مصر أرى من الواجب علىّ أن أؤكد لك بأن نيتى ترمى إلى تأمين طريق الحج إلى مكة بكل الوسائل الممكنة . وستبقى المساجد والأملاك التى للحرمين الشريفين فى مصر كما كانت فى الماضى لاينازعها فيها منازع .

إننا أصدقاء إلى نبى المسلمين وسنعمل كل مانستطيعه لإرضائكم وللتودد إلى الدين الإسلامى . أريد منك

أن تعلن النـاس فى كل مكان بأن قوافل الحج لاتلق فى طريقها مقاومة بل ستكون محمية بطريقة تجعلها فى مأمن من اعتداء البدو عليها ».

نابليون

ولكن بالرغم من هـذا نجد أن أغلبية الحجاج بل أمير الحج نفسه (صالح بك) قد انضموا جميعا إلى جانب إبراهيم بك ولم يبق منهم إلا النزر اليسير فى بلبيس قبض عليهم نابليون وأرسلهم محروسين ببعض جنده إلى القاهرة . وفى ذلك يقول الجبرتى فى حوادث ربيع الأول سنة ١٢١٣ هـ « ملك الفرنسيون بلبيس من غير قتال ومن بقى فيها من الحجاج لم يشوشوا عليه فأرسلوهم إلى مصر ومعهم طائفة من العسكر » .

وقبل أن يجرد نابليون جيشا للقضاء على إبراهيم بك نراه يوزع القوات العسكرية على بقية مديريات الوجه البحرى فكان حاكم الشرقية العسكرى ضابطا اشتهر بين أقرانه بالشجاعة والقـوة الشديدة يدعى لكلرك الذى تلقى بعد يومين من تعيينه الأوامر بالمسير صوب حاضرة المديرية وكانت إذ ذاك مدينة بلبيس .

بدأت طلائع الجيش الفرنسى تزحف يوم ٢ أغسطس سنة ١٧٩٨ من القاهرة بقيادة الجنرال لكلرك فكانت أحيانا تجد المقاومة الشعبية وأحيانا لاتجدها ، ولكن على العموم كان سير الجيش محفوفا بصعوبات كبيرة بدليل وصول بعض قوات فرنسية للنجدة تحت قيادة الجنرال « دوجاى » و « رينييه » . وأخيرا كتب الجنرال « لوجيه » إلى نابليون يقول :

« ثارت القرى فى الشرقية ضد فرساننا الذين أرسلناهم إليها لأخذ الخيول منها وعاد الفرسان يخبروننا بهذه الثورات . وكل الدلائل تدل على أنه لابد من قوة كبيرة لإخضاع هذه الجهات » .

لم يجد نابليون بعد ذلك بدأ من الخروج بنفسه إلى الشرقية (وهى المديرية الوحيدة التى سار إليها بنفسه) لملاقاة إبراهيم بك ومماليكه ، فوصل بلبيس فى صبيحة يوم ٩ أغسطس سنة ١٧٩٨ بعد أن أخلاها إبراهيم بك ، فاعتزم نابليون أن يتعقبه قبل أن يغادر حدود مصر إلى الشام ولقى الفرنسيون فى بلبيس من بقى من الحجاج كما ذكرت . والحقيقة أن نابليون لم يلبث فى بلبيس طويلا لرغبته فى تعقب إبراهيم بك فأرسل قوة من فرسانه ليلة ١١ أغسطس وصلت إلى قرية القرين دون أن يلحق بقوة إبراهيم بك الذى غادرها إلى الصالحية فتقدم نابليون إلى هذه الجهة حيث اشتبك مع قوة المماليك فى معركة عرفت بمعركة الصالحية وقد حمى وطيس القتال فى هذه المعركة وكادت تدور الدائرة على الفرنسيين، كما كانت هذه أول معركة وقعت بين فرسان الجيش واقتتلوا بالسلاح الأبيض ، فتحرج مركز الفرنسيين لبسالة المماليك ومهارتهم ولانضمام بعض الأعراب إلى صفوفهم . ولم ينقذ نابليون من ورطته سوى الجنرال لكلرك الذى أجبر المماليك على الانسحاب باستعماله المدافع . ومما يدلنا على تفوق المماليك فى هذه المعركة جرح بعض خاصة رجال نابليون كالجنرال سلكوسكى وديترس ياور نابليون . والحقيقة أن الصالحية كانت المكان الذى وصلت فيه أسوأ الأنباء وأشأمها على نابليون وضباطه فأكثروا من الندب والعويل ، يدلنا على ذلك قول مينو فى مذكراته عن الصالحية « كانت البلد السيء الذى فقدنا فيه كل آمالنا وأمانينا وضحينا فيه بمجهوداتنا جمعاء » إلى أن قال « يارب كيف تنتهى هـذه الحملة

ب مصر ؟ وكيف نؤمل المساعدة وقد حيل بيننا وبين بلادنا ؟ أنعيش فى مصر بقية حياتنا بعيدين عن أولادنا وآبائنا وأزواجنا وخليلاتنا .. ؟ » ، فقدنا كل هذا وأصبحنا فى ديار مقفرة ، وبين قوم لانا لفهم ولا يألفوننا .

وفى الصالحية أيضاً أصدر نابليون أمره بتعيين الجنرال دوجا قومندانا لمديرية المنصورة والجنرال فيال على دمياط . وبعد أن وقف نابليون على هزيمة أبى قير البحرية عمل كل ما يمكن ليؤثر على والى الدولة العثمانية بالبقاء فى مصر كما كان فى زمن المماليك . كما أراد أن يعقد أواصر المودة والصلح مع إبراهيم بك وذلك لدقة موقف الفرنسيين وضعف روحهم المعنوية فاستأجر نابليون أعرابيا على هجين سريع وأعطاه خطابا ليلحق بإبراهيم بك وهو فى طريقه إلى غزة على أمل أن يتفق معه ومع والى الدولة وهذه هى ترجمة ذلك الخطاب :

المعسكر العام بالصالحية فى ١٢ أغسطس سنة ١٧٩٨

« إلى إبراهيم بك :

لم يعد عندك شك فى تفوق الجيوش التى أقودها . وها أنت ذا خارج أرض مصر وأمامك صحراء واسعة ، وإنك لتجد فى واسع حلمى كل ماتريده من نعمة وسعادة واطمئنان . فهل لك أن تبلغنى فى الحال رغباتك ؟ وإنى أعلم أن باشا جلالة السلطان موجود معك فليكن هو واسطة ورسولا للمخابرة بينى وبينك » .

بونابرت

وليس عندى أى برهان على وصول هذا الخطاب إلى يد إبراهيم بك ولكن مما لانزاع فيه هو أن نابليون لم يتلق رداً ولا رسولا حتى ولم يعد إليه الأعرابى الذى بعث الخطاب معه . ولو جاز لنا أن نتخيل وصول ذلك الخطاب فعلا ، فهل كان من الممكن أن يؤدى إلى اتفاق إبراهيم بك مع نابليون كما اتفق مراد بك مع كليبر ؟ الجواب أن كل الدلائل تؤكد أن إبراهيم بك ما كان ليقبل مطلقا لأنه كان قد أعد من قبل عدته للسفر ولأن جميع المماليك كانت لهم ثقة فى مقدرة الدولة على إخراج الفرنسيين من مصر ، كما أنه ما كان يعقل أن يكون والى الدولة العثمانية رسول الاتفاق بين إبراهيم بك ونابليون !!!

بعد خروج إبراهيم بك ومن معه من أرض مصر وتوجههم إلى غزة لم يبق أمام نابليون إلا الإسراع فى العودة إلى القاهرة ليزيل بوجوده الأثر السيء الذى أحدثته معركة أبى قير البحرية فى نفوس المصريين وجنود الفرنسيين ، كما أنه أدرك تمام الإدراك أهمية موقع الصالحية من الناحية العسكرية . فقبيل خروجه منها أصدر أمره للجنرال كافاريلى بإنشاء القلاع والطوابى والثكنات اللازمة . كما عين الجنرال رينييه قومندانا لحامية الصالحية ومديراً لمديرية الشرقية . . . سار نابليون بخطى واسعة نحو القاهرة ليقضى على كل الآثار التى أحدثتها أخبار كارثة العمارة الفرنسية فوصلها فى يوم ١٤ أغسطس وهناك خاطب ضباطه بشجاعة ثابتة قائلا « هانحن مضطرون لأن نعمل العظائم وسنعملها ، وأن نؤسس فى هذه البلاد دولة كبيرة وسنؤسسها . إن البحار تفصل بيننا وبين الوطن ولا سلطان لنا على هـــذه البحار ولكن ليس ثمة فاصل يفصلنا عن آسيا وإفريقية ؛ وعندنا من الرجال العدد الوافر ولا ينقصنا المدد لتقوية صفوفنا » .

لم يبق فى الصالحية من قوات الفرنسيين سوى فرقة الجنرال رينيه وفرسان الجنرال الكلرك ، ومنذ ذلك الحين اهتم نابليون بتحصين الصالحية لحراسة برزخ السويس ولمراقبة حدود مصر الشرقية . ومعنى ذلك أن الشرقية اتخذت مركزاً من أهم المراكز الحربية ، ولم يكتف الجنرال رينيه بالتحصينات التى أقامها كافاريل بل نراه يحول مسجد الصالحية إلى معسكر للفرق الفرنسية فأنشأ فيه الأفران والمخابز للجيش ، وأقام فيه المدافع . وهناك من المؤرخين من يقول بأن نابليون أقر هذا الاعتداء المثير لحفيظة الأهلين فطلب من جنراله أن يزيد فى عدد الأفران التى بالمسجد وعدد المدافع التى نصبت عليه ، بل أكثر من ذلك أن أمره بأن يتخذ فى المسجد مخزنا للبارود ومستشفى للجنود ، ويجعل منارته كمرصد لاستطلاع الحركات المعادية .

أما عن روح الأهالى فى الشرقية فإنها كانت تتدفق ثورة وتفيض كظما وغيظا وذلك لكثرة اعتداء الجنود وجرائمهم ، إذ كان الفرنسيون كثيراً ما ينهبون القرى والماشية فيضطر القوم إلى الرحيل عن قراهم لتهريب مواشيهم فى الصحراء ، كما امتنع الأهلون عن بيع ما يحتاج إليه الفرنسيون وحملوا السلاح ضد العدو وأخذوا يناوشون الحاميات الفرنسية ويقطعون طرق مواصلات الجيش مع القاهرة . ولقد اشتدت تلك الحركات العدائية عند بذر بذور الثورة التى اشتعلت نيرانها فى القاهرة فى أكتوبر فتشجع الشرقاويون على هجوم المخافر الفرنسية مما أدى إلى قتل بعض كبار الفرنسيين ، فثلا قتل أهل بلبيس وكفور العايد ترجمان الجنرال رينيه الخاص على بعد أربعين متراً من معسكر الفرنسيين العام فى المدينة ، كما قاوم أهل بيشة الفرنسيين عند ماشرعوا فى مصادرة خيولهم وذلك بالبنادق والعصى (الشماريخ) فعادت الكتيبة أدراجها . ولعل سبب تحمس الأهالى ضد الفرنسيين وشدة مقاومتهم يرجع إلى وصول الفيضان الذى عطل حركات الجند وانتقالها إلى القرى : كما أن الأمراض كانت قد بدأت تظهر مع شدة الحرارة وبخاصة الرمد الذى فتك بالفرنسيين وانتشر بينهم ، كما أن الثورة الشعبية التى استطار شرارها من القاهرة إلى الأقاليم زادت فى حماسة الأهالى وشجعتهم على مهاجمة معسكرات العدو وبخاصة أهالى بلبيس ومعهم نحو مائة فارس من قبيلة العائد هجموا على كتيبة فرنسية فى فجر ٢٢ أكتوبر وقتلوا معظم جنودها ولكن رد رينيه هجمة العرب بعد أن انسحب إلى بلبيس كما طلب المدد من القاهرة خوفا من حرج مركزه . وبعد قليل من الوقت وصل هذا المدد فهاجمه عرب المعازة وهددوه ووضعوه فى أحرج المواقف لولا استعمال المدافع التى ردتهم حتى قرية غيتة (جنوب غربى بلبيس) . وهكذا استمرت الحرب سجالا بين الشرقاويين وبين الفرنسيين بسبب عجز رينيه عن تجريد قوة كافية على الثوار تغزوهم فى بلادهم وقراهم فأصبحت مواصلات الجيش الفرنسى مهددة مما حمل نابليون على أن يرسل رسالة هامة إلى رينيه بتاريخ ٢٧ أكتوبر يأمره فيها بتوقيع العقوبات القاسية على القبائل التى تمردت أو شاركت فى الحركات الأخيرة ويأخذ منها الرهائن ويقتل مشايخ البلاد لأنهم المسئولون عما يحدث فى بلادهم . فلما علم الأهالى بذلك أوغلوا فى البلاد البعيدة وبعضهم أخلى القرى المجاورة وبهذا لم يستطع رينيه تجريد حملة لتعقبهم وآثر أن يعدل معهم إلى الملاطفة فلجأ إلى المفاوضة مع زعمائهم لإعادة السكينة ولكنه لم يوفق ولذلك استمرت الاضطرابات فى الشرقية حتى قبيل خروج نابليون إلى سوريا فنراه فى شهر يناير سنة ١٧٩٩ يمر على الشرقية بعد عودته من رحلته إلى السويس ويقسو على أهلها ويذيقهم المذلة

والمهانة . وفى ذلك يقول الجبرتى « وفى ليلة الاثنين غاية شهر رجب حضر سارى عسكر بونابرت من ناحية بلبيس إلى مصر ليلا وأحضر معه عدة عربان وعبد الرحمن أباظة أخو سليمان أباظة شيخ العبايدة وغلاقه رهائن وأخذوا مواشيهم وحضروا بهم القاهرة وخلفهم أصحابهم رجالا ونساء وصغاراً » .

وما فعل ذلك نابليون بعرب الشرقية وأخذ زعماءهم رهائن إلا ليأمن جانبهم فى حملته على الشام أو ليتق شرهم فى حال هجوم الجنود التركية التى كانت فى ذلك الوقت قد احتلت العريش وأخذت فى الزحف على مصر. وأول ما بدأ الشيخ الجبرتى ينوه بحملة الشام قوله فى حوادث يوم ١٢ رجب « وقد ذهب عدة من العسكر الفرنساوية إلى قطية وشرعوا فى بناء أبنية هناك وأشيع سفر سارى عسكر إلى الشام والإغارة عليها » . وذكر فى حوادث ١٩ رجب أيضا أنه كثر الاهتمام والحركة لسفر الفرنسيس إلى جهة الشام وأخذوا جمال عرب الترابين ليحملوا عليها الذخيرة والدقيق والعليق والبقسماط ثم رسموا على الأهالى عدة كبيرة من الحمير والبغال فخاف الناس على حميرهم وامتنع خروج السقايين والبراسمية وحصل للناس ضيق بسبب ذلك » . نقلت هذه العبارة من الجبرتى ليرى القراء أسلوب الفرنسيين فى الاعتداء على المساكين وأخذهم دوابهم التى يعيشون منها وكأنهم استحلوا كل ما فى أيدى المصريين واعتبروه ملكا لهم يأخذونه أنى شاءوا وكيفما شاءوا وخصوصا الشرقية التى اعتبرها نابليون بمثابة مخزن للمؤن ومستودع للماشية يأخذ منها كل مايحتاجه وماتلزمه الضرورة؛ كما أنها تأثرت بانتشار الوباء الذى عم الحملة الفرنسية من الشام ومات كثير من أبنائها متأثرين بهذه الأوبئة الفتاكة؟

الحسينى منسى على

شرق الدلتا فى الكتب المقدسة

جعلت الظروف الطبيعية من إقليم شرق الدلتا أهم المنافذ التى تطل منها مصر على العالم الخارجى ، فمع أن مصر تتوسط القارات الثلاث القديمة : أوربا ، وآسيا ، وأفريقيا ، إلا أن البحر كان حاجزاً قوياً بينها وبين أوربا فى العصور القديمة التى كانت فيها وسائل الملاحة بدائية ؛ كما كانت الصحراء حاجزا فعالا بينها وبين أفريقيا الغربية . وأما السبل بين مصر وآسيا فكانت ميسرة لقصرها وقلة مشقتها ، ولذلك كان بعض الكتاب الذين كتبوا قبل ميلاد المسيح عليه السلام يعتبرون مصر جزءاً من القارة الأسيوية .

ولقد كانت المواصلات بين وادى النيل وساحل البحر الأحمر عبر الصحراء الشرقية عظيمة المشقة كثيرة الأخطار بسبب وعورة الطرق وخلوها من الماء . هذا فضلا عن أن المسافر لايجد بعد وصوله إلى ساحل البحر الأحمر إلا بيئة أسوأ حالا من الصحراء التى سلكها ، ثم إذا كانت وجهته آسيا يجد نفسه مضطرا إلى عبور بحر خطر يؤدى به إلى صحراء مرة أخرى . فلهذا كان إقليم شرق الدلتا أيسر السبل للربط بين مصر وآسيا ، فالتقت بهذا الإقليم الطرق المائية والبرية وتجمع فى مدنه وموانيه المسافرون من جميع الشعوب .

ولقد كانت هناك عدة طرق مائية تربط مصر بحدودها الشرقية عبر شرق الدلتا فكانت هناك فروع النيل الطبيعية التى بلغ عددها خمسة فى هذا الإقليم وحده هى من الغرب إلى الشرق كما يأتى : —

(١) الفرع البوصيرى .

(٢) الفرع المنديسى .

(٣) الفرع البوسطى (التانيتى) .

(٤) الفرع البليوزى .

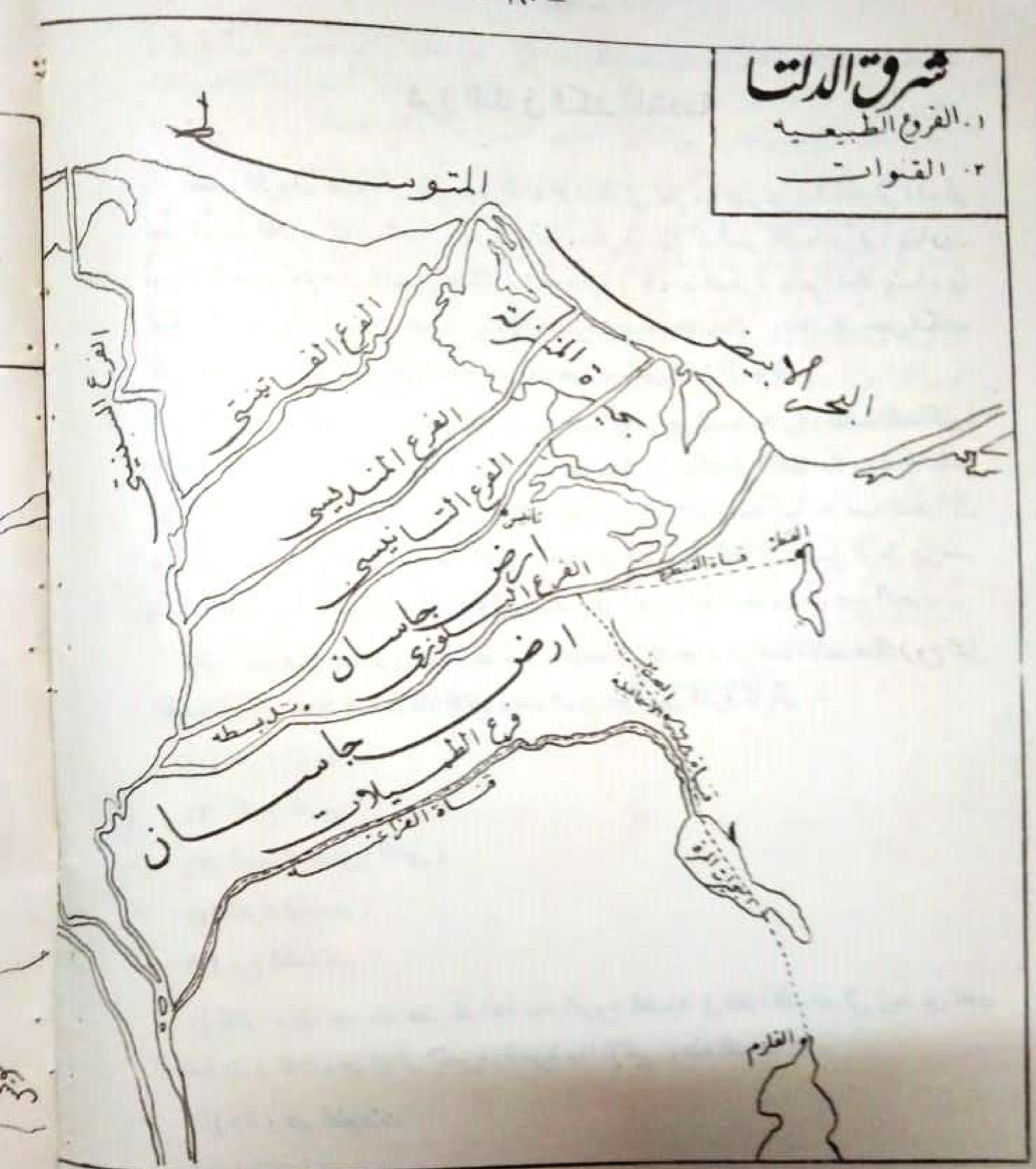
(٥) فرع الطبيلات .

ولم يكتف حكام مصر منذ عصر الفراعنة بهذه الفروع الطبيعية بل شقوا القنوات التى تربط بين المدن الرئيسية بشرق الدلتا وبين الموانى البحرية والبحرية بهذا الإقليم . وهذه القنوات هى :

(١) قناة وادى الطبيلات

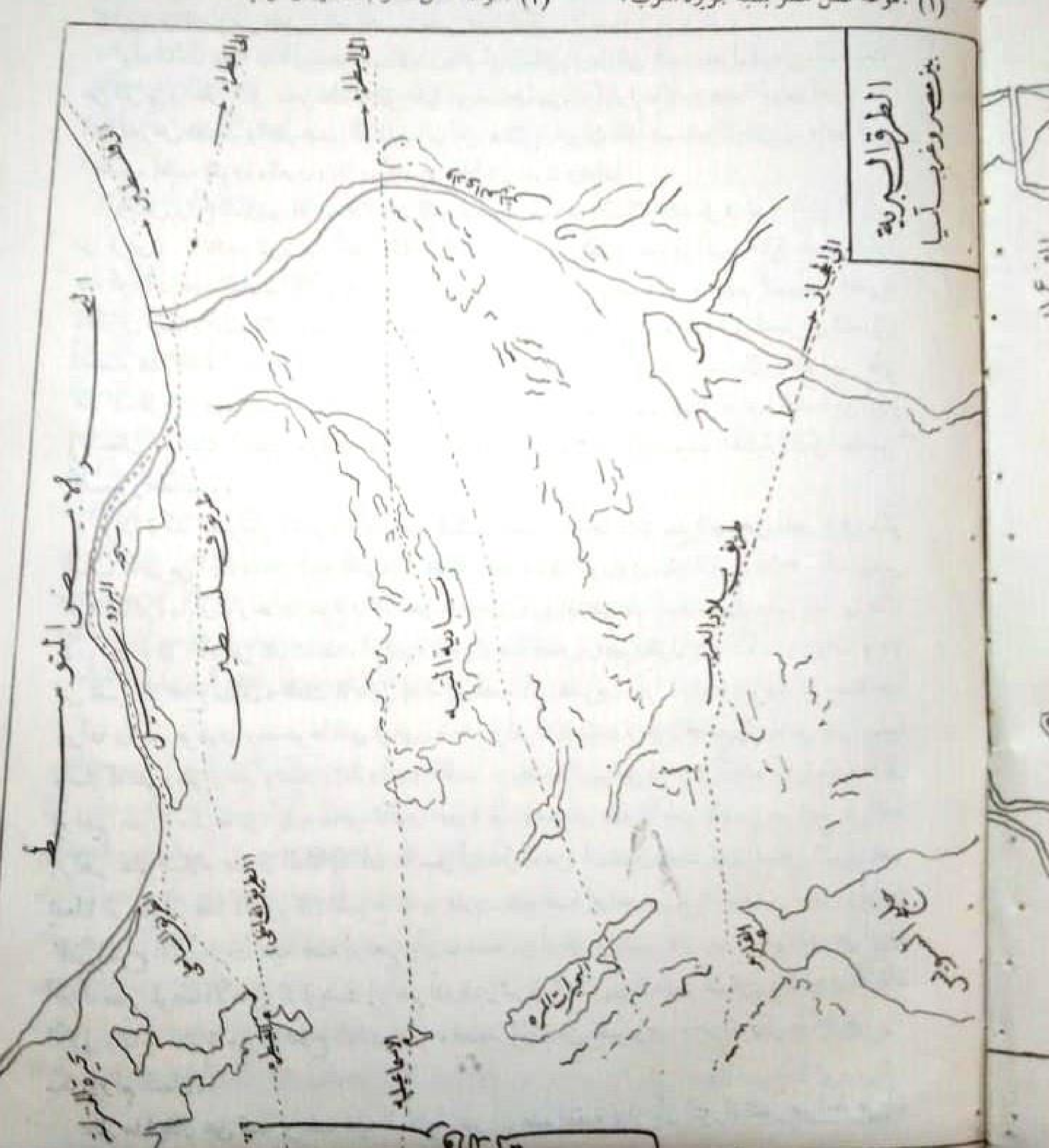
(٢) قناة القنطرة .

(٣) قناة البحرين .


شرق الدلتا
١. الفروع الطبيعية
٢. القنوات
البحر الابيض المتوسط
بحيرة المنزلة
الفرع الفاتنيتي
الفرع السبنيتي
الفرع المنديسي
الفرع التانيسي
الفرع البلوزي
ارض جاسان
ارض جاسان
تل بسطة
فرع الطميلات
قناة الفراعنة
قناة السويس
بحر القلزم

وأما عن الطرق البرية فكانت تنقسم إلى مجموعتين :

(١) مجموعة تصل مصر بشبه جزيرة العرب. (٢) مجموعة تصل مصر بفلسطين وسوريا .



حوادثها حدثت فى إقليم شرق الدلتا . إذ تروى القصة أنه لما ارتحل سيدنا يعقوب وأبناؤه من كنعان إلى مصر أقاموا فى أرض جاشان بمديرية الشرقية الحالية وانتشروا بين الإسماعيلية وفاقوس وأبى حماد وبلبيس والزقازيق . فقد جاء فى الإصحاح السابع والأربعين من سفر التكوين الآيتان الأولى والثانية « فأتى يوسف وأخبر فرعون وقال أبى وإخوتى وغنمهم وبقرهم وكل مالهم جاءوا من أرض كنعان وهو ذا هم فى أرض جاشان » فكان رد فرعون على يوسف كما جاء فى الآيتين الخامسة والسادسة من نفس الإصحاح « فكلم فرعون يوسف قائلا : أبوك وإخوتك جاءوا إليك ، أرض مصر قدامك ، فى أفضل الأرض أسكن أباك وإخوتك ، ليسكنوا فى أرض جاشان » .

وهكذا تبدأ قصة اليهود فى مصر بسكنى يعقوب (إسرائيل) وعائلته فى أرض جاشان إلى أن يخرجوا منها بقيادة نبى الله موسى .

واليم الذى ألقى فيه الرضيع موسى عليه السلام كان أحد فروع النيل التى تجرى فى شرق الدلتا وتمر أمام قصر فرعون الذى كان يقوم فى صان الحجر بمركز فاقوس . ويرجح أن هذا الرضيع عليه السلام ألقى فى ترعة السماعنة أو فى ترعة بحر البقر اللتين تجريان من فاقوس إلى صان الحجر الحالية (تانيس القديمة) فقد جاء فى الإصحاح الثانى من سفر الخروج الآيات من ٣ إلى ٦ ما يأتى « أخذت (أم موسى) له سفطا من البردى وطلته بالحمر والزفت ووضعت الولد فيه ووضعته بين الحلفاء على حافة النهر ووقفت أخته من بعيد لتعرف ماذا يفعل به . فنزلت ابنة فرعون إلى النهر لتغتسل . . . فرأت السفط بين الحلفاء فأرسلت أمتها وأخذته » . ولقد قال تعالى فى سورة طه الآيات من ٣٧ إلى ٤٠ « إذ أوحينا إلى أمك مايوحى . أن اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لى وعدو له وألقيت عليك محبة منى ولتصنع على عينى . إذ تمشى أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعناك إلى أمك كى تقر عينها ولا تحزن . . . » إلى آخر الآية . وكذلك قال تعالى فى سورة القصص الآية السادسة « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم . . . » إلى آخر الآية . كما ورد فى الآية السابعة من نفس السورة « فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا . . . » إلى آخر الآية .

ويستدل من الآيات السابقة فى التوراة والقرآن أن عائلة موسى عليه السلام كانت تقيم بالقرب من قصر الملك فى المقر الملكى الذى تدل النصوص المصرية على أنه كان فى شرق الدلتا فى ذلك الوقت وإن كان المؤرخون يختلفون فى موضعه بالضبط ، فبعضهم يضع المقر الملكى فى صان الحجر بمركز فاقوس ، وبعضهم يضعه فى قنتير بالقرب من صان الحجر وآخرون يضعونه فى بلدة القنطرة الحالية ، ولعل أرجح الآراء أن المقر الملكى كان فى صان الحجر لكثرة ما كشف فى هذه المدينة من آثار تليق بعاصمة كبرى . وسواء كان المقر الملكى فى هذه المدينة أم تلك ، وسواء أكان بيت سيدنا موسى فى هذه المدينة أم تلك فإن هذا لن يغير من القول بأن هذا النبى ولد فى شرق الدلتا وترعرع فى هذا الإقليم وتزعم اليهود فيه وجرت له فيه الحوادث التى ترويها الكتب المقدسة ؛ وقد انتهت هذه الحوادث بخروج موسى على رأس اليهود من شرق الدلتا قاصدا فلسطين .

نما عدد اليهود بشرق الدلتا فى الفترة ما بين عهد يوسف وموسى عليهما السلام حتى أحس الفراعنة خطراً من تكاثر عددهم فأخذوا فى اضطهادهم وتعذيبهم لاسيما وأن العهد قد بعد بأيام يوسف وما صنعه لمصر بحكمته وتدبيره . وكان من ضمن أعمال الاضطهاد هذه أن سخر فرعون الإسرائيليين لبناء عدد من المدن الكبيرة فى شرق الدلتا منها صان الحجر الحالية (تانيس القديمة) والقنطرة الحالية (زاوو القديمة) وتل المسخوطة الحالية (پر أتوم القديمة) وفى ذلك تقول التوراة فى سفر الخروج الإصحاح الأول الآية الحادية عشرة (فجعل المصريون) عليهم رؤساء تسخير لكى يذلوهم بأثقالهم . فبنوا لفرعون مدينتى مخازن پيثوم (پر أتوم وهى تل المسخوطة الحالى) ورعمسيس . . . واستعبد المصريون بنى إسرائيل بعنف .

لم يعد فرعون راغباً فى أن يظل اليهود فى ضيافته فاضطهدهم فكان لابد لهم من مغادرة البلاد . فجرت قصة الخروج المشهورة التى تروى الكتب المقدسة وقائعها بالتفصيل .

وبرغم أن الإسرائيليين كانوا يعيشون فى شرق الدلتا — أقرب أجزاء مصر إلى كنعان — إلا أن ظروف خروجهم من مصر ومطاردة فرعون لهم جعلت رحيلهم محفوفاً بكثير من المخاطر . فكان لابد لهم من اجتياز برزخ السويس حيث كانت البحيرات تمتد على طوله من ساحل البحر الأبيض حتى رأس خليج السويس إلا فى نقط يابسة قليلة كانت تقوم فيها الحصون القوية لمراقبة هذه النقط التى تعتبر مداخل البلاد ومخارجها الخالية من الموانع الطبيعية ، وعلى هذا لم يكن أمام اليهود إلا أحد أمرين : إما أن يجتازوا حدود مصر الشرقية عن طريق يابس حيث يتعرضون للجنود المرابطين فى الحصون ، وإما أن يجتازوا إحدى المسطحات المائية الممتدة على طول البرزخ حيث يكونون فى مأمن من جنود فرعون : لأن الفراعنة كانوا يعتبرون هذه المسطحات المائية موانع طبيعية تعوق الغزاة من تلقاء نفسها ، ولا تمكنهم من اختراق الحدود المصرية عبرها ، ومن ثم لاتحتاج إلى جنود لحراستها .

غادر الإسرائيليون المقر الملكى ، فوصلوا تل المسخوطة فى نفس اليوم ، وهنا كان التعب قد أخذ منهم مبلغه فاستراحوا فترة قصيرة استأنفوا السير بعدها إلى صحراء إثام (صحراء شور) التى كانت تحد إقليم شرق الدلتا من الشرق ، وكانت من الاتساع والغنى النسبى بحيث تكفى الإسرائيليين وقطعانهم إلا أنها كانت مزودة بالقلاع والحصون يرابط بها جنود أشداء على استعداد للضرب على يد كل من يحاول دخول مصر أو الخروج منها بدون إذن من فرعون . ولقد حاول العبرانيون اجتياز هذه الصحراء دون أن يراهم الحراس ؛ فلما لم يستطيعوا عادوا إلى شرق الدلتا ، وبحثوا على طول منطقة البرزخ بين البحرين الأبيض والأحمر عن نقطة يابسة يكون حراسها فى غفلة فلم يجدوا ، وهنا طرأت على موسى عليه السلام فكرة اجتياز إحدى المسطحات المائية للوصول إلى شرق البرزخ لأن هذه المسطحات المائية كما قلنا كانت بغير حراسة . فحدثت معجزة شق البحر التى ترويها الكتب المقدسة .

ولقد قال تعالى فى سورة طه الآيتين السابعة والسبعين والثامنة والسبعين : « ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى فاضرب لهم طريقاً فى البحر يبساً . لاتخاف دركاً ولاتخشى . فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ماغشيهم » .

فالقرآن الكريم فى الآيتين السابقتين يستعمل للسطح المائى الذى عبره الإسرائيليون لفظى بحر ويم «فاضرب لهم طريقا فى البحر .. فغشيهم من اليم ...» ولفظا بحر ويم فى اللغة العربية تدلان على أى مسطح مائى عذبا كان أو مالحا ، ولقد استعمل القرآن الكريم لفظ «يم» للدلالة على أحد فروع النيل العذبة التى تجرى فى شرق الدلتا . فقال تعالى فى سورة القصص الآية السابعة : «فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم» ، وكذلك استعمل القرآن الكريم لفظ بحر للدلالة على أى مسطح مائى عذبا أو مالحا ؛ فقال تعالى فى سورة الفرقان الآية الثانية والخمسين : «وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج ....» إلى آخر الآية ، ومعنى هذا أن البحر الذى عبره الإسرائيليون . وحدثت فيه معجزة الخروج قد يكون بحراً مالحا ، وقد يكون بحراً عذبا ، وقد يكون بين هذا وذاك ؛ فإذا ما تركنا القرآن ، ونظرنا فى التوراة فى سفرى العدد والخروج ، وفى مزامير داود نجد أن اليم الذى شق للإسرائيليين يوصف بأنه كثير الغاب ، ويستخدم له فى اللغة العبرانية التعبير «يم سوف» ، ومعناه يم الغاب أو بحر الغاب ، وتدل الظروف الجغرافية والتاريخية على أن العبرانيين لم يصلوا فلسطين عن طريق شمال شبه جزيرة سينا ، ويتبع هذا أن نقول إن البحر الذى اجتازوه لم يكن الطرف الجنوبى لبحيرة المنزلة ولا الطرف الشمالى لبحيرة البلاح ، وهما الطرفان اللذان يؤديان إلى الطريق الشمالى المسمى بطريق الفلسطينيين ، كما أن بعد المسافة بين المكان الذى خرج منه الإسرائيليون بشرق الدلتا ، وبين الطرف الشمالى للبحر الأحمر لا يسمح بالقول بأن البحر الأحمر هو الذى شق للإسرائيليين لأن الإسرائيليين غادروا المقر الملكى هاربين وفرعون فى أثرهم فهم محتاجون إلى عبور البرزخ والوصول إلى شبه جزيرة سينا فى أقصر مسافة ممكنة ، وفى أقصر مدة مستطاعة ، وإلا لحق بهم فرعون وجنده ؛ ولهذا نستبعد أن يكونوا قد يمموا البحر الأحمر عند رأس خليج السويس . والأرجح أن يقال إن البحر الذى عبره الإسرائيليون هو المسطح المائى الواقع مباشرة فى شرق أرض جاشان التى خرجوا منها ، والتى كان معظمهم يعيش فيها ، وهذا المسطح المائى هو بحيرة التمساح الحالية . ولعل فى الكتب المقدسة من الآيات مايؤيد هذا الرأى . فقد قال تعالى فى سورة الشعراء الآيات من ٥٩ إلى ٦٥ : «فأتبعوهم مشرقين . فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون . قال كلا إن معى ربى سيهدين . فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ، وأزلفنا ثم الآخرين . وأنجينا موسى ومن معه أجمعين . ثم أغرقنا الآخرين » . فالآية التاسعة والخمسون تدل على أن فرعون وجنوده تعقبوا الإسرائيليين مشرقين أى ميممين جهة المشرق ، وهذا يتفق مع القول بأن العبرانيين ساروا من صان الحجر ومما حولها ومن أرض جاشان فى الاتجاه الشرقى ، فعبروا بحيرة التمساح التى انفلقت لهم ، فحدثت معجزة الخروج ؛ ولقد كانت بحيرة التمساح فى ذلك الوقت ممتلئة بالغاب مما يجعل تعبير «يم سوف» منطبقا عليها .

ومما يعزز القول بأن التوراة قصدت بتعبير «بحر سوف» بحيرة التمساح ما جاء فى سفر الخروج الإصحاح العاشر الآيات من ١٢ إلى ١٩ وهى كما يأتى : «فمد موسى عصاه على أرض مصر فجلب الرب على الأرض ريحا شرقية كل ذلك النهار وكل الليل ، ولما كان الصباح حملت الريح الشرقية الجراد .. وغطى وجه كل الأرض حتى أظلمت الأرض وأكل جميع عشب الأرض .. فدعا فرعون موسى وهارون مسرعا ، وقال أخطأت إلى الرب إلهكما وإليكما ، والآن اصفحا عن خطيئتى .. وصليا إلى الرب إلهكما ليرفع عنى هذا الموت .. فخرج موسى من لدن فرعون وصلى إلى الرب ، فرد الرب ريحا غربية شديدة جدا فحملت الجراد وطرحته إلى بحر سوف ،

فالتوراة تقول إن الله لما غضب على فرعون سلط الرياح الشرقية فحملت الجراد وألقته على حقول شرق الدلتا ، ولما رفع عنه الغضب سخر الرياح الغربية فحملت الجراد من هذه الحقول وطرحته فى بحر سوف فلا بد أن بحر سوف كان يقع شرق حقول الدلتا مباشرة ، وهى الحقول التى تطلق عليها النصوص المصرية ونصوص التوراة اسم حقول جعنت أو حقول صان ، وهذا يتفق مع القول بأن بحر سوف الذى اتفق فعبره الإسرائيليون هو بحيرة التمساح إذ هى التى تقع شرق حقول صان وشرق أرض جاشان .

بعـــد أن تمت معجزة الخروج وعبر الإسرائيليون بحر سوف لم يسلكوا الطريق المباشر المؤدى إلى فلسطين ، وهو الطريق الشمالى الذى تسير فيه السكة الحديد فى الوقت الحالى رغم أن هذا الطريق هو أفضل طريق يسلكه المسافر يبغى الخروج من مصر والوصول إلى فلسطين على وجه السرعة .

والسبب الذى من أجله لم يسلك العبرانيون هذا الطريق أنه طريق مطروق لايتناسب مع شعب هارب يريد أن يتسلل خلسة إلى فلسطين ، لاسيما وأن فلسطين كانت تحت الحكم المصرى فى عصر الخروج يديرها عملاء فرعون وتحتلها جنوده ، وقد قالت التوراة فى ذلك فى سفر الخروج الإصحاح الثالث عشر الآيتان السابعة عشرة والثامنة عشرة «إن الله لم يهدهم فى طريق أرض الفلسطينيين فأدار الله الشعب فى طريق برية بحر سوف» .

وبعد أن عبر الإسرائيليون البحر قضوا فى صحراء سينا ثلاثة أيام بلا ماء حتى وصلوا عيونا سموها عيون مارة لأنهم لم يستسيغوا ماءها لمرارته ؛ ولقد جاء فى الإصحاح الخامس عشر من سفر الخروج الآيتان الثانية والعشرون والثالثة والعشرون ماياتى « ثم ارتحل موسى بإسرائيل من بحر سوف ، وخرجوا إلى برية شور ؛ فساروا ثلاثة أيام فى البرية ، ولم يجدوا ماء فجاءوا إلى مارة ولم يقدروا أن يشربوا ماء من مارة لأنه مر لذلك دعى اسمها مارة ، ويدل قضاء الإسرائيليين ثلاثة أيام بلاماء على أنهم لم يسلكوا بعد عبور البحر إحدى الطرق المعروفة التى كانت تصل مصر بغرب آسيا ، والتى كانت تتبع توزيع الآبار . ويظهر أن الإسرائيليين بعد أن عبروا بحر سوف إلى برية شور فى شرقه انحدروا جنوبا حتى أصبحوا بحذاء رأس خليج السويس ، ثم اتجهوا شرقا نحو العقبة مارين بالمكان المسمى نخل . إذ أن هذا الطريق يتفق مع وصف التوراة للطريق الذى سلكه العبرانيون ، فهو يمتاز بقلة عبور الناس به بسبب صعوبته ؛ كما أنه فى المرحلة الأولى منه من السويس إلى نخل خال من الماء تماما ، ولهذا لم تكن القوافل تجتازه قبل الإسلام إلا نادراً ، ولم يصبح مطروقا بكثرة إلا بعد الإسلام لأنه طريق مباشر إلى بلاد العرب ، ولذلك سمى طريق الحجاج .

ولما كان القسم الأول من هذا الطريق بين السويس ونخل خاليا من الماء فيمكن أن يقال إن هذا القسم هو الذى تجول فيه العبرانيون ثلاثة أيام حتى وصلوا إلى نخل فوجدوا بها ماء ، وعلى هذا تكون نخل هى عيون مارة المذكورة فى التوراة ، والتى أحس العبرانيون مرارتها بمقارنتها بمياه النيل العذبة التى فارقوها مضطرين ثم بعد نخل اتجه العبرانيون جنوبا إلى جبل سيناء بالطريق المعتاد المؤدى من فلسطين إلى جبل سنت كترين ولا بأس من ذلك فقد أصبحوا فى مأمن من جنود فرعون .

وهكذا يعتبر إقليم شرق الدلتا من الأقاليم المقدسة إذ عاش فيه أكثر من نبي وضمت تربته الطاهرة رفات بعضهم.

ابراهيم أحمد رزقانه
الأستاذ المساعد بكلية الآداب
جامعة فؤاد الأول

من عظماء الشرقية

وعظماؤها كثيرون قديما وحديثا ، كنت أود فى شوق أن أجلى عنهم فى عصرنا الحديث ، وأبين عن مآزهم فى أحداث مصر السياسية ، وميادينها العلمية والأدبية والاجتماعية والاقتصادية ، ولكنى رأيت الطريق إلى ذلك طويلا ، فعمدت إلى الكشف عن حياة عظيم من هؤلاء العظماء ، وزعيم من زعماء مصر وقادتها الذين كان لهم فضل فى إظهار شخصية الأمة ، وإنارة السبيل لها فى مدلهمّ الحوادث ، بما كان لهم من مكانة فى نفوسها قبل الحملة الفرنسية ، وبما نالوه من حبها وإجلالها باضطهاد الفرنسيين لهم إبان اغتصابهم مصر ، حتى ملكوه زمامها فى طور من أهم أطوار حياتها القومية ، ذلك العظيم شيخ استرسلت لحيته ، وعظمت عمامته ، تحفه المهابة ، ويعلوه الوقار ، زينت بصورته كتب التاريخ لعصر مصر الحديث ، هو الإمام العلامة شيخ الإسلام والمسلمين :

الشيخ عبد الله الشرقاوى

نشأته وثقافته



(شكل ٤٤)

هو الشيخ عبد الله بن حجازى بن إبراهيم ، الشافعى المذهب ، ولد كما يقول الجبرتى (وهو معاصره ومؤرخه) فى حدود سنة ١١٥٠ ﻫ فى قرية « الطويلة » من إقليم الشرقية (تبع مركز فاقوس الآن) ، ولذا لقب بالشرقاوى .

حفظ القرآن فى قرية « القرين » بالقرب من الطويلة ، ثم قدم إلى الأزهر ، وأخذ يتلق علوم الدين والعربية على شيوخ أجلاء ؛ من أمثال : الملوى ، والجوهرى ، والدمنهورى ، وغيرهم من أئمة عصره ، وأكب على العلوم يستقى من حياضها ، ويقطف من ثمارها فى شوق وجدّ ومثابرة ، يحدوه عقل ذكى ، ونفس طموح ، وهمة وثابة ، ومثل أعلى ، حتى امتاز من إخوانه ، وصارت له مكانة بينهم : وهو فى كفاحه هـــذا ، رقيق الحال ، يعانى آلام الفقر ، وضيق العيش ، وعنت الدهر ، ولكن

الهمة العالية تقتحم العقبات بنفس مطمئنة فى سبيل غايتها الشريفة ، وظل يصول فى ميدان العلوم ويجول ، ونجمه يعلو فى سماء المجد ، حتى أفتى فى مذهبه الشافعى ، وشرع يلقى على الطلاب الدروس بالجامع الأزهر وغيره ، وتميز فى الإلقاء والتحرير كما يقول الجبرتى .

رياسته للأزهر

ولما مات الشيخ العروسى ، شيخ الأزهر لذلك العهد ، اشرأبت الأعناق واستشرفت العيون إلى من يشغل هذا المنصب ويملأ ذلك الفراغ ، ويتولى شأن الإسلام والمسلمين ، فكان الشرقاوى الضالة المنشودة ، لما عرف عنه من فضل وكفاية ، فتولى مشيخة الأزهر سنة ١٢٠٨ هـ وكانت سنه وقتذاك سبعا وخمسين سنة ، وتلك مفخرة للشيخ ، وآية على نبوغه ، فعظمت منزلته ، واتسع جاهه ، واحتل مكانة عظيمة فى مصر ، وتوج الشرقية بتاج الزعامة الدينية فى الديار المصرية .

آثاره العلمية

خلف الشيخ آثارا علمية كثيرة ، كانت ولا تزال لها أثرها المحمود فى الدراسة الأزهرية ، تدل على عبقرية وسعة فضل ، وشغف بالعلم . يحدثنا عنها الجبرتى فيقول : «وله مؤلفات دالة على سعة فضله ، من ذلك حاشيته على التحرير ، وشرح نظم يحيي العمريطى ، وشرح العقائد المشرقية ، والمتن له أيضاً ، وشرح مختصر فى العقائد والفقه والتصوف ، مشهور فى بلاد داغستان ، وشرح رسالة عبد الفتاح العادلى فى العقائد ، ومختصر الشمائل وشرحه له ، ورسالة فى لا إله إلا الله ، ورسالة فى مسألة أصولية فى جمع الجوامع ، وشرح الحكم والوصايا الكردية فى التصوف ، وشرح ورد سحر للبكرى ، ومختصر المغنى فى النحو ، وغير ذلك » .

آثار الشيخ فى تاريخ مصر الحديث وأحداثه السياسية

ثورته على مظالم المماليك

أصبح الشيخ بعد تقليده مشيخة الأزهر ذا شخصية بارزة فى مصر لها نفوذ دينى وأدبى ، ولم يأل جهدا فى توجيه ذلك النفوذ إلى خير الشعب وحمايته من المظالم الفادحة التى كانت تصب عليه أيام المماليك ثم أيام الفرنسيين جهد طاقته ، وقد عرفت المماليك فيه تلك النزعة الوطنية فأكبروه واحترموه . وكان له فى مقاومة مظالمهم مواقف مشهودة تنم على حبه الخير لأمته ، وعلى منزلته السامية فى نفوس الشعب ، وإليك وقفاً منها ملخصا عن الجبرتى يؤيد ذلك :

وفد عليه فى سنة ١٢٠٩ هـ أهل قرية بالشرقية ، وذكروا له أن أتباع محمد بك الألفى ظلموهم وأرهقوهم بطلب مالا قدرة لهم عليه ، فغضب الشيخ لذلك ، وخاطب مراد بك وإبراهيم بك فى رفع هذا الظلم فلم يكترثا للأمر ؛ فحضر إلى الأزهر ، وجمع المشايخ ، وتشاوروا فيما بينهم ، ثم أغلقوا أبواب الجامع ، وأمروا الناس بإغلاق متاجرهم ، وركبوا فى اليوم التالى ، وتبعهم كثير من الناس متظاهرين وازدحموا أمام بيت إبراهيم بك

صاخبين ، فأرسل إليهم أيوب بك الدفتردار (مدير الشئون المالية) فسألهم عن مرادهم . فقالوا : نريد العدل وإبطال الحوادث ، ورفع المكوس التي ابتدعتموها . فقال : إن في إجابة هذه المطالب تضييقاً علينا في معاشنا فقالوا : ليس هذا بعذر عند الله ، وما الباعث على الإكثار من النفقات والمماليك ؟ والأمير يكون أميراً بالإعطاء لا بالأخذ ، فأمهلهم حتى يبلغ ذلك ، ورجع المشايخ إلى الأزهر ، وشايعهم أهل القاهرة في حركتهم وحضروا إلى الأزهر وباتوا فيه متحفزين للهياج ، فخشى مراد بك عاقبة هذا ، ورأى فيه شروعا في ثورة عليهم ، فبعث من يخبرهم بإجابة معظم مطالبهم ، ثم طلب أربعة مشايخ عينهم بأسمائهم ، فذهبوا إليه في قصره بالجيزة ، فلاطفهم وطلب إليهم السعي في الصلح . وفي اليوم الثالث اجتمع الأمراء والمشايخ في بيت إبراهيم بك وفيهم الشرقاوي ، وتم الصلح على رفع المظالم (ماعدا جمرك بولاق) وأن يكفوا أتباعهم عن مد أيديهم إلى أموال الناس ، ويسيروا فيهم سيرة حسنة ، وكتب القاضي حجة بذلك وأمضاها الباشا والأمراء ، وانجلت الفتنة وفرح الناس وسكن الحال .

هذه حادثة تنطق بما كان للشيخ من نفوذ ومكانة وحب للبلاد في عهد المماليك .

رياسته لديوان القاهرة

ولما فتح الفرنسيون مصر ، ودخلوا القاهرة بعد مقاومة عنيفة من المصريين ، واستقر بهم المقام ، شرع نابليون في وضع نظم الحكم في البلاد ، فأصدر منشوراً بأن تحكم القاهرة بديوان (مجلس) مؤلف من تسعة أعضاء تكون بيده السلطة المدنية للحكومة ، وأن يكون من تسعة مشايخ من ذوي الجاه ، وقد عين المنشور أسماءهم ، وكان منهم الشيخ الشرقاوي ، وأن ينتخب الديوان من بين أعضائه رئيساً وكاتم سر و . . ولجنة من ثلاثة لمراقبة الأسواق وتموين المدينة . . . وأن يجتمع هذا الديوان كل يوم من الظهر للنظر في شئون المدينة ، ويبقى ثلاثة أعضاء على الدوام بدار المجلس ، ويكون له رأى في تعيين كبار الموظفين وأمور أخرى .

وكذلك أمر بتأليف ديوان في كل مديرية مكون من سبعة أشخاص يسهرون على مصالح المديرية ، وقد رأى أعضاء الديوان في شخصية الشرقاوي خير رئيس للديوان ، فوقع اختيارهم عليه ، فأصبح الشيخ بذلك رئيس حكومة القاهرة المدنية مع رياسة الأزهر ، وغدا جديراً بلقب « ذي الرياستين » .

رياسته للديوان العام

ثم أراد نابليون بعد ذلك أن يستنير بآراء أعيان العاصمة وسائر الأقاليم في النظام النهائي للدواوين التي أسسها ، وفي إدارة الحكومة ، ووضع نظامها الإداري والمالي والقضائي ، فدعاهم إلى الاجتماع في جمعية عامة مثلت أعيان البلاد الذين لهم نفوذ بين الأهالي وامتياز في مراكزهم العلمية ، فاجتمعوا بدار ديوان القاهرة (وهو بيت قائد أغا بالأزبكية) ، وسميت هذه الجمعية بالديوان العام تمييزاً له من ديوان القاهرة ثم تليت خطبة الافتتاح ، والغرض من هذا الديوان ، ثم طلب إلى الأعضاء انتخاب رئيس منهم ، فقال بعض الحاضرين :

الشيخ الشرقاوى فأشار الترجمان بأن يكون الانتخاب بالاقتراع السرى ، فعملوا قرعة بأوراق فطلع الأكثر على الشيخ الشرقاوى ، فقال الترجمان حينئذ يكون الشيخ الشرقاوى هو الرئيس » — (الجبرتى) .

وكان مهمة هذا الديوان إبداء رأيه فى :ـ

(١) ماهو أصلح نظام لتأليف مجالس (دواوين) فى المديريات ؟

(٢) ماهو النظام الذى يجب وضعه للقضاء المدنى والجنائى ؟

(٣) ماهو التشريع الذى يكفل ضبط المواريث ومحو أنواع الشكاوى والإجحاف الموجود فى النظام الحالى؟

(٤) ماهى الإصلاحات والاقتراحات التى يراها الديوان لإثبات ملكية العقارات وفرض الضرائب ؟

ثم أخذ المجلس ينظر فى تلك الأمور . إذن كان هذا المجلس مجلس تشريع الأمة (بغض النظر عن قبول نابليون لما يراه أو رفضه) ونال الشيخ رياسته بالاقتراع السرى ، فأصبح رئيسا للهيئة التشريعية فى البلاد ، وفى ذلك خير شاهد على ازدياد نفوذه ، وعلو مكانته فى قومه .

ثم حدث أن قامت ثورة القاهرة الدامية احتجاجا على مظالم الفرنسيين ، وراح ضحيتها آلاف المصريين وبعض العلماء ، وبعد إخمادها بالحديد والنار ، أبطل نابليون الديوان عقابا لأهل القاهرة على تلك الثورة واستمر شهرين معطلا .

رياسته للديوان العمومى والخصوصى

ثم أعاد نابليون الديوان إرضاء لشعور المصريين ، ولكن على نظام جديد أوسع نطاقا من القديم ؛ فجعله مؤلفاً من مجلسين : « الديوان العمومى » (وسماه نابليون « الكبير ») ، و « الديوان الخصوصى » . فالعمومى ألف من ستين عضوا عينهم الفرنسيون تعييناً من أعيان المصريين وممثلى طبقاتهم ، وكان منهم الشيخ الشرقاوى وهؤلاء ينتخبون رئيس الديوان من بينهم ، ويجتمع الديوان بدعوة من حاكم القاهرة .

وقد اجتمع فى ١٨ من رجب سنة ١٢١٣هـ واستمر ثلاثة أيام ثم انفض ، ولا يجتمع إلا بدعوة أخرى ، وكان أمر تأسيسه ينص على أن ينتخب أعضاؤه من بينهم أعضاء الديوان الخصوصى وعددهم ١٤ عضواً ، ويكون انتخابهم بالأغلبية النسبية ، وهذا الديوان يجتمع كل يوم للنظر فى مصالح الناس ، وتوفير أسباب الراحة لهم ، وينتخب أعضاؤه من بينهم رئيساً ، وجعل للرئيس والأعضاء رواتب شهرية (للرئيس مائة ريال فى الشهر وللعضو ثمانون ريالا) . ثم جرى الانتخاب للرياسة فوقع اختيار الأعضاء على الشيخ الشرقاوى رئيساً لهذا الديوان المرة الثالثة ، وأخذ الديوان يجتمع كل يوم للنظر فى مصالح الناس ، وأصدر بياناً للشعب يحثه على الهدوء والسكينة ، ويعلن أن نابليون قد عفا عفواً شاملا عما وقع من الثوار ، وأعاد الديوان الخصوصى « لأجل قضاء حوائج الرعايا وحصول الراحة لأهل مصر من خاص وعام وتنظيمها على أكمل نظام وإحكام » . — (الجبرتى) .

ومعنى هذا أن ذلك الديوان كان كمجلس وزراء لذلك العهد ، يصرف شئون البلاد ويسهر على مصالحها

تحت إشراف الفرنسيين ، وكان الشيخ الشرقاوى رئيس هذا المجلس – إذن هو رئيس الحكومة التى تهيمن على شئون البلاد فى ذلك العهد .

وبعد فترة أبطل هذا الديوان بعد توقيع معاهدة العريش واستعداد الفرنسيين للجلاء ; ولما نقض الإنجليز المعاهدة ، ونشبت الثورة فى القاهرة ، وتجدد القتال استمر الديوان معطلا ، ولم يشأ القائد « كليبر » إعادته بعد إخماد الثورة إلى أن تولى القائد « مينو » القيادة العامة فشرع فى إرجاعه .

رياسته للحكومة مرة ثانية

أرجع القائد مينو الديوان ، ولكن على نظام جديد . فجعله مؤلفاً من تسعة أعضاء كلهم من المسلمين لاعتبارات سياسية عنده لاحاجة إلى بسطها هنا ; وكان من هؤلاء التسعة الشيخ الشرقاوى ، وقد انتخب رئيساً لهذا الديوان أيضا للمرة الرابعة . وإذا علمت أن « مينو » وسع فى اختصاص هذا الديوان عن سابقه علمت كذلك أنه الحكومة التى تدير شئون البلاد ، وأن الشيخ رئيس تلك الحكومة أيضا ، تلك رياسات أربع ظفر بها الشيخ إلى رياسته للأزهر أرى منها برهانا ساطعا على منزلته فى نفوس قومه ونفوس أعداء البلاد وإنها لمفخرة أى مفخرة له ولهم .

وطنية الشيخ ومواقفه من الفرنسيين

كان للشيخ إلى جانب نفوذه الدينى والسياسى وطنية قوية ، تحملها نفس أبية وتحميها غضبة مضرية ، فكان كلما أحس ظلما لوطنه أو مسا لكرامته ثار وغضب ، ودفع ذلك جهد طاقته ، لايبالى ماوراء ذلك من عاقبة .

وقد سخط عليه الفرنسيون ثلاث مرات ، وناله منهم عنت وإرهاق لمواقفه الوطنية . فأما الأولى فكانت حين دعا نابليون أعضاء ديوان القاهرة إلى بيته وأراد أن يلبسهم طيلسان الجمهورية الفرنسية ذا الثلاثة الألوان ، ووضع بيده الطيلسان على كتف الشيخ الشرقاوى رئيس الديوان ، تكريما له وتعظيما كما كان يدعى ; فما كان من الشيخ إلا أن رمى به الأرض غاضبا محنقا ، لأنه رأى فى ذلك مسا لوطنيته وكرامته ، ثم استقال من الديوان ، وضرب بذلك المثل الأعلى لأعضائه فى الشمم والشجاعة ، وعبثا حاول الترجمان أن يقنع المشايخ بأن إلباسهم هذا الطيلسان إنما هو تكريم لهم ، فغضب نابليون على الشيخ وقال : « إنه لايصلح للرياسة » .

هذا موقف للشرقاوى أمام نابليون وفى بيته . لايقفه إلا من أوتى حظا عظيما من الشجاعة والوطنية الصادقة ، ونحن نعلم من هو نابليون فى ذلك العصر ، وما سطوته وما جبروته .

أما الثانية فحين وقع ذلك الحادث المروع ، وهو اغتيال حياة القائد الفرنسى « كليبر » بخنجر سليمان الحلبى الذى حضر من حلب لهذا الغرض ، وثوى بالأزهر مع أربعة طلاب عرفهم ، وسرعان ما أحضر الفرنسيون الشيخ الشرقاوى ، لأنه شيخ الأزهر وزعيم مسموع الكلمة ، ومعه الشيخ العريشى قاضى مصر ، وحجزوهما إلى منتصف الليل ، وألزموهما البحث عن الأزهريين الأربعة الذين ذكرهم الحلبى فى اعترافه وإحضارهم ، ثم قبض عليهم ، وحوكم الجميع وقتلوا أشنع قتلة على نحو ما هو مبسوط فى كتب التاريخ ولايعنينى التعرض له .

(ملحوظة : لم أعرض لتلك الدواوين إلا بالقدر الذى يخص الشيخ الشرقاوى ، أما نظامها وأعمالها ورجالها فمبسوطة فى أسفار التاريخ) .

والذى أريد أن أسجله هنا أن محقق القضية الفرنسى حاول جهده فى التحقيق أن يجعل للشيخ الشرقاوى ضلعا فى الحادث حين كان يستجوب كلا منهم على حدة ، فلم يظفر منهم بذلك (يراجع محضر التحقيق فى كتب التاريخ) وإن دل ذلك على شئ فإنما يدل على حنق الفرنسيين عليه ، وأنهم يرون فيه عدواً لدوداً لهم ، مخلصا لوطنه . وقد حاولوا بعد ذلك مضايقة الأزهريين بطرق مختلفة ، فأغلق الشيخ أبواب المسجد الأزهرى وظل مغلقا حتى جلوا عن مصر .

وأما الثالثة فكانت عند قدوم الحملة الإنجليزية العثمانية إلى مصر ، واضطراب الفرنسيين لذلك ، وخصوصا عند احتلال الأتراك العريش ، فاستدعى المسيو « فوريه » الوكيل الفرنسى للديوان أعضاءه وأبلغهم أن ضرورة الحرب تقضى باعتقال بعض الأعيان ، وانتهى الأمر بالقبض على أربعة من أعضاء الديوان ، أولهم الشرقاوى ، وبعثوا بهم إلى القلعة ، وكلفوا باقى الأعضاء النظر فى شئون البلد ، ومكث المعتقلون مائة يوم فى سجنهم ، ثم أطلقوا بعد وضع شروط جلاء الفرنسيين عن مصر .

فى تلك المواقف الثلاثة ، وفى غيرها مما لم أذكره دليل صريح على وطنية الشرقاوى وحرصه على مصلحة الوطن ، والوطنى كما نعلم فى كل أمة غلبت على أمرها معنى معذب ، وإنه لعذاب عذب محمود الأثر .

مقاومته لمظالم الأتراك

لم يأل الشيخ جهدا فى خدمة الأمة بعد خروج الفرنسيين ، وظل قوى النفوذ مبسوط الجاه ، وكان له مع إخوان له من العلماء الأجلاء فضل فى حماية الشعب من مظالم الأتراك والوقوف فى طريقهم ، كلما أحسوا منهم عنتا وإرهاقا للشعب ، وإن ذلك لكثير ، ولأسق مثلا يبين عن ذلك :

أراد الوالى التركى (خورشيد باشا) فرض ضريبة جديدة على سكان القاهرة ، ليستطيع أداء رواتب الجند الدلاة حتى يجلوا عن المدينة إلى الجيزة كاخوانهم ، تهدئة للخواطر ، كما طلب العلماء من قبل . فأحدثت هذه الفكرة هياجا شديداً فى الخواطر (١٢ من صفر سنة ١٢٢٠) فاجتمع الزعماء فى دار المحكمة الكبرى (بيت القاضى) وفى مقدمتهم الشرقاوى ، لاختصام الوالى وإصدار قراراتهم فى مجلس الشرع . ولما علم الأهالى بذلك اجتمع منهم نحو أربعين ألفا منادين بالسخط على الأتراك ، ثم طلبوا من القاضى أن يرسل فى استدعاء وكلاء الوالى لحضروا ، وانعقد مجلس الشرع وعرض الزعماء ظلامة الشعب وحرروا مطالبهم : وأولها ألا تفرض ضريبة على المدينة من اليوم إلا إذا أقرها العلماء وكبار الأعيان . وثانيها أن تجلو الجنود عن القاهرة ، وتنتقل حامية المدينة إلى الجيزة . وثالثها ألا يسمح بدخول أى جندى إلى المدينة حاملا سلاحه . ورأى الوالى أن هذه الحركة خطيرة تكاد تقتلعه من منصبه . ولما وصلته رسالة القاضى أراد القبض على بعض العلماء ، وأرسل إليهم ، ففطنوا لمكيدته ولم يذهبوا ، فعد ذلك عصيانا وتمرداً عليه ورفض إجابة المطالب وكان ذلك معجلا بسير الحوادث لخير مصر ، وصدق قول المتنبي : « فربما صحت الأجسام بالعلل » .

اشتراكه فى تولية محمد على باشا عرش مصر

اجتمع وكلاء الشعب من العلماء فى ١٣ صفر سنة ١٢٢٠ هـ بدار المحكمة للتشاور فى الموقف ، واحتشدت الجماهير فى فناء المحكمة وحولها يؤيدون وكلاءهم ، وهناك اتفقت كلمة الشعب على عزل « خورشيد باشا » وتولية محمد على ، وأبلغوه ما اتفقوا عليه ، فأظهر تردداً حتى لايتهم بأنه المحرض على هذه الثورة ، فألح وكلاء الشعب عليه وقالوا جميعا : قد اخترناك برأى الجميع ، فقبل محمد على باشا ولاية الحكم ، ونهض الشيخان الجليلان السيد عمر مكرم والشيخ عبد الله الشرقاوى وألبساه خلعة الولاية ، وبذلك تمت مبايعة رئيس الأسرة العلوية ، وتجلت فى هـــذا العمل المجيد سلطة الأمة ممثلة فى أشخاص زعمائها وذوى الرأى فيها ، وتلك أول مرة فى تاريخ مصر الحديث يعزل فيها الوالى ويختار بدله بقوة الشعب وإرادته .

فجزى الله الشرقاوى وأعوانه خير الجزاء ، بما أسدوا إلى مصر من خير . وقد استمر الشيخ بعد ذلك ظهيراً لمحمد على باشا فى أثناء مقاومته الأتراك حتى توطد عرشه وثبت سلطانه .

وبعـــد

فهذه خلاصة موجزة لحياة الشيخ الشرقاوى ، استخرجتها من أحداث التاريخ فى عصره قدر استطاعتى ، وأرى فيها حياة موفقة ، ملؤها الفخار من الناحية الدينية والعلمية والسياسية ، بل هى جديرة أن تضعه فى صفوف العظماء الذين أسدوا إلى مصر أجل الخدمات فى عصرها الحديث ، ولو لم يكن له إلا اشتراكه فى تولية محمد على باشا عرش مصر ، وأنه ثانى اثنين ألبساه خلعة الولاية والحكم ، لكفاه فخراً وشرفا . ومن الذى يجهل أن محمداً عليا باشا قد بعث مصر من مرقدها ، وخلقها خلقا جديداً ، وبعث فيها الحياة بعد أن عدت عليها العوادى ، وعصفت بها رياح الأحداث فأرهقتها من أمرها عسرا ؟ ومن الذى ينكر بعد هذا أن الشيخ الشرقاوى ، ومن كان يظاهره من العلماء والزعماء ، قد أحبوا مصر ، ورأوا فى محمد على خير مخلص ينهض بها ، ويقيلها من عثارها ، ويرفع عنها حيف الزمان ، فصدقت فراستهم ، وتحققت أمنيتهم ، وكانوا فى هذا الاختيار جد موفقين ، ولأمتهم خير خادمين ؟ .

ومع هذا كله ، يرى بعض المؤرخين فى الشيخ الشرقاوى هنات ومآخذ ، كان أولى بمثله فى نظرهم أن يترفع عنها ، فيقولون : إنه كان يجامل الفرنسيين ، ويداريهم ، ويسلك معهم خطة المسالمة والمجاملة وأنه انتفع ماديا من وراء تلك الخطة ، ولو لم ينتفع من ورائها لكان محتملا أن يكون اتباعه إياها نتيجة اعتقاد منه بصلاحها للبلاد . ويعتمدون فى ذلك على قول الجبرتى حين ترجم الشيخ : « . . . وجعلوه رئيس الديوان ، وانتفع فى أيامهم بما يتحصل إليه من المعلوم المرتب له عن ذلك ، وقضايا وشفاعات لبعض الأخبار المصرية وجعالات على ذلك ، واستيلاء على تركات وودائع خرجت أربابها فى حادثة الفرنساوية وهلكوا ، واتسعت عليه الدنيا ، وزاد طمعه فيها ، واشترى داراً بظاهر الأزهر وهى واسعة . . . » .

وهذه العبارة على إجمالها وغموضها وفرض صحتها لاتلحق بالشيخ عاراً ، ولاتنقص من قدره أو تذهب

بشيء من أعماله المجيدة وحسناته الكثيرة ، ولا تضع من قدره الديني كما يقولون «فلعل له عذراً وأنت تلوم» فالرجل سليم الطوية نقي السريرة لم تشب نفسه بلؤم ولا خبث ، ولم يخالطها مكر الساسة ودهاؤهم : وأساليب السياسة وخداعها ، والبلاد أمام العدو القاهر ضعيفة لاحول لها ولا قوة فماذا كان في مقدور الشيخ أن يفعل والأمة في قبضة عدو قاهر جبار استطير شره في كل مكان ؟ ولم لا يكون مسلكه الذي عيب عليه هو خير مسلك في تلك الظروف القاسية أملاه عليه إخلاصه لبلاده ؟ وإلا فكم سياسي لعهدنا ، عهد الخداع السياسي ، سلك مسلكه في إبان العواصف السياسية حين تحكم العدو القوي في البلاد ، فجامل وحاول إنقاذ الأمة من شر يصيبها ، وضيم يلحق بها ، وخراب يدبر لها ! وكم من شيخ مثله أيسر بعد عسر ، واتسعت عليه الدنيا بعد ضيقها ، ولم يتهم بما اتهم به ! وكم من زعيم أمرع جنابه وأخصب زمانه بعد الإقلال ، ولم يقدح ذلك في زعامته ! وإذا كان مدى انتفاع الشيخ وطمعه في الدنيا شراء دار واسعة بظاهر الأزهر ، فقد هان الخطب ويسر الأمر ، وسقط كل عتب ولوم . وأيا ما كان الحال فتلك شبهات طالما ألقيت على الزعماء والعظماء في كل أمة وفي كل عصر ، وبخاصة عصور المحن ، ثم سطع عليها نور من عظمتهم بدد ظلماتها من حولهم . وبقيت سيرتهم في صحف التاريخ نبراساً لأمتهم ، ومثلا أعلى لها . رحم الله الشيخ وطيب ثراه وجزاه عن مصر أحسن الجزاء ؟

إبراهيم زاهر

المراقب المساعد بمنطقة الزقازيق

محمود باشا الفلكى

١٨١٥ — ١٨٨٥ م



(شكل ٤٥)

من أبناء مديرية الشرقية الذين حفل بآثارهم العلية البارزة تاريخ مصر المجيد ، وهو من بلدة الشبانات بالشرقية ، موطن أبيه وأسرته ، ولأخيه الشيخ أحمد الفلكى بها ضريح يزوره الناس ، ويقام له احتفال بمولده كل سنة .

جاء مولده وقت أن كانت والدته بمنزل أبيها بالحصة من أعمال مديرية الغربية فولد بها ، أتم ثقافته الابتدائية بمدرسة الإسكندرية ، ولما رأى أهله فيه ذكاء مشبوبا ، وفطنة متوقدة نظموه فى سلك تلاميذ مدرسة المهندسخانة بالقلعة على ميل منه ورغبة ، فتخرج فيها عالما بارز الشخصية فى الهندسة وعلم طبقات الأرض وما يتصل به من جغرافية وفلك ، فوكل إليه تدريس علوم التفاضل والتكامل والفلك بمدرسة المهندسخانة ببولاق أول عهدها بالوجود سنة ١٨٣٤ م . ففتحت مصر عينها على عالم يسأم الركود ، وينشد الحقيقة ويروم الكمال .

فأصدر تقويما عربيا سنة ١٨٤٦ ، وطبع بمطبعة بولاق ، ووضع باللغة الفرنسية رسالة فى المقاييس والمكاييل المصرية ، ترجمت إلى العربية وطبعت بالأستانة ، وترجم كتاب حساب التفاضل والتكامل .

وحين إقامته بباريس أتم دراسة علوم الفلك ، وزاول أعمال الرصد بمرصد باريس لم تخمد له جذوة ، ولم تركد له عزيمة فأصدر :-

(١) مذكرة عن التقاويم الإسلامية والإسرائيلية ، طبعت فى بروكسل .

(٢) « عن فعل الكينونة ، واتحاده مع فعل آخر .

(٣) « عن التقاويم قبل الإسلام ، وتمحيص التواريخ الإسلامية تمحيصا يكشف عنها الغموض والخلاف فى الرأى ؛ لحقق بنفسه تواريخ مولد النبى عليه الصلاة والسلام ووفاته ، ووفاة ابنه إبراهيم ، وتاريخ الهجرة .

وكان مما اعتمد عليه فى تحقيق التاريخ الهجرى الذى كان مثار خلاف بين المؤرخين أن النبى دخل المدينة وأهلها فى صيام يوم عاشورائهم ، وهو اليوم العاشر من شهر « تشرى » من السنة العبرية ، فوجد من هذا أن الهجرة تمت يوم الاثنين العشرين من شهر سبتمبر سنة ٦٢٢م بحساب السنة الشمسية ، وعزز هذا أن وجد من بين المخطوطات العربية بمكتبة باريس الكبرى ما قدر المدة بين أول يوم من السنة التى حاذت الشمس فيها أول دقيقة من الاعتدال الربيعى ، وأول يوم من سنة الهجرة بإحدى وخمسين سنة فارسية وأربعة أشهر وثمانية أيام ، فقابل بين التاريخين العبرى والهجرى ، وصح ما حققه صحة رجحت ما عداها من الأقوال .

ولما عاد إلى مصر عين عضوا بالمعهد العلمى المصرى ، ثم وكيلا له .

وقد عهد إليه الوالى محمد سعيد باشا عمل خريطة فلكية للقطر المصرى ، فرسم خريطة للوجه البحرى ، وتمت فى عهد الوالى إسماعيل باشا فأمر بطبعها فذاعت وانتشرت ، وطبعتها نظارة المعارف مصغرة فى أوائل كراسات تلاميذ المدارس ، أما خريطة الوجه القبلى فلم تطبع ، وينسب إليه أنه فى أثناء قيامه برسم خريطة الوجه القبلى الفلكية ، وقع نظره على مقياس أسوان فكشفه سنة ١٨٦٩ ، وعمل به إلى أن أقيم خزان أسوان سنة ١٩٠١ .

وأوفدته الحكومة عنها إلى المجمع الجغرافى بباريس وفينا وقدم إليه إذ ذاك اقتراحا بضرورة عمل محطات بترولوجية فى أنحاء القطر المصرى ، طبع فى نشرة المجمع سنة ١٨٨٠ .

وقد رسم خريطة لمدينة الإسكندرية طبعت ببولاق ووضع رسالة عنها وعن ضواحيها طبعت فى كوبنهاج ، وظهر له من البحث وما رآه من أعمدة وقصور قائمة تغطيها مياه البحر بالميناء الشرقية أن الاسكندرية الحالية جاثمة على صدر المدينة التى بناها الاسكندر ، وله فيها شارع سمى باسمه .

وله محاضرة قيمة فى ٢٨ صفحة ألقيت بنادى Denites بالإسكندرية بين فيها عمر الهرم والغرض من بنائه ، ورسالة أثبت بها أن مكعب الذراع البلدى يعادل الأردب المصرى .

وأصدر نتائج هجرية ، وأشرف على أخرى من عمل غيره ضمنها بحوثا عن أرض مصر عاليها وواطيها ونيلها ، وترعها ، وجسورها ، وريها ، وتغير أجوائها ، وملخصا للأرصاد الجوية التى سجلت بالمرصد الخديوى المصرى ١٨٦٨ — ١٨٧٧ ، وميزانية لأرض الوجه القبلى من الجيزة إلى سوهاج .

وبجريدة روضة المدارس الصادرة فى ١٥ من ذى القعدة سنة ١٢٩١ بيان ما شاهده بنفسه بالمرصد الخديوى بالعباسية فى يوم الأربعاء الآخر من شهر شوال سنة ١٢٩١ عن مرور كوكب الزهرة على قرص الشمس .

ومن آثاره العلمية الجليلة أن وضع مدفع الظهر فى خط الزوال بالقلعة ، كما أنشأ على سطح منزله مزولة تبين ساعات النهار وأنصافها وأرباعها .

ولعلك ترى ذكاءه ودقته وبصره بالأمور وصدق تدبيرها فيما يلى :-

فقد أراد المغفور له عباس باشا الأول وضع ميزانية للمدارس الملكية ، فتقدم إليه المسيو لاجير بمذكرة يستلزم تنفيذ ما جاء فيها نفقات لاتقل عن مائة ألف جنيه ، فعكف على دراستها محمود باشا الفلكى ، وأخرج مذكرة له ، أصابت الهدف ، وحققت المراد بنفقات مقدارها خمسة آلاف جنيه .

وكان مناط الفخار ومثار الإعجاب فيما أسند إليه من وظائف الحكومة من نظارة مدرسة المهندسخانة ثم نظارة الأشغال العمومية ثم وكالة نظارة المعارف العمومية ثم نظارتها التى كانت آخر عهده بالحياة ، فقد فجأه القدر المحتوم على غير إنذار من مرض أو غيره ، وكان ذلك يوم ١٩ من يوليه سنة ١٨٨٥ ودفن بمقبرة الإمام الشافعى ، وأقامت كريمته مسجدا بجواره سمى باسمه .

وقد انتقل إلى رحمة ربه وهو مشغوف بخدمة بلاده ، فألهم الله كريمته عطية هانم أن تقدم إلى جلالة المليك المغفور له ، فؤاد الأول ، مكتبة أبيها الزاخرة بالكتب وآثاره القيمة ليتفضل جلالته فيبرم فيها أمره بإهدائها إلى الجهة التى تكون فيها أعم نفعا ، وأجدى أثرا ، فتقبلها جلالته قبولا حسنا وأيد بها مكتبة الجمعية الخيرية الإسلامية ، وأمر أن ينسب ميدان الأزهار إلى والدها ، ويسمى باسمه .

كما تفضل فأمر أن يبعث حضرة صاحب السعادة محافظ القاهرة محمود باشا صدقى لتبليغها سامى شكره ، وجليل تقديره .

وقد نشرت ذلك جريدة الأهرام الصادرة يوم ١٧ من مايو سنة ١٩٣٥

وبعد :

فهذه لمحة عن عظيم من عظماء الشرقية ، وعالم من علمائها الأفذاذ نضعها أمام أبنائها لتكون أسوة حسنة لمن يريد لبلاده نفعا ، ولنفسه حياة خالدة ، وذكرى عاطرة ؟

أمين أحمد العطار

ناظر مدرسة الفتيات الابتدائية

أحمـــد عرابى

أو

صفحة من تاريخ الشرقية المجيد

« لانجاح لأمة نبذت أحكام دينها ظهريا ،
ولا نجاح لقوم استعبدوا لشهواتهم »

عرابى



(شكل ٤٦)

كثيراً ما يحدثك عجوز بلغ من العمر أرذله عن ذكريات ماضيه ، وأيام حياته قائلا « كان ذلك أيام هوجة عرابى ، أو كان ذلك قبل هوجة عرابى بكذا أو بعدها بكذا » . عند ذلك تتساءل : ما الذى دعا هذا العجوز أن يؤرخ حياته على هذا النحو ؟ والجواب على ذلك يحتاج إلى روية وتفكير ، ويستدعى اهتماما خاصاً بأمر عرابى وثورته التى أصبح منها دليل تاريخى عظيم ، فلابد أن يكون هناك سبب لتخليد ذكراه وإن

كنا لانرى له آثاراً وثماراً قائمة فى ربوع البلاد نلمسها ونحسها ، والواقع أننا نجحف بحق عرابى حين نجرد شجرة حياته من الثمار والقطوف . فلكل نبات زهر وثمر ، ولكن قد يحال بين الزهر والإثمار ، فيذهب هباء ، اللهم إلا أريجه الطيب وشذاه الذكى الذى يملأ الفضاء ، وتبقى رائحته مائلة فى الأنوف . وكذلك الحال مع أحمد عرابى وأعماله ، فقد جاهد وثابر حتى أزهرت جهوده ، ولكن الليالى لم تسعفه ، فذبل الزهر ولم يبق إلا الأثر ، أثر الذكرى والإعجاب بحياة ذلك البطل الذى امتلأت نفسه حبا لوطنه وتعلقت بأهداب قوميته، فغدت حياته مثالا عاليا لعلوّ الهمة وصدق العزيمة والجهاد فى سبيل تحقيق المبدأ .

ذلك هو عرابى رجل وصل بفضل شجاعته إلى مكان مكنه من القيام فى وجه الظلم ، والنداء بصوت مرتفع إلى التمسك بأهداب الاتحاد ، والمطالبة بالحقوق وسط قوم استكانوا للذل ورضوا بالهوان ، ووقف فى وجه عدو جبار قوى الجانب والصولة . وسعى إلى إنقاذ بلاده من براثن الطغيان الأجنبى . ولكن الزمان شيمته الغدر ، فلا جرم عليك يا عرابى إذا ما جرى عليك القدر بالخذلان .

أما حياة ذلك الرجل فقد يتبادر إلى الذهن أن فيها شذوذاً أو غرابة ، إذ كيف يتسنى لفلاح هو إلى الجهل أقرب منه إلى العلم أن يصبح فى وقت من الأوقات زعيم أمة بأسرها مهيمنا على قلوبها مسيطراً على أهوائها ؟ ! !

ولعل ذلك راجع إلى ظروفه وأطوار حياته ، أو إلى ماحمله فى نفسه من سمو المبدأ ، أو إلى الاثنين معا . وأعتقد أن سبب غرس بذور الثورة فى نفس أحمد عرابى يرجع إلى نشأته فى الريف وخضوعه تحت أعباء أثقال كان ينوء بحملها أبناء هذه البلاد فى ذلك الوقت ، ثم إن انتقاله إلى الجيش ووقوفه على مافيه من نعم تسبغ على الأتراك ، ورتب تمنح لهم بلا مسوغ ، ذلك الفرق الشاسع بين أهل البلاد ونزلائها ، وذلك الغبن والاضطهاد ، والظلم الضارب فى ربوع البلاد ، كل ذلك كان من أهم الدواعى التى جعلت عرابى يرفع صوته بالثورة ويرفع علمها الأول فى سبيل رفع الظلم والقضاء على امتيازات الأجانب .

ولد أحمد عرابى فى ٧ صفر سنة ١٢٥٧ هجرية (نوفمبر سنة ١٨٤١) بقرية « هرية رزنة » من أعمال مركز الزقازيق ، وتبعد عنها بميلين من الجهة الشرقية . وعائلته عريقة فى النسب متعددة الفروع ، وأقدم فروعها عائلة « المقالدة » الموجودة بالخطارة الصغرى من أعمال مركز فاقوس . ويتصل نسب هذه العائلة بالحسين سبط رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فهى من أشرف العائلات نسبا وحسبا .

كان والد أحمد عرابى شيخا جليلا على حظ من العلم والتقوى ، معروفا بالأمانة والعفة ، رئيسا على عشيرته ، وكان يقوم بتعليم القرآن الشريف فى مكتبه بالقرية . وفى هذا المكتب تعلم ولده أحمد مبادئ القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم . وتوفى هذا العاهل الكريم وابنه فى الثامنة من عمره ، فقام على تربيته أخوه الأكبر ولحق بالأزهر الشريف حيث ألم بطرف من علوم الدين واللغة مما كان له أثر قوى فى مستقبل حياته .

انقطع عرابى عن الأزهر وبقى فى قريته يرتل القرآن ويقيم حلقات الذكر مقلداً فى ذلك رجال التصوف ، ولعل السبب فى تغلغل تلك العقائد الصوفية فى نفسه راجع إلى تلك الفترة من حياته .

لحق عرابى بالخدمة العسكرية عند ما أصدر سعيد باشا قراراً يقضى بدخول أبناء المشايخ ميدان الجندية ، وكان ذلك فى ١٥ ربيع الأول سنة ١٢٧١ هجرية . وبعد مضى ستة أعوام وصل إلى رتبة قائمقام وهى الرتبة التى لم يسبقه إليها أحد من المصريين . وما ذلك إلا بفضل جده واجتهاده وإقباله على الجندية بنفس راضية طموحة إلى العلا ، ومثابرته على تعلم قوانينها . ويستدل من تاريخه كما اعترف به فى كتابه ، كشف الستار عن سر الأسرار ، أن تلك الفترة كانت أسعد أيامه لأنه قضاها عزيزاً مكرما عند سعيد باشا ، الذى كثيراً ما كان يشركه فى ترتيب المناورات الحربية ، وينيبه عنه فى تلقينها إلى أكابر الضباط على مسمع منه . ولشدة إعجابه به أهدى إليه كتاب ، تاريخ نابليون ، باللغة العربية ، فكان هذا الكتاب سببا فى انكباب عرابى على مطالعة كثير من التواريخ العربية مما قوى فيه الاعتزاز بالقومية والثبات على المبدإ والعمل على حفظ البلاد بعيدة عن سيطرة الأجانب وسلطانهم .

وحدث بعد تولى الخديو إسماعيل الحكم أن حقد بعض ضباط الجيش من الجراكسة على عرابى ، وعملوا على إقصائه من الخدمة العسكرية ، ونجحوا فى ذلك ظلما وعدوانا ، ولكنه لم يلبث طويلا حتى تمكن من إقناع الخديو بمظلمته ، وتمكن من استرجاع مكانته ، وكانت تلك أول مظلمة وقع فيها عرابى مما زاد كرهه للأجانب ، وتطلعه إلى حال يسود فيها العدل والإنصاف .

وفى سنة ١٢٩٢ عين عرابى مأموراً للحملة الحبشية فى مصوع ، مكلفا بإيصال الذخيرة إلى الجيش أينما كان . وقد كان من حسن تصريفه للأمور ماحاز إعجاب الجند وتقدير الضباط . ولكن الحملة منيت بالفشل ، وعاد عرابى مع باقى المهزومين ، واتفق فى ذلك الوقت أن قام بعض الضباط وتلاميذ الحربية بمظاهرة مطالبين بحقوقهم ومرتباتهم المتأخرة ، وهجموا على وزارة المالية ، وأطلقوا النار على من فيها ، وأهانوا وزيرها . وكان فى ذلك مظلمة جديدة لحقت بعرابى ، إذ اتهم بأنه من الذين هيجوا المتظاهرين أو أوعزوا إليهم بذلك ، ولكنه تمكن من إبعاد التهمة عنه وتبرئة نفسه وإخوانه منها . وانتهى عهد إسماعيل وعرابى فيه هدفا للمظالم والاتهامات ، ولم يلق فيه إلا الغبن فقد رقى من كان دونه إلى رتبة أميرآلاى بينما ظل هو برتبة قائمقام مدة تسع عشرة سنة تحملها بكل صبر وثبات .

ولما تولى الخديو توفيق أنعم عليه برتبة أميرآلاى فى رجب سنة ١٢٩٦ ، وكان إذ ذاك ناظر الجهادية رجلا جركسى الأصل متعصبا لبنى جنسه هو ، عثمان رفقى ، يعمل على قصر رتب الجيش الرفيعة على الطبقة العالية من الجراكسة ، ولتحقيق أغراضه أصدر أمراً يقضى بمنع الترقى من تحت السلاح ، أى أن الجنود لايحق لهم أن يصبحوا ضباطا ليحول بذلك بين المصريين ومراتب الجيش العالية .

ولم يقتصر فى إجرامه على ذلك بل تمادى فى إثمه فأقصى بعض كبار الضباط المصريين من الجيش وأبدلهم بغيرهم من الجراكسة ، فكان طبيعيا أن يتذمر الضباط المصريون وأن يحنقوا على هذا الوزير الجاهل فاجتمعوا فى بيت عرابى الذى كان مسيطراً على قلوبهم بحميد خصاله وعظيم شجاعته ، وكان أن اختاروه نائبا عنهم ورئيسا لهم فى تقديم طلباتهم ، وأقسموا ألا يألوا جهداً فى سبيل نصرته والوقوف عند أوامره ، وهنا يجوز لى أن أقول إن الدور المهم من حياة عرابى يبدأ من ذلك التاريخ .

تقدم عرابى ومعه رفيقاه عبد العال حلمى وعلى فهمى بالشكوى إلى رئيس النظار رياض باشا طالبين عزل ناظر الجهادية وتعيين غيره من أبناء الوطن ، وإبلاغ الجيش العامل إلى ١٨٠٠٠ ، وتعديل قوانين العسكرية بشكل يضمن العدل والمساواة بين جميع أفراد الجيش.

عظمت دهشة الخديو ونظاره لذلك وعدوه عصيانا من الجيش وعقدوا النية على القضاء عليه قضاء مبرما ، وكان حكم المجلس الذى تكون لفحص هذه الشكوى فى حضرة الخديو يقضى بإيقاف الضباط الثلاثة الذين قدموا طلبات الجيش وتشكيل مجلس عسكرى لمحاكمتهم ، ولكن تعذر على الوزارة اعتقال هؤلاء الضباط ، فلجأت إلى الخدعة والتغرير ، فدعتهم إلى نظارة الحربية بحجة النظر فى خطة الاحتفال المزمع إقامته لمناسبة زفاف إحدى الأميرات ، ولكن انكشف السر للضباط وعلموا بالمكيدة من صاحب لهم فى القصر، فكانوا أسرع للاحتياط منهم إلى تلبية الدعوة ، واتخذوا العدة لتخليصهم من يد الظلم الغاشمة على أيدى الجند المخلصين فكان فى ذلك دليل على التفاف الجيش حول زعمائه وإن شئت فقل حول زعيمه عرابى ، وتحقيق لمطالب الجند إلى حد بعيد ، فقد عزل عثمان رفقى ، ووعد الزعماء وعداً صادقا على العمل بما يحقق المطالبين الآخرين. ثم إن الأمة بأسرها، وبعبارة أدق إن طبقاتها المستنيرة قد تبينت فجأة أنها ليست من الضعف حيث ظنت نفسها وأن لها فى الجيش قوة طبيعية متجمعة لا يستهان بها ، فإذا استطاعت أن تضمه إلى جانبها فى قضية الإصلاح السياسى فإنه لابد قاض على ما حاق بالأمة من شدة وهوان طال عهدهما ، وسرعان ما أصبح عرابى وأصحابه بجراءتهم وحركتهم الناجحة معقد آمال الأمة وموضع إعجابها ، واستحال عرابى رجل مصر المشار إليه بالبنان ، ولقب « بالرجل الوحيد » . وما هو إلا قليل من الزمن حتى توثقت العلاقات بينه وبين أكثر الزعماء السياسيين فى ذلك الزمن .

وتلا ذلك وقت كان فيه عرابى ومحمود سامى وزير الحربية الجديد هدفا لمضايقات حقيرة يدبرها المراقبان الماليان ، حتى لقد أحيط عرابى بالجواسيس وشاع فى القوم خبر مؤداه أن مؤامرة خبيثة تدبر لاغتيال عرابى وبعض كبار رفاقه ، وقيل إن رياض باشا رئيس الوزارة كانت له يد فى ذلك . والدليل على ذلك أنه أراد أن يرسل الفرقتين اللتين يقودهما عرابى وعبد العال حلمى إلى أطراف البلاد إحداهما إلى الإسكندرية والأخرى إلى دمياط . ولكن محمود سامى عارض فى ذلك معارضة انتهت باستقالته وتعيين صهر الخديوى داود باشا بدله الذى أصدر الأمر طبقا لرغبة رياض بإبعاد الفرقتين وكان ذلك فى ٨ سبتمبر سنة ١٨٨١ ، فعارض عرابى الأمر وصمم على عدم الطاعة ، ورأى الفرصة سانحة للقيام بحركة جديدة يكون من شأنها أن ترفع من قدر الجيش وأن تحقق مطالبه القديمة خصوصا بعد أن طالت مماطلة الخديو بشأنها . فبعث إلى الخديو يخبره بحضوره والجند معه إلى ميدان عابدين ليقدموا له مطالب الجيش والأمة وفى صبيحة ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ سار بفرقته وبفرق زملائه من فرسان ومشاة ومدفعية وغير ذلك وعسكر أمام قصر عابدين .

ولما أقبل الخديو ومعه مستشاره رياض والسير أوكلند كلفن المراقب الإنجليزى العام وبعض كبار الضباط ، تقدم عرابى على صهوة جواده لمقابلتهم ومن خلفه ثلة من الضباط ، وكان المنظر رهيباً للغاية ، ولما دنا عرابى وموكبه من الخديو صاح الأخير غاضبا « ترجل واغمد سيفك » ففعل عرابى . وفى هذه اللحظة أشار المستر

كوكس على الخديو أن يطلق غدارته على عرابي ليقتله رمياً بالرصاص على مشهد من جنوده ، ولكن الخديو لم يكن من الشجاعة بحيث يستطيع ذلك وخصوصا وجود الضباط شاهرين أسلحتهم خلف عرابي ، وعدم إذعانهم لأمر الخديو بأن يعودوا إلى صفوفهم . وهنا دار الحديث بين الخديو وعرابي ونحن نسوقه كدليل على شجاعة عرابي وسرعة خاطره .

قال الخديو : « ماهى أسباب حضورك بالجيش إلى هنا ؟ » .

فأجاب عرابي : « جئنا يامولاى لنعرض عليك طلبات الجيش والأمة ولكنها طلبات عادلة » .

قال الخديو : « وما هى ؟ » فأجاب عرابي : « هى إسقاط الوزارة المستبدة ، وتشكيل مجلس نواب على النسق الأوربي ، وإبلاغ الجيش إلى العدد المعين فى الفرمانات السلطانية التى أمرتم بها » .

فقال الخديو مغتاظا : « هذه كلها طلبات لا حق لكم فيها ، وأنا ورثت ملك هذه البلاد عن آبائى وأجدادى ، وما أنتم إلا عبيد إحساناتنا » .

فأجاب عرابي : « لقد خلقنا الله أحراراً ولم يخلقنا تراثا وعقارا — فوالله الذى لا إله إلا هو إننا سوف لانورث ولا نستعبد بعد اليوم » .

من هذا يتضح لنا إلى أى مدى كانت شجاعة عرابي وجرأته .

وبعد انتهاء هذه الحادثة دخل الخديو إلى القصر حيث أخذ فى بحث طلبات عرابي بينما ظل المستر كوكس رسولا بين الخديو وعرابي يحمل كلام كل إلى الآخر . وقد دلت إجابة عرابي على أسئلة هذا الرسول على شىء كثير من الشجاعة الأدبية وسرعة الخاطر . وأخيراً انتهى الأمر بانتصار عرابي نصراً كاملا فقد أجيبت طلباته جميعها وعاد الجيش بين التهليل وإعجاب الأهالى إلى مرابضه .

وتقدم عرابي بالشكر إلى الخديو وساد السلام ظاهريا بين الخديو والجيش وتعين شريف باشا رئيسا للنظارة الجديدة وكلفه الخديو وضع لائحة جديدة لمجلس شورى الأمة المزمع تكوينه . وبالجملة سارت الأمور حسبما أراد عرابي ، ثم تلا ذلك حضور وفد عثمانى ليستطلع أحوال مصر ، وقر رأى الوزارة على أن ينتقل عرابي بآلايه إلى رأس الوادى بالشرقية وأن ينتقل عبد العال حلمى بآلايه إلى دمياط وكان ذلك عن رغبة عرابي أيضا . فانتقل إلى مقره الجديد بين مظاهر الحفاوة والتكريم وودعه أهل القاهرة بمظاهر التقدير تحيط به الأقوام وتعزف من حوله الموسيقى ويتبارى الخطباء أمام موكبه ، ولما وصل مدينة الزقازيق خطب فيها عرابي خطبة طويلة جاء فيها : « أنا أخوكم فى الوطنية . واسمى أحمد عرابي . ولدت فى بلدة « هرية رزنة » من بلاد الشرقية هذه . وها أنذا واقف بين أيدى الأهل والخلان ، وقد بلغكم ما طلبناه من قطع عرق الاستبداد وتحرير البلاد وأهلها ، وبعناية الله سبحانه وتعالى منحنا مولانا الخديو هذه الأمنية . فنحن لم نخرج من القاهرة عصيانا ولا تظاهرا بعدوان . واعلموا أن البلاد محتاجة إلى الخدمة بالقوة والفكر والعمل . أما القوة فنحن رجالها ، ولا نثنى عن عزمنا وفى الجسم نفس . وأما الفكر فهو منوط بأميرنا الأعظم ووزرائه الكرام وهم لايهنأ لهم عيش إلا إذا طاب لنا ، ولا يدركون الراحة إلا بأمننا . وأما العمل فهو منوط بكم فإن القوة والفكر يعطلان بفقد ثروة تربتنا الطيبة المباركة . . . » .

وبعد استقرار عرابى فى مكانه الجديد بيومين دعى مع عدد كبير من ضباطه إلى وليمة أقامها أمين بك الشمسى رئيس تجار الزقازيق تكريماً لهم ، ثم توالت إقامة الولائم للغرض نفسه منها وليمة أحمد بك السيد أباظة ، بشرويدة ، ووليمة الشيخ محجوب عمدة العصلوجى ، ووليمة سليمان بك السيد أباظة ووليمة سليمان باشا أباظة ، وغيره من وجوه الشرقية الذين أرادوا الاحتفاء بابن مديريتهم وإظهار تقديرهم وإعجابهم به . وأثناء إقامته برأس الوادى دعى لوضع الحجر الأساسى للمدرسة الابتدائية الأميرية بالزقازيق ، وخطب خطبة فى مزايا التعليم ، وفضل العالم على الجاهل ، ونوه بوجوب الاستعداد لخدمة البلاد فى المستقبل .

وحدث أثناء إقامة عرابى بفرقته على رأس الوادى أن شاع فى دوائر القاهرة السياسية أن عرابى يطوف بالمدن والقرى وبعض العمد والمشايخ على وجوب مؤازرته فى مشروعاته الوطنية ، ويبث أفكاره وآراءه . فخاف عرابى عواقب ذلك وطلب عودته إلى القاهرة ، فأجيب إلى طلبه وأعيد وكيلا لنظارة الحربية ثم ناظراً لها فى عهد وزارة محمود سامى أو وزارة الثورة ، وكان بيته فى هذه المدة مهبط المتظلمين والشكاة من كل صوب ومن كل ناحية ، وكان يقصده الصحافيون مصريون وأجانب لاستطلاع أخباره وكشف خططه وتدابيره ، وهو منهم على حذر شديد وخصوصاً الجواسيس الذين كثر اهتمامهم بأحواله .

وكان عرابى فى هذه المدة منصرفا إلى الجيش يعمل على زيادة عدده واستكمال عدده — إلى أن علم بمؤامرة لاغتياله يدبرها ضباط من الجراكسة وعلى رأسهم عثمان رفقى وزير الحربية السابق فأسرع بالقبض على هذه الفئة ونشأ الخلاف بين الوزارة والخديو بشأن عقابهم ، وهنا يظهر أثر اليد الأجنبية التى انتهزت الفرصة لإثارة الجفاء بين الخديو ووزرائه ، وفعلا نجحت فى ذلك إلى حد بعيد ، فوقع الشقاق بين الخديو والنظار ، وظهر الخديو بمظهر لا يتفق مع كرامته ، وعز على النظار أن يروا منه ما رأوا وزاد حنقهم عليه حتى إنهم فكروا فى خلعه من ولاية مصر ، فدعوا مجلس النواب للاجتماع بدون رأى الخديو ليقرروا ما يرونه لازما بشأن ذلك الخديو الذى أصبح فى نظرهم ألعوبة فى يد الأجانب ، ولكن انجلترا وفرنسا اللتين غررتا بالخديو لم تتركاه وحيداً بل أرسلتا مذكرة مشتركة تذكران فيها أنهما مستعدتان للوقوف بجوار الخديو وتطلبان عزل عرابى وإبعاده عن مصر وإقالة الوزارة القائمة ، وتعزيزاً لذلك وصل إلى الاسكندرية أسطول انجليزى فرنسى ، فاستاء النظار أشد الاستياء ، ولم يسعهم إلا الاستقالة ، ولم يقبل رياسة الوزارة يومها أحد ، ولكن منزلة عرابى بين الجند جعلتهم يطالبون بوجوب بقائه وزيراً للحربية ، وظلت دفة الأمور فى يده بتفويض من الخديو إلى أن قبل الوزارة راغب باشا ، وفى ذلك الحين بينما كانت حوادث السياسة تتعاقب بسرعة . كان ذكر عرابى يسرى فى البلاد حتى طبقت سيرته الآفاق وأعلن كثير من وجوه الأمة من كتاب وخطباء إلى أعيان وأغنياء انضمامهم تحت لوائه ، فأصبح القوم يدينون له بالحب والعطف والتقدير .

وكان الأسطول الانجليزى الراسى فى مياه الاسكندرية يتحين الفرص للهجوم فكان أن تذرع رئيسه واهى الأسباب لضرب الإسكندرية بالقذائف ، وتم له إنزال الجنود بها والاستيلاء عليها فى مدة يومين ، وكان ذلك بموافقة الخديو إن لم يكن بتدبيره .

لقد حانت ساعة العمل الحقة ، وأصبح على عرابى أن يتقدم بجيشه لإنقاذ أمته من يد العدو الغاصبة ، فأخذ العدة وأقام الحصون ليقف فى وجه الانجليز الذين انساقت جيوشهم من الاسكندرية للاستيلاء على القطر المصرى ، فعسكر فى منطقة كفر الدوار . ولما اتضح للانجليز قوة عرابى وعدم استطاعتهم أن يتغلبوا عليه ، عولوا على الدخول من الجهة الشرقية ، وحدث فى أثناء ذلك أن أرسل الخديو إلى عرابى يطلب إيقاف الخطط الحربية مدعيا أن الانجليز ليس من غرضهم إلا الإصلاح والمصلحة العامة ، ولكن عرابى لم يحفل به ، بل شكل مجلسا من بعض النظار ووكلاء النظارات وقرروا خيانة الخديو لوطنه وأنه لم يعد مالكا لأى سلطة على البلاد مادام قد اشترك فى خيانتها ، أو بالأحرى أنه لم يعد خديويا على مصر . وعندما علم عرابى بانتقال الانجليز إلى المنطقة الشرقية ، سارع إلى تحصين منطقة التل الكبير إلى الإسماعيلية حيث دارت أحسم المواقع بين الجيشين . وكان النصر متوقعا لعرابى وجيشه لولا ماقدمه بعض الأعراب الخاسرين من إثم فظيع فى حق الوطن إذ انقادوا للدهاء الانجليزى فباعوا وطنهم وجيشهم بثمن بخس دراهم معدودات ، وتمكن الانجليز بمساعدة هؤلاء الجواسيس الأنذال أن يبتلعوا الجيش المصرى لقمة سائغة فى فجر ١٣ سبتمبر سنة ١٨٨٢ بعد أن أمنوا شر العدو ركونا منهم إلى غش الأعراب المذكورين .

فرّ عرابى إلى القاهرة ودخلها يبكى ، فوجد القوم فى المساجد والطرق يرتلون الدعوات الصالحات أن يشمل الله بنصره عرابى وجيشه ، وماعلموا أن القضاء قدسبق بحكمه وإرادته . واجتمع عرابى بوكلاء الوزارات وبعض الرجال الحربيين فى القاهرة ، واقترح إقامة خط دفاع شمالى القاهرة ولكن الاقتراح قوبل بالرفض وانتهى الأمر باحتلال الانجليز مصر . ثم قدم عرابى للمحاكمة مع إخوانه رجال الثورة ، فحكم عليه بالاعدام من مجلس الانجليز ولكن الخديو توسط فى الأمر فأبدل بالحكم نفيه إلى جزيرة سيلان مع بقية رفاقه ، وقضى فى منفاه نحو ١٩ سنة قضاها بين آلام وعلل لرداءة المناخ . وكان فى منفاه كما كان فى بلاده مثالا للثبات والشجاعة ، وكان إخوانه لشدة آلامهم يلقون تبعة ذلك المآل على بعضهم بعضاً ، ولكن عرابى احتفظ بعقيدته وكان يقول : « أنا الذى دعوتكم إلى مادعوت ، فعلىّ وحدى تقع تبعة آلامكم هذه ؛ كما إلىّ وحدى سيعود شرف الإيمان بحب الوطن . وتقدير أبنائه وتخليد ذكراى ، ولاتظنوا الله غافلا عما يعمل الظالمون » .

وصدر العفو عنه فى سنة ١٩٠١ فعاد إلى مصر مع زميله على باشا فهمى . وعاش بها نحو عشر سنين قضاها فى قريته بعيداً عن السياسة مجرداً من رتبه وأملاكه إلى أن مات فى ٢١ سبتمبر سنة ١٩١١ . وقد وضع قبل وفاته مذكرات عن الثورة العرابية سماها « كشف الستار عن سر الأسرار » ضمنها وقائعه الحربية ومشكلات السياسة فى أيامه .

نظرة تحليلية

قال السير أوكلند كلفن المراقب الانجليزى بعد اجتماع له بعرابى عقب عودته من رأس الوادى : « إن الأثر الذى تركه عرابى فى نفسى باعتداله فى كلامه ورزانته ولهجته السليمة هو أنه رجل مخلص ماضى العزيمة ولكنه غير عملى » . ذلك هو أصدق حكم يوضح لنا شخصية عرابى الكاملة ، نعم لقد كان مخلصاً فى حبه لوطنه وتعلقه بقوميته ، ماضى العزيمة فى أعماله وآرائه ولكنه لم يكن عملياً كما يجب أن يكون رئيس كل ثورة ليعرف كيف يضع التصميم اللازم وكيف يحذر العدو .

حقاً إنه كان وطنياً بمعنى الكلمة ، غيوراً على مصالح الوطن ، مضحياً فى سبيلها بكل غال ورخيص . شجاعاً فى ميدان القتال ، جريئاً فى المواقف عصيبها وحرجها — ولكن لم يكتمل عنده حظ بؤهله لوضع الخطط الناجحة : كالدهاء والخداع .

ومهما يكن من شىء فحياة ذلك الرجل تعتبر بحق مثالا للبطولة والشجاعة والإخلاص فى سبيل البلاد والتفانى فى ميدان الدفاع عن العقيدة والثبات على المبدأ .

نصر محمد سالم وباب

المغفور له إسماعيل أباظه باشا


(شكل ٤٧)

ولد بكفر أباظة من قرى مديرية الشرقية عام ١٢٧١ هجرية (١٨٥٤ ميلادية) ومضى زمن الطفولة فى مدرسة خاصة بأبناء الأسرة الأباظية بناحية شرويدة من ضواحى الزقازيق ، ثم التحق بمدرسة بنها الابتدائية ثم مدرسة المبتديان ثم المدرسة التجهيزية بدرب الجماميز ثم مدرسة الإدارة (الحقوق الآن) حيث قرأ بها العلوم واللغات والشريعة الإسلامية والقوانين الأفرنجية . ثم توفى والده المغفور له السيد باشا أباظة الذى كان مدير عموم الوجه البحرى سنة ١٢٩٢ هـ . فعاد إلى كفر أباظة حيث زاول الأعمال الزراعية وأنشأ عزبة خاصة له بيردين لإقامته ثم عين بوظيفة معاون أول لمديرية الشرقية ثم تدرج فى الترقية بالوظائف الإدارية حتى وصل إلى وظيفة وكيل مديرية .

بعد انتهاء الثورة العرابية صرفته ميوله الوطنية إلى الحياة الاستقلالية الحرة فاشتغل بالمحاماة ثم بالصحافة زمنا غير قليل ومال بطبيعته الوثابة ومواهبه الممتازة إلى السياسة فسرعان ما علا شأنه وتألق نجمه وسما ذكره وارتفع قدره فصار محاميا قديرا وكاتبا ممتازا وخطيبا برلمانيا من الطراز الأول وسياسيا محنكا ووطنيا مخلصا بعيد النظر سديد الرأى واسع الأفق

أعماله فى الجمعية الزراعية :

كان من أعضائها المؤسسين لها ومن الذين فكروا فى إنشائها بوحى من صاحب السمو الأمير الجليل المغفور له السلطان حسين كامل أبو الفلاح ، ووضع المغفور له إسماعيل أباظة باشا قانون الجمعية الزراعية وظل اسمه مقرونا بالجمعية نحو الثلاثين عاما ، وكان فى عمله وإدارته للجمعية مثال النزاهة والإخلاص والغيرة على المصلحة العامة .

وكانت الجمعية الزراعية فى ذلك الوقت ملجأ الزراع ومرشدهم الوحيد قبل إنشاء مصلحة الزراعة ووزارة الزراعة ؛ وقد مثل الفقيد الكريم الجمعية الزراعية والحكومة فى المؤتمر الزراعى الدولى فى النمسا فى ٢٣ مايو سنة ١٩٠٧ الذى كان يرأسه أمبراطور النمسا فى ذلك الوقت .

ومن أهم مآثره فى الجمعية الزراعية مطالبته فى سنة ١٩١٩ بسن قانون لمنع غش السماد وتحديد أسعار الأسمدة بحيث لا يزيد الربح عن ٦٪ ، وانتخب وكيلا للجمعية سنة ١٩٢٢ ، وكان له فضل كبير فى تنظيم الجمعية ، والنهوض بها حتى استطاعت أن تؤدى رسالتها الزراعية على الوجه الأكمل .

أعماله فى ميدان الصحافة :

كان الفقيد صحفيا ممتازا برز فى ميدان الصحافة سنة ١٨٩٤ حيث أصدر جريدة الأهالى فى سبتمبر من تلك السنة ، وكانت له قبل ذلك مقالات مختلفة فى الصحف يعالج فيها موضوعات شتى ، وظلت جريدة الأهالى ثلاث سنوات يصدرها الفقيد بأسلوبه البليغ ، وحججه القوية ، وعقيدته الراسخة ، ووطنيته الصادقة .

وقد وضح مبدأه وخطته فى العدد الأول من الأهالى بقوله إنه لا يقصد سوى خدمة وطنه ، وكان يرسلها مجانا إلى طلبة العلم وإلى العاجزين عن دفع الاشتراك لأنه كان يهدف إلى إذاعة عقيدته وإبلاغ رسالته .

وقد عرف إسماعيل أباظة الصحفى كيف يصل إلى أعماق النفوس ، ويستميل إليه الرأى العام بقوة حجته ووضوح عبارته وصدق وطنيته وشدة صراحته وندرة شجاعته .

وتوقفت جريدة الأهالى عن الصدور بسبب انتخابه عضوا فى مجلس الشورى لأنه رأى أنه لا يمكنه الجمع بين العضوية فى مجلس الشورى والصحافة احتراما منه لإرادة مواطنيه ونزولا على مشيئة ناخبيه .

ترك جريدة الأهالى ، ولكنه لم يترك حرفة الصحافة فظل يكتب بعنوانه المشهور فى طول البلاد وعرضها (بيان لابد منه) .

وظلت صلته بالصحفيين وثيقة وعلاقته بهم متصلة ، وأفاد الصحفيون من هذه الزمالة كثيراً : منها أن جلسات مجلس الشورى كانت سرية ، ومع ذلك فإن الفقيد كان يزود الصحفيين بأخبار الموضوعات والمناقشات فى الجلسات ، ويذيعها هو وزميله المغفور له الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، ولما وجه إليه أحد زملائه فى المجلس لوما على ذلك قال : (إنا نشرّع للأمة ، ويجب أن تعرف الأمة كل شئ ، ولا سبيل غير الصحافة فإنى صحفى فى المجلس ومندوب الصحفيين فإن شئت فاطلب من المجلس عزلى) .

وكان أول من قدم اقتراحا لمجلس الشورى بضرورة أن تكون الجلسات علنية ، وقد أثمر جهاده فى ذلك لما تولى الأمير حسين كامل رياسته ، إذ جعل علنية الجلسة شرطا أساسيا لقبوله رياسة مجلس الشورى وكان له ما أراد .

أعماله فى الهيئات النيابية :

أسدى الفقيد العظيم خدمات جليلة لمصر ، ووقف حياته على مقاومة الاحتلال البريطانى وأذنابه فى مصر منذ الثورة العرابية ، وكان يهاجم كرومر ، ويندد بسياسته الاستعمارية ، وعهده البغيض فى مصر .

وكان للفقيد عهد طويل بالهيئات النيابية فى مصر ؛ فمن لجان الشياخات إلى مجالس المديريات إلى الجمعية العمومية إلى مجلس الشورى إلى الجمعية التشريعية ، وهو فى كل هذه الهيئات الروح الذى يكسبها الحياة والنور الذى يشع الهداية والرشد فى جوانب الظلمات .

دفاعه عن الجمعية العمومية :

عقدت الجمعية العمومية سنة ١٩٠٧ وأبدت رأيها فى شئون مختلفة لم يرق كثير منها اللورد كرومر يومئذ فكتب رسالة إلى السير جراى وزير خارجية انجلترا فى ذلك الوقت ، وهى المسماة (الكتاب الأبيض) .

وتناول اللورد الجمعية فى هذه الرسالة بالطعن والتجريح ، وأسرف فى كيده وهجومه لها حتى رماها بالتعصب للجنس والدين ، فانبرى الفقيد للرد عليه ، وفضح باطله وبرأ الجمعية والأمة مما قال اللورد ، وبلغ من دهاء الفقيد أن أظهر اللورد متلبسا باعتدائه على قرارات الجمعية بالمسخ ، والتحريف ، والتبديل ، والتقول عليها بما لم تقله .

فالتزم الفقيد فى رده جانب الحق الأبلج الوضاح بأن وضع النصوص المحرفة وأمامها النصوص الصحيحة من أصولها الرسمية ، فكشف بذلك عن حقيقة أخلاق اللورد كرومر ، وسياسته البغيضة ، ونواياه الخبيثة بالنسبة لمصر بما لا يشرف الحكومة الانكليزية ، وبما يلوث سمعتها ، وكان فى رده مثال الصراحة والشجاعة فى دفاعه الرائع المجيد عن الأمة .

سفره إلى لندن :

فى صيف سنة ١٩٠٨ كان السخط عاما من الإدارة البريطانية فى مصر ، إذ عم الفساد فى جميع النواحى ورجعت البلاد إلى الوراء. فسافر الفقيد على رأس نفر من أعضاء مجلس الشورى والجمعية العمومية إلى انجلترا لينشروا هناك صحائف المستعمرين السوداء فكانوا الوفد الأول الذى أطلق عليه فيما بعد (الوفد المصرى)

وقد نوهت جريدة اللواء فى ٢ أغسطس سنة ١٩٠٨ بأعمال الفقيد ، ونشرت جزءاً من خطبة له فى إحدى قاعات البرلمان الانكليزى (نريد خدمة أمتنا التى من جملة مطالبها الإصلاح النيابى ، والإدارى ، والتعليمى لنتمكن من إدارة شئوننا بأيدينا تحت ظل الاستقلال التام نريد خدمة الأمة الانكليزية بما نبديه لها من الملاحظات على تصرفات حكومتها فى بلادنا ، إذ لابد أن الأمة الانكليزية يهمها حسن شهرتها وطهارة سمعتها من كل مايدعو إلى تغيير آمال الأمم والشعوب الراقية والمتأخرة ، وجاهرت حكومتكم سنة ١٨٨٣ بأن الأمة المصرية فى حاجة إلى التعليم والتربية ، وأنها أخذت على عاتقها أن تنشرها بين المصريين ليتمكنوا من إدارة شئونهم والاستعداد للاستقلال .

أما الأمة المصرية فلم تجادل فى حاجتها إلى التعليم ، ولم يتطرق إليها شك فى وفاء حكومتكم بوعدها فى ذلك ولهذا قابلت بالارتياح مشروعات رجالكم ونظاماتهم التى سنوها للسير على مقتضاها فى نظارة المعارف ، وتحملت كل التجارب التى كانوا يقومون بها ، وأطلقت أيديهم ليفعلوا ما يشاءون فيها ، ولكن هل تدرون كيف كانت النتيجة ؟ كانت انحطاط التعليم عن مرتبته التى كان عليها ، وفساد الأخلاق والآداب ، وإغلاق بعض المدارس ، وعدم استعمال لغة البلاد . إننا لانخشى لومة لائم إذا جاهرنا بحقيقة لايجادل فيها أحد ، وهى أن النظامات التى وضعت لنظارة المعارف كان نصيبها الفشل والخذلان ، وقد كان من مصائب تلك النظارة التعسة أنه كلما ارتفع صوت الأمة بالشكوى زادت يدكم وطأة عليها) .

وفى مقابلته لوزير خارجية انجلترا بلندن بسط مطالب الأمة فى صراحة وهى :

(١) طلب الحكومة النيابية .

(٢) جعل اللغة العربية لغة التعليم فى المدارس .

(٣) زيادة المدارس العليا لتخريج الأكفاء .

(٤) زيادة الإرساليات العلمية إلى الخارج .
(٥) إعطاء مجلس الشورى حق النظر فى قوانين المدارس .
(٦) تشجيع التعليم الصناعى .
(٧) مساعدة الحكومة الإنكليزية الحكومة المصرية فى الحصول على موافقة الدول على أن تمارس حقها فى نظر الجنح والجنايات التى تقع من الأوربيين .
(٨) تعيين الأكفا من المصريين فى الوظائف العالية .

وقابل الفقيد فى انجلترا كثيراً من رجال الانكليز الرسميين وأعضاء البرلمان وتحدث الصحف والأحزاب مجاهدا فى سبيل حرية مصر واستقلالها ، وقد ربحت الأمة كثيراً من مطالبها بعد عودة الوفد من لندن نتيجة لهذا الجهاد المبارك الموفق ، وتشجيع الأمة وتأييدها له . فقام التعليم التجارى والصناعى إلى جانب غيره من أنواع التعليم ، واستبدل نظام الجمعية العمومية ومجلس الشورى بالجمعية التشريعية ، وأعطى أعضاء المجالس حقوقا أوسع مما كانت لهم ، وبدأت اللغة العربية تجد شيئا من العناية بجعلها لغة التعليم فى المدارس ، وكان للفقيد فضل السبق على غيره من الزعماء فى المطالبة بأن يكون الفصل فى القضايا الجنائية التى يتهم فيها الأجانب من حق القضاء المصرى دون الأجنبى ، وكان أباظة باشا عضواً فى الهيئات النيابية عن مديرية الشرقية كل حياته السياسية تقريبا ، وكان فى كل هذه الهيئات دائما مرفوع الصوت والهامة موفور الشجاعة والوطنية والكرامة .

وكانت مواقفه كلها رائعة مشرفة يناضل عن حقوق بلاده وحرية وطنه واستقلاله .

ويضيق بنا المقام ويطول بنا الكلام إذا تتبعنا مواقفه الوطنية المذكورة وجهوده الموفقة المشكورة ؛ لأنها تجل عن الوصف ، وتفوق الحصر مثل حملته العنيفة على الاعتماد المالى فى ميزانية الحكومة الخاص ببناء قشلاق لجيش الاحتلال البريطانى المعروض على مجلس الشورى فى ٣ يناير سنة ١٩١٠ ، وهاجم بريطانيا ووعودها المتعددة بالجلاء .

وقد طالب الفقيد كذلك بتوسيع سلطة المجالس النيابية ، وأن يكون لها الاشتراك الفعلى مع الحكومة وأن يكون رأيها قطعيا لا استشاريا مما أدى إلى النظام النيابى الحالى .

ومن مواقفه الوطنية الرائعة الخالدة أنه فى سنة ١٩١٠ أرادت شركة قناة السويس أن تجدد عقد امتيازها بحيث يمتد أجله حينا آخر طويلا ، وكانت حكومة ذلك الوقت على وشك الاتفاق مع الشركة تحت تأثير الضغط دون الرجوع إلى الأمة ، ولكن رجال الأمة الغيورين وزعماءها الوطنيين استطاعوا أن يقنعوا الحكومة القائمة بضرورة عرض الاتفاق على الجمعية العمومية لتقول الأمة كلمتها ، ولم تكد الجمعية تظفر بهذا الفوز الباهر حتى ظهر الفقيد الكريم على رأس أعضائها يحمل علم الدفاع ، ويقود الكتيبة إلى النصر المبين . وكانت داره العامرة ملتقى أعضاء اللجنة التى ألفت لدرس المشروع ، وكان الفقيد يواصل الليل والنهار فى إعداد البحث ، ووقف فى الجمعية يناضل عن حق الأمة ، ويعارض مد المشروع حتى عقد له لواء النصر ورفض المشروع وأنقذ مصر من خسارة مالية ووطنية فادحة ، وكتب بهذا النصر صفحة بيضاء فى تاريخ مصر الحديث .

ظل الراحل الكريم يفكر فى مصر التى كان حبها يجرى مجرى الدم من عروقه ، وكانت حريتها تمتلك عليه شعوره. وانتابه مرض منذ كان الوفد المصرى بباريس برياسة سعد زغلول باشا . فأرسل وهو فى فراش مرضه آخر برقية له إلى سعد باشا الذى تلقاها فى الباخرة التى أقلته إلى مصر يناشده فيها بكل عزيز أن يحرص على ضم الصفوف وجمع الكلمة والتآم الشمل ، وأن يجنب الأمة شر الشقاق وخطر النزاع والخلاف ، ثم توفى إلى رحمة الله تعالى فى ٢٣ يناير سنة ١٩٢٧ ، ودفن بمدفن الأسرة بالشيخ تاج الدين بكفر أباظة .

وقد أقيمت للفقيد حفلة تأبين كبرى فى دار الأوبرا الملكية فى ١٥ إبريل سنة ١٩٢٧ برياسة المغفور له دولة حسين رشدى باشا رئيس مجلس الشيوخ فى ذلك الوقت حضرها كثير من الزعماء والعظماء والوزراء ، ومثلت فيها جميع الهيئات ومختلف الطبقات ، وألقيت فيها مرثيات نثرية وشعرية فى تأبين الفقيد الكريم وقد رثاه المرحوم أحمد بك شوقى بقصيدة نجتزئ منها :

إلى الله (إسماعيل) وانزل بساحة	أظل الندى أقطارها والنواحيا
وأقسم كنت المرء لم ينس دينه	ولم تلهه دنياه وهى ماهيا
وكنت إذا الحاجات عز قضاتها	لحاج اليتامى والأرامل قاضيا

ورثاه شاعر القطرين خليل بك مطران بمرثية طويلة نجتزئ منها :

إلى أهلها تنعى النهى والعزائم	فى فوق ما تهوى العلى والعظائم
بيتك (إسماعيل) غيب شارق	وقوض بنيان وأغمد صارم
عزيز على مصر المفداة رزؤها	بأنهض من ترجوه والخطب داهم
فكم موقف للذود عنها وقفته	تعانى صروفا جمة وتقاوم
كفى شرفا ذكر القناة ومرة	بدت منك حين البغى للعود عاجم
وقد عرفت منه الصحافة كاتبا	بليغا يحق الحق والبطل راغم
له فى تصاريف السياسة قدرة	ترد على أعقابه من يقاصم

محمد عبد الرحمن قمحاوى
مدير المركز الثقافى بالزقازيق

طلعت حرب


(شكل ٤٨)

على بعد سبعة كيلو مترات من الزقازيق تقع قرية هادئة وديعة هى « ميت أبو على » التى أنجبت لمصر زعيمها الاقتصادى الفذ طلعت حرب .

* * *

كان والده مقيما بالقاهرة إذ كان يشغل مركزاً هاماً فى الدائرة السنية ، وهناك ورد طلعت مناهل العلم وانتظم فى سلك الدراسة ، وأكب على التحصيل ، وكان مولعاً بعلم التاريخ .

وفى عام ١٨٨٩ كان الشاب محمد طلعت حرب فى مقدمة المتخرجين فى كلية الحقوق ، ومن أصغرهم سناً .

لم تنزع نفسه إلى المحاماة ، فعين فى قلم قضايا الدائرة السنية مترجما ، وسرعان ماصعد فى مدارج الرقى حتى أصبح مديراً لأقلام قضايا هذه الدائرة خلفاً للمغفور له محمد فريد بك .

كانت مواهبه ومناقبه هى التى تفسح له طريق الرقى وتمهد له السبيل . كان مشهوراً بالدقة الفائقة . كان دقيقا بكل ما فى الكلمة من معنى ، ودقته هذه هى التى رقيت به سماء النبوغ .

كان مفتش الدائرة السنية العام هوبرش باشا نخبر طلعت ولمس مواهبه النادرة ودقته الممتازة ثم اختير برش باشا عضو بمجلس الإدارة لشركة كوم أمبو ، وما كادت الشركة تطلب مديراً كفئاً لمركزها الرئيسى فى القاهرة حتى سارع برش باشا إلى اختيار طلعت حرب لهذا المنصب الدقيق المسئولية ، وذاعت دقة طلعت حرب حتى أصبحت مثلا سائراً يحتذيه من شاء أن يتصف بالدقة .

يا للعجب إن مواهب العظيم هى التى تشق له طريق الحياة ، فهاهى ذى الشركة العقارية المصرية تختار طلعت حرب الدقيق والإدارى الكفء ليتولى إدارتها ، وهاهى ذى الدوائر العلمية تستغيث بمواهبه وخبرته ليقيل عثرتها ، ويصلح ما أفسد الدهر من ماليتها ، وفى مقدمتها دائرة عمر سلطان باشا أغنى أغنياء مصر .

وهكذا تحول يد الأقدار مجرى حياة طلعت حرب من ساحة القانون إلى ساحة الاقتصاد ، وفيها يبزغ نجمه وتتألق شمسه نيرة ساطعة ، ولكن ليست مواهب طلعت حرب بالتى تقتصر على ساحة الاقتصاد ، إنه

فذ . له فى كل ميدان جولات وصولات : فى ميدان الأدب ، والسياسة ، والوطنية ، والاجتماع .

إنه تواق إلى المثل العليا : إلى الإصلاح . إلى إضاءة المشعل أمام مواطنيه ليسعدهم ويسعد بسعادتهم .

* * *

نحن فى مصر عام ١٨٩٤ . هاهم أولاء المحنقون من الإسلام والمسلمين يذيعون الأكاذيب والأباطيل ضد وحدة الإسلام ، وينعقد مؤتمر المستشرقين فى باريس ، فيقدم إليه المرحوم عثمان بك كامل سكرتير السلطان خليفة المسلمين رسالة قيمة فى الدفاع عن الدين الإسلامى ، فيتقدم الأستاذ محمد طلعت حرب لمواطنيه بمجهوده الأدبى الأول إذ ينقل الرسالة إلى اللغة العربية تحت عنوان « كلمة حق عن الإسلام والدولة العثمانية » .

* * *

وإذا كنا فى عام ١٨٩٨ ، واحتدمت المعركة بين أعداء الحجاب وأنصاره ، وسمعنا صيحة قاسم أمين تدوى داعية إلى نبـذ الحجاب وفك الأصفاد التى تغل بها حرية المرأة — فهؤلاء معارضوه ينازلونه فى معركة حامية الوطيس .

ومن خلل هذا السحاب القاتم تبرز الآراء المعتدلة هادئة فى جلاء ووضوح ، ويبرز محمد طلعت حرب زعيم المعتدلين يدافع عن الشرق وتقاليده ، والإسلام وحدوده ، ويناهض دعوة قاسم أمين برصانة وهدوء فيقارعه بالحجج الدامغة والأسانيد البينة .

وما يكاد قاسم أمين يؤلف كتابه : « تحرير المرأة » حتى يدركه طلعت حرب بكتاب نزيه يقرر المبادئ السليمة لبنات الوطن وأبنائه . هو كتاب « تربية المرأة والحجاب » .

ثم لا يخرج قاسم أمين كتابه الثانى « المرأة الجديدة » حتى يدمغه طلعت حرب بكتابه الثانى « فصل الخطاب فى المرأة والحجاب » الذى كان آية الآيات فى دحض حجج قاسم أمين .

ها هى ذى عجلة الزمان تدور ، وها نحن أولاء فى عام ١٩١٠ ، وها هى ذى شركة قناة السويس تتطلع إلى مد أجل امتيازها أربعين عاماً فوق التسعة والتسعين التى لها ، وإذا بالزوبعة العنيفة تثور ، والاتجاهات تتشعب والشعب حائر يرنو إلى قائد مصلح يهديه الطريق السوى فيبرز طلعت حرب إلى الميدان ، ويدافع عن حقوق الشعب الوطنية المغتصبة فى كتابه المجيد « قناة السويس » .

وهكذا كان طلعت حرب أديبا ، واجتماعيا ، ووطنيا .

* * *

كانت الدائرة السنية قد صفت أعمالها وعرضت أرضها للبيع ، فابتاع طلعت حرب ضيعة من ضياعها بقرب كفر الجنينة من أعمال مركز طلخا بمديرية الغربية .

إن طلعت حرب بطبعه محب للاقتصاد ينزع إلى حياة الاستقلال ، وينشد السعادة لكل أبناء الوطن .

كانت أرض كفر الجنينة المجاورة له ملكا لمصلحة أعمال الدائرة السنية ، والأهلون يقومون بزراعتها مستأجرين

وكان القطن قد علا ثمنه وأصاب القرويين خير عظيم ، ورأى طلعت حرب أن القرويين فى كفر الجنينة ينفقون المال ببذخ وإسراف . فخطر فى ذهنه النير مشروع جليل . أسرع إلى الفلاحين وقال لهم : أيها المواطنون ، ما قولكم فى أن تكونوا ملاكا بعد أن كنتم مستأجرين ؟ قالوا : وأنى لنا أن نكون مالكين لهذه الأرض ونحن لا نملك ثمنها ؟ قال : هاتوا ما تنفقون فى اللهو والملاذ فإنى مقنع الشركة أن تقبل منكم أقساط الاستئجار على أنها أقساط ابتياع حتى تفرغوا من الوفاء بثمنها وأنتم مطمئنون ، وقد كان له ما أراد ، وغدا الفلاحون ملاكا بعد أن كانوا يستأجرون .

وكان هذا أول مشروع مادى بارع تفتق عنه ذهنه الجبار ، ومنذ ذلك الحين بدأ فى أفق مصر نجم ساطع يتلألأ وينير ، هو محمد بك طلعت حرب المالى الكبير .

وفى عام ١٩٠٦ ظهرت طلائع الأزمة الاقتصادية ، وبدأت تصب ويلاتها على رءوس الفلاحين : تشتتهم فى فيافى الفاقة ، وتغمسهم فى بحار الذلة ، وأن الشعب وتأوه ، وتطلع ببصره إلى السماء يشكو لرب العرش ، فالتقت عيناه بالنجم فى كبد السماء منيراً متلألئا يسطع نوره هادياً كل حائر . وبادر طلعت حرب من فوره فقدم للشعب أجل مشروع بفك إسار الأزمة .

وبينا الناس فى عجب لا يصدقون آذانهم ويرونه مشروعا فى عالم الخيال بعيد المنال إذا بطلعت حرب يقدم لهم دليلا على إمكان صدق دعواه فؤسس عام ١٩٠٨ شركة مالية مصرية بحتة هى شركة التعاون المالى ، وأخذ طلعت يدخل المشروع فى كل ذهن وفى كل قلب ، يكتب فى الصحف ويدعو له بكل قواه ، ومن ثم طلع على الناس سنة ١٩١٣ بكتابه « علاج مصر الاقتصادى وإنشاء بنك للمصريين » الجزء الأول . ودارت رحى الحرب سنة ١٩١٤ فوقف كل شىء فى مكانه .

ثم سكنت رحى الحرب ، وبينا الناس لا يزالون من أثر الغمرة فى ذهول إذا بكتاب جديد يطلع عليهم وهو الجزء الثانى من كتاب « علاج مصر الاقتصادى ، وإنشاء بنك للمصريين » تأليف محمد طلعت حرب .

وهب رجل الاقتصاد فى أول مايو سنة ١٩٢٠ رافعا بيمناه لواء استقلال مصر الاقتصادى وصدر مرسوم ملكى بإنشاء بنك مصر ، وافتتح فى ٧ مايو سنة ١٩٢٠

وسار البنك فى طريق التقدم قويا بروح طلعت الوثابة يؤازره تشجيع المصريين .

* * *

هذه الشخصية الوثابة القوية هى أبعد الشخصيات عن حياة البذخ والترف ، تميل إلى الحياة الهادئة ، وتعطف إلى فعل الخير ومواساة الفقير والحدب على الأقارب .

وطلعت حرب كان من كبار مؤسسى الجمعية الخيرية الإسلامية ، وقد بقى يدير دفتها حتى كثرت أعماله فى منشآت بنك مصر فتركها نامية المال مليئة الخزائن .

ومما يذكر عن حبه لأقاربه وإيثاره حياة الاقتصاد يرجو أن يخوضها كل مخلوق أنه فى عام ١٩٠٩ طلب منه أحد أقاربه فى « ميت أبو على » أن يرسل له عونا من الحبوب . فما كان من طلعت حرب — الرجل

الاقتصادى الفذ — إلا أن أرسل إليه مائة وخمسين إردبا من الحبوب ، أرسلها من المنيا إلى الزقازيق ، وطلب إليه أن يتجر فيها ويبيعها فى الزقازيق متنازلا له عن المكسب ولأبنائه ٢٠ جنيها من الثمن الأساسى .

ومما يذكر عن تدبيره للأمور أنه طلب إليه أن يشرف على إدارة أموال صديق من خير أصدقائه — وكان هذا مسرفاً — فأراد طلعت أن يحد من إسرافه دون نصح وضوضاء ،فقال له : ياصديق : إننى وأنا المشرف على إدارة أموالك أطلب منك أمراً واحداً . قال : ما هو ؟ قال : أن يدون فى نهاية كل يوم ما تكون قد أنفقته فى صحابة يومك ثم ترسل إلى بهذا البيان المدون . فلما عمل صديقه الباشا بما أشار به عليه طلعت حرب، أحس على مر الأيام بالخجل يغمر نفسه من تكرار إثبات أرقام كبيرة فى أغراض تافهة ، فلم يجد مناصاً من أن يصدف عن هذه الأغراض التى طالما اضطربت لها ماليته العظيمة .

وحدث فى بداية نشأة البنك أن أدين لإحدى الهيئات بمبلغ جسيم من المال ، وجاء رسول موفد من تلك الهيئة يحمل « شيكا » ويطالب بالمبلغ ، ولم تكن خزائن البنك تحوى كل المبلغ حينذاك .

وكان موقفاً حرجا . ففى الامتناع عن الدفع والاعتراف بالحقيقة قضاء مبرم على البنك ، ولكن طلعت بثاقب عقله اختلى بنفسه وفكر مليا ثم استدعى الرسول وأخبره أن « الشيك » الذى يحمله فيه خطأ كتابى فعليه أن يعود ويصححه .

وعاد الساعى إلى رؤسائه ، وأخبرهم بما هنالك ، فأمسكوا « بالشيك » وأخذوا يراجعونه ويفحصونه ، واستغرقوا فى ذلك وقتا ليس بالقصير دون أن يهتدوا إلى شىء ، ولم يكن فى الشيك فى الحقيقة أى خطأ كتابى وإنما هى حيلة بارعة تفتق عنها ذهن طلعت حرب — ففى أثناء ذلك كان طلعت قد اتصل بمؤسسى البنك وجمع منهم المبلغ المطلوب . وما أن عاد الرسول يؤكد صحة الصك حتى سلمه طلعت المبلغ كاملا غير منقوص.

ولطلعت حرب ذاكرة قوية وعقلية جبارة . حدث أن كان أحـد أقاربه فى الزقازيق بمعاهد العلم ، ولكنه كان منصرفا إلى اللهو واللعب ، ولم يكن طلعت حرب قد رآه . فلما سمع بخلقه دعاه إلى القاهرة وزوده بالنصائح القيمة وبجزء من المال . ولكنه لم يرتدع وبقى فى القاهرة ينفق المال حتى نفد . وبعد هذا انقطعت به سبل العيش والاتصال بطلعت حرب ، وانقضى على ذلك عشرون عاما أى خمس قرن . انتقل صاحبنا فيها من طور الشباب فاكتهل ، وأنعم على طلعت بلقب باشا ، وبعد كل هذه الأعوام اضطر الرجل لمقابلة الباشا فى يوم من الأيام ، فما أن رآه طلعت حرب ذو الذاكرة القوية الفذة حتى بادره مخاطبا إياه « ألا تذكر أيام كنت طالبا . . . ؟؟؟ » وأخذ يسرد له كيف قابله وزوده نصحا ومالا . !!!

هذا هو طلعت حرب . . . هذا هو الرجل الذى أنجبته الشرقية ، أنجبته للأم الرءوم مصر فقادها إلى ذروة المجد والاستقلال الاقتصادى وأخذ بيدها إلى الثراء أو كما يقول شوقى :

وعلى صحرائها مرت يداه   فجرت ماء وظـلا وجنى

بقى أن نقدم طلعت حرب الخطيب إلى الشباب ، وعلى الشبان أن يصغوا إلى أقواله ويتدبروا معناها ، يقول طلعت المجيد :

« الحديث إلى الشباب يحفز الهمم ، ويجدد العزائم ، ويحبب الحياة إلى أهل الحياة » .

ويقول : — « إنه لمن الخير بل الخير كله لو يستطيع الشباب أن يتغلب — ما وسعه الجهد — على غلو الشباب وزهو الشباب فإن أكبر أسباب الفشل راجع إلى الغلو والزهو ، وإلى ظن الشباب وزعمه أنه قادر على كل عمل وإلى الإغارة على اختصاص غيره وتجاهل قدره ، كما يرجع كذلك إلى استنكافه وخجله وترفعه عن مزاولة الصغير أو الحقير من الأعمال وإن كان شريفا » .

ويقول فى حفلة تكريم الطيار صدقى عام ١٩٣٠ .

« أيها الشباب شباب مصر الناهض إن صدقى مثل للرجولة جدير أن تحذوا حذوه وما الرجولة إلا الاعتماد على النفس ومغالبة الصعاب ، واقتحام الأخطار والفوز بالغايات النبيلة — وأشرف الغايات وأنبلها قصداً ما بنى على الإيثار وإنكار الذات وتقديم النفع العام على النفع الخاص والتذرع بالكفاية ، وحسن التدبير والصبر الجميل فى تشييد العوامل الفعالة فى ترقية المجموع ورفعة الوطن » .

* * *

فى كل بقعة من بقاع مصر تجد مادحا يلهج بشكر طلعت والثناء عليه ، ويشيد بذكره وتعداد مآثره ولكنك « فى ميت أبو على » تجد فلاحيها الفقراء يرفعون أكف الضراعة إلى الله يسألون لطلعت حرب العمر المديد والثواب الجزيل إذ يصلهم مندوبه فى كل عام ويغمرهم من كرمه وإنعامه .

هذا هو الرجل الذى تزهى به الشرقية فخرا على لداتها .

سنة ١٩٤٠

محمد بهاء الدين اسماعيل والى

السيد على الدرويش

المتوفى سنة ١٢٧٠ هـ — ١٨٥٣ م

مقدمة :

يلاحظ المؤرخ للشعر فى العصر الحديث من عهد محمد على باشا إلى اليوم ثلاث خطوات خطاها الشعر ، حتى وصل إلى ما وصل إليه الآن .

فأول هذه الخطوات : من عهد محمد على باشا الكبير إلى أوائل عهد إسماعيل ، وكان الشعر فى هذه المرحلة تقليداً لما سبقه يئن من كثرة المحسنات البديعية ، ويمج بالجناس والتورية والاستخدام ، ومن شعراء هذه المرحلة الخشاب ، والعطار ، والجبرتى ، والدرويش .

أما الخطوة الثانية : فتبدأ بعهد إسماعيل وتنتهى فى أوائل الاحتلال ، وقد أخذ بعض الشعراء فى التجديد ولكن أكثرهم مازالوا مقلدين للقديم ، يعتنون باللفظ ويحتفلون بالبديع ، ومن أشهر شعراء هذه المرحلة الساعاتى ، وأبو النصر ، والليثى .

والخطوة الأخيرة : وتبدأ من أوائل الاحتلال إلى الآن . وقد هجر الشعراء البديع ، ومالوا إلى التجديد فى المعانى والابتكار فى الأغراض . ومن شعراء هذه المرحلة البارودى ، وشوقى ، وحافظ : فالخطوة الأولى كانت تقليداً ، والثانية كانت قنطرة بين الجديد والقديم . أما الخطوة الأخيرة فكانت تجديداً .

وشاعرنا الدرويش عاش فى المرحلة الأولى فقد ولد فى ١٢١١ هـ ، وتوفى فى ١٢٧٠ هـ ، وامتاز بما امتاز به شعراء هذه المرحلة : فهو مولع بالبديع مغرم بالمحسنات تعج أبياته بها ، وتضج من كثرتها قصائده ومقطوعاته ، وقد امتاز عن معاصريه من الشعراء بجهارة الشأن ، وصحة اللغة وبراعة التركيب ، وسلامة الفهم والتفكير : فعلا شأنه . وعرف الناس قدره فأجلوه وأكبروه ، وكان مهيب الجانب ذا حظوة عند الأمراء والكبراء والوجهاء حتى لقب بشاعر الخديو عباس الأول .

نشأته :

هو السيد على بن حسن الدرويش بن إبراهيم الأنكورى ، قدم أبوه إلى مصر سنة سبع ومائتين وألف من هجرته صلى الله عليه وسلم ، وبنى ببنت الشيخ عبد الرحمن السمنودى بعد سنتين من قدومه ورزق بالشاعر منها عام أحد عشر ومائتين وألف هجرية فى غرة المحرم ، ونشأ بمنزل أبيه بقنطرة الأمير حسين بمصر المحمية ، وانتقل إلى جوار ربه فى ١٢٧٠ هـ — ١٨٥٣ م .

ويجزم الدارس لديوان هذا الشاعر بأن له أهلا وأموالا بمديرية الشرقية ، فهو على صلة وثيقة بالأسرة الأباظية ، وبخاصة شيخ العرب الشيخ حسن أباظة . فقد مدحه مرات ، وداعبه مرات ثم رثاه حين مات ، وأرخ وفاته شعرا لينقش التاريخ على قبره ، ثم هو يكثر من الرسائل إلى مدير الشرقية ، يشكو إليه عنت بعض الناس ، ويطالبه بالأخذ بيده ونصرته على الخصوم والحساد ، وقد وصف سوق القنايات وصف المقيم الخبير . أما الجهة التى كان يكثر من الإقامة بها ، والمكث فيها بمديرية الشرقية فهى على التحقيق (بنى شبل) . فقد وردت كثيرا فى أشعاره ، وشكا من أهلها وسوء معاملتهم له قال :

وفى (بنى شبل) قد أصبحت فى كرب ... مشتت البال بين السر والعلن
ما بين قوم غلاظ الطبع أصحبهم ... يستلطف السقم عن رؤيام بدنى

وقال : جملى قضى ، إذ ناقتى سرقت ... كم فى (بنى شـبـل) يساء لى
مالى وللأرياف أسـكنها ... لا ناقتى فيها ولا جملى

ثقافته :

ولع بالأدب منذ نعومة أظفاره ، فأقبل على ما تهيأ له من كتبها مطالعة وحفظا واستظهاراً ، ثم قرض الشعر ، وأجال اليراع فى فنون النثر ، ونظم كثيرا من الأصوات (أدوار الغناء) .

وقد ألم بالعلوم المعروفة فى عهده من فقه ونحو وصرف وبيان وبديع ومنطق . فقد جاء فى رسالة له إلى صديق قوله (. . إذ طالما اشتغلت بالفقه على حضرة شيخنا المهدى والشيخ البسطى والشيخ الغزى ، وأخذت النحو والصرف والمعانى والبيان والبديع والمنطق عن الشيخ العماوى والشيخ مصطفى الحلبى والشيخ مصطفى الأهواوى والشيخ المرصفاوى وشيخنا القويسنى والشيخ محمد فتح الله الصاوى ، وأخذت عن حسن أفندى الدرويش على الحساب والهندسة ، وشهد لى بذلك كبار المدرسة . . . إلى أن يقول : وأجهدت نفسى كثيرا فى فنون يطول شرحها ، وكان فى الغالب بإفادة الشيخ محمد فتح الله الصاوى فتحها) .

ولعله درس كثيراً فى (فن الصرف) ، ولكنه كما يروى : خرج من دراسته لهذا الفن صفر اليدين خالى الوفاض ، فارغ الجعبة ، إذ يقول فى رسالة له إلى سعادة سامى باشا (إلا أنى صرفت أوقاتى فى الصرف ، فما نفعنى منه حرف ، وأصبحت فيه معتل العين ، ملفوفا بالمثال ، مالى مثال ، لم أدخل باب نصر ، بل كسر قلبى فانكسر ، ولحقنى العلل ، فـالى مضارعه ، وعقتنى الأيام حتى أحرف المطاوعة) .

منزلته :

يقول تلميذه وجامع ديوانه الشيخ مصطفى سلامة النجارى (كان رحمه الله عجيب المحاضرة غريب النادرة سريع الجواب ، يدنى البعيد إن شاء ، لا يماثله أحد بحال فى البديهة والارتجال ، محبوبا للنفوس الشريفة معشوقا للطباع اللطيفة مقدما على جهابذة عصره محترما بين أساتذة مصره ، وكاتبه كثير من الأفاضل برقيق التحرير فى الرسائل ، وامتدحه البلغاء ، والفضلاء الألباء : مثل حضرة أحمد أفندى الأزبكاوى ، وحضرة الأستاذ الشيخ عبد الفتاح الحريرى ، وحضرة الفاضل الشيخ مصطفى البدرى ، وحضرة المرحوم الشيخ احمد المسيرى وغيرهم من أبناء الزمن وأهل الوطن ، بكثير من القصائد المطولة التى هى عقود مفصلة ، وبما هو عنهم مشهور ، ولديهم مسطور ، وحديثه بينهم مأثور من منظوم ومنثور) .

ويقول المرحوم جورجى زيدان فى كتابه تاريخ آداب اللغة العربية الجزء الرابع (كان من خيرة شعراء مصر فى أوائل القرن الماضى ، نشأ فى القاهرة وكانت له منزلة رفيعة بين الأمراء والوجهاء ، وقد مدحهم وعرف على الخصوص بشاعر عباس باشا الأول) .

وجاء بالمفصل ج ٢ (وقد بلغ بأدبه المنزلة فى أمراء عصره ووجوهه ، وعرف بشاعر عباس الأول ، ولم يكن يكتسب بالشعر مكتفيا بماله وعقاره) .

أغراضه :

لم يخرج فى شعره عن الأغراض المألوفة فى عصره من مدح ورثاء وهجاء ووصف وغزل ، ولكنه فاق أقرانه بقوة سبكه ، ورقة شعره ، وصفاء ديباجته ، وميله إلى نظم (أدوار الغناء) وشدة ولعه باصطياد المحسنات البديعية .

المدح :

قال يمدح محمد على باشا :

جبال الشام كانت شامخات	فذلل صعبها لما رأتكا
وقد رامت كفاحك من شقاء	ولو تيقدت لكانت سالمتكا
فصال حسام بأسك فى ذراهم	وبدل بأسهم ذلا وهلكا
أتى الهيجاء يقدم كل جيش	وقد ضحك الحسام له فأبكى
وأوقد ناره للحرب فيهم	فأوسعهم بها ضيقا وضنكا
تمتع بالفتوح عزيز مصر	فهذا العز عاد عليك منكا
وما اشتبهت طريق المجد إلا	تراها للمعالى قد هدتكا
وقائع شيدت صرح المعالى	فصرح فعلها بالفضل منكا
ونصر عزيز مصر عز فيها	ودك بلاد أهل البغى دكا
فنادى هاتف الإقبال أرخ	وقد فتحت بأمر الله عكا
سنة ١٢٤٨	١١٠ ٨٨٨ ٩٣ ٦٦ ٩١

الرثاء :

وقال فى رثاء ابنته أسماء ، وقد مرضت بالجدرى كما يفهم من القصيدة :

أسماء كانت فى النفوس نفيسة	وهى السرور وللعيون رضاء
نار ونور خدها وجبينها	والثغر نور ، واللما صهباء
هى برة ، بل قرة ، بل غرة	بل زهرة ، بل درة عصماء
أبنيتى : الدنيا لو انكشف الغطا	عن حالها لم تفرح الأحياء
إن يعذلونى فى هواك ، فما لهم	حرق الفؤاد عليك ، والبرحاء

الهجاء :

قال :

أقول لجاهل سفل سفيه	غبى ، يدعى ما ليس فيه
رأيتك راكبا ، فسألت ربى	لما يعلو البهيم على أخيه
إذا ما وجهك الممسوخ ، يبدو	فوجه القرد ذو حسن وجيه

أو الخنزير خير منك شـكلا كذاك الكلب عنك ، فأصطفيه
وبحرى متى يبـدو قفاه أقـول لراحتى هيا أصفعيه

الوصف :

قال يصف مجيء الجراد إلى مصر عام ١٢٥٩ :

فترى الجراد عـلى الجر بد مكللا ، مثـل الثمر
رقش تراهـا أنهـا نار تلظت بالسحر
لواحـة للأرض لا تبق النبات ولا تذر
وصـغيرة فى حجمها لكنها إحـدى الكبر
الأرض كانت جنـة فالآن ترى بالشرر
نزل الجراد بهـا ، كما نزل القضاء أو القـدر

الغزل :

فإنا فى هواك عـبيد رق على حب ، وما كنا سبينا
فإن تمنن بإحسان علينا فإن الله يجزى المحسنينا
فقل للجاهلين بجاه حسن لظبى لم يصف للجاه لينا
رأيتم طرة ، سلبت فؤادى بصفراء تسر الناظرينا

الأغانى :

قال : بلبل الأفراح غنا نال قـلبى ما تمنى
مالك الأرواح منا عطفـوا ربى علينا

* * *

يا نديم ، إنى مقيم بين جنـات نعيم
عنـد ريم ، وجهه وسيم وصـفه أضحى شهيا

* * *

قامـة الغصن الرطيب أنت من دهرى نصيبى
قم وصـلى ياحبيبى يا أعـز الناس ليا

مميزاته :

يمثل الدرويش شعراء القرن الماضى أصدق تمثيل، فهو على رأس المدرسة الصناعية التى تهتم باللفظ أكثر من المعنى، وتعتمد فى نظمها على المحسنات البديعية . ولكنه فاق نظراءه فى الاهتمام بهذه المحسنات بحشرها فى الكلام حشرا ، وبقسرها على النظم قسرا .

كان رحمه الله — القمة لهؤلاء الصناعيين ، والقدوة لهؤلاء اللفظيين المنمقين الذين يولون اللفظ كل عناية لايكاد يخلو بيت من أنواع البديع المعروفة ، فهنا تورية وهنا جناس ، وهنا طباق ، وهنا اقتباس وهلم جرا .

اهتمام بالبديع عجيب ، وقدرة على الصناعة فائقة ميزته عن أبناء العصر وشعراء الجيل . فكان فريد عصره ، ووحيد دهره .

فمن المحسنات قوله :

أأراك ودى أن أراك وإن أرى آدم ودى زاده ودق روى

هذا البيت كله مفكك الحروف .

وقوله : قر بهى فيـه همت فما شفا ضنى فتى يظل منه على شفا

هذا البيت كل كلمة من كلماته مكونة من ثلاثة حروف .

وقوله : قلبي يريم بطيب طيبة معمر بظبا تحنت لظبـاء تتق

وهذا البيت كل كلمة من كلماته مكونة من أربعة أحرف .

وقوله : وهو رسول الله طه أحمـد ومحمـد روح المكارم والعلا

هذا البيت كل حروفه مهملة أى خالية من النقط .

وقوله : (وذوائب) منها القلوب (ذوائب) نشأت بها الأهوال والأهواء

جانس الشاعر بين (ذوائب) الأولى خصلات الشعر فى مقدم الرأس (وذوائب) الثانية من الذوبان ضد التجمد كما جانس بين (الأهوال) و (الأهواء) .

وقوله : (سموك) معزى مذ رأوك كما عز شكلا وعقلا ليتهم (سموك)

الجناس بين (سموك) الأولى و (سموك) الثانية ، فالأولى من التسمية والثانية من السم .

ومن التورية قوله مخاطبا صديقه السيد حسن أباظة موريا بموسيقى اسمه (الحلو) .

أنا كل (الحلو) ياهذا وتتركنا فليس هذا بقانون من الفطن

ومن التضمين قوله :

سـيخزيهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنينا

ويطول بنا الكلام إذا تتبعنا الشاعر نستخرج المحسنات من أبياته العامرة بأنواعها ، فليرجع إلى الديوان من شاء .

وكان رحمه الله — خفيف الروح ، حلو النكته ، حاضر البديهة ، تنم روحه المرحة عن مصريته .

قال مداعبا :

أموسى قل لنا ، فإذا الشخير بصدرك هل تخانقت الحمير

وإلا هل جهنم فيك صـدر لأهلك فى منازلها زفـير

وقال : وقالوا صف لنا من فى المعالى ومن فى كل فن ترتضيه

فلان أم فلان ؟ قلت هـذا شهاب الدين أضرط من أخيه

ديوانه :

يسمى (الإشعار بحميد الأشعار) جمعه تلميذه الشيخ مصطفى سلامة النجارى ، وطبع على الحجر بمصر سنة ١٢٨٤ هـ .

رتبه جامعه على ثلاثة أبواب :-

الباب الأول : فى الصناعيات مرتبة على السنين من ص ٣ إلى ص ٧٢ .

وهذا الباب من أوله إلى آخره يعج بالمحسنات البديعية ، فالغرض الأصيل من هذا الباب هو الصنعة فقط والهدف الأول والأخير به هو المحسنات البديعية ، قلد فيه الحريرى فى مقاماته ، فأبيات منقوطة وأبيات غير منقوطة وأبيات تقرأ كلماتها طردا وعكسا ، ورسائل نثرية تحول إلى قصائد شعرية مع حرص على التاريخ الحسابى ولاشك أنه أخذ من الشاعر مجهوداً فكرياً جباراً لو صرف فى شئ آخر لأتى بالخير العميم والنفع العظيم .

الباب الثانى : فى غير المصنع مرتبا على حروف المعجم من ص ٧٣ إلى ص ٣٤٨ .

وإن كان هذا الباب يسمى بغير المصنع إلا أنه لايخلو من صنعة ، ولكن الصنعة لم تكن المقصد الأول للشاعر ، والغرض المترجى له هو يهدف إلى المدح أو الرثاء أو الهجاء أو الغزل ثم لايخلو شئ من ذلك من صنعة لفظية أو محسنات بديعية .

الباب الثالث : فى النثر والأدوار الغنائية من ص ٣٤٩ إلى ص ٤٨٠ .

فى هذا الباب جملة رسائل إلى أصدقائه ومعارفه ، وأعقبها بأدوار ومواويل تصلح للغناء .

نثره :

هو فى نثره كما فى شعره يميل إلى المحسنات البديعية ، فنثره مسجوع يقلد فيه القاضى الفاضل ، ولا يخلو من جناس لطيف أو تورية جميلة ، أو اقتباس ، أو تضمين ، أو طباق ، أو مقابلة .

فمن رسالة له إلى مدير الشرقية ، وقد أرسل إليه يدعوه للحضور .

قال : (قد تشرف داعيكم بمواجهة المرسل من طرف معاليكم بإحضار الفقير إلى الزنكلون لمقابلة الجناب المصون ، وكان ذلك فى وقت الظهيرة ، وشرودات كثيرة . تكاد الأرض بها تتلهب ، والجماد يتقلب ، وكان المسوب متهيأ للفصاد الدافع عن الجسم علل الفساد ، وكل ذلك ما منعنى من الذهاب إلى كريم الشيم (سعيا على الرأس لاسعيا على القدم) .

ختام :

(وبعد) فهذه دراسة سريعة لشاعرنا الدرويش الذى أنفق عمره فى طلب المعرفة والبيان ، وخرج من هذه الحياة تاركا خلفه تراثا مجيدا ، وثروة هائلة لامن الأموال والعقارات ، ولكن من القصائد والأبيات . لقد كان رحمه الله صاحب رسالة فعكف على أدائها ، وأضاع العمر فى سبيلها حتى أداها على أكمل وجه ، وأحسن أداء ، فخلد اسمه فى سجل الخالدين ، وبقى ذكره عطراً على مر السنين . فاللهم نسألك التوفيق والسداد ، ونلتمس منك الهداية والرشاد ، فى كل الأقوال وجميع الأعمال ، إنك سميع الدعاء مجيب الرجاء ؟

الشرقيـــــة

و

حفر قناة السويس

من المعروف أن الشرقية أقرب المديريات إلى المنطقة التى حفرت فيها قناة السويس ، ولا شك أن هذا المشروع الضخم أثر وتأثر بسكان هذه المديرية ، فتطوع منهم فى الحفر من تطوع وأجبر عليه من أجبر ، فتلقوا أولى صدمات مشاق الحفر فى تلك المنطقة الصحراوية حتى تعرضوا للجوع والعطش وشتى الأمراض: كما أن شركة قناة السويس أثرت فى نواحى الشرقية العمرانية كشق ترعة الماء العذب فى طرفها الشرق (وهى المعروفة الآن بالإسماعيلية) وهذه بدورها سهلت مهمة توصيل المواد الغذائية والمهمات إلى ساحات الحفر كما وصلت ماء النيل إلى وسط البرزخ ، ومن ثم اتسع نطاق مدينة الزقازيق لاتخاذها مركزا تموينيا من أهم مراكز الشركة ، كما هرع عدد كبير من أبنائها للاشتغال بالتجارة وفتح المحال اللازمة لجموع العمال أينما تنقلوا للحفر. وسأحاول فى موضوعى هذا أن ألخص كل نقطة من النقط السابقة مقتصرا البحث عن مديرية الشرقية .

مشكلة ماء الشرب :

كان جلب ماء الشرب إلى جموع العمال وهم يؤدون أعمالهم الفنية فى صحراء جرداء بعيدة عن العمران من المشكلات الجسام التى واجهتها الشركة ، فقد بدأت عمليات تنفيذ المشروع فكان عليها أن تعمل على ضمان وصول الماء العذب فى الوقت المناسب وبكميات كبيرة تكفى استهلاك العمال . . . ونحن نعرف أن توفير ماء الشرب فى الصحراء والمحافظة عليه مشكلة خطيرة لمسها كل من عمل فى الصحراء قبل ذلك ، فمثلا لبيير Le Pere كبير مهندسى الحملة الفرنسية على مصر لاقى أهوالا كثيرة حين قام فى يناير سنة ١٧٩٩ تلبية لرغبة نابليون برحلة ارتياد فى ربوع البرزخ لدراسة مشروع القناة ، ولاقى دى لسبس نفسه حين قام برحلة إلى البرزخ سنة ١٨٥٥ على نفقة سعيد باشا وبصحبته موجل ولينان مهندسا الحكومة المصرية نفس الأهوال والمصاعب حتى قيل إنهم أخذوا معهم أربعين جملا خصص نصف هذا العدد لحمل ماء الشرب الذى يكفى أعضاء الرحلة (وكانوا أربعة هؤلاء الثلاثة وأحد السكرتاريين) . . . والحقيقة أن مشكلة ماء الشرب التى واجهتها شركة القناة كانت من الخطر والتعقيد والصعوبة مما جعل كافة المشكلات الأخرى التى قامت أمام الشركة تتضاءل بجانب هذه المشكلة حتى إن دى لسبس نفسه ذكر أنه لم يكن يتوقع متاعب خطيرة من الناحية الفنية فى حفر القناة ولكن كان الشغل الشاغل له دائما إعداد الوسائل اللازمة لتموين العمال وسط الصحراء

وعلى الأخص ماء الشرب قبل كل شيء . بل ذهب إلى أن مشكلة حفر قناة السويس إنما هي توفير ماء الشرب في ساحات الحفر أى أن نجاح المشروع وإعداد الكميات الكافية من الماء للعمال إنما هما عبارتان مترادفتان.. والحق أن الشركة أخفقت خلال السنوات الثلاث الأولى (١٨٥٩ - ٦١) في حل مشكلة الماء حتى إنها كانت ترتجل الحلول ارتجالا ولم يبد رجالها كفاية في فهم الحقائق أو يقظة في مواجهة الموقف واستعداداً لتطوراته .

كانت الفترة الأولى (من ٢٥ إبريل سنة ١٨٥٩ — ٢٣ يناير سنة ١٨٦١) أخطر فترة اجتازتها الشركة وتعرضت فيها أرواح العمال والحيوانات على السواء لخطر الموت عطشا ، وقد واجهت الشركة أمرا واقعا في مشكلة ماء الشرب وحالة خطيرة من نقص كميات الماء حينا وتأخر وصولها للعمال حينا آخر ، وتمكنت الشركة آخر الأمر من اجتياز هذه الأزمة الخطيرة بما بذلت من جهود مضنية وما لقيت من عون السلطات المصرية والمصريين ، فاستطاعت أخيراً أن تحفر قناة صغيرة من القصاصين إلى بحيرة التمساح . . وكانت الشركة تعمل خلال هذه الفترة على جلب ماء الشرب بطرق ثلاث : أولاها نقله من الإسكندرية في سفينة بحارية ومن دمياط في قوارب وعلى ظهور الجمال . وثانيتها آلات مكثفة تحول ماء البحر إلى ماء مستساغ وكانت هذه الوسيلة مقصورة على مدينة بور سعيد . وثالثتها الآبار الموجودة في أراضي البرزخ تستخرج منها الشركة الماء العذب حينا والماء غير المستساغ أحيانا أخرى وتنقله قوافل الجمال إلى أماكن حشد العمال في القنطرة وفردان وساحات عتبة الجسر . . . وقد قاسى العمال كثيراً خلال هذه الفترة حتى كان بعضهم يشرب من آبار يميل ماؤها إلى الملوحة كالعمال الذين عملوا في بحيرة البلاح والذين اضطروا بعد انعدام ماء بئر (أبو العروق) إلى الشرب من بئر (أبو شنان) الذى كان ماؤه مشهوراً بالملوحة .

وليس أدل على صعوبة توفير ماء الشرب للعمال وهم في ساحات الحفر من أن سعيد باشا حين زار تلك الساحات في أراضي البرزخ خلال شهر ديسمبر سنة ١٨٦١ تلبية للدعوى التي وجهها إليه دى لسبس والذى اصطحب معه ألف نوبي من حرسه الخاص وفرقة من المدفعية وقد رافقته هذه القوة حتى بنها وأدرك صعوبة توفير ماء الشرب في الصحراء لهذا العدد الكبير نقص هذه القوة إلى خمسين فقط قبل مغادرته الزقازيق .

كانت إذن قلة الماء في ساحات الحفر وتعذر جلبه بمقادير كافية للعمال من الأسباب القوية التي حالت دون تقدم أعمال الحفر خلال السنوات الثلاث الأولى وقد تحملت الشركة في سبيل توفير ماء الشرب للعمال في أراضي البرزخ أموالا كثيرة فأنفقت في منطقة واحدة هي مرتفعات عتبة الجسر ٦٠٠,٠٠٠ من الفرنكات في سبيل جلب ماء الشرب للثمانية عشر ألف عامل الذين عملوا خلال ثمانية أشهر من عام ١٨٦٢ وكان الماء يجلب على ظهور الجمال من مسافات بعيدة وإذا تأخر عن الوصول -- وهذا أمر كان يحدث كثيرا كان الموت ينزل بالعمال ولذا يقول Farman إن الفلاحين المصريين كانوا يموتون كالذباب وقد يكون في قوله هذا مبالغة إلى حد ما إذ أن الفلاحين لم يكونوا ينتظرون ريثما يدركهم الموت نتيجة انعدام الماء أو تأخر وصوله فقد تعددت حوادث هرب الفلاحين حتى أصبح هربهم من أكبر سمات هذه الفترة من تاريخ الحفر ، ولقد شكا دى لسبس أكثر من مرة إلى سعيد باشا ملتمسا اتخاذ التدابير الناجعة لمراقبة العمال والحيلولة دون هربهم . والراجح جدا أن هذه الفترة هي التي كان العمال يموتون فيها بكثرة ملحوظة بسبب انعدام ماء الشرب علاوة

على انتشار الأوبئة الفتاكة بين صفوف العمال وعلى الأخص مرض التيفوس الذى تفشى فى عمال مديرية قنا فى صيف ١٨٦٢ ثم وباء الكوليرا الذى اجتاح معظم ساحات الحفر سنة ١٨٦٥ وكان بلاشك أثرهما عظيما على أبناء الشرقية، ولكن مع ذلك فإن ضحايا تلك الأوبئة لم تكن بالكثرة المروعة التى كانت ضحايا انعدام ماء الشرب أو تأخر وصوله.

كان سبب وقوع هذه الضحايا تأخر الشركة فى حفر ترعة الماء العذب إلى أوائل سنة ١٨٦٢ بعد أن كان من المقرر إتمام حفرها قبل أن تشرع الشركة فى حفر قناة السويس البحرية، بل قبل تأسيس الشركة نفسها؛ إذ جاء فى المادة الأولى من فرمان ١٨٥٦ أن على دى لسبس أن يحفر ترعة للماء العذب تستخدم فى أغراض الرى والملاحة النهرية على أن تخرج من النيل وتصل إلى بحيرة التمساح فى قلب البرزخ حيث يخرج منها فرعان أحدهما يتجه شمالا إلى بورسعيد والآخر يتجه جنوبا إلى السويس... وفعلا وضع موجل ولينان كل المواصفات اللازمة لحفر الترعة؛ كما اتفق سعيد باشا ودى لسبس على أن تتولى الحكومة المصرية حفر هذه الترعة وملحقاتها على نفقة الشركة وطبقا للمواصفات التى جاءت فى تقرير كبيرى مهندسى الحكومة المصرية. ولما شرعت اللجنة العملية الدولية فى دراسة هذا التقرير رغبت فى الاستفادة من ترعة الزقازيق التى كانت تخرج من هذه المدينة إلى رأس الوادى فتكون الزقازيق بدلا من القاهرة مبدأ ترعة الماء العذب التى تعتزم الشركة حفرها وكان الأخذ بهذا الرأى يؤدى إلى توفير كبير فى تنفيذ المشروع ولكن انتهى بها البحث إلى عدم إقراره... ولكن موجل بك قدم إلى اللجنة تقريرا ضافيا ضمنه كافة التدابير التى يراد اتخاذها للبدء فى حفر ترعة الماء العذب فى أقرب وقت ممكن حتى يمكن الاستفادة من مياه فيضان النيل فى صيف ذلك العام (١٨٥٦) فى نقل المهمات اللازمة لتنفيذ المشروع فى سفن تسير فى ترعة الزعفرانية، وقسم موجل بك فى تقريره الترعة قسمين الأول يمتد من القاهرة إلى إقليم الوادى مسافة ١١٠ ك م والثانى امتداد الترعة من إقليم الوادى إلى بحيرة التمساح ثم فرع السويس كما ذكر موجل التدابير التى رأى وجوب اتخاذها لضمان تزويد العمال الذين سيستخدمون فى حفرها بماء الشرب فاقترح أن يحفر على طول القسم الأول من الترعة عدد من الآبار بين كل بئر وآخر مسافة خمسة كيلومترات ويزود كل بئر بساقية من الحديد تديرها بقرة وباستخدام الساقية اثنتى عشرة ساعة فى اليوم يمكن رفع ١٨٠ ألف لتر من الماء وهى كمية تكفى لاستهلاك خمسة عشر ألف عامل على اعتبار أن العامل يستهلك ١٢ لترا فى اليوم، ومعنى ذلك أن قدر موجل عدد الآبار بمائتين وعشرين ولكن لما كانت الترعة تمر فى طريقها بكثير من القرى التى يتوافر فيها الماء فإن هذا العدد المقدر حفره من الآبار سيهبط فى الواقع إلى ست أو ثمانى آبار. واقترح موجل اتخاذ التدابير لإنشاء مساكن للعمال والمخازن والورش لإقامة الأهوسة التى تنشأ على الترعة فى جزئها الأول ثم إعداد الأدوات والآلات التى يستخدمها العمال من الفؤوس وغيرها وهذه رأى طلبها من فرنسا ثم القفف والحصر وهذه رأى المبادرة بالتوصية على صنعها فى الشرقية حتى لا يتأخر البدء فى حفر الترعة... وفعلا شرعت الحكومة المصرية فى تنفيذ كثير من هذه الاقتراحات حتى إنها استوردت عددا كبيرا من الأكواخ الخشبية والمنازل التى يسهل نقلها كما استوردت كافة مقادير الأنابيب التى اقترح موجل فى تقريره مدها من الوادى إلى السويس كما نقلت من الاسكندرية جميع الأكواخ

والمنازل المتنقلة فركبت أجزاؤها على طول الترعة ليقيم فيها العمال ، كما شرع بعض مئات من العمال بإشراف المهندسين فى وضع علامات على الأرض تبين خط سير الترعة ولما طلب دى لسبس إلى سعيد باشا زيادة عدد أولئك العمال صدر أمر كريم برفعهم من ٤٠٠ إلى ١٠٠٠ ، وبينما الحكومة المصرية تتأهب لحفر الترعة من القاهرة إلى إقليم الوادى تلقى سعيد باشا فى منتصف يوليو سنة ١٨٥٧ خطابا من دى لسبس يخطره فيه برغبته فى طرح موضوع ترعة الماء العذب برمته على اللجنة العلمية الدولية من جديد لدراسته وإبداء رأيها فى المشروعات التى وصفها مهندسو الحكومة المصرية وبخاصة فيما يتصل بمخرج الترعة وطريقة تغذيتها بالماء. وكانت توجد بواعث حدت بالشركة إلى إرسال هذا الخطاب تشير فيه على الحكومة المصرية بوقف العمل فى حفر ترعة الماء العذب لأن موضوع قناة السويس أثير فى مجلس العموم البريطانى حين وجه المستر Benkeley نائب دائرة برستول سؤالا إلى اللورد بالمرستون رئيس الوزارة البريطانية فهاجم هذا الأخير المشروع هجوما عنيفا وانتقده انتقادا مرا ووصفه بأنه مشروع وهمى أعلن أن حكومته لم ولن تتوانى عن مناهضة هذا المشروع الذى يرمى إلى أغراض سياسية بعيدة منها فصل مصر عن تركيا وإيجاد طريق سهل للممتلكات الإنجليزية فى الهند تسيطر عليه بعض الدول الأوربية وهكذا تأخر حفر ترعة الماء العذب بسبب سياسة انجلترا العدائية لمشروع قناة السويس .

وكانت الشركة تعتقد أن ميناء بور سعيد وحفر القناة البحرية الصغيرة من بور سعيد جنوبا إلى بحيرة التمساح سيحلان مشكلة النقل فتمون مراكز العمل فى منطقة عتبة الجسر بالأقوات والأدوات عن هذا الطريق، ولكن صعوبة النقل عبر بحيرة المنزلة وعبر الصحراء جعلت الشركة تتجه بأنظارها إلى طريق الزقازيق حيث كانت الشركة تبعث إليها بالسكة الحديدية من الإسكندرية الواردات الأوربية ثم تنقل من الزقازيق إلى عتبة الجسر — وهى مسافة تبلغ ثمانين كيلو مترا — على ظهور الجمال وكانت وسيلة صعبة كثيرة النفقات غير منتظمة. فضلا عن أن تموين الورش وساحات الحفر بماء الشرب قبل حفر ترعة الماء العذب أمر باهظ التكاليف مروع الأخطار كثير الصعاب ، ولهذين الاعتبارين كان حفر ترعة الماء العذب ضرورة عاجلة وإجراء هاما للغاية يضع حدا للمتاعب الناجمة عن صعوبات النقل من ناحية ويزيل شبح الأخطار عن العمال من ناحية ثانية .

أخذت الشركة تتطلع إلى حفر قناة عذبة تبدأ عند القصاصين وتنتهى عند التمساح وتشقها على عجل أول الأمر ثم تعمل فيما بعد على تعميقها وتوسيعها حتى تصبح الجزء الأخير من ترعة الماء العذب حين يحين وقت حفرها فى وضعها الطبيعى ، وطبقا للمشروع النهائى الذى أخذته ترعة الماء العذب كانت السفن تبدأ رحلتها فى النيل من القاهرة متجهة شمالا فتدخل فى فرع دمياط إلى شمالى بنها ثم تسير فى بحر مويس إلى الزقازيق حيث تواصل سيرها فى قناة الزقازيق التى تبدأ من هذه الترعة وتتجه شرقا إلى العباسة عند أول إقليم الوادى ثم تدخل فى ترعة الوادى التى هى فى الواقع امتداد للترعة السابقة وتبدأ عند العباسة وتنتهى عند القصاصين ، وأخيرا تدخل فى الترعة التى اعتزمت الشركة حفرها من القصاصين إلى بحيرة التمساح وبذلك أصبح وسط البرزخ — ذلك الإقليم الصحراوى المنعزل — على اتصال بالقاهرة بواسطة خط متصل من القنوات .

ولقد ساعد الشركة على شق هذه القناة[1] ابتياعها تفتيش الوادى فى مارس سنة ١٨٦١ من سعيد باشا الذى آل إليه عن طريق الشراء بعد وفاة إلهامى باشا بن عباس الأول . . كان بحر مويس وقناة الزقازيق من الأملاك العامة . أما ترعة الوادى فلم تكن لها هذه الصفة وإنما كانت جزءا من تفتيش الوادى ، وكان لصاحب هذا التفتيش أن يتحكم فى تنظيم سير الماء فى الترعة القائمة فى أملاكه الخاصة أى أن الشركة تكون تحت سيطرة هذا المالك الذى قد تتعارض مصالحه مع رغبات الشركة فى يوم ما ، فيثير الكثير من المتاعب أهمها إذا هو رفض السماح لها بأن تقوم على نفقتها بتطهير الترعة أو صيانتها وهو أمر هام كانت تتطلبه شئون الملاحة فى الترعة التى اعتزمت الشركة حفرها من القصاصين إلى التمساح .

وفى وسط هذه الوساوس التى كانت تقلق بال الشركة عقد Ru yssenaers رويسنرس الوكيل الأعلى لشركة القناة فى مصر هذه الصفقة فابتاعها للشركة من سعيد باشا بمبلغ ١,٩٩٧,٠٠٠ من الفرنكات فتغير الموقف تغيرا كبيرا لمصلحة الشركة ، إذ أمنت المتاعب التى قد تنجم عن تعطيل خط المواصلات المائى بين وسط الدلتا وبين البرزخ ولذلك نوه دى لسبس بأهمية شراء ذلك التفتيش فى الخطاب الذى ألقاه فى الجمعية العامة لمساهمى الشركة فى مايو سنة ١٨٦١ حين قال ، ويطيب لى أن أعلن أن هذه الصفقة هى استغلال طيب للغاية لرأس مال الشركة » .

---

(١) رأت الشركة فى أوائل سنة ١٨٦١ تسهيلا للمواصلات بين الزقازيق ووسط البرزخ وإلى أن يتم حفر ترعة الماء العذب إنشاء طريق برى معبد على طول ترعة الوادى لمرور العربات عليه .

وقد تم إنشاء ذلك الطريق فى خلال ستة أسابيع ، وكان ذلك الخط يبدأ من محطة سكة حديد الزقازيق وينتهى عند التل الكبير حيث يتصل بطريق صحراوى يصلح لمرور العربات عليه ، وقد أدى ذلك الخط خدمات جليلة للتموين وبخاصة أيام التحاريق وانخفاض منسوب الماء فى ترعة الزقازيق انخفاضا لم يكن يسمح بمرور المراكب فيها فكانت البضائع المرسلة إلى البرزخ تفرغ فى محطة سكة حديد الزقازيق ثم تنقل على عربات تسير على ذلك الطريق البرى ، ولاسيما المواد الغذائية التى لم تكن تتحمل تأخيرا . أما الآلات وأدوات الحفر وغيرها فكانت تودع مخازن الشركة بالزقازيق حتى يحل موسم فيضان النيل ويرتفع منسوب الماء فى ترعة الوادى فتنقل البضائع من مخازنها وتوضع فى سفن صغيرة تسير بها إلى أقصى مسافة تستطيع أن تصل إليها فى ترعة الوادى ، ومن ثم تنقل مرة أخرى على ظهور الجمال أو على عربات تسير على الطريق البرى إلى ساحات الحفر فى منطقة عتبة الجسر — وكانت تقطع المسافة الأخيرة فى مدة تتراوح بين ثلاثة وأربعة أيام مجتازة الصحراء وبهذه الطريقة نقلت فى فبراير سنة ١٨٦١ من الاسكندرية إلى منطقة عتبة الجسر جميع المهمات والأدوات التى استخدمتها الشركة فى إقامة المنشآت قبل المساكن والمخازن والورش الصغيرة التى شيدتها فى تلك المنطقة — وكان تراكم هذه المهمات بكميات هائلة فى الزقازيق ، وعلى مسافة بعيدة من ساحات الحفر فى انتظار ارتفاع منسوب الماء فى ترعة الوادى سببا قويا — بجانب الأسباب الأخرى — دفع الشركة إلى تكريس جهود صادقة للإسراع فى إنجاز ترعة الماء العذب .

وقد ذكر Compayno طبيب قسم التمساح لشركة القناة فى مقال له نشر فى ١٥ ديسمبر سنة ١٨٦١ أن الفضل فى عقد هذه الصفقة وإنشاء الشركة لهذا التفتيش إنما يعود إلى Ruyssenaers فقد أدرك أهمية هذه الضيعة وعرف كل شبر عنها بفضل إقامته الطويلة فى مصر فوضع خبرته وكل نشاطه لإتمام هذه الصفقة. ولقد كانت مساحة هذا التفتيش ٢٢ ألف فدان، وكان يمتد من العباسة إلى بحيرة المحسمة وطوله ٢٥ كيلومترا وعرضه خمسة كيلو مترات، وقد باعت الشركة هذا التفتيش للحكومة المصرية بعد ذلك سنة ١٨٦٦ بمبلغ عشرة ملايين من الفرنكات أى بأكثر من خمسة أضعاف الثمن الذى ابتاعته هى به، وقد وقعه نوبار باشا عن الحكومة المصرية ودى لسبس عن الشركة وكانت قبيلتا هنادى وطميلات تقيمان فيه.

وبعد أن تمت تلك الصفقة لم يكن عمل الشركة — فيما يختص بإنشاء الطريق النهرى — يعدو إدخال تحسينات على ترعة الزقازيق وترعة الوادى ثم حفر الترعة فى مسافة قصيرة وبذلك تخف الأعباء الملقاة على كاهل الشركة فى وقت كانت حالة التموين قد بلغت حدا كبيرا من الخطورة، وكانت لاتتحمل أى تأخير فى سبيل إنشاء هذا الشريان الحيوى وسط الصحراء.

ولقد قامت الشركة بعدة تحسينات فى ترعتى الزقازيق والوادى (كان طولهما ٤٥ كيلو مترا) بأن عدلت فى منحنياتها بحيث تتلاءم مع الأغراض الجديدة التى ترمى الشركة إلى تحقيقها من حيث تمكين السفن الحاملة مؤنا ومهمات من الملاحة فيها، على أن أهم عمل قامت به الشركة هو إنشاء قنطرتين ثابتتين الأولى عند (أبو حماد) والثانية عند (التل الكبير) كما أزالت قنطرتين كبيرتين قديمتين كانتا تعوقان الملاحة إحداهما عند العباسة والثانية عند بيجراس فى إقليم الوادى، وشرعت الشركة فى القيام بإنشاء القنطرتين فى الشهور الأولى من سنة ١٨٦١ تحت إشراف مهندسيها، وقد فرغت من هذه الأعمال فى شهر سبتمبر من نفس العام، ووافق سعيد باشا على أن تتحمل الحكومة المصرية مصاريف تلك الإصلاحات، كما أخذت الحكومة على عاتقها جمع العمال لتنفيذ هذه الإصلاحات.

وفى نفس الوقت سارعت الشركة إلى حفر ترعة الماء العذب وفق التعديل الجديد من القصاصين إلى التمساح، فبدأت أعمال الحفر فيها فى صباح ١٩ إبريل سنة ١٨٦١، وفرغت من حفرها فى ظهر يوم ٢٣ يناير سنة ١٨٦٢، وأعدتها الشركة للملاحة فى نفس اليوم. وقد بلغ طولها ٣٤٨٣٥ مترا، وكان طبيب قسم ترعة الماء العذب الدكتور Bougouin وهو الذى أشرف على الحالة الصحية بين العمال أثناء حفر تلك الترعة، وذكر فى تقريره إلى الدكتور Roche كبير أطباء الشركة أن الحالة الصحية كانت حسنة للغاية، وذكر أيضا أن الشركة حظيت من سعيد باشا بمعاونات مالية وآدمية عند شروعها فى حفر ترعة الماء العذب. فقد حشد لها الفلاحين من مديريتى الشرقية والدقهلية وفق نظام السخرة حتى بلغ عددهم فى غضون تسعة أشهر، وهى المدة التى استغرقها حفرها ٥٥٨٩٣ عاملا كانوا يعملون حسب نظام (المقطوعية) فكانت الشركة تدفع للعامل عن كل متر مكعب من الأنقاض يتخلف عن عملية الحفر أربعين سنتيما فى الأرض الرخوة وخمسين

ستيمترا فى الأرض الصلبة التى تبدى نوعا من المقاومة فى حفرها ، وكان متوسط إنتاج العامل فى العادة مترا ونصف المتر من الأنقاض فى اليوم الواحد .

وصفوة القول أنه لولا تقصير المسافة التى كانت تجتازها الترعة ، وكذا الوفر فى النفقات لتأخر حل مشكلة النقل سنوات أخرى ، ولظل التموين يتعرض لكثير من الاضطراب ؛ أما هذه الرعاية التى شمل بها سعيد باشا الشركة ، وتلك المساعدات القيمة المتلاحقة التى بذلها بسخاء فكان الدافع لها فى تلك الفترة إنسانيا أراد التعجيل بجلب ماء الشرب إلى الصحراء حتى لاتتعرض حياة آلاف العمال المصريين للموت عطشا وجوعا، كما أنها مظهر من مظاهر رغبته فى إنجاح المشروع حتى يتم على يديه .

وإن حفر ترعة الماء العذب من القصاصين إلى التمساح يعد عملا ذا شأن خطير ، إذ لم تقتصر خدمات تلك الترعة على ربط ساحات الحفر وهى فى قلب الصحراء بمراكز الدلتا الفنية وسهولة وصول السفن إليها من الزقازيق بل من القاهرة تحمل خيرات مصر إلى الموظفين والعمال ، بل كانت موردا عزيزا لايقدر بثمن لماء الشرب أعز حاجة عند ساكنى الصحراء . والحقيقة أن متاعب الشركة تضاءلت إلى حد بعيد بعد حفر هذه الترعة . وأصبحت ساحات الحفر وكأنها فى قلب الدلتا ، وبهذا تمت المواصلات الداخلية إلى البرزخ بعد مرور ثلاث سنوات من بدء الحفر .

عمدت الشركة بعد حفر ترعة الماء العذب من القصاصين إلى التمساح إلى مد تلك الترعة فى اتجاه الجنوب حتى بلغت مدينة السويس ، وفى نفس الوقت مدت خطا من الأنابيب يبدأ من الاسماعيلية وينتهى عند بور سعيد .

الحالة الصحية :

يجب ألا يغيب عن الذهن أن وجود الماء العذب أدى إلى تحسن الصحة العامة فى جهات البرزخ وسهل على القسم الطبى مكافحة الأمراض ومواطن القذارة بإقامة المغاسل والحمامات العامة وغيرها لوجود المياه بوفرة نسبية بعد أن كانت الجمال تحمل ذلك السائل العزيز مسافات طويلة وتصل غالبا بعد فوات الوقت والفرصة معا . ولقد أنشأ القسم الطبى وحدات صحية فى جهات عدة من البرزخ يشرف على كل منها طبيب أو أكثر فضلا عن الصيادلة والممرضين ومن إليهم . وكذا استورد الأدوية من فرنسا وسار على خطة المشافى العسكرية وهى استيراد الأدوية التى يسهل المحافظة عليها مدة طويلة دون أن تتعرض للفساد أو ينال تركيبها انحلال، وكان إنشاء تلك الوحدات يخضع لظروف العمل؛ فحينا كان القسم الطبى يلغى وحدة قائمة حين لايكون هناك مبرر لبقائها طويلا، وتارة ينشىء وحدة جديدة إذا وصل العمل فى حفر القناة إلى منطقة لم تكن قد ظفرت من قبل مثل تلك المنشآت الصحية . والحقيقة أن القسم الطبى كان يسير على سياسة مرنة سايرت مراحل العمل — وكانت بور سعيد أول منطقة حظيت بوجود وحدة صحية فيها كان قوامها طبيب عين فى يونيو سنة ١٨٥٩ ، وكان يقوم إلى جانب وظيفته بأعمال الصيدلى، كما كان عليه أن يرصد التغيرات الجوية فى منطقة بور سعيد مستعينا بالأجهزة التى أمدته بها الشركة .

ولما ابتاعت الشركة تفتيش الوادى من سعيد باشا أنشأ القسم الطبى وحدة صحية بعث إليها طبيباً مصرياً درس فى أوربا وكان مركز إقامته التل الكبير ليشرف على الصحة العامة فى ذلك التفتيش ويعالج الموظفين والسكان ويقوم بتطعيم الأطفال ، وأهم من ذلك كان عليه أن يراقب عمال السخرة أثناء مرورهم بتفتيش الوادى فى طريقهم إلى ساحات الحفر ، وكانت المنطقة التى تشرف عليها تلك الوحدة تمتد من المحسمة شرقا إلى الزقازيق غربا . ولما شرعت الشركة فى حفر ترعة الماء العذب من قرية القصاصين إلى نفيشة على مقربة من بحيرة التمساح أنشأ القسم الطبى وحدة صحية للإشراف على الصحة العامة بين العمال المصريين الذين اشتغلوا فى حفر تلك الترعة ، وقد ظلت تلك الوحدة تقوم بمهمتها وسط العمال إلى أن ألغيت على أثر الفراغ من حفر الترعة سنة ١٨٦٢ ؛ ولقد زاد القسم الطبى فى عدد الموظفين الفنيين فى القصاصين والزقازيق لنشاط الحركة التجارية بعد حفر الترعة من وسط الدلتا إلى داخل البرزخ حتى أصبح عددهم طبيبين أوربيين وآخرين مصريين وثلاثة مساعدى أطباء وصيدليا ومساعد صيدلى ؛ وقد أقيم فى التل الكبير مستشفى بصفة دائمة ، كما شيدت الشركة بجواره مسجدا كانت تنار مئذنته ليلا بمصباح قوى فترشد قوافل الجمال والقادمين ليلا فى الصحراء إلى موقع القرية ، وأقيم فى المستشفى ستون سريرا خصصت عشرة منها للأوربيين وخمسون للمصريين .

هذا إلى أن الشركة أقامت فى الزقازيق عدة مراكز للإسعاف بقصد فحص كل عامل يفد إلى البرزخ فحصا طبيا دقيقا ضمانا لعدم تسرب الأمراض المعدية إلى داخل البرزخ ، كما قام طبيب الوحـــدة الصحية فى الزقازيق بتطعيم أبناء هذه المدينة مستعينا بالقاضى الشرعى الذى شرح لهم مزايا ذلك التطعيم فأقبلوا على تقديم أولادهم إلى طبيب الشركة . هذا إلى أنه عمل على مراقبة بيع الأغذية مراقبة دقيقة بحيث لم يكن يسمح مطلقا بإرسال المأكولات التى تعرضت للفساد إلى داخل البرزخ ، كما لاحظ أن السفن تحمل معها أحياناً ماء الشرب محفوظا فى خزانات مصنوعة من الخشب وهو أمر يؤدى إلى فساد الماء بسرعة فاتخذت الشركة تدابير عاجلة لإنشاء خزانات من الصاج يحفظ فيها الماء وذلك قبيل حفر ترعة الماء العذب .

وكان أكثر الأمراض انتشاراً بين العمال المصريين الذين ساهموا فى حفر ترعة الماء العذب من القصاصين إلى التمساح الرمد ثم الدوسنتاريا ثم التهاب الكبد ، ويلاحظ أن تلك الترعة قد تم حفرها فى الفترة الواقعة بين شهر إبريل سنة ١٨٦١ وبين يناير سنة ١٨٦٢ فاشتغل العمال فى رمال الصحراء طوال أشهر الحرارة الشديدة ، ولهذا كان الرمد أكثر الأمراض ذيوعا بين العمال ؛ ويعزو طبيب الوحدة الصحية الخاصة بترعة الماء العذب انتشار الرمد إلى عدة أسباب : منها البرودة أثناء الليل عقب الحرارة الشديدة خلال النهار ، ومنها شدة أشعة الشمس المحرقة وتأثيرها على شبكة العين ، وأخيراً طبيعة عمليات الحفر نفسها وما يتخللها من نقل الأتربة والأنقاض فكان الهواء يحمل ذرات تلك الأتربة إلى العيون فتصاب بالرمد — أما التهاب الكبد والدوسنتاريا فكانت من الأمراض التى تسبب الوفاة وكانت مقصورة فى الغالب على المهندسين والعمال الأجانب الذين وفدوا من الأقاليم الباردة أو المعتدلة ليعملوا فى داخل البرزخ حيث تؤثر الحرارة الشديدة عليهم كما كان إفراطهم فى تناول الخمور عاملا قويا فى إصابتهم بالتهاب الكبد .

عمليات النقل فى ترعة الماء العذب :

كانت الشركة تشحن الآلات وسائر المهمات بالسكة الحديدية من الإسكندرية أو القاهرة إلى بنها فالزقازيق حيث كانت تفرغ من القطر الحديدية وتشحن فى قوارب تسير فى ترعة الزقازيق ثم ترعة الوادى ثم الترعة الحلوة التى قامت الشركة بحفرها مؤخرا ، كما كانت الشركة تقوم فى بعض الأحايين بشحن تلك المهمات من القاهرة أو الإسكندرية بطريق الملاحة النهرية الداخلية إلى الزقازيق ثم تنقل فى قوارب صغيرة تواصل الرحلة إلى قرب بحيرة التمساح — بيد أن أمور النقل فى ترعة الماء العذب لم تستقر نهائيا بحفرها إذ لم يعد وهاردن Hardon ، مقاول الشركة العام قوارب لنقل الأقوات وأدوات الحفر فى هذه الترعة على غرار التدابير التى أعدها لحل مشكلة النقل فى القناة البحرية الصغيرة ، ومن ثم كانت الشركة تحت رحمة أصحاب القوارب فى الزقازيق ، وكانت الحاجة ماسة إلى خدماتهم فاتجهت الشركة إليهم لنقل بضائعها على سفنهم الخاصة ، ولقد لقيت الشركة الكثير من المتاعب من جراء جشع هؤلاء الناس رغما عن الأجور العالية التى كانت تعرضها عليهم ، إذ كان الكثير منهم يرفض بتاتا نقل المواد الغذائية على سفن تتعرض أثناء رحلتها وسط الصحراء إلى هجوم البدو عليها فيسلبون البضائع ويقتلون أصحاب القوارب . ولذلك كان كثير من أولئك القوم ينظرون إلى السفر للبرزخ كضرب من ضروب المخاطرة بأرواحهم ... إزاء هذا الموقف اضطرت الشركة إلى الالتجاء إلى الحكومة المصرية تطلب مساعدتها فى الحصول على قوارب حتى لاتتعرض شئون التموين فى صحراء البرزخ إلى الاضطراب ويتعطل استخدام ترعة الماء العذب فتدخلت الحكومة وذللت الصعاب التى كانت تلقاها الشركة ... لاحت للشركة على أثر ذلك فى أغسطس سنة ١٨٦٢ فرصة فريدة إذ تقدم إليها أحد كبار أصحاب القوارب فى الزقازيق يعرض عليها أن يتولى هو بمفرده كافة عمليات النقل فى الترعة من الزقازيق إلى نهاية الترعة عند بحيرة التمساح على أن يخصص لهذا الغرض مائة سفينة متوسطة حمولة كل منها عشرة أطنان وقبلت الشركة هذا العرض واتفقت على أن تكون أجور النقل هى نفس الأجور التى تدفعها الشركة عادة لأصحاب القوارب الأخرى فى هذه الترعة مخصوما منها ١٠٪ كما يقول Viosin فى كتا ... وقد أفاد هذا الاتفاق الشركة من وجوه كثيرة فأغناها عن المتاعب التى كان يصادفها مندوبوها فى طوافهم على أصحاب القوارب فرداً فرداً يعقدون معهم اتفاقات لنقل البضائع ثم ينقضها أصحاب القوارب فى اليوم التالى . هذا فضلا عن أنه وحد أمور النقل وجعلت فى يد واحدة تتولاها وتشرف عليها . وكان من آثار هذا الاتفاق أيضا أن استقرت أمور النقل إلى حد كبير فى ترعة الماء العذب وزادت مقادير الأطعمة التى ترسل للعمال وكذلك علف الحيوانات ومهمات الحفر حتى بلغ ماأرسل من تلك الحاجيات على هذه الترعة ١٢٠٠ طن شهريا كما يقول البارون Dekusel فى كتابه ... وإلى جانب تلك القوارب كانت تسير من الزقازيق إلى التمساح الذهبيات تقل المسافرين وتحمل البريد، وكان يجر الذهبية بغلان يسيران على إحدى ضفتى الترعة وكان السفر بهذه الوسيلة لايخلو من المتاعب والمشاق .

مشكلة التموين :

شرعت الشركة فى تنفيذ مشروع قناة السويس فى ٢٥ إبريل سنة ١٨٥٩ على ساحل البحر الأبيض عند الموقع الحالى لمدينة بور سعيد — وكانت منطقة جرداء موحشة لم يهرع إليها خلال السنة الأولى البائعون أو التجار يفتحون المحال التجارية أو ينشئون المطاعم وغيرها ليصيبوا من ورائها ثروات . فلم تعد بور سعيد أن تكون إذذاك قرية صغيرة ولم يكن أمرها قد ذاع فى أوساط التجار والمغامرين وكانت تمونها بعض القرى المجاورة ولا سيما المنزلة بعض الأسماك الطازجة والبطارخ ثم اتجهت الشركة فى شأن تموين موظفيها وعمالها المصريين إلى فرنسا والإسكندرية ثم دمياط والزقازيق والقاهرة، وكانت الشرقية تقوم بتموين العمال المصريين الذين استخدمتهم الشركة فى أعمال تنفيذ المشروع وكان يخص كل عامل مقدار من الخبز المجفف والبصل والعدس والأرز والزيت . أما المشايخ (وهم رؤساء العمال) فكانوا يتناولون زيادة على ذلك كمية من البن والسكر . ولقد انتهت التجارب المتعددة إلى إنشاء إدارة جديدة للتموين فى يوليو سنة ١٨٦١ لها مركز فى الزقازيق وآخر فى دمياط، وكانت هذه الإدارة تقوم بتنظيم مشكلة التموين تنظيما يمنع أسباب الاضطراب حتى كفلت إعداد المواد الغذائية وغيرها بمقادير كبيرة كانت تفى بحاجات آلاف العمال الذين كانوا يعملون فى ساحات الحفر . ولكن الشركة رأت صعوبة المضى فى شحن البضائع من فرنسا بسبب تأخر وصول سفنها (السفينة سعيد ثم يوسف) عن موعدها ، كما كان هياج البحر تجاه بور سعيد — قبل أن تقوم الشركة بإنشاء المنشآت البحرية فى الميناء يحول دون اقتراب السفن من الشاطئ وقتا طويلا ، وعلى ضوء تلك التجارب أحست الشركة ضرورة اختيار مدينة أخرى تزخر بالخيرات ولا يفصلها عن ساحات الحفر سوى شقة صغيرة لاتصادف فى نقل الأقوات عليها عناء أو أخطارا فتجعل منها مركز تموين ثم تبعث بالأقوات منها تباعا إلى موظفيها وعمالها فى ساحات الحفر، وقد وقع اختيارها على دمياط والزقازيق؛ ولا غرو فالزقازيق تقع فى منطقة غنية تستطيع تموين بعض مراكز الحفر والعمل فى أسفل النصف الشمالى من البرزخ كما كانت السفن النيلية، تصل إليها حاملة الحبوب وغيرها من الخيرات من مختلف جهات الدلتا مما مكن الشركة من ابتياع مقادير كبيرة منها وإرسالها تباعا إلى ساحات الحفر ، وقد تحسنت وسائل المواصلات بين الزقازيق وساحات الحفر إلى حد كبير للغاية على أثر حفر قناة الماء العذب حتى بحيرة التمساح — وبجانب إنشاء تلك المستودعات المركزية فى الزقازيق عمدت الشركة إلى تعيين مندوبين لها فى مدن الشرقية الهامة وقراها يشترون ماهى بحاجة إليه من مواد غذائية وأدوات وخصوصاً المقاطف والقفف وغيرها ثم يبعثون بهذه المشتريات بالطريق المائى أو السكة الحديدية إلى الزقازيق فالقصاصين فالتمساح ، وكان للشركة أيضاً مندوبون فى الزقازيق يتولون الإشراف على نقل البضائع من القطر الحديدية التى ينتهى سيرها عند تلك المدينة إلى السفن النيلية أو القوارب أو تخزينها فى مخازن أنشأتها الشركة فى تلك الجهة ريثما تعد وسائل نقلها إلى ساحات الحفر حتى إن المقاول العام فى الزقازيق أقام تجاه ترعة الوادى كلكا (أخشاب متقاربة مربوط بعضها إلى بعض على سطح الماء لأجل النقل) ترسو عنده السفن القادمة من الدلتا وتفرغ شحناتها أمام المخزن مباشرة وكانت بعض المواد

الغذائية التى ترد من الدلتا يتسرب إليها أحيانا الفساد لطول الوقت فتضطر الشركة إلى إتلافها محافظة على الصحة العامة ؛ هذا إلى أن الشركة كانت قد أنشأت فى سنة ١٨٦١ مخبزا فى الزقازيق إذ كان الخبز المجفف الذى تستورده الشركة لتوزيعه على العمال لايلبث أن يصيبه التعفن سريعا، وقد عزا الطبيب المشرف على قسم التمساح ظاهرة تفشى الأمراض المعوية بين العمال إلى رداءة الخبز وعدم صلاحيته للأكل فكان هذا من الأسباب التى حدت بالشركة إلى إقامة مخبز شيدته بالطوب فى الزقازيق وكان يجلب له الدقيق بانتظام من أنحاء المديرية أو المديريات المجاورة ، وكان نجاح ذلك المخبز أكبر مشجع لمقاول الشركة العام على فتح عدة محال عامة فى ساحات الحفر يديرها لحسابه الخاص وتبيع المواد الغذائية بالتجزئة تيسيرا لسبل الحياة أمام العمال والموظفين وهم فى تلك الناحية النائية فافتتح عدة مطاعم ومحال جزارة لبيع اللحوم ومحال بقالة وكانت هذه المحال تأخذ حاجتها من مستودعات التموين المركزية فى الزقازيق وكانت تقدم الأطعمة على النظام الأوربى وحدد لها المقاول أسعاراً كالآتى :

خبز زنة ٥٠٠ جرام	٢٥ سنتيما
حساء	١٠ سنتيم
لحم وخضار وسلطة	٢٥ سنتيما
الحلو	١٠ سنتيم
لتر من النبيذ	٦٠ سنتيما

وهكذا لم تقف خدمات مستودعات التموين فى الزقازيق عند تموين العمال المصريين بالطعام المخصص لهم (كانت الشركة تقدم لكل عامل الجراية المخصصة له التى التزمت الشركة بتقديمها تنفيذاً للائحة ٢٠ يوليو سنة ١٨٥٦ وكانت تكلف الشركة ٦٠ سنتيما لكل فرد) فحسب، بل أدت أجل الخدمات لموظفى الشركة وعمالها الأجانب .

وفى أواخر سنة ١٨٦١ أنشأ المقاول سوقا فى القصاصين تباع فيه الخضر واللحوم والطيور والبيض وبعض الفواكه التى كان يحضرها كثير من أهالى الشرقية والذين أصابوا من هذا العمل أرباحا وفيرة ، ولكن الحقيقة أن صادفت الشركة صعوبة كبيرة ، إذ كانت حركة نقل المأكولات الطازجة من الشرقية تضعف إلى حد كبير أيام التحاريق إذ ينخفض منسوب الماء فى ترعة الوادى والترعة العذبة فيتعذر على القوارب السير فى مياهها والوصول بالمأكولات إلى طوسون أو القنطرة ، وقد حاولت الشركة علاجا لهذه الحال أن تنقل مواد التموين من نقطة وقوف القوارب على ظهور الجمال وهذا سبب ضياع كميات كبيرة من الأقوات نتيجة سطو البدو عليها وهى فى طريقها إلى تلك الجهة مما جعل تموين العمال أحيانا أمراً صعبا باهظ التكاليف ، وقد حدث مرة أن تعرض مستخدمون وعمال كانوا يعملون فى طوسون إلى الهلاك بسبب نفاد الطعام لولا أن تداركهم أحد مشايخ قبائل البدو بجهة التل الكبير فأمدهم ببعض بقر أفراد قبيلته ، ولقد شكا دى لسبس نفسه عدة مرات أن المنطقة الوسطى من البرزخ مضطربة فى تموينها ومعرضة لنقص الأقوات ولرداءة المواد الغذائية علاوة على ارتفاع أسعار الحاجيات فيها ارتفاعا فاحشا حتى قيل إن عدداً كبيراً من الجمال قد مات

من الجوع ومن تأثير التعب ، وعلى عكس ذلك لم تصادف الشركة صعوبات تذكر فى إعداد الأقوات للعمال الذين كانوا يعملون فى حفر ترعة الماء العذب التى قامت الشركة بشقها من القصاصين إلى بحيرة التمساح إذ كانت تلك المنطقة أقرب المناطق إلى الأراضى الزراعية فى شرق الدلتا ولذلك لم تشك نقصا فى الأقوات ولا ارتفاعا فى الأسعار .

العمال :

لما بدأت الشركة فى عملية الحفر فى إبريل سنة ١٨٥٩ كان العنصر الأجنبى بين العمال ظاهرا بالنسبة إلى مجموع العمال المصريين ، إذ كان قدر كبير من الأعمال التى تمت يحتاج إلى خبرة فنية خاصة كتركيب أجزاء الكراكات وإدارتها وإصلاحها والإشراف على الورش المختلفة ، فاستخدمت الشركة عدداً لا بأس به من العمال الفرنسيين والنمساويين والبحارة اليونانيين وحتى آخر ديسمبر من سنة ١٨٥٩ كان عدد العمال الأجانب ٤٩ والمصريين ٧٨ وزاد هذا العدد إلى ١٤٠٠ فى آخر سنة ١٨٦٠ وكان هؤلاء العمال المصريون يعملون برغبتهم الخاصة وكانت الشركة تطلق عليهم « العمال الوطنيون الأحرار » .

ولكن مالبث أن اختار دى لسبس مستخدما فى الشركة يتكلم اللغة العربية بطلاقة هو يوسف فرنونى عهد إليه أن يطوف فى قرى الشرقية والدقهلية بصحبة مندوب من قبل المقاول العام (هاردن) ومعهما عاملان من العمال المصريين البارزين للمساعدة فى تنظيم جمع العمال وإرسالهم إلى ساحات الحفر ، وقد عمل مندوبا الشركة والمقاول على استمالة أكبر عدد ممكن من الفلاحين لترك قراهم والعمل فى الحفر ، ولم يصادف هذان المندوبان صعوبات أو عراقيل من جانب رجال الإدارة فى المديريتين السابقتين ؛ والحقيقة أن طواف مندوبى الشركة فى قرى الشرقية لم يكلل بالنجاح التام وظل عدد العمال المصريين دون المطلوب بكثير وأرسل يوسف فرنونى إلى دى لسبس خطابا بذلك فرأى الأخير أن يلتمس من سعيد باشا تدخلا فعليا من جانب الحكومة المصرية لتعبئة العمال المصريين من أجل أعمال الحفر .

حل عام ١٨٦١ بعد أن سلخت الشركة عامين فى أعمال تنفيذ المشروع فأرادت أن تصل بتلك الأعمال إلى نتيجة عملية سريعة لادخال الطمأنينة فى نفوس مساهمى الشركة من ناحية ولحل مشكلة التموين والنقل من ناحية ثانية ولإفحام المعارضة الإنجليزية التى كانت تقول باستحالة حفر القناة فى أراضى البرزخ من ناحية ثالثة فكان لدى الشركة وثيقة هامة هى لائحة ٢٠ يوليو سنة ١٨٥٦ تستطيع بمقتضاها مطالبة الحكومة المصرية بحشد العمال لها وفقا لما نصت عليه المادة الأولى من تلك اللائحة ، ولكن الموقف كان شائكا ودقيقا أمام سعيد باشا بسبب المعارضة الإنجليزية وضغط بالمرستون على الباب العالى فخشى سعيد باشا أن يقدم المساعدات الآدمية حتى لاتسوء العلاقات المصرية التركية وقد يؤدى ذلك إلى حدوث أزمة سياسية إذ يعتبر هذا تحديا صريحا من والى مصر لحكومة السلطان ، وربما دفعت الحكومة الإنجليزية الباب العالى رغبة منها فى القضاء على المشروع قضاء تاما ، وأخيرا استجاب دى لسبس لطلب سعيد باشا بالتريث فى المطالبة بتنفيذ لائحة ٢٠ يوليو سنة ١٨٥٦ بعض الوقت وأن يكون جمع العمال وفق طريقة الجمع الحر ut eLrrecement libre ،

وفعلا قام دى لسبس فى سبيل جمع العمال وفق هذه الطريقة بخطوتين : أولا — دعاية واسعة النطاق فى الريف المصرى جميعه لجمع العمال ، وكان قوام هذه الدعاية توزيع إعلانات بين الفلاحين تعدهم بالحياة الرغد والكسب الوفير — ثانيا — القيام برحلة إلى سوريا منتهزا وقوع مذابح دينية بين سكان تلك البلاد .

وفى فبراير سنة ١٨٦١ وضع دى لسبس صورة إعلان باللغة الفرنسية ثم طلب ترجمته إلى اللغة العربية ثم طبع فى إحدى المطابع بمدينة الزقازيق ، وفى هذا الاعلان دعا دى لسبس المصريين للذهاب إلى البرزخ وحبب إليهم العمل هناك وزينه فى قلوبهم ، فذكر أن الشركة قد أقامت قرى خصيصا لسكنى العمال وأنها شيدت فى كل منها مسجدا ، كما ذكر أن ماء الشرب قد توافر من أجلهم ، وحدد لهم الأجور على أساس إنتاجهم ووعدهم بأجر يتراوح بين ستة قروش وثمانية فى اليوم ، كما ترك للفلاحين حرية شراء مايروق لهم من مخازن المقاول بالأثمان المحددة فى التسعيرة أو من الباعة المتجولين وختم إعلانه بقوله إنه حرم على الرؤساء الأوربيين ضرب الفلاحين أو إساءة معاملتهم ؛ ولقد جاء فى المادة السابقة من هذا الإعلان مانصه « تترك الحرية التامة للعمال المصريين فى شئون الطعام فيستطيعون دائما شراء المأكولات إما من محلات المقاول بالأثمان المقررة فى التسعيرة وإما من الباعة الذين يفدون إلى ساحات الحفر من أقرب المدن إلينا وهى بلبيس والزقازيق والمنصورة ودمياط » .

وقد طبع من هذا الإعلان ثلاثة آلاف نسخة وقام مندوبو الشركة والمقاول بتوزيعها فى مدن الشرقية وقراها أولا حتى إنهم ألصقوا نسخا منه على أبواب المساجد وفى محطة الزقازيق وفى الشوارع والأسواق وأقسام البوليس ، كما طاف مندوبو الشركة بمنازل العمد والمشايخ يشرحون للفلاحين ماتضمنه ذلك الإعلان ، ومن الشرقية انتشرت هذه الوسيلة من وسائل الدعاية حتى وصلت إلى مديرية أسوان والنوبة . . . لم يكتف دى لسبس بذلك بل رأى أن يقوم بنفسه بدعاية أخرى لحث الفلاحين على التوجه إلى مناطق الحفر فقام بجولة فى بلاد الوجه البحرى وبدأ طوافه من الاسكندرية فى ١٤ مارس سنة ١٨٦١ حتى وصل إلى بنها ثم عرج على الزقازيق وأقام فيها عشرة أيام يضع الخطط والأسس التى يقوم عليها فرز العمال فى تلك المدينة ثم استأنف رحلته شرقا إلى أن بلغ بحيرة التمساح ومن هناك بدأ رحلته إلى سوريا . . . ولم تكن هذه الرحلة التى قام بها دى لسبس فى الوجه البحرى موفقة تماما ولم تسفر عن نتائج مرضية سريعة إذ وقعت هذه الرحلة خلال شهر رمضان (مارس سنة ١٨٦١) ولم يقبل كثير من الفلاحين على السفر للبرزخ وآثر كثير منهم البقاء فى قراهم مع ذويهم خلال هذا الشهر حتى قالت جريدة الشركة « كان من أثر صيام العمال المسلمين فى رمضان أن تأخرت أعمال الحفر إلى درجة محسوسة ، وبعد انقضاء شهر رمضان — وقد انتهى فى ١٠ إبريل سنة ١٨٦١ — جاء إلى ساحات الحفر عدد كبير من العمال يتراوح بين ستة آلاف رجل وسبعة آلاف ، ولعل زيارة سعيد باشا للشرقية ولبور سعيد فى يوم ٢ إبريل سنة ١٨٦١ عقب عودته من الأقطار الحجازية كانت مظهرا من مظاهر عطفه على الشركة وحدبه على حركة جمع العمال التى تقوم بها ، ونحن نعرف أن سعيد باشا كان يساعد على جمع العمال ولكن لايصدر أوامر تحريرية مطلقا إلى مديرى الأقاليم وبهذه الروح

لا يصدر المحافظون والمديرون إلى العمد ورجال الإدارة أوامر مكتوبة وذلك لكى تأخذ الحكومة المصرية لنفسها الحيطة إذا تدخلت تركيا أو أية حكومة أخرى فى هذا الموضوع .

ولما قام الجدل بين الصحافة الإنجليزية والصحافة الفرنسية حول حركة جمع العمال ظهرت ناحية طريفة خلال الجدل الصحفى إذ استكتبت الشركة رؤساء العمال إقرارات يشيدون فيها بحسن المعاملة التى يلقاها العمال المصريون من الشركة وما ينعمون به من وفرة المأكولات وانتظام دفع الأجور ، وقد نشرت أولى هذه الشهادات فى ١٥ يونيو سنة ١٨٦١ وهذه ترجمتها ، نحن الموقعين على هذا أدناه مشايخ قرى مديريتى الشرقية والدقهلية الذين نشتغل فى أعمال ترعة الماء العذب فى إقليم الوادى نقرونشهد بأن العمال الفلاحين الذين يعملون تحت إشرافنا يثنون على الطريقة التى يعاملون بها فضلا عن ذلك لم يتقدم أحد منهم بأية شكوى من حيث الطعام أو دفع الأجور إليهم رأسا وهم يتمتعون جميعا بصحة جيدة . ونحن لهذا قد وقعنا على هذه الشهادة المحمسة[1] فى ٢٩ مايو سنة ١٨٦١ .

ولما كانت أعمال الحفر قد بدأت فى يوم ١٩ إبريل سنة ١٨٦١ فى ترعة الماء العذب من قرية القصاصين إلى بحيرة التمساح ، فإن الشركة حشدت ثلاثة آلاف عامل لحفرها ، ثم رأت للأهمية البالغة التى تعلقها على حفرها وجوب رفع هذا العدد إلى ستة آلاف ، وكان هدفها كما قلنا حل مشكلة ماء الشرب فى ساحات الحفر وإيجاد خط مواصلات مائى هام تستخدمه الشركة فى نقل المواد الغذائية للعمال من مدن الوجه البحرى الغنية بخيراتها ، ولذا ضاعف دى لسبس من جهوده ومكاتباته وخطواته لدى سعيد باشا ، وأبان له أن الجهود التى بذلتها الشركة فى جمع العمال لم تسفر عن نتائج مرضية وشرح له خطورة الموقف الذى قد يضير بمصالح المساهمين ، ويعرض سمعة الباشا للنقد فى فرنسا حيث يحظى من الرأى العام هناك بتقدير وعطف بالغين . . .

كانت الظروف مواتية لدى لسبس . فقد قام بسعيه لدى سعيد باشا لتسخير الفلاحين المصريين لحفر القناة

---

(١) وورد أسماء ٢٩ فردا من مشايخ البلاد من جهات منيا القمح والعزيزية وزفتى وأبو كبير وبلبيس وصهرجت ومليج والمنصورة وميت الحيين . وهاك بعض هذه الأسماء : الشيخ البقلى قنديل من عيانه ، مصطفى هلال من الحادين ، على الحولى شيخ ميت الحيين ، محمد شبار من المدلية ، على زغلول من الجوسق ، إبراهيم عمر من العزيزية ، محمد خليفة من سماكين العرب ، يوسف العرباوى من عاطور ، وأمين يوسف شيخ السواق ، وعثمان البردعوى شيخ ميت حيش قسم صهرجت ، ومحمد أبو الزين شيخ الجديدة ، وعبد عاشور من منيا القمح وعدد أفراد فرقته ٧٥٧ ، محمد عبد القدوس شيخ عمرو وعدد أفراد فرقته ١٣٢ ، ومحمد فرحات شيخ أبو العبال وعدد أفراد فرقته ٢١٠ ، والشيخ أحمد الطوسى من الدقهلية ، وكان عدد أفراد فرقته ١٥١ .

ثم نشرت عريضة أخرى فى أول يوليو سنة ١٨٦١ عليها أسماء ٢٧ شيخا من رؤساء العمال من مديريات القليوبية وروضة البحرين ويشهدون فيها بأن العمال الذين كانوا تحت إمرتهم وكان عددهم ٣٤٧٥ قد عملوا برغبتهم العمل ، ورأى أن الشركة غالت فى هذه الشهادات فقدت قيمتها بل إنها أثارت حملات أعضاء البرلمان الإنجليزى من جديد بشأن تسخير العمال المصريين .

عقب موسم الحصاد ، ولم تكن الحقول وقتئذ فى حاجة ماسة إلى أيد عاملة كثيرة ، ولم يفت دى لسبس إبراز هذه النقطة الحساسة فى أحاديثه مع سعيد باشا فطلب أن يزداد عدد العمال فى كل شهر حتى يصل إلى عشرة آلاف عامل فلقى من الباشا قبولا لفكرته ، ووعد سعيد بأن يبذل معونته حتى يبلغ عددهم خلال أغسطس سنة ١٨٦١ تسعة آلاف ، ثم يزداد عددهم إلى عشرة آلاف ابتداء من سبتمبر . . . ولم يقنع دى لسبس بهذا العدد ، ولم يرض بهذا النجاح الجزئى إذ كان يتطلع فى ذلك الوقت إلى ثلاثين ألف رجل تسخرهم الحكومة المصرية فسافر فعلا إلى فرنسا لكى يستعين بوزارة الخارجية الفرنسية لتحقيق هذا الغرض . . . كانت النتيجة أن تحسن الموقف كثيراً لصالح الشركة بتدفق المال بكثرة ملحوظة لم تعهدها الشركة من قبل فنجد عددهم يرتفع فى أغسطس إلى ٧٩٢٩ ثم يقفز إلى ١٠٠١٣ فى سبتمبر ، ويستمر فى هذا الصعود فى كافة الشهور عدا شهر أكتوبر[1] سنة ١٨٦١ حتى يبلغ فى ديسمبر سنة ١٨٦١ أكبر عدد وصل إليه خلال هذا العام فكان ١٤٦٩٧

وكان يفد معظم أولئك العمال فى أول الأمر من مديريات الشرقية ، والدقهلية ، والقليوبية ، والغربية ، وكفت بعد ذلك الشركة عن إرسال مندوبيها للطواف بقرى الريف المصرى لجمع الفلاحين حتى قال فوزان بك مدير عام أشغال الحفر ما نصه : « وأخذ مديرو المديريات (الشرقية ، والقليوبية ، والدقهلية) طبقا لتعليمات سعيد يجمعون العمال كل شهر ويرسلونهم كلما بعث إليهم المقاول يطلب منهم جمع العمال[2] » . . . وقد كتب دى لسبس فى ١٠ نوفمبر سنة ١٨٦١ يقول : « ويلوح أن حضرة صاحب السمو لايخشى الآن من تقديم المساعدة لتقدم أعمالنا ، وسنستخدم حالا عشرة آلاف رجل لإيصال ترعة الماء العذب من رمسيس إلى التمساح » . . . وبذلك استطاعت الشركة أن تحرز أول نجاح عملى بعد وقت وجيز ، ففرغت من حفر ترعة الماء العذب فى ٢٣ يناير سنة ١٨٦٢ ، ووصلت مياه النيل إلى وسط البرزخ بعد أن ظلت زهاء ثلاث سنوات وهى تتخبط فى أعمال تنفيذ المشروع دون أن تصل إلى نتيجة عملية مما أدخل القلق فى نفوس المساهمين وأنصار المشروع . . . وكان بالمرستون قد كتب فى ٢٨ ديسمبر سنة ١٨٦١ قبل الفراغ من حفر ترعة الماء العذب بشهر يقول : « على الرغم من أن الشركة قد أنفقت إلى ذلك الوقت شطراً كبيراً من رأس مالها فلم يضرب معول واحد فى حفر القناة البحرية ، ويمكن القول إن هذا المشروع هو مشروع وهمى من الناحية التجارية ، وقد برز من أجل غرض سياسى ، وعلى الرغم من أنه يعود بالثراء على دى لسبس نفسه فإنه سيترك مساهميه التاعسين أشد فقرا وأمعن بؤسا مما كانوا[3] . . . » ، وكان الفراغ من حفر ترعة الماء العذب استهلالا طيبا

---

(١) بسبب ارتفاع فيضان سنة ١٨٦١ حتى أتلف المزروعات ، وأغرق بعض القرى ، كما أضر بمواضع كثيرة فى الخط الحديدى الذى يربط القاهرة بالإسكندرية وبفرع بنها الزقازيق .

(٢) Yoisin Bey, Le Canal de Suez, XII 32

(٣) E. Ashley, Lite ot H. J. Temple' Jalemerston' II' 522

للعام الرابع منذ بدأت أعمال تنفيذ المشروع ، وسرعان ما نشطت الشركة بعد ذلك فشهد عام ١٨٦٢ أحداثا هامة بارزة فى تاريخ الحفر .

عدد العمال الشرقاويين الذين عملوا فى ترعة الماء العذب من القصاصين إلى نفيشة على مقربة من بحيرة التمساح (من ١٩ إبريل سنة ١٨٦١ إلى ٢٣ يناير سنة ١٨٦٢) .

الشهر	عدد العمال
إبريل ١٨٦١	٨٠٧
مايو	٩٢٢
يونيو	٨٢٩
يوليو	٦٩٥
أغسطس	١٩٢٧
سبتمبر	٣٣١٠
أكتوبر	١٧٦
نوفمبر	٢٣٥٧
ديسمبر	٣٦١٤
يناير ١٨٦٢	[١]٢٨٣٣

ولقد بذل العمال كل جهد فى سبيل إنجاز حفر هذه الترعة حتى إنهم كانوا يشتغلون فى الليل على ضوء المشاعل التى كانت تتكون من خشب الراتنج المثبت فى مقابض من الصاج ، وكانت تضىء ساحات واسعة تمتد مسافة أربعة كيلومترات ، وظل العمل يسير على هذا المنوال ، وكان إسماعيل بك حمدى مندوب سعيد باشا فى البرزخ يطوف فى ساحات الحفر ليلا ونهارا ، ومعه بعض القواصة (رجال الشرطة) وأخيرا كللت الجهود بالنجاح ، واستطاعت الشركة أن تحتفل فى ٢٣ يناير سنة ١٨٦٢ ببلوغ ماء النيل إلى داخل البرزخ فنشرت الصحف فى أوربا البرقيات الخاصة بذلك التى تلقتها من مصر عن هذا الحادث الهام . . . وكان دى لسبس قد استعد للاحتفال بهذا النجاح الذى أحرزه ، فدعا مفتى الديار المصرية والعلماء ومطران الكاثوليك ورجال الأكليروس وأعضاء السلك القنصلى ، وفى مقدمتهم قناصل فرنسا وإيطاليا والنمسا وهولندا وكثيرا من علية القوم فى القاهرة والاسكندرية ، وأعد الباشا قطارا خاصا لنقل المدعوين من القاهرة إلى الزقازيق . حيث كانت فى انتظارهم القوارب فاستقلوها إلى منطقة بحيرة التمساح ، وأناب سعيد عنه فى حضور

---

(١) يلاحظ زيادة العدد ابتداء من أغسطس سنة ١٨٦١ عقب الشروع فى تنفيذ لائحة سنة ١٨٥٦ .

الاحتفال إسماعيل بك حمدى[1] المشرف على شئون العمال المصريين فى أراضى البرزخ ...



(شكل ٤٩) اسماعيل باشا فى حفل افتتاح القناة

ولما اجتمع المدعوون وقف دى لسبس على منصة رفع عليها العلم المصرى ، وطلب إلى الحاضرين الاصغاء ، ثم التفت إلى العمال فأزالوا السد الذى كان يفصل ماء النيل عن التمساح ، ثم صدحت الموسيقى السلام المصرى[2] وعلت الهتافات من كل جانب ، ثم ألقى المفتى خطابا استهله بالحمدلة ، والصلاة على النبى عليه السلام ، ثم أشاد بالأعمال العظيمة التى قام بها سعيد باشا ودى لسبس .

ودعا الله لينصر السلطان عبد العزيز خان ، ثم عرج على فرنسا وامتدح حضارتها ، ثم قصد رجال الدين وعلى رأسهم المفتى عقب الانتهاء من الاحتفال إلى مسجد نفيشة حيث أدوا فريضة الصلاة ، وفى المساء مدت الموائد ، واختلف إليها المدعوون وموظفو الشركة وعمالها الأجانب ورؤساء العمال المصريين ، وخطب دى لسبس خطبة وجيزة أشاد فيها بفضل سعيد باشا « الذى لولاه لكان حفر القناة مستحيلا » ، وطلب إلى الحاضرين أن يشربوا نخب محمد سعيد وحده .

وفى اليوم التالى عاد المدعوون إلى القاهرة[3] .

الحسينى مفتى
المدرس بمعهد التربية الابتدائى بالإسكندرية

---

(١) عين أول محافظ لمحافظة القنال فى عصر إسماعيل باشا .

(٢) نوهت جريدة الشركة بهذا الحادث . وقالت : إن العلم الفرنسى لم يرفع وليس له الحق فى أن يرفع فى هذا الحفل ، فشركة القناة مصرية وقناة السويس مشروع عالمى .

(٣) أقدم الشكر لحضرة الزميل الأستاذ عبد العزيز الشناوى المدرس بمعهد المعلمين بأسيوط على مساعدته لى لتقديم رسالته ومراجعه .

بحـــيرة المنزلة

تاريخها :

فى شمال مصر ، ومن رأس دمياط غربا إلى رأس كاسياس بالقرب من بحيرة البردويل شرقا يمتد خليج بيلوز القديم ، ويعرف باسم خليج الطينة أو التينة ، وطوله نحو ٧٥ ميلا ، وعمقه نحو ١٤ ميلا ؛ وهو فى الواقع منقسم إلى خليجين صغيرين يقسمهما رأس صغير متقدم فى البحر عند بورسعيد ، فمن الجهة الشرقية خليج بيلوز بالذات ، ومن الجهة الغربية خليج الدبية المكون من ساحل بحيرة المنزلة .

ويتكون شاطئ هـذا الخليج من شريط ضيق يقع خلفه إلى شرق رأس كاسياس سلسلة من التلال الرملية ينمو عليها شجر الأثل والبوص ، وإلى غرب رأس كاسياس بحيرة المنزلة التى تمتد من بيلوز القديمة إلى مدينة دمياط .

هذه هى بحيرة المنزلة الآن ، أو بحيرة تنيس فيما مضى من الزمان ، تلك البحيرة التى تصل الماضى بالحاضر وتطوى فى أعماقها حقبات من تاريخ مصر حافلة بعجائب الدهر وغرائبه .

فى ظلول النخيل والأعناب :

قبل القرن السادس الميلادى لم تكن هناك بحيرات بتلك المناطق ، فلا بحيرة تنيس ولا بحيرة المنزلة ، وإنما كانت تلك المنطقة أرضا زراعية خصبة ، لا تكاد تضارعها فى بلاد مصر كلها أرض أخرى فى جودة الهواء والخصب والغنى . تنبت نباتا طيبا موفور الثمار من النخيل والأعناب والقمح وسائر الشجر . ترويها فروع من النيل لاتنضب ، وهى فرع النيل البيلوزى ، وفرع النيل التنيسى ، وفرع النيل المنديسى ، وكلها كانت تصب فى البحر الأبيض المتوسط ، وتعرف آثار فتحاتها باسم البواغيز .

وبالقرب من كل من هذه البواغيز كانت توجد مدينة مصرية زاهرة لها شهرة خاصة معروفة بها فى العالمين كما هو الحال فى مدينة دمياط أو مدينة رشيد إذ اكتسبت كل منهما من موقعها على مصب فرع النيل شهرة خاصة ومقومات معينة :

(١) فكانت مدينة بيلوز التى بلغ عدد سكانها فى العصر الفرعونى مائة ألف نسمة تقريبا : تقع بالقرب من مصب فرع النيل البيلوزى ، وقد ذكرت بيلوز فى التوراة باسم « سين » ، وعرفت فى العصر المسيحى باسم برما أو برمون ، وفى العصر العربى باسم فرما أو الفرماء ، ومكانها الآن تل فرما شرق بورسعيد .

(٢) وكانت مدينة صان واقعة على فرع النيل التانيسى ؛ وقد ذكرت صان فى التوراة باسم « صوعن » وعرفت فى العصر اليونانى باسم تانيس ، وهى معروفة الآن باسم صان الحجر بمركز فاقوس ، وكانت صان عاصمة من عواصم الهكسوس فى أثناء حكم الأسرتين ١٥ و ١٦ كما أنها غدت عاصمة القطر المصرى من سنة ١٠٩٠ إلى سنة ٩٤٥ ق . م تحت حكم الأسرة ٢١ لمدة ١٤٥ عاما .

وكان فرع تانيس يصب فى البحر الأبيض المتوسط فى الفتحة المعروفة قديما باسم بوغاز تانيس ، وحاليا باسم أم الفرج نسبة إلى قلعة قديمة ، كانت بهذه الجهة على بعد ٢٠ كيلومترا شرق بور سعيد .

(٣) وكانت منديس على فرع النيل المنديسى ، وكان هذا الفرع يصب فى الفتحة المعروفة قديما باسم بوغاز منديس ، وحاليا باسم فم الديبة نسبة إلى قلعة قديمة كانت هناك ، وعلى أثر ردم هذه الفتحة أخذت الفتحة المجاورة لها تتسع حتى وصل عرضها إلى ٣٨٥ مترا ، وهى المعروفة باسم بوغاز أشتوم الجميل .

الجرائم الفارقة :

هذه المنطقة الفيحاء الغناء تقرأ حديثا عنها فى كل تاريخ ، وإشادة بغناها وثرائها فى كل كتاب وإعجابا بها يصل أحيانا إلى حد المبالغات الخارقة . هذه المنطقة السعيدة عصفت بها الطبيعة ، وكتب عليها الغرق ، واختفت حياتها وآثارها ، وتكونت على أرضها بحيرة مترامية الأطراف تطوى فى أعماقها مدائن الحدائق . هذه بحيرة تنيس التى عرفت فيما بعد باسم بحيرة المنزلة .

وذلك أنه فى أثر الزلازل التى حدثت فى أواخر القرن السادس للميلاد انخفضت أراضى تلك المنطقة فطغى عليها البحر ، واقتحم كثبان الرمل التى كانت تفصل بينه وبين الأراضى الزراعية ، وأخذت المياه تغشاها عاما بعد عام حتى غمرت المنطقة كلها ، وعدت على ما كان بها من حقول ومن قرى . فلم ينج منها إلا ما كان عاليا لاتناله المياه ، ولم تخلف على وجه البحيرة الناشئة إلا عدداً من الجزائر .

وأعظم مانجا من بلاد هذه المنطقة مدينة تنيس الشهيرة ، وكانت عظيمة المبانى متسعة الأرجاء عامرة بالتجارة والرزق ، واشتهرت بالمنسوجات الدقيقة ، وكان فى تلك المنطقة مدائن أخرى اشتهرت ببراعة صناعها فى النسيج مثل تونه ، وكانت تساهم مع تنيس وشطا فى دقة المنسوجات وجودة أنواعها ، وقد اندثرت تونه ، ومكانها اليوم جزيرة ببحيرة المنزلة تسمى كوم ابن سلام على بعد أربعة كيلومترات شرق بلدة المطرية .

وهكذا حول الزلزال فى القرن السادس الميلاد هذه البقاع إلى نوع مختلف كل الاختلاف فأخذت تبيد صناعات المنسوجات الدقيقة البارعة كما تزول النخيل والأعناب الفارعة ، وصارت الأسماك والطيور مورد ثروة اقتصادية من نوع جديد ، وبدل الله أقواما بأقوام . أصبحت لهم سماتهم الخاصة وأوضاعهم الذاتية .

بحيرة المنزلة فى العصر الحديث

الحالة العامة فى بحيرة المنزلة

حدودها ومساحتها :

تحد بحيرة المنزلة شمالا بالبحر الأبيض المتوسط ، وشرقا بقناة السويس ومدينة بورسعيد ، وجنوبا وغربا بأراض زراعية ، ومسطح البحيرة كان يتراوح بين ٤١٠٠٠٠ و٤٠٧٠٠٠ فدان ، ولكن أخذت فى التناقص حتى أصبحت الآن ٣٤٥٠٠٠ فدان بسبب تجفيف شواطئها واستصلاحها للزراعة بمعرفة الحكومة عن طريق طلبات أولاد حمام وطلبات السرو ، وبمعرفة الأهالى من ناحية أخرى ،

ومتوسط عمق المياه بالبحيرة متر واحد إلا فى المناطق التى كانت تمر بها مجارى فروع النيل البيلوزى، والتانيسى والمنديسى التى اندثرت فان عمق المياه فى هذه المناطق يبلغ خمسة أمتار تقريبا ، وعند مصب هذه الفروع البواغيز المعروفة بأسماء فم بيلوز أو فم الطينة، وفم أم فرج ، وفم اشتوم الجميل ، وفم الديبة .

أسماك البحيرة ومواسم صيدها :

تحتوى هذه البحيرة على شتى أنواع الأسماك ، وأهمها وأشهرها : البورى — القاروص — الطوبار — الجران — الحناشة — الجبرى — سمك موسى — الدنيسى وغيرها .

ويظهر أن كل جهة من البحيرة بها أنواع خاصة من الأسماك فمثلا يمكن اعتبار الجزء الجنوبى الغربى من البحيرة مصايد نيلية . أما الأصناف البحرية فإنها تميل دائما إلى الوجود فى المناطق القريبة من مدخل البحيرة ، وأما صنف البلطى فيكثر وجوده فى جميع أجزاء البحيرة .

ويختلف السمك كثرة وقلة باختلاف فصول السنة . فيصاد الطوبار بكميات عظيمة فى الصيف ، ولكن فى أشهر الخريف يبتدئ فى الاستعداد للهجرة من البحيرة حتى لايبقى فى أواسط ديسمبر إلا الأسماك التى لايكون قد تم نضوج بويضاتها ، وأما الشبار فبالعكس لايصاد منه بالشبك إطلاقا فى الصيف الذى هو وقت تفريخه ، وهو يقضى طوال الوقت بين الحشائش والبردى والحفر التى يعدها لهذا الغرض فى الطين ، وفى وقت انخفاض الفيضان فى الخريف تظهر الأسماك الصغيرة فى البرك بكميات وافرة جدا ، وفى أثناء ديسمبر ويناير وفبراير يكون معظم الصيد ، وتصاد الأحناش والقاروص غالبا من شهر ديسمبر إلى شهر مايو ، وأما القاروص فيصاد إما بالسنار غير المطعوم أو بالشباك ، وعندما تقع واحدة منها فى الشباك تحفر لها طريقا تحتها فيبحث عنها الصياد بأصبع القدم ويغطس وراءها ، وفى شهر ديسمبر ويناير تكون على وشك قذف بطارخها ، وحينئذ يرتفع ثمن الأنثى منها لما فيها من البطارخ ، ويقدر محصول البحيرة من الأسماك بثلث محصول القطر المصرى .

الطيور المائية :



(شكل ٥٠) الطيور المائية

يوجد ببحيرة المنزلة أنواع مختلفة من الطيور المائية ، أهمها : الغر — الحراوى — الزرقاى — البلبول — الخضيرى — أبو منازل — الشرشير — الرقاب — البجع — البشاروش — وهى تصاد فى الفترة بين أول نوفمبر لغاية مارس من كل سنة، ويكثر وجودها فى الجهات الجنوبية الغربية للبحيرة بالقرب من مصبات الأنهر والمصارف التى يكثر فيها الحشائش والمراعى ، وتقدر مساحة الأجزاء التى توجد فيها الطيور بربع مساحة البحيرة تقريبا .

بيئة بحيرة المنزلة

المعتقد أن البحيرة ليست بحرية الأصل : بمعنى أنها ليست مكونة من ماء البحر ، ولكنها تكونت نتيجة لتجمع مياه النيل فى هـــذه البقعة المنخفضة التى تحتاها ، ولقد اختلط ماء النيل بمـاء البحر التى كانت تدفعه الرياح الشمالية ، والشمالية الشرقية ، والشمالية الغربية ، وهى الغالبة فى هذه الجهة ، ويؤيد هذا الرأى تربة قاع البحيرة المكونة فى الغالب من الغرين الذى يحمله النيل والرمال التى تحملها مياه البحر مع أصداف القواقع ؛ فالتربة هناك مزاج من هذا كله . كما أن ماء البحيرة ليس ملحا أجاجا كماء البحر ، وهو فى الوقت نفسه ليس عذبا فراتا كماء النيل إنمـا هو بين بين ، وإن كان إلى العذوبة أقرب خصوصا إذا وزن بمـاء البحر .

وشواطئ البحيرة كثيرة التعاريج ، وتتصل بالبحر عند أشتوم الجميل الذى يقع على بعد بضعة كيلومترات غرب بور سعيد ، وهناك فتحات أخرى تصل بين البحيرة والبحر .

كما أن كثيراً من الترع والمصارف تصب كميات هائلة من المـاء فى البحيرة ، وخاصة فى زمن الفيضان ؛ فالواقع أن كل المصارف الرئيسية والفرعية التى تقع شرق الدلتا تصب فى البحيرة .

وبالبحيرة عدد عظيم من الجزر بعضها طينى ، وبعضها رملى ، وبعضها الآخر مكون فى الغالب من أصداف ، وبقايا القواقع منها ماهو كبير المساحة ، وقد تصل مساحته إلى نحو الخمسين فدانا مثل قرية ابن سلام وكوم الذهب ، والمعروف أن هذه الجزر كانت آهلة بالسكان فى الأيام الخالية ، وبعضها له تاريخ يعرفه أهل تلك المنطقة ، ويتوارثه الخلف عن السلف ، ويتنادرون ويتفكهون بأخبار أسلافهم من قطان البحيرة . أما الجزر الرملية فهى فى الغالب صغيرة الحجم نوعا ، وإن اختلفت أشكالها ، وتباينت مساحاتها إلى غير حد . كذلك الجزر ذات الأصداف والقواقع متعرجة غير منتظمة .

مياه البحيرة :

قدمنا أن ماء البحيرة غير بعيد الغور ، ولهذا كان لنا أن نتوقع أن تكون صفحتها أبدا هادئة ، وأديمها سليما غير متكسر لاتصخب أمواجها إلا أن تهب نسائم الأصال أو الأسحار فتتلاطم الأمواه فى دعة ورفق ، ولا تنفك مع ذلك تفعل فى هذه الشواطئ الهارية ، فتزيد فى تآكلها وتعاريجها أو تضيف إليها فى بعض الأحيان ، على أن شواطئ الجزر لاتتعرض لتأثير متساو فى هذا الصدد ، وذلك لأن الرياح الشمالية ، والشمالية الشرقية أو الشمالية الغربية هى الغالبة ، ويـتبين أثر ذلك على شكل الجزر وتعاريجها وانحناءاتها واتجاهاتها ، وكذلك على توزيع النباتات فبعض الشواطئ عامر بالنباتات ، وبعضها غامر لا أثر لها فيها . اللهم إلا من أعواد متناثرة متكسرة لاتكاد تبين ، وليس فى البحيرة تيارات مدية وجزرية منتظمة على الصورة التى نعرفها فى البحر الأحمر مثلا ، أو فى غيره من البحار والمحيطات ، ولكنها تعترى الشواطئ أحيانا إذا دام هبوب الرياح فى اتجاه واحد مدة طويلة .

وطبيعى أن تختلف درجة حرارة الماء فى الصيف عنها فى الشتاء فهى تتراوح فى الصيف بين ٢٥، ٣٠°م وفى الشتاء بين ١٠، ٢٠°م، ولكنها لاتتغير فى الأعماق المختلفة، وذلك لقلة غورها. تتراوح درجة الملوحة بين ٨٫٠٪ وبين ١٪، وهى تعتبر عذبة كما قدمنا إذا وزنت بماء البحر الأحمر أو الأبيض، حيث درجة الملوحة حوالى ٤٪. وتنخفض هذه الدرجة كثيراً بالقرب من مصاب الترع والجداول التى تنتهى إلى البحيرة فتصل هذه النسبة إلى ١٫٠٪ و ٢٫٠٪.

مناخ البحيرة :

جو البحيرة معتدل فى الصيف، بارد فى الشتاء، ودرجات الحرارة التى تستعملها المراصد المثبتة فى غير جهة من أطراف البحيرة تنبىء عن هذا الاعتدال ١٪، وقد كان متوسط درجات الحرارة العالية خلال سنوات ١٩٣٤ و ١٩٣٥ بين ٢٥، ٣٠°م. أما متوسط الدرجات المنخفضة فيتراوح بين ١٤، ٢٠°م، ودرجة الرطوبة عالية، فيندر أن يسجل أقل من ٧٠٪ أو أكثر من ٨٠٪. ومتوسطها خلال السنوات الثلاث هو ٧٣٪، ٧٢٪، ٧٦٪ على التعاقب.

أما كمية المطر فإنها ضئيلة، وإن كانت تعتبر عالية بالنسبة لجهات أخرى كثيرة فى أرض الوطن فهى تكاد تقارب أو تجاوز العشر السنتيمترات فى أية سنة من هذه السنين الثلاث، وكان مقدارها ٤٧ و ٨٨ و ٥٧ من المليمترات فى السنين السالفة الذكر. والشهور المطيرة فى السنة هى يناير وفبراير وديسمبر، وتتراوح كمية المطر المتساقط كل سنة منها بين ٥ و ٢٠ مليمترا، وقليلا ما تصل هذه الكمية إلى ثلاثين مليمترا، وقد يتساقط خلال إبريل ومايو بعض المطر، وهى حالة نادرة، وفيما عدا ذلك فلا يجاوز المطر صفة الرذاذ إن وجد. وأما سرعة الريح فإنها تختلف بين عشرة وعشرين كيلومترا فى الساعة، وهى فى الغالب نسائم هادئة لا تصل إلى درجة الريح العاصف إلا قليلا، كما أن منطقة البحيرة ليست عرضة لأيام غائمة متصلة بمعنى أن ضوء الشمس وهو الذى يهمنا من الوجهة النباتية لايحتجب عن النبات فى النهار كثيراً، بل إن ذلك نادر ويكون فى الشتاء فقط.

نباتات البحيرة :

البحيرة فقيرة فى الطحالب، ويبدو غريبا أن رقعة متسعة كهذه من الماء لايوجد بها إلا بضعة أنواع من الطحالب، ولا تكاد ترى فيها إلا فى أماكن قليلة، ولعل السبب فى هذا الفقر الطحلبى إنما يعزى إلى تغير ملوحة الماء المستمرة نظراً لتوالى فصلى الفيضان والتحاريق، أو لأثر مياه المصارف التى تصب فى البحيرة وماقد تحمله من بقايا أملاح لفظها النبات ولفظتها التربة أو لعلها هى طبيعة تربة البحيرة المارية المتفككة.

وقد يرجع ما أصاب البحيرة من جدب بالغ كمصيد للسمك إلى هذا الفقر الطحلبى الشنيع حيث لايجد السمك غذاء يقتات به كما أنه لايجد من الطحالب وأضرابها هذه الأوكار التى قد يتخذها للبيض أو الأفراخ.

وتكثر النباتات بالقرب من شواطىء بعض الجزر، وتقل تدريجيا كلما ابتعدنا عنها ومعظمها بوصية كالبردى والغاب.

١٥ أكتوبر

عيد فتح الحدود

وليست هذه الحدود دعائم ثابتة قائمة تفتح وتغلق ، وإنما هو تعبير جرى على الألسن زمناً طويلا . فأصبحت له صبغته العامة المستعملة ، ويعبر به عن إباحة الصيد فى منطقة كان ممنوعا الصيد فيها بصفة موقوتة .

وتأوى الأسماك فى فترات تفريخها إلى بعض أماكن البحيرة تركن إليها وتبتغى فيها الهدوء الذى يساعدها على أداء وظيفتها الطبيعية فى سلام وأمان، ومحافظة على الثروة يمنع الصيد فى تلك الجهات محافظة على محصول البحيرة ، ومن بين الأماكن مايمنع الصيد فيه بصفة دائمة مثل اللجج الموجودة على شواطىء البحيرة ، ومن بينها مايمنع الصيد فيه بصفة موقوتة مثل أشتوم الجميل ، وذلك فى الفترة التى ينتظر خروج أسماك البورى فيها بما يحمله من البطارخ للفقس ثم العودة بصغارها إلى البحيرة فيمنع الصيد فى هذه المنطقة بأى نوع من الشباك وبأية طريقة من الطرق فى المدة من أول مايو إلى ١٥ أكتوبر .

ومن ثم كان ليوم ١٥ أكتوبر هــذه الأهمية الكبرى لدى صيادى الأقاليم المحيطة ببحيرة المنزلة وخصوصا الجزء الشمالى منها ، ولم نغال فى كثير أو قليل حين سميناه عيدا فهو عيد حقا فى هذه المناطق تتزين له وتحتفل به ، وتتبادل فيه التهانى .

وتحرس الزوارق الرسمية الشواطىء مدة المنع ، وتقف هذه الزوارق عند حدود المنطقة الممنوعة حتى لا يتعداها الصيادون ، ولا تجتازها زوارق الصيد ، وبذلك تكون هذه المنطقة هادئة لا حركة فيها ، وفى هذا مايتيح للأسماك أن تسكن إليها ، وتنمو وتكبر وتفرخ ويكبر صغارها ، فتصبح المنطقة من أغنى المناطق بالأسماك ؛ إذ تلجأ إليها هربا من الضوضاء العالية التى يحدثها صيادو البحيرة فى أثناء الليل .

وفتح الحدود معناه انتهاء مهمة الزوارق الرسمية ، وانقضاء مدة المنع ، وبالتالى إباحة دخول المنطقة الممنوعة للزوارق والصيادين ، ومعنى هذا كله فتح باب الرزق الوفير . إذ يباح للصيادين أن يتعموا بصيد الأسماك التى كبرت وسمنت واستمتعت بالفرصة المواتية فى أثناء مدة المنع .

ولهذا كان يوم فتح الحدود عيدا للصيادين يرتقبونه من العام للعام عيداً للرزق والسعة ، عيدا للفرج والتيسير ، عيداً للأمل الباسم الجميل ، عيداً ينشر الخير على رؤوس الجميع ، يقلب العسر يسرا ، ويزيد اليسر يسرا ، ومن أرزاقه ينتظر الصيادون أن يسددوا ديونهم ، ويكسوا عيالهم ، ويمونوا بيوتهم بالسمن والأرز والعسل .

تجتمع السفن متراصة ، زاهية جميلة فى ألوانها وزيناتها وأجنحتها البيضاء المشرعة ، الضاربة فى الجو ، تمايل وتهتز ، تتجاوب وحركة الماء وحركة السفن المتلاصقة المتدافعة ، بل لعله تجاوب الموسيق الصادحة العازفة التى تتماثل وتتآلف حينا وتتنافر وتتضارب أحيانا .

ولا يكاد يحين الوقت وتصدر الإشارة بإباحة الحدود حتى تنطلق سفن الصيد متسابقة متلاصقة كأسراب من الطير الكبير تتصايح وتتهافت كأنما انبلج لعيونها الصبح بعد ليل غيهب طويل فترى الوجوه وقد علاها البشر والحماسة ، وقد أخذت بالنفوس والعزائم .

كابوس على البحيرة

هذا الكابوس الرهيب أشبه ما يكون بالأخطبوط يلتف على هذا المورد الثمين من موارد الثروة القومية فيعصر حيويتها ، ويمتص معينها ، ويهدد بالخراب أرزاقها وخيراتها ، وهى حرب طاحنة ضروس بين رجال الأمن وأعوان الخراب والفقر ، يفقهها العقلاء من الصيادين وأصحاب الرأى فى نواحى المنزلة ، ويقدرونها حق قدرها ، ويتلهفون إلى نتيجة حاسمة تقضى على هذا الأخطبوط المخيف : فيعود الرزق والبركة إلى ما كانا عليه ، فيعم الخير الناس والصيادين . هـذا الكابوس الذريع شبيه بالأخطبوط لأن له أذرعا متعددة نذكر منها ما يأتى : —

(١) استعمال الحوش والسدود والزلاليق فى جنبات البحيرة للاستيلاء على الأسماك بغير عناء .

(٢) استيطان الأعراب حواف البحيرة وجزرها ،

(٣) قيام الفلاحين بنهب الأسماك فى مواسم الفيضان .

(٤) احتكار كبار الأعيان لبعض مناطق البحيرة يذودون الناس عنها .

(٥) الصيد بسدود الغزل المخالف .

(٦) الصيد بالجوابى .

وهذه الأشياء وما وراءها من نتائج خطيرة تؤثر فى إنتاج البحيرة بل تحارب نعمة الله التى يضفيها على عباده جهلا وبلادة وكسلا ممن يبغون ربحا عاجلا ، وليس الصيد بهذه الطرق إلا صيدا حراما هو جرف واستنزاف واكتساح وقضاء على مستقبل الثروة المائية المصرية ، ونهاية سيئة لمورد من أهم موارد غذاء الشعب والمستهلكين بصفة عامة .

(ملخص لكتاب على ضفاف بحيرة المنزلة للواء عبد المنصف محمود باشا)

محمد محمد عبد الرحمن
مفتش بمنطقة المنصورة التعليمية



مدينة تصنعها القناة :

لسان ضيق من الأرض الرملية مثلث الشكل تقريبا ومحصور بين البحر الأبيض المتوسط شمالا وبحيرة المنزلة جنوبا ـ هذه هى البقعة التى قامت عليها مدينة بور سعيد وصنعتها هى والقناة إرادة رجل قدر له أن يكتب فصلا من أهم فصول التاريخ وأعظمها أثرا فيما يتصل بالمواصلات العالمية ـ

لقد ساقت الأقدار ذلك المغامر الدبلوماسى ـ فرديناند دلسبس إلى مصر ليكون صديقا للمغفور له سعيد باشا ونجح فى أن يمنح عقد امتياز حفر القناة وينشئ بور سعيد فى مدخلها على بقعة هى خير مكان يقوم عليه ثغر هام .

ولقد أقامت شركة قناة السويس تمثالا رائعا لدلسبس يطالعك عند مدخل الميناء أقيم على مرتفع مستدير ارتفاعه ٣٤٤ قدما عن سطح البحر ؛ أما التمثال نفسه فارتفاعه ١٥ مترا وهو من صنع المثال الفرنسى فريميه وهو يمثل فرديناند وقد ارتدى عباءة فوق سترته وقبض بيده اليسرى على خريطة كبيرة .

كيف نشأت المدينة :

أقام دلسبس مخيمه سنة ١٨٥٩ فى البقعة التى تقوم عليها بورسعيد الآن وشرع فى تنفيذ مشروعه العظيم وسرعان ما اقتنع بأن هذا الموقع هو أصلح مكان لإنشاء مدينة تشرف على مدخل القناة وسماها باسم محمد سعيد باشا والى مصر فى السنوات الأولى أثناء حفر هذه القناة .

(شكل ٥١) تمثال دلسبس

والواقع أن اختياره كان موفقا فى هذه البقعة لأنها أقل تعرضا للرياح البحرية الشديدة ولأنها أصلب تربة من أى نقطة أخرى ، كما أنها أقرب نقطة إلى المياه العميقة .

المدينة تنمو :

وعند افتتاح قنال السويس ١٨٦٩ كان عدد سكان بورسعيد قد وصل إلى عشرة آلاف نفس ، ومن كان يظن أن ذلك المكان الموحش الذى لم يكن بالقرب منه شىء تدب فيه الحياة سوى قرية « اشتوم الجميل » من قرى الصيادين وقد بدأت بعشش متناثرة هنا وهناك . من كان يظن أن ذلك العمل ينتهى إلى مشروع جبار يكون أنه استطاع فى ظرف ثمانين عاما أن يعج بالحياة وبالناس ويصبح مدينة عظيمة تعد ثالثة مدن القطر المصرى ، ويبلغ سكانها زهاء ١٥٠٫٠٠٠ نسمة .

التاريخ يعيد نفسه :

على أن التاريخ يعيد نفسه ، فى هذا المكان وفى تلك البقعة كان يقوم ثغر « بليوز » القديم والذى بلغ عدد سكانه ١٠٠٫٠٠٠ نسمة ، ولقد أحاطت بهذه البقعة التاريخية يوما ما مدينة الفرما وصان الحجر وتنيس وأفاريس وسواها — تاريخ شعب مجيد منذ الأزل — وقامت بورسعيد الشامخة على أنقاض هذا المجد القديم تزهو بشبابها وتفخر بماضيها .

جزيرة فى صحراء :

ولم تبن بورسعيد فى الصحراء كالإسماعيلية وإنما بنيت فى موقع كان فى الأصل مستنقعا متصلا بالبحر .. وعلى الرمال والأتربة التى استخرجت من حفر القنال بواسطة الكراكات والتى جفت بعد تعرضها لحرارة الشمس وجثمت على ساحل البحر وفى مستواه تقريبا .

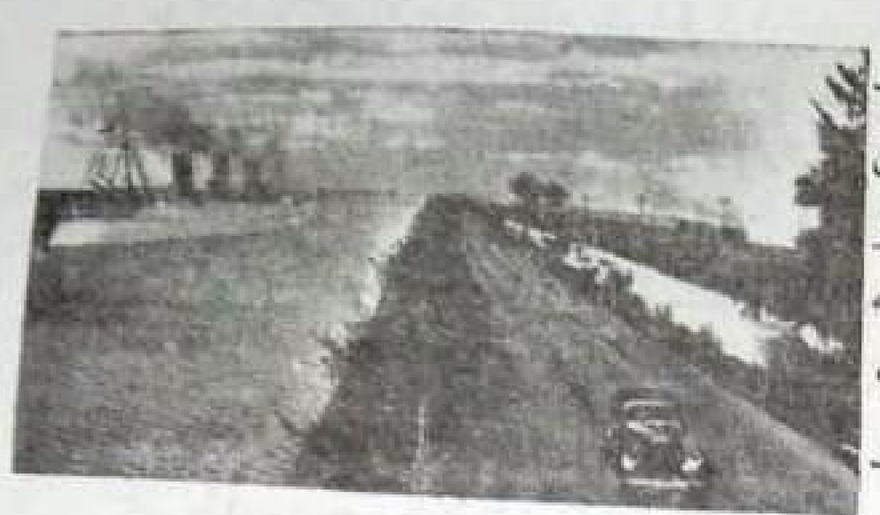
تطور المدينة :

قامت المنازل الأولى على ساحل البحر الأبيض المتوسط وكانت عبارة عن نجائر « أكشاك » من الخشب مدهونة بألوان زاهية ولكن هذا الطراز لم يعمر طويلا بل تغلبت عليه طرز المعمار المختلفة وسرعان ماقامت المنازل والفنادق والمشارب والمتنزهات وخطت الشوارع وتفنن الناس فى بناء منازلهم فإذا بهذا القفر الموحش يتقدم تقدما هائلا حتى صار شبيها بالأسكندرية فى جمال مبانيها .

على أنه — فى الواقع لم تكن بورسعيد حتى ١٨٩٣ سوى محطة لتموين البواخر بالفحم ، ولم تكن هناك طرق برية توصل إليها وكانت مواصلاتها عن طريق البحر فقط ثم بدأت تنشط وتزدهر عندما شقت « الترعة الحلوة » لتوصيل المياه العذبة من الإسماعيلية إليها فى خط مواز لخط القنال تقريبا وكذلك بعد مد خط سكة الحديد إليها .

ميناء بور سعيد :

يشغل ميناء بور سعيد حوالى ٥٧٠ فدانا بها أسطول صغير من السفن من كل الدول هذا إلى مراكب الصيد للأهالى ، وعلى الشاطىء الشرقى ترى الأرصفة والمصانع الهامة ، أما على الشاطىء الغربى فترى مخازن الفحم والمازوت .



(شكل ٥٢) ميناء بورسعيد

ويشرف على المدينة والميناء منار بورسعيد الفخم الذى تم إنشاؤه ١٩٢٣ وهو برج مثمن الشكل مبنى بالأحجار المنحوتة ويعتبر أعلى منار على ساحل البحر الأبيض المتوسط إذ يبلغ ارتفاعه ١٨٥ قدما ويختلف عن سابقه الذى أنشىء ١٨٦٠ وكان من الخشب . ويرى ضوء المنار على بعد ٢٠ ميلا وقوته مليون شمعة .

فى الميناء :

حينما تقترب السفينة من العوامات الطافية على الماء بالقرب من بورسعيد ترفع العلم رقم (ج) من أعلام القانون الدولى للدلالة عليها ، إذا كان ذلك نهارا أما إذا قدمت بالليل فإنها ترفع فى مقدمتها أنوارا تتبعها صواريخ أو أنوار زرقاء . ومعنى هذه الإشارات ، أرسلوا إلى دليلا لأدخل الميناء ، ويخرج إليها زورق الدليل ... وحينما تدخل السفينة إلى طريق القناة يجب أن تظهر رقمها التجارى المسجل حسب القانون الدولى ثم الإشارة الخاصة بها ، فإذا ما وصلت إلى الميناء أرشدت إلى مرساها المعد لها . . . وعندئذ تحيط بها المراكب الشراعية واللنشات تحمل وكلاء شركات السفن ورجال الشرطة وجماعة من الباعة يعرضون سلعهم الرخيصة على المسافرين .

على أن المنظر الذى يستحق النظر هو منظر عملية نقل الفحم إلى البواخر ، فإذا أمكنك أن تراقب هذه العملية وأنت بعيد عن رماد الفحم وترابه رأيت عجبا ! أولئك العمال وهم يحملون الفحم ويجرون فى سرعة متناهية فوق ألواح من الخشب لايخشون اليمّ ولا الوقوع فيه ثم يفرغون حمولتهم ويرجعون عن طريق آخر لكأنهم أشباح قد مسها الجن ! .

ولا تعجب إذن إذا علمت أن بورسعيد قد ضربت الرقم القياسى فى سرعة تموين السفن بالفحم .

مع المسافرين :

ثم تعال نتتبع خطوات المسافرين بعد إتمام الإجراءات الخاصة بالتثبت من سلامة الباخرة وركابها أنهم يجتازون جماعات أبواب الجمرك ، ويندفعون فى شوارع بورسعيد ، وعندئذ تدب الحياة فى تلك المدينة النائمة فإذا بذلك الجمع الدولى من الناس يملأ الطرقات ، ويتكدس فى الحوانيت ويحتل المشارب ! وعندها تنفرج أسارير السعيديين فهم يعيشون على ما يأتى من البحر . . . من بشر وغير بشر !! .

مدينة يلتقى فيها الشرق بالغرب :

يمر ببورسعيد الكثير من عابرى القنال من كل جنس من الشرق والغرب ، كأنها مدينة دولية يتقابل فيها جميع الأجناس من مختلف الشعوب ؛ فمن يونانيين وإيطاليين وإنجليز وفرنسيين ، إلى شرقيين من سوريا وفلسطين ولبنان والهند وجاوه ! .

على أن الجاليات الأجنبية تتمتع بنفوذ قوى فى ميادين التجارة والمال ، وقد كان للجالية الإيطالية شأن قبيل الحرب العالمية الثانية أغرتهم بمطامع زائفة وفق المنهج الاستعمارى الذى كان يرنو إليه موسوليني ، وقد أراد به أن ينشئ أمبراطورية رومانية أخرى تسود البحر الأبيض المتوسط . . . ولقد بدأت الدعاية الفاشية تعلن أن السويس وبورسعيد من بين المواضع التى يتطلبها منهاج إيطاليا الجديد ، وقام الإيطاليون فى مصر وبصفة خاصة سكان بورسعيد منهم بدعاية عنيفة ومظاهرات اصطدموا فيها مع المصريين !

لقد بنوا قصرا لمحافظ بور سعيد الإيطالى المنتظر يطل على القناة !!

معالم المدينة :

أجمل ما فى بورسعيد ميناؤها ، وما عدا ذلك ليس فيه ما يلفت نظر المسافرين الذين لا تسمح لهم أوقاتهم بالذهاب إلى القاهرة لمشاهدة معالمها ومتاحفها ، ولقد رأت بلدية بورسعيد أن تعمل على إنشاء متحف بهذه المدينة ليتكون منه أنموذج مصغر لآثار مصر فى مختلف العصور ، ولقد تم لها بالفعل جمع مجموعة من الآثار الفرعونية ، والعربية ، والقبطية ، وإنشاء متحف زراعى لمختلف المنتجات الزراعية المصرية . . .

ولكن بور سعيد وهى الثغر الثانى للبلاد ليست المرآة الصحيحة التى تنعكس عليها صورة تقدم البلاد فى مرافقها ومعالمها ، فلن يجد فيها عابرو القناة مسرحا مصريا أو مكتبة عامرة أو أماكن لهو يجدون فيها مظهرا من مظاهر الحياة المصرية الصحية . على أنها لم تحرم من الشوارع النظيفة المنسقة والأبنية الجميلة ، فهناك مبنى شركة القنال ذو القباب الخضراء ومبنى فندق الإيسترن والكازينو الذى يشرف على مدخل القناة ، ولكنها لا تزال بالنسبة للاسكندرية متواضعة فى مبانيها ، وفنادقها ، ولهوها ، وجمالها .

بور سعيد مدينة الطبقات :

إن المصرى ليدهش عندما يزور هذه المدينة لأول مرة ذلك أنه يصدم بالحقيقة الواقعة ، وهى أن المصريين غرباء فى بلادهم . . . وأن أجمل أحياء بورسعيد يقطنها الأجانب . . . وأن الحى العربى الذى يمتاز بشرقيته الواضحة ومنازله المتواضعة وشوارعه الضيقة لا يقارن بالحى الأوروبى الذى يطل على القنال والذى تجتمع فيه ملاذ الدنيا ومباهجها . . . من منازل فخمة وفنادق ممتازة ومقاه أنيقة ومكتبات منسقة ومشارب صاخبة عابثة ، ثم هو عصب المدينة ومركز نشاطها التجارى والمالى .

أما الطبقات الفقيرة من المصريين فتسكن حيا يطلق عليه اسم حى المناخين ، ويقع فى الجهة الغربية للمدينة ، ولقد ظلت منطقة المناخين مصدر خطر على الصحة العامة فى المدينة مدة طويلة ، ولا تزال مصدر أوبئة وبيلة تهدد كيان بورسعيد بصفة مستمرة طالما توجد بها الزرائب والإصطبلات وسط المساكن ، على أن الحكومة وقد أقلقتها هذه الحالة جادة فى أمر تنفيذ مشروع ضخم لإصلاح هذه المنطقة وتخطيطها من جديد ، وسيكلفها هذا المشروع حوالى ستة ملايين من الجنيهات . . . ولن يتم هذا الإصلاح على الوجه المرجو إلا إذا أقامت الحكومة مدينة للعمال على نظام صحى حديث يتمشى مع تطورات الزمن ، ذلك أن بورسعيد مدينة عمالية فعلا . . . ثم إن هـــذه المنطقة تقع على رأس الطريق الجديدة المزمع إنشاؤها بين بور سعيد ودمياط ، ويجب أن تكون مدخلا جميلا للمدينة .

مصيف بور سعيد :

إن بورسعيد ممتازة بشاطئها الرملى الجميل ، وهو فوق ذلك منسق تنسيقا بديعا حتى يكاد يبذ غيره من الشواطئ المصرية ، بل إن منطقة الحمامات فيه تفوق غيرها جمالا وأناقة . . . وتمتد هـذه المنطقة على شاطئ طويل يبدأ من رصيف دى لسبس ، وينتهى إلى منطقة المناخين . وعلى هذا الشاطئ الذى خلت مياهه من الصخور والأغوار قامت الأكشاك الخشبية فى تنسيق هندسى جميل تطل على البحر وتشرف عليه .

ومن وراء الشاطئ نحو المدينة يمتد شارع الملك (كتشنر سابقا) ، وهو عبارة عن شارع طويل تزين جوانبه أشجار النخيل على مثال شوارع نيس أو كان !.

موقع جميل وجو معتدل :

تقع بورسعيد على خط طول ١٦ ، ٣١ شمالا وخط عرض١٩ ، ٣٢ شرقا ، ويبلغ متوسط درجة الحرارة طول العام (٢٠٫٦) سنتجراد ، ومتوسط الرطوبة ٧٤٪ والرياح التى تسود المنطقة التى بها المدينة تهب من الجهة الغربية أو الشمالية الغربية ، وتحمل مطرا يصل القليل منه إلى المدينة . فإذا كانت غربية مرت على الدلتا ، أما إذا هبت من الشمال الغربى فإن اتجاه هبوبها يكون موازيا لساحل البحر عند بورسعيد فتسقط القليل من المطر .

أما الرياح التى تهب من الجهة الشمالية أو الشمالية الشرقية فهى قليلة وأقل من الأولى قوة ... ويستمر هبوب النسيم من الشمال نهارا ، ومن الجنوب ليلا ، وهو من العوامل الفعالة فى تسهيل حركة الملاحة أمام القناة .

على أن المدينة ليست مدينة الربيع الدائم ، فقد تصل درجة الحرارة إلى ما فوق الأربعين سنتجراد ، وقد تنزل إلى الصفر ، والرطوبة عالية ، وهذا ما يشكو منه الأهالى . . . ولكنها نسبيا تعتبر أفضل من مدن وسط الدلتا من حيث الجو المعتدل ، وتمتاز عليها جميعا بالموقع الجميل وتنفرد فى أنها تعيش فى قارتين !!

الحياة الاجتماعية :

طابع الحياة فى الحى الأوربى أفرنجى ، ولا يمكنك أن تجد فرقا بين الحياة فيه والحياة فى أرقى المدن الأوربية ، ولقد بدأ العنصر المصرى النشيط يتسلل إلى هذا الحى ، ويستولى على متاجره وفنادقه ومشاربه ودور العرض فيه ، ولن يمر إلا القليل حتى يصبح هذا الحى مصريا صميما لا أثر للصبغة الأجنبية فيه !.

أما أهل بورسعيد جميعا ففيهم طباع الصيادين — يعتمدون فى رزقهم على البحر ، ولا يرمون شباكهم إلا على أمل صيد ! والصيد كثير — وهم واقعيون يعتمدون على أنفسهم شأن الأجانب جيرانهم وفيهم ذكاء وفطنة .

ويلعب الجو دورا هاما فى تحبيب الألعاب الرياضية إليهم وتستهويهم الحفلات الرياضية إلى درجة تدعو إلى العجب يتساوى فى ذلك أغنياؤهم وفقراؤهم خاصتهم وعامتهم ، وهم يتتبعون بفخر سيرة لاعبيهم المبرزين ويتعصبون لها ، وأنديتهم الرياضية كثيرة وناجحة .

وفى أفراحهم كما فى مآتمهم ترتيب وتنسيق مكتسب من البيئة الفرنجية التى يعيشون بين ظهرانيها ولم أر مدافن مصرية منسقة تعلوها النصب والأعمدة وتنثر عليها الزهور والرياحين مثل ما رأيت فى بورسعيد !

ويقبل السعيديون على الأعمال الحرة والشركات إقبال الواثق بنجاحه فى ميدان العمل الحر حيث تبرز المواهب والكفايات وهم لذلك لايقبلون على التعليم المصرى الإقبال المطلوب ، والقليل من الطلاب بينهم من يتم تعليمه العالى .

والمال كثير فى يد موظفى شركة القنال والشركات الأجنبية لأنها تدفع لموظفيها مرتبات ضخمة وهذا يخلق حالة غلاء تجعل الحياة عسيرة على ذوى المرتب المحدود ... فلا عجب أن يلجأ كثيرون من الأهالى إلى مزاولة أكثر من عمل واحد حتى يتسنى لهم مواجهة أعباء الحياة — أما الطبقة الغنية بالمدينة فهى طبقة تفخر بعصاميتها — وهى عصامية حديثة تتمشى مع عمر المدينة — إن ثمانين عاما ليست بالشىء الكثير فى حياة المدن والإنسان .

وبور سعيد لاتعرف السهرات الصاخبة إلا حين مرور المسافرين ؟ ويخيل إليك أن المدينة نائمة إذا ماجئتها بعد العاشرة مساء . والواقع أن حياتها الليلية بين جدران المنازل — وهى معذورة فى ذلك — فهى تصحو مبكرة لتجاهد فى سبيل الحياة وتنام مبكرة لتستعد ليوم جديد وجهاد جديد !

بور سعيد — بور فؤاد :

وعلى الضفة الشرقية أمام بورسعيد تقوم مدينة بورفؤاد ذات الحدائق الغناء والمساكن الأنيقة والشوارع المنسقة وبها ورش شركة القنال الهائلة ، ولقد دعت الضرورة إلى إنشائها عندما زادت حركة المرور فى القنال زيادة غير منتظرة فكان من الطبيعى أن تفكر الشركة فى إنشاء ورش ومصانع كبيرة بالشاطىء الأسيوى تجاه مدينة بورسعيد وذلك للقيام بإصلاح ما قد يطرأ على السفن التى تدخل الميناء من العطب ، كما أقامت لعمالها الكثيرين مساكن أنيقة تحيط بها الحدائق الصغيرة .

والمدينة مقسمة أربع مناطق وشوارعها مخططة تخطيطا حديثا فجاءت شوارعها متسعة وكثرت ميادينها ومتنزهاتها .

وعلى ساحل البحر الأبيض المتوسط أقيم مصيف بور فؤاد البديع والأندية البحرية — ولهذا المصيف شهرة يعرفها الكثيرون .

ولقد تم الاتفاق بين الشركة والحكومة المصرية بشأن إنشاء هذه المدينة ١٩٢٥ وتقرر أن يشرف عليها مجلس مختلط من موظفى الحكومة وموظفى القنال ، وتقسم الأرباح مناصفة بين الشركة والحكومة .

وفى ديسمبر ١٩٢٦ تفضل حضرة صاحب الجلالة المغفور له الملك فؤاد الأول بافتتاح هذه المدينة فى احتفال فخم .

وتم إقامة تمثال لجلالته فى مدخل المدينة ... وبين بورسعيد وبور فؤاد معدية ينتقل الإنسان فيها من الشاطىء الأفريقى إلى الشاطىء الأسيوى فى دقائق معدودة وتربط المدينتين إحداهما بالأخرى .

بورسعيد طريق تجارى :

إن سجل المتاجر التى تمر بقناة السويس سجل عظيم ولعله هو نفسه مثل لسجل المتاجر فى العالم أجمع ، فأنت تلمح فيه الاختلافات فى الطلب وتلحظ فيه العوامل الاقتصادية الشائعة ، على أنه يلاحظ أن التجارة المارة ببور سعيد تميل إلى الهبوط مؤقتا فى الأزمات الاقتصادية كما هبطت هبوطا عظيما فى أثناء الحرب العالمية الأولى والثانية .

ولسنا فى حاجة إلى أن نفصل أنواع البضائع التى تمر بالقناة يوميا ، فمن الغرب إلى الشرق تنتقل غالبا الأدوات المصنوعة وبخاصة الآلات ، أما من الشرق إلى الغرب فتنتقل غالبا المواد الخام والأطعمة .

ولقد بلغ دخل شركة القنال عام ١٩٤٨ ثمانية عشر مليونا من الجنيهات وهذا معناه أن القناة ما زالت حافظة لمكانتها وإن طال بها العهد وتقدم التاريخ .

وفى عام ١٩٦٩ ترد إلينا هذه الوديعة الغالية والتى صنعتها أيدينا واستشهدت فى سبيل إخراجها إلى حيز الوجود معجزة من معجزات العلم والفن أرواح الألوف منا .

إن كل مصرى يرقب هذا التاريخ بقلب لا يغفو ولا ينام ! .

مدينة تتسع شمالا . . . والكن :

تزداد مساحة المدينة اتساعا بالرواسب البحرية المستمرة ، فهناك تيار بحرى يأتى من المحيط الأطلسى ويمر ببوغاز جبل طارق ويسير بمحاذاة الشاطئ الأفريقى ويدفع معه كميات هائلة من الرمال والرواسب المنسابة فى البحر من مصب النيل خصوصا فى زمن الفيضان .

وعندما يتصادم هذا التيار وحاجز المياه الغربى الذى يقى فم القنال ترسب هذه الرمال إلى شاطئ بورسعيد وتزداد المدينة اتساعا من الناحية الشمالية ، فلا عجب إذن أن أصبح شارع أوجينى (صفية زغلول حاليا) الذى كان يوما من الأيام رصيفا على البحر فى قلب المدينة .

ومن المؤكد أن المدينة ستضطر إلى توسيع حدودها شرقا على حساب مدينة بور فؤاد — ذلك أن بور سعيد محصورة بين بحيرة المنزلة والبحر الأبيض المتوسط والقنال من جهاتها الأربع ولا أمل لها فى الاتساع إلا عن طريق الأراضى الناتجة عن طرح البحر كما قدمنا أو عن طريق ردم جزء من البحيرة ... وفى الأولى بطء شديد وفى الثانية تكاليف باهظة ! .

مستقبل مدينة بورسعيد :

لقد برهنت الحوادث على أنه من الصعب التكهن بما يصيب المدن من نمو أو انحطاط ، فهناك عوامل قد تكون غير مترقبة تؤثر تأثيرا سريعا فى حياة البلدان . . . ولكن تحت ضوء الأحوال المحيطة ببورسعيد فى مقدورنا أن نتنبأ لها بمستقبل باهر . وليس ثمت ريب فى أن العقبات كثيرة والأسس التى يجب أن تقوم عليها الحياة فيها تقتضى معجزات من دقة الإدراك وضرورة تدريب السكان على أصول جديدة من الشعور والتفكير والعمل .

أما من الناحية التجارية ، فلو تم جعل مبدأ سكة حديد فلسطين ببور فؤاد بدلا من القنطرة كما هو الآن لتقدمت تقدما رائعا ولكانت أوثق صلة بالشرق عما هي عليه الآن .

والواقع أن المدينة تشكو من سوء النقل النهرى ومن المواصلات عامة ، وإذا تم إنشاء الطريق الممتد على ساحل البحر بينها وبين دمياط زادت وارداتها الغذائية زيادة ملموسة وقربت المسافة بينها وبين جزء معمور من القطر اشتهر بنشاطه الصناعى والتجارى ذلك أن علة العلل فى عدم تقدم المدينة اقتصاديا هو بعدها، فإذا نفذت الحكومة مشروع خط حديدى من القنطرة إلى الصالحية ، وهو مشروع قديم فستكون بورسعيد أقرب إلى القاهرة من الاسكندرية ، وعندئذ تصبح المدينة مركزا هاما للتصدير والاستيراد ، وتلق فيها الاسكندرية منافسا قويا .

وهناك من يعتقد أن الحكومة لاتريد أن تجعل من بورسعيد منافسة للاسكندرية ، ذلك أن الأموال التى تجبى فيها إنما تدخل جيب شركة القنال والشركات الأجنبية ، ولاتستفيد الحكومة شيئا من مرور التجارة الضخمة بالقنال اللهم إلا رسوم المنار !!

أما الاسكندرية بجماركها وحركتها التجارية فهى مصدر دخل كبير للحكومة ! على أن هذا الرأى أو سواه لايصرفنا عن الحقيقة الواقعة ، وهى أن بور سعيد مدينة مصرية ، وأن القناة ستعود إلينا . . . ومن الواجب إذن أن تسير شئون الإصلاح فيها بسرعة وعزم .

هــــذه هى قصة مدينة بور سعيد المدينة التى يلتق فيها الشرق بالغرب ، والتى تجاهد لكى تصبح مدينة مصرية لحما ودما ، وتلعب دورها فى مستقبل الشرق الاقتصادى والسياسى وتخرج إلى الشمس المشرقة .

صدقى عبد الملك

مدرس أول العلوم الاجتماعية
ببور سعيد الثانوية

شاطىء بور سعيد

إن « بور سعيد » مدينة ساحلية ونسبة الساحل إليها ترمز إلى مدى أهميته فى حياتها ، وإن الرائى يبهره ذلك الهدوء الشامل على طول امتداده ، فما أشبهه بقصيدة متناسقة النغم تشدو فى أعطافها ألحان الأمواج حين تشق سكون الليل المقمر ، ويرسم الخيال صورة للاتساق العجيب بين ائتلاف الطبيعة وطبع هذا الساحل الوديع ، ويمكن تصويره باستجلاء الباصرة لمداه ، فهو يمتد من الحجر المطل على « قناة السويس » ويتابع هذا الامتداد حتى يتعانق بطريق « أشتوم الجميل » وهو مع هذا الوضع العجيب سلس للرحالة لا تبطئه عقبات فى أثناء سيره بل تدفعه نسماته الرقيقة الدفاقة بالحياة إلى الجد المشوق لقطع الرحلة .

أما الشاطىء بمعناه الخاص فيتميز بالبساطة ، والهدوء ، والجمال الطبعى ، ولست أدرى كيف لا يكون موئلا لراغبى الاصطياف مع ما فيه من الميزات المحببة ؟ إنه يكاد يتصل بالمدينة بل يتابعها فى وضعها الهندسى من مبدئها إلى نهايتها مما يجعله كأنه قطعة منها ، وهذه الميزة ليست متوافرة فى الشواطىء الأخرى . فالمصطاف لا يجد معاناة فى طلب ما تنزع إليه حاجات الاصطياف لقربه من المدينة وإمكان استحضار حاجاته فضلا عن كثرة الباعة الذين يسيرون بين شرايين الحمامات يعرضون شتى أنواع المبيعات .

ويمكن إبداء صورة وصفية لهذا الشاطىء الهادىء فإنه يبتدىء من شارع الملك الذى تلمع فى وسطه أنوار متألقة كالنجوم اللامعة فتضىء بعض جوانب الشاطىء الغارق فى الظلام وحبذا لو عنى المختصون بإضاءته ليزداد جماله وجلاله ، ثم ينعطف هذا الشارع العظيم إلى منعطفات مرصوفة تشق (الكابينات) وتذلل السبيل للسائرين فى نظام منسق بديع ، وقد تتراكم كثبان الرمال كالخيام على جانبى المنعطفات ، أو تجثو فيها ، فتعوق بعض التعويق ، لكن الضارب فيها يمكنه التخلص منها بتخير الطريق المنسجم المتجه إلى الأمكنة المرصوفة .

وقد امتدت الحمامات فى صفوف منتظمة تعطى للشاطىء صورة جذابة بديعة ، وليس هناك أروع من الليالى المقمرة فى استجلاء طلعة هذا الشاطىء حيث تجتمع الأسرات فى تجاوب نفسانى بالغبطة يسمرون مأخوذين بسحر الأمواج المتهادية التى تقبل كأنها تقدم تحية المساء ، ثم ترجع خجلى لتعود إلى البحر الفضى ولتسامر أخواتها ، أما الطريق الحجرى الممتد على طول القناة فهو آية من آيات الإبداع ، لأنه يفصل بين اصطخاب البحر الأبيض وزمجرته ، وبين هدوء ماء القناة ووداعته ، ولا يكاد الإنسان يشعر فى سيره بمضض أو ملل حتى تتراءى الشمس وهى هابطة إلى الأفق تودع يومها ، وتذوب فى المساء الذى يتماوج على إشعاعات أنفاسها المبهورة فيأخذ هذا المشهد الرائع باللب فتتثاقل الخطا ولا تبرح مكانها .

ويطل على الشاطىء « الكازينو » فتداعبه أمواج البحر وتجعله كالزورق الحالم وسطها فيجد المصطافون فيه متعة النفس ورفاهة المزاج .

أما المظلات التي تتآلف في وحدة متناسقة ، فإنها تبرز الناحية الرائعة في هـــذا الشاطئ ، لأنها ممتدة في صفوف يأخذ بعضها بظل بعض في توافق معجب ، وتترامى الرمال محترقة في القيلولة تحت أشعة الشمس الملتهبة فتتعرض الأجسام لها حتى تخرج البرودة المختزنة ، ويأتي من الريف المتاخم للمدينة كثيرون للاستمتاع بتلك الأشعة التي لها عظيم الأثر في طرد الأوصاب .

والخلاصة أن شاطئ مدينة بور سعيد في حاجة إلى دعاية واسعة وإصلاح شامل حتى يكون على قدم المساواة مع سواه ، فعسى أن يتجه المسئولون إلى العناية به ليدل على حيوية هذه المدينة الجميلة .

فكرية محب

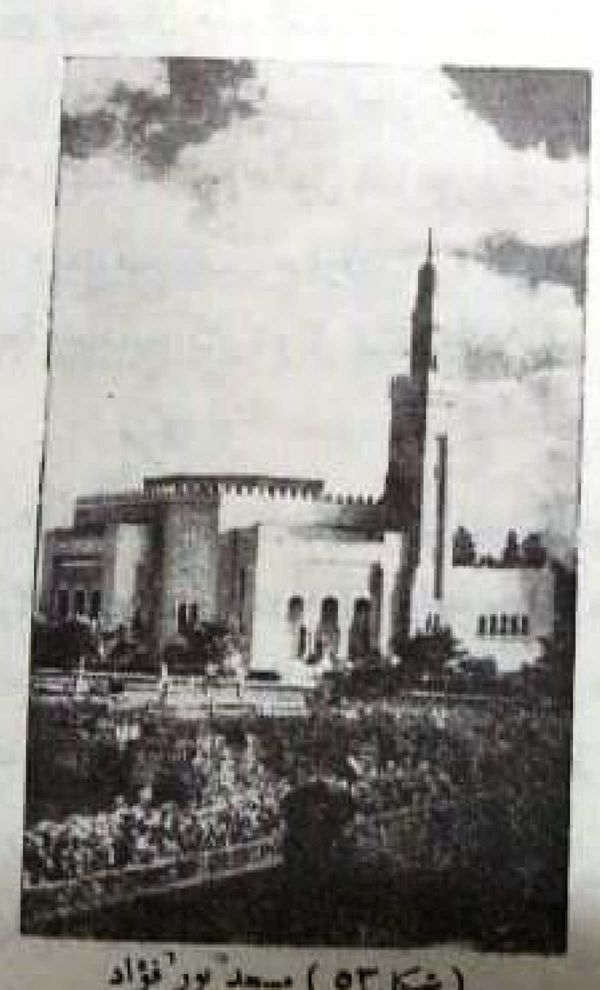
ناظرة مدرسة البنات الابتدائية القديمة
ببور سعيد

مدينة بور فؤاد

تقع على الشاطئ الأسيوى من القنال ، وتعد من أجمل مدن القطر المصرى ، وأكثرها بهاء ورونقا أقامت بينها الشركة وبين بورسعيد معدية مريحة كأنها شارع عائم ينتقل به الإنسان من الشاطئ الأفريقى إلى الشاطئ الأسيوى ، وهو فى شبه حلم لذيذ إذ يخيل إليه أنه لم يترك الطريق الذى كان سائراً فيه من فرط اتفاق المناسيب فى الجانبين وعدم وجود أى فارق بين سطح المعدية وسطح الشوارع فى المدينتين ولا تستغرق مدة التعدية إلا دقائق معدودة .

وقد تفضل حضرة صاحب الجلالة المغفور له الملك « فؤاد الأول » بافتتاح هذه المدينة فى شهر ديسمبر سنة ١٩٢٦ فى احتفال عظيم دام بضعة أيام .

والمدينة مقسمة إلى أربع مناطق ، وقسمت المنطقة الأولى إلى مساحات واسعة خصصت (للفيلات) الفخمة لأعلى طبقة تسكن هذه المدينة ، وفى هذه المنطقة (ورش) شركة القنال الهائلة ، كما بها الدار البيضاء الجميلة التى بها مكاتب شركة القنال ، وهى تنتهى من أعلى بثلاث قباب خضراء جميلة المنظر ، وخصصت المنطقة الرابعة للعمال ، وقد جعلت هذه المنطقة بالقرب من الأحواض الجديدة التى أنشأتها الشركة لتخزين الفحم .



(شكل ٥٣) مسجد بور فؤاد

وقد اتبعت أحدث الطرق فى تخطيط هذه المدينة فبلغت عروض الشوارع فى ثلاثة منها خمسين مترا ، وفى أغلب الشوارع الباقية لا يقل العرض عن عشرين مترا ، كما أكثرت الميادين العامة والمتنزهات ، وقد بنى فى حى العمال بالمدينة مسجد فاروق ، وقد تفضل جلالة الملك بافتتاحه .

وها هى ذى الآن بفلاتها الحديثة وحدائقها المنسقة ، وشوارعها الفسيحة ، ومعديتها المريحة ، ومدخلها الظريف ، وأناقة شوارعها ونظافتها وبداعة تنسيقها ، وحسن مناخها مما تبشر بمستقبل زاهر ، ولا سيما بعد حلول السلام فى العالم ، وجعل بداية خط السكة الحديد لفلسطين عندها بدلا من القنطرة كما هو الآن .



تاريخها وجغرافيتها :

فى وسط برزخ السويس، وعند منتصف قنال السويس قامت سنة ١٨٦٢ واحة خضراء وسط البرارى والقفار (ولم يقطنها أحد) كانت أرضها مكونة من تلال مرتفعة تعرف باسم تلال الجسر وتقع إلى شمال بحيرة التمساح وكانت بحيرة التمساح حوضا متسعا منخفضا وسط البرزخ تتسرب إليه مياه النيل فى الفيضانات المرتفعة من ترعة الوادى عن طريق وادى الطميلات :

والبحر الأحمر فى العصر الفرعونى كان يصل إلى بحيرة التمساح وترعة سيزوستريس المعروفة أيضا بترعة الفراعنة . كانت تصب فى البحر الأحمر بالقرب من موقع مدينة الإسماعيلية الحالية ، وكانت تتجه شرقا من مدينة صان الحجر فتمر بموقع بلدة القنطرة الحالية ، ثم تتجه جنوبا حتى تصب فى البحر الأحمر بالقرب من موقع نفيشة الحالية ، وقد أقيمت قنطرة على هذه الترعة فوق طريق القوافل الآتية من الشام إلى مصر ، ويعرف مكان هذه القنطرة باسم بلدة « القنطرة » .

أما القرية التى نشأت شمال بحيرة التمساح ؛ فقد عرفت فى أول الأمر باسم قرية التمساح ، ولكن فى سنة ١٨٦٣ عندما تربع إسماعيل باشا على عرش مصر سميت هذه القرية باسم مدينة الإسماعيلية تيمنا باسم الوالى الجديد.

وبعد فتح القنال صارت بحيرة التمساح ميناء لمدينة الإسماعيلية ، وأقيمت بها أحواض واسعة وأرصفة بديعة ومصانع كثيرة وكل مايلزم للملاحة .

جوها :

والإسماعيلية من أجمل المدن المصرية جواً صيفاً وشتاءً ، ويبلغ متوسط درجة الحرارة بها طول العام (٢٢,٤°) سنتجراد ، وأقصى درجة حرارة عرفتها هذه المدينة كانت يومى ٢١ و ٢٢ يونيو سنة ١٩١٦ ، حيث وصلت درجة الحرارة إلى (٤٥°) وأقل درجة حرارة رأتها الإسماعيلية كان يوم ١٣ يناير سنة ١٩١٠ ، حيث نزلت درجة الحرارة إلى (١½°) ، ومتوسط الرطوبة ٥٥٪ ، وأكبر كمية من الأمطار سقطت بها كان يوم ٢ مايو سنة ١٨٨٨ . حيث بلغت ٣١ ملليمترا ، ويبلغ متوسط سرعة الرياح بها ٣,١ متر فى الثانية .

مدينة الإسماعيلية سنة ١٨٦٩ :

كانت عملية اختراق تلال الجسر الواقعة إلى الشمال الشرقى لمدينة الإسماعيلية لمرور قنال السويس من

أكبر الصعوبات الفنية التى صادفها مهندسو الشركة ، فإن ارتفاعها ١٦ مترا فوق سطح الأرض والعمق المطلوب للقنال ٨ أمتار فيكون ارتفاع الحفر ٢٤ م ، وفى هذا مشقة وتعب على المهندسين والعمال ، وأقيمت فوق هذه التلال العالية مقصورة ملكية للخديو إسماعيل باشا ، ومنها كان الخديو يشرف على بحيرة التمساح وعلى جميع أعمال القنال ، فكان يرى على الشاطىء الأسيوى لبحيرة التمساح محاجر الضبع التى استعملت أحجارها فى بناء مساكن الإسماعيلية ، وفى تبطين مجارى السيول التى تنحدر إلى قنال السويس ، وفى بناء الأحواض الداخلية .

وكان يرى من الشاطىء الأفريقى لبحيرة التمساح بئر أبو البلاح ويقال إن سيدنا يوسف جاء لمقابلة والده سيدنا يعقوب فى هذا المكان . وكان يرى أيضا مضخات مياه الاسماعيلية القوية ترفع مياه الترعة الاسماعيلية وتسكبها فى فرعين حتى بور سعيد . وكان يرى قطارات السكة الحديد على خط مصر — السويس . ومن الجنوب كان يبدو جبل مريم ومرتفعات السرابيوم .

مدينة الاسماعيلية حتى الآن (أى منذ سنة ١٨٧٠ — ١٩٤٩) :

الاسماعيلية مركز إدارة شركة القنال بالقطر المصرى وتحتفظ الشركة بعناية تامة بالغرفة الصغيرة التى كان يسكنها فردينان دى لسبس وأثاث هذه الغرفة مكون من طاولة خشبية وكرسى من القش وعلبة بدرة فضية تركتها الامبراطورة أوجينى حين جاءت إلى الاسماعيلية سنة ١٨٦٩ .

وبالاسماعيلية حدائق فيحاء فى وسطها المساكن الجميلة ينمو بجوارها شجر الكافور والجميز والمانوليا الذكى الرائحة وشجر الميموزة والنخيل وأشجار مجلوبة من جزيرة مدغشقر والفواكه الأوربية والمنجو والجوافة والبن الأفريقى . وفوق تلالها العالية المشرفة على القنال مستشفى الاسماعيلية ذو الشهرة العالمية يديره أكبر رجال الطب ويؤمه العظماء والكبراء للاستشفاء .

وكانت الاسماعيلية قديماً واسعة على سكانها وضواحيها منخفضة المنسوب كثيرة المستنقعات تنمو فيها جراثيم الملاريا . وفى سنة ١٩٣٧ بلغ تعداد المدينة ٣٦,٣٩٧ نسمة منهم ٣,١١٦ أجنبيا ، ومساحتها ٥,٢ كم٢ والاسماعيلية تابعة إداريا لمحافظة القنال ببور سعيد .

وقد مدت الطريق الحربية الجديدة التى تصل مصر بفلسطين تنفيذا للمعاهدة المصرية الإنكليزية سنة ١٩٣٦ من الشاطىء الشرقى للقنال مقابل مدينة الاسماعيلية إلى ناحية عوجة الحفير بالقرب من حدود فلسطين بطول ٢٢٣ كم وتصل من الاسماعيلية إلى بداية هذه الطرق بمركب تديره شركة القنال وتجتاز عليه القنال من الغرب إلى الشرق .

وبعد انتهاء الحرب العظمى الماضية أقامت شركة قنال السويس بجبل مريم على بعد بضعة كيلو مترات إلى جنوب مدينة الاسماعيلية نصبا تذكاريا فخما لتخليد ذكرى الدفاع عن القنال التى حاول الأتراك مهاجمته فى ٢ فبراير سنة ١٩١٥ بدون جدوى ، وكان موقع الهجوم التركى مقابل محطة طوسون عند مزار سيدى النديك .

أهم معالم المدينة :

عند الخروج من محطة سكة حديد الاسماعيلية تجد أمامها شارعا مرصوفا متسعا منظما جميلا ، هذا هو شارع الامبراطورة وفى نهاية هذا الشارع ميدان الكونت دى سيريون المعروف الآن باسم ميدان الخلافة ومنه إلى الهويس المقام على ترعة الاسماعيلية الحلوة، وبعد اجتياز الهويس تجد امتداد شارع الامبراطورة المسمى شارع جيشار وهو ينتهى إلى أرصفة وأحواض الملاحة الداخلية ببحيرة التمساح .

ويقع مستشفى سكة حديد الحكومة المصرية ومكاتب (التليفون والتلغراف) على جانبى شارع الأمبراطورة وتليها الكنيسة اللاتينية ثم مساكن شركة القنال بحدائقها البديعة .

ويتقابل شارع الأمبراطورة مع شارع محمد على عند ميدان الخلافة ويسير شارع محمد على بموازاة شاطئ ترعة الإسماعيلية الأيسر من أول المدينة شرقا حتى نهايتها غربا ، وتقوم حدائق المدينة المشهورة على جانبي هذا الشارع ، وتبلغ مساحة هذه الحدائق حوالى ١٤ فدانا أجرتها الحكومة للشركة بتاريخ ١٩ مايو سنة ١٩٠٤ بإيجار اسمى قدره جنيه واحد .

ومتحف القنال بالاسماعيلية يقع بالقرب من هذه الجهة ، وبها تماثيل عثر عليها أثناء حفر القنال أهمها تماثيل تل المسخوطة وشواخص الملك دارا الفارسى ولوحات ترعة الفراعنة . هذا خلاف مايوجد بهذا المتحف من آثار حفلات افتتاح القنال وما تركته الأمبراطورة أوجينى من أدوات الزينة ، وهناك أيضا ديوان المحافظة (قسم الاسماعيلية) ومكاتب الإدارة الرئيسية لشركة القنال .

وتقع عمليات المياه المرشحة على شاطئ ترعة الاسماعيلية الأيمن فى غرب المدينة ويقع جزء منها بحوض أبو جاموس إلى جنوب مستنقعات ناحية نفيشة ، وتقع محطات الكهرباء وعمليات الثلج إلى غرب المدينة وقد منحت الحكومة حق امتياز هذه المحطة إلى الدكتور فرنك هان الألمانى والمهندس جوستاف جروب السويسرى فى ١٨ فبراير سنة ١٩٠٣ اللذين تنازلا عن هذا الامتياز لشركة كهرباء ومعمل الثلج بالاسماعيلية فى ٢ يونيو سنة ١٩٠٣ وبالاسماعيلية مصنع مشهور لصناعة المصابيح الكهربائية . وينارحيّ العرب بالكهرباء منذ ٢٩ إبريل سنة ١٩٠٧ وتدفع الحكومة مبلغ ٥٣٫١٠٠ جنيه نظير هذه الإنارة ، وبالاسماعيلية محطة تلغراف لاسلكية من أقوى محطات القطر المصرى ، وبجوارها معسكر كبير للجيش البريطانى وبهذا المعسكر مطار حربى هام ، وقد عانت الاسماعيلية الكثير من ويلات الحرب الحاضرة من غارات طيارات الألمان والطليان . ويقوم مكتب التنظيم التابع لإدارة البلديات بالقاهرة بالإشراف على أعمال التنظيم وبالمدينة مدرسة ثانوية بنين مؤجرة ومدرسة ابتدائية للبنين ملك لوزارة المعارف ومدرسة ابتدائية للبنات مؤجرة ، وعدد كبير من المدارس الأولية والإلزامية ومدارس ابتدائية أهلية . ولقد نشأت جمعية تعاونية منزلية مصرية . تعد من أعظم الجمعيات المنزلية فى القطر المصرى منذ حوالى ٢٠ عاما لها عدة مؤسسات . ويبلغ تعداد

المدينة الآن مصريين وأجانب حوالى ٨٤ ألف نسمة وعدد السكان الأجانب حوالى ١٣ ألف نسمة ، وعدد المصالح الحكومية بالمدينة ٢٥ مصلحة . وأما نسبة المتعلمين فتبلغ بالمدينة حوالى ٣٠ ٪ والنهضة التعليمية سائرة قدما بالمدينة ، ومعظم سكان الاسماعيلية عمال فى الجيوش البريطانية وعمال فى شركة القناة ، ومعظم شباب الاسماعيلية يجيد حرفة السواقة ، وأثرياء المدينة يكادون يعدون على الأصابع ، ونسبة المسلمين بالمدينة ٨٨ ٪ والباقى مسيحيون وبالمدينة ٧ مساجد و ٣ كنائس ؛ وأما شباب الاسماعيلية فالجهل يخيم بمعظمهم ويهتمون بالملابس الأنيقة ، وفى زمن الحرب وجدت عصابات للسطو ولكنها قلت ليقظة رجال الأمن ويبلغ عدد رجال الشرطة الآن بالمدينة خمسمائة شرطى وعند اتصال بحيرة التمساح بقناة السويس مصيف للتعاون تكلف إنشاؤه ٧ آلاف جنيه وتعهدت بإنشائه الجمعية التعاونية ، ومعظم الاسماعيليين يجيدون ركوب الدراجات ولعبة كرة القدم يلعبها معظم شباب الاسماعيلية ، ويهتم بها نادى الاسماعيلية الرياضى الذى يضارع أفخم الأندية المصرية ، تأسس على أيد مصرية وبأموال مصرية .

مدينة الإسماعيلية وحفلات افتتاح القنال :

والآن ونحن بصدد الإسماعيلية يجب ألا ننسى ما رأته الإسماعيلية فى حفلات افتتاح القنال جاء على لسان دى لسبس فى مذكراته الخاصة قال :

أما مدينة الاسماعيلية فى تلك الأيام فكانت تموج بالزائرين والسياح من جميع الأجناس ومن الأشكال كافة ، ففى كل لحظة كانت تمر بشوارعها المتسعة مواكب الأعراب على هجنهم السريعة وقد حملوا على أكتافهم البنادق وفى مناطقهم الخناجر وتتبعهم قوافل محملة بالأقوات والخيام وأدوات الطبخ ، وكانت المدينة تموج بزائريها كالبحر الزاخر والكل فى انتظار وصول اليخت (النسر) من بور سعيد من فوق تلال الجسر . . . وظهر اليخت النسر فى القنال بين مرتفعات الجسر وكان يتقدم بسكون ووقار وإذا بالهتافات كالرعد القاصف تنبعث من شواطىء القنال مرددة اسم أوجينى ودى لسبس . . . وبعد نصف ساعة ألقى اليخت مراسيه على أرصفة بحيرة التمساح . . . وبعد ما ألقى اليخت مراسيه صعد الخديو لتحية الأمبراطورة وعانق دى لسبس متحمسا لنجاح مشروعه . . . وفى المساء أنيرت مدينة الإسماعيلية بأرصفتها وشوارعها وميادينها وأنيرت الذهبيات التى كانت راسية بالترعة الحلوة . . . وتلألأت أنوار السراى الخديوية وابتدأ تقديم الطعام لآلاف المدعوين وسواهم فأكلوا مالذ وطاب ثم ابتدأت ألعاب البرجاس على ظهور الخيول العربية المطهمة ودام الرقص والغناء والفرح والانشراح حتى الصباح ، وفى تلك الفترة كانت المراكب ترسو الواحدة بعد الأخرى على أرصفة بحيرة التمساح أو تأخذ مكانها فى أرجاء البحيرة الفسيحة ، وفى ١٨ نوفبر سنة ١٨٦٩ افتتحت ميناء بحيرة التمساح وكانت ترسو بها أكثر من ٥٠ باخرة من جميع الجنسيات منها المصرية والفرنسية

والانجليزية والنمساوية والألمانية والهولندية والروسية والأسبانية والإيطالية والنرويجية وكلها تحمل أعلام بلادها ومتاجرها .. وفى يوم ١٨ نوفبر سنة ١٨٦٩ الساعة الثانية بعد الظهر اخترق موكب من عربات المعية السنية شوارع الإسماعيلية وركبت فيها الأمبراطورة وأمبراطور النمسا وولى عهد بروسيا وباقى الأمراء وسار هذا الموكب بين نغمات الموسيقى وصفوف الجنود وهتافات الأهالى إلى سراى سمو الخديو المعظم بالاسماعيلية ، وفى المساء كانت الحفلة الراقصة تجمع أيضا هؤلاء الملوك والأمراء فى السراى الخديوى وفى هذه الحفلة كانت ترى جميع الأوسمة وجميع الملابس الرسمية فى الشرق والغرب وكان عدد المدعوين بين أربعة آلاف وخمسة آلاف شخص وهم مع ضخامة هذا العدد لايملئون ردهات السراى الفسيحة .

هذه نبذة تاريخية جغرافية عن الإسماعيلية كى نطلع تلاميذنا على بعض مدنهم ونعرفهم على صورة بيئاتهم والله يوفقنا لما فيه خيرهم .

عطية عمارة

المدرس بالإسماعيلية الابتدائية الأميرية للبنين

فى ربوع سينا

قال تعالى : « والتين والزيتون . وطور سينين . وهذا البلد الأمين » وفى سورة أخرى « والطور . وكتاب مسطور » وفى سورة ثالثة « وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين » .

ذكرت سيناء فى أكثر من موضع فى القرآن ، وأقسم الله عز وجل بها ، وذكرت فى التوراة باسم « حوريب » ونزلت بها الوصايا العشر ، فهى إذن بلاد مقدسة ، قدسها اليهود ثم النصارى والمسلمون منذ أمد بعيد ، وتوالها جميع الأديان بالتعظيم والتكريم .

وأصل تسمية « سيناء » - كما جاء فى كتاب تاريخ سينا - مأخوذ من « سين » بمعنى القمر فى اللغة العبرية وذلك لأن صفاء جوها ، وسعة أرضها ، يجعلان لياليها القمرية من أبدع الليالى .

والذى يقلب فى تاريخ سينا يجده حافلا بما يذكرنا بأن هذه البقاع أراض مصرية من غابر العهد ، فقد حكمها فراعنة مصر واعتبروها مفتاح الشرق وهى لازالت الطريق البرية الوحيدة التى تصل مصر بالأقطار الشرقية عامة وهمزة الوصل بينها وبين الأقطار العربية الشقيقة خاصة .

ولقد مرت عبرها الجنود المصرية الفاتحة منذ زمن قدماء المصريين كما انحدرت منها جنود الغزاة والمغيرين

وسيناء حصن طبعى لمصر فهى تمتد ١٥ ميلا شرقا وغرباً ، ونحو ٣٠٠ ميل من الشمال إلى الجنوب .

وتقسم سيناء إداريا كما يأتى :

(١) قسم القنطرة ، ويبدأ من القنطرة شرقا ، وينتهى عند نقطة بئر العبد ، على ساحل البحر الأبيض المتوسط .

(٢) قسم سينا الشمالى ، ومركزه العريش ، وهى مقر محافظة سينا ، ويبدأ هذا القسم من بئر العبد غرباً إلى بلدة رفح شرقا وهى نهاية حدود المملكة المصرية من الشرق على الساحل .

(٣) قسم سينا المتوسط ومركزه نخل ، وقد كانت مقرا لمحافظة سينا قبل الحرب العظمى الأولى .

(٤) قسم الطور ، ومركزه بلدة الطور .

وأهم بلاد سينا العريش وهى بلدة قامت على أطلال مدينة لقدماء المصريين كانت تدعى « رينو كلورا » وأما اسم العريش فإن الذى أطلقه عليها العرب ، ومما يؤيد ذلك ماكتبه الأستاذ « نعوم بك شقير » فى كتابه « تاريخ سينا » روى ابن سعيد عن البيهقى : « كان دخول إخوة يوسف وأبويه -عليهم السلام- على يوسف بمدينة العريش وهى أول أرض مصر وكان يوسف قد خرج للقياهم حتى نزل المدينة بطرف سلطانه وكان له هناك عرش وهو سرير السلطنة فأجلس أبويه عليه وكانت تلك المدينة تسمى بمدينة « العرش » فحرفتها العامة إلى « العريش » فغلب ذلك عليها » وفى ذلك يقول الله عز وجل « فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين . ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا » والمشهور على أفواه الناس أن رجال الحدود كانوا حينئذ بالعريش فأنزلوا إخوة يوسف وأبويه حتى جاء لاستقبالهم .

وفى رواية أخرى ، أن مالكا حفيد جديلة بن لخم كان له أربعة وعشرون ولدا منهم العريش بن مالك وبه سميت العريش لأنه نزل بها وبناها مدينة ، والرواية الأولى أقرب إلى الصحة من الثانية لأن تفسير الآية الكريمة السابقة يؤيدها تمام التأييد.

والعريش تبعد عن شاطئ البحر بنحو ١,٥ كيلومترا ، وهى مبنية باللبن الناصع البياض ، لأنه يغلب على تربتها العنصر الجيرى ، وهو يكسب البلدة ، رونقا وجمالا ، وشوارعها رملية متسعة نظيفة ، وبالبلدة آلات تمدها بالمياه والكهربا والمنازل فيها من طابق واحد وتحاط بحدائق صغيرة وقدسرى فيها تيار التعمير والإصلاح مما يبشر برقيها إلى مصاف المدن الكبيرة .

وتتسنم العريش ذروة الحركة التجارية فى سينا ، فأهلها تجار بالسليقة تجرى فى عروقهم دماء البيع والشراء وهذا راجع لتفرغهم لهذا العمل فلا زرع ولا ضرع يصرفهم عن التجارة .

والعريش صالحة لأن تصير مصيفا جميلا ، لأنها على الساحل حيث الجو معتدل طوال العام ، ولما يملأ هذا الجو من هدوء وسكون فهى كما قال الشاعر :

ومقصد طلاب الهدوء وموطن   به العيش يحلو والصفا يتحقق



(شكل ٥٤) عريشى من أصل تركى

وأهل العريش أخلاط من الناس ولكنهم يكادون يكونون أسرة واحدة ، لما بينهم جميعا من وشائج النسب ، ولولا النعرة التى تسودهم لكانوا المثل الأعلى لما يجب أن يكون عليه سكان البلد الواحد من تعاون وتحاب وتآزر .

وترتفع نسبة التعليم فى العريش وذلك بفضل المدارس الأولية والابتدائية والثانوية بها ، وفى العريش كما فى غيرها من المدن مزارات الأولياء ، منهم الشيخان ، جبارة والجريرات ، وذلك إلى مابها من قبور أنبياء بنى إسرائيل ، فقد روى عن كعب الأحبار أن بالعريش قبور عشرة أنبياء وأحدهم قبر النبى ياسر على ربوة عالية تشرف على البحر الأبيض المتوسط .

ويلى العريش فى الأهمية بلدة «رفح» ، وموقعها الحربى الهام يؤهلها لأن تحتل مركزا عظيما ، وتعمل الحكومة الآن على إنشاء مركز جمركى كبير بها ، وتاريخ رفح القديم حافل بانتصار البطالسة على ملوك سوريا كما أن تاريخها الحديث حافل بانتصار الجحافل المصرية على قوات اليهود ، وهى تبعد عن الشاطئ بحوالى ثلاثة كيلومترات ، وهى بلدة فى دور التكوين ، وشوارعها محاطة ، بالتين الشوكى ، الذى يرتفع على الجانبين كأسوار مانعة ومركزها التجارى فى غاية الأهمية ، وبها أطلال رومانية قديمة ، تكثر فيها العملة الرومانية ، وللآن لم تعمل فيها حفائر لكشف الآثار ، ولقسم البساتين بها فرع للتجارب .

وبلدة الطور تقع على شاطئ البحر الأحمر وبها المحجر الصحي للحجاج ويشتغل أهلها بصيد الأسماك وصيد اللؤلؤ الذى يستخرجونه من البحار ، ويعتنى الأهالى أيضا بتربية الإبل والخيول والماشية . وتنتشر فى سيناء عدة نقط للحراسة لمقاومة المهربين للحشيش من البدو ورجال هذه النقط من أهالى البلاد المشهود لهم بالكفاية وحسن الأثر ، وكمية الحشيش التى تضبط سنويا خير دليل على ذلك ؛ ومن النقط المنبثة فى الصحراء الحسنة والعقيمة وأبو عيقيلة والثمد ونخل والمقضبة ورأس النقب وطابا ، والأخيرة تعد من أحسن مشاتى العالم غير أن طرق مواصلاتها فى حاجة إلى عناية .



(شكل ٥٥) فتاة من أهل سينا

ويخترق سيناء خط حديدى يصل مصر بفلسطين وهو يمتد قريبا من شاطئ البحر الأبيض المتوسط . والطرق الصحراوية للسيارات مركزها العريش ، وتتفرع إلى ثلاث جهات الأولى منها تؤدى إلى بلدة السويس ببعض نقط الشرطة السالفة الذكر ، والثانية تؤدى إلى بلدة رفح ، والأخيرة تصل العريش بالإسماعيلية عن طريق أبى عيقيلة وسينا غنية بالثروة المعدنية ، إذ يكثر فى تلالها الحديد والمنجنيز ومادة الكاولين التى تصنع منها الأطباق الصينى زيادة على ما يقذفه ساحل البحر من نوع من الأحجار يسمى « الخفاف » وهو عبارة عن مادة أسمنتية قوية .

أما عن البترول أو الذهب الأسود فقد تدفق غزيرا من باطن سيناء فى واحة فيران فى منطقة بئر عسل وغيرها مما يبشر برفاهية هذه المناطق فى المستقبل القريب .

وتكمن فى سينا ثروة أخرى فى البحيرات التى تتصل بالبحر الأبيض ، وهى بحيرة البردويل ، وبحيرة الزرانيق ، والبحيرة الأولى هى الكبرى فطولها حوالى ٧٠ كيلومترا وعرضها حوالى ٤٠ كيلومترا وعرض الفتحة التى تصلها بالبحر الأبيض ٨٠ مترا وعمق الماء فيها حوالى ثلاثة أمتار وتؤجر الحكومة هذه البحيرة سنويا بما يقرب من ١٢ ألف جنيه ، ويقوم المستأجر بسد الفتحة فى وقت معين بعد أن تملأ بالأسماك التى تأتى للبيض منتهزة هدوء المياه فى هذه البحيرة وقربها من الشاطئ الرملى فلا تجد الأسماك مفرا من البقاء إذ تقفل الفتحة بأسياخ حديدية تثبت بينها شباك الصيد — وتصدر الأسماك إلى بورسعيد والعريش لبيعها ، كما يتم إعداد « البطارخ » فى صناديق خاصة فى بلدة « الزرانيق » القريبة من البحيرة ، ومبانيها أكواخ صيادى الأسماك ، ومن الأصناف التى تشتهر فى البحيرة البورى واللوت والمياس والقرش والوقار والسردين ، ويقدر صافى الربح السنوى من البحيرة بحوالى عشرة آلاف جنيه .

والدير المشهور فى شبه الجزيرة هو دير « سانت كاترينا » الذى يحج إليه الآن آلاف من الروس سنويا ، وبالقرب من الدير جامع أثرى صغير يقوم رهبان الدير بإضاءته طوال ليالى رمضان ، ويشرف الجامع على

وجبل المناجاة ، حيث كلم الله سيدنا موسى وناجاه ، ولايزال أثر تصدع الجبل من خشية الله ظاهرا زيادة على الأثر الذى تركه كليم الله عند ماخر صعقا ويعيش رهبان الدير على مايزرعونه فى واحة فيران المحيطة بالدير .

ولو أنك برحت العريش إلى الصحراء المحيطة بها إحاطة الهالة بالقمر لوجدت الفرق عظيما والبون شاسعا . فمن اختلاف الملبس إلى اختلاف فى النظم والعادات ، تجد أناسا يعرفون بالبدو يضعون فوق رءوسهم مايسمى بالعقال ، ويلبسون فى أرجلهم نعلا يعرف « بالخف » ولاعجب فهو من جلد الإبل وتكسو أجسادهم ثياب بيضاء لها أكمام واسعة يقال لها « ردن » والأغنياء منهم يلبسون فوقها « إكابر » والجميع تقريبا يلبسون العباءة فوق ملابسهم وتتدلى بجوانبهم السيوف .

وهؤلاء الأعراب يدينون كلهم بالإسلام ولو أنهم لايعرفون قواعده حق المعرفة ، فهم يؤدون الصلاة كلما خطر ببالهم قول الله تعالى « وأقم الصلاة لذكرى » وتتفشى فيهم الأمية إلا ماندر ، وهناك اتجاه جديد لعمل وحدات مدرسية متنقلة لنشر المعرفة بينهم .

والبدوى شجاع فتراه يقول « الكرم سداد » يأخذ بثأره ولايهدده وقد يتوارثه عن أجداده ، محب للفخر يمتاز بالأنفة والحمية وعزة النفس ، محب للشورى والحرية .

والبدوية أو الأعرابية تأخذ بنصيبها فى مشاطرة البدوى أعماله ، فهى تغزل الصوف وتصنع الخيام الصوفية وتساعد رجلها فى الزراعة ورعى الإبل ، وهى تقلد المرأة الصينية فى حمل أولادها الصغار إذ تضع الطفل فى لفافة تثبتها فى رأسها وتتركها تتدلى على ظهرها فلا يعوقها الطفل أثناء العمل وتسمى اللفافة « بالمزفر » .

وغذاء البدو خبز الشعير مع قليل من الأدم أو لبن الماعز والجمال وقليل من التمر ، وقد تسربت إليهم أشعة من الحضارة ولكنها لم تستطع أن تبدد ظلام تأخرهم فهم يهيئون خبزهم على هيئة أقراص كبيرة توضع على الرمضاء ويسمونها « خبز الملة » وهذه تصنع فى كل وجبة .

وجرت عادة البدو أن يختاروا لكل قبيلة منهم رئيسا يأتمرون بأمره ولايفعلون شيئا إلا بمشورته ، وهو يعمل لصالح قبيلته ويشاورهم فى الأمر . ومن أشهر القبائل التى تستوطن سينا : الترابين والسواركة والإحيوات والرميلات والجريرات ، وهم قوم رحل لايستقرون فى مكان بل يسعون وراء الكلإ والمرعى .

ونظام القضاء عندهم عجيب فلكل مشكلة قضاة مختصون يفصلون فيها ، والقضايا لاتتعدى :

(١) المشكلات اليسيرة التى لاتتعدى المنازعات يفصل فيها قضاة « عرفيون » .

(٢) قضايا الجروح ويفصل فيها قضاة يعرفون (بالقصاصين) عملا بقوله تعالى « والجروح قصاص » .

(٣) قضايا القتل ويفصل فيها قضاة يسمون « مناقع الدم » .

ويختار المتنازعون ثلاثة قضاة حسب مشكلتهم يختار أحدهم للفصل فى المشكلة ، فإن لم يعجب الحكم أحدهم استأنف لدى القاضى الثانى ، وإذا أراد أحدهم الاستئناف مرة ثانية لجأ إلى القاضى الثالث ، وقوله فصل الخطاب .

وإذا اتهم أحدهم بتهمة وأصر على البراءة أو الإنكار لجأ إلى « البشعة » وهى عبارة عن طاسة توضع فى النار حتى تصير حمراء تعرض للشمس عند الغروب ثم يقدمها « المبشع » إلى المتهم فيلعقها بلسانه ثلاث مرات متواليات وهم يرون أن أذاها لا يمسه مطلقا مادام بريئا ، وإذا كان مذنبا فإنها تفعل بلسانه فعل النار ، « ويتقاضى المبشع خمسة جنيهات عن كل عملية » .

وعلى أساس نتيجة « البشعة » يتوقف الحكم على المتهم وإذا برئ المتهم، طالب برد شرف كبير قد يصل إلى مائة جنيه .

والزواج عند البدو مبكر ، وعادة يكون بين الأقارب ، ويتراوح الصداق بين جمل واحد إلى عشرين ، وعندما يتفق الطرفان على الصداق يعطى ولى الفتاة خاطبها غصنا أخضر يعرف « بالقصلة » قائلا له : خذ هذه قصلة فلانة بسنة الله ورسوله . فيتناولها الخاطب قائلا « قبلتها بسنة الله ورسوله زوجة لى » .

والقصلة عندهم بمثابة « الشبكة » عندنا ثم يأخذون فى إقامة الأفراح حيث يلعبون « البرجاس والسامر والدحية » ويرقصون « الدبكة » ، وينحرون الذبائح وينتهز الخاطب أقرب فرصة لخطف عروسه من بين أترابها وهى ترعى الغنم ويحملها على ظهر راحلة ويذهب بها إلى حيث يكون قد ابتنى لها مخيما بعيدا عن مخيم قومه ويقيمان معا فى المخيم ، ويرسل لهما أهل الزوج الطعام مدة أسبوع أو شهر هو شهر « العسل » .

والفتاة عندهم لا ترث بل كتب عليها أن تحرم بعض حقوقها التى أجازها لها الدين الحنيف ، ولسنا ندرى ما جعل هؤلاء القوم يسلكون هذا المسلك .

ويعتمد سكان شبه الجزيرة على الأمطار فى زراعاتهم ، فعند نزول المطر الكافى وارتواء الأرض يباشرون الزراعة فى جوانب الأودية والسهول الخصبة ، وأهم ما يزرع هنا المحصول الرئيسى وهو الشعير .

وبعد نضج الشعير يدرس بمرور المواشى كالجمال والحمير عليه فى حمارّة القيظ ، فتقصف السنابل وينفرط عقد الحبوب . وقد يستعملون « اللوح » : وهو قطعة من الخشب بها أسنان حديدية بارزة تقصف السنابل ويجره جمل ويقف على اللوح شخص أثناء العمل .

والمقاييس المستعملة فى مسح الأراضى « المعناه » وهى تساوى ٤٠ × ٤٠ مترا مربعا و « الدنم » ويساوى ١٠٠٠ متر مربع . والمكاييل المستعملة « الصاع » وهو يساوى ١,٥ كيلة — ويطلق على القطعة الصغيرة من الوادى الصالحة للزراعة « المادس » ، وعلى القطعة الكبيرة « المزرع » .

ويقوم البدو بتخزين حبوبهم فى « مطامير » وهى حفر فى الأرض تعمل على هيئة الجرة أى أنها تضيق من فوهتها وتتسع من أسفلها . وهم يفرشون هذه الحفر بالقش ويملئونها بحبوبهم ، ثم يجعلون أكداس التبن على جوانبها وفوق فوهتها للدلالة عليها ويغطونها بالتراب ويتركونها إلى حين الحاجة إليها .

وأهم أراضى سينا الزراعية مرتبة على حسب التقسيم الإدارى هى :

(١) أراض واقعة فى قسم القنطرة ، وأهم بقعة فيها (قطية) وهى غوطة كبيرة أرضها رملية لا تصلح إلا لزراعة البطيخ والنخيل ، والأخير بها بكثرة . ويعكف الأهلون على صناعة العجوة وتوضع فى أكياس

من النخيل . ومما يستخرج من البلح عسل البلح ويستخرج من الرطب . وأنواع البلح الثلاثة المشهورة هي : الحيانى — والجهل — وبنت عيش .

(٢) أراض واقعة فى قسم سينا الشمالى ، وتشمل أراضى العريش ورفح .

ففى العريش تزرع بعض مساحات من الأراضى الواقعة حول البلدة خضراً وبعضها الآخر يزرع شعيرا فى الشتاء . والرى فى هذه المنطقة من الآبار التى يصل عمقها إلى ٥ أمتار . ولما كانت القنوات رملية والجزء الأكبر من الماء يتسرب إلى الأرض صاروا يتلافون ذلك باستخدام جذوع النخل بعد شقها نصفين طولا وتجويفها كمجرى للمياه ، أو يضعون على فتحة الرى كمية من الطين الذى يسير فى القنوات ويرسب فيها فيقل تسرب المياه .

ويزرع النخيل على طول شاطئ البحر فى العريش وعلى بعد ٢٠ مترا منه . ومن الغريب أن المياه الباطنية فى هذه المنطقة القريبة من البحر عذبة وهى على عمق قريب وسبب ذلك أن طبقات الأرض التى بها مواد تحجز الأملاح بالتفاعل . وقد استغل الأهلون عذوبة المياه وقرب عمقها ، فزرعوا بين النخيل الخضر وأشجار الفاكهة وبخاصة « الجوافة » وقليلا من قصب السكر . وتسمى هذه الأماكن « المواحى » — وفى رفح يزرع البطيخ اليافاوى أو الصلحاوى ومنه صنف « الحيسى » . ويزرع البطيخ بعليا . والبطيخ الناتج فى هذه الأماكن أحمر الباطن سكرى مرمل قليل الماء عديم الألياف ، بذوره بيضاء سوداء الحواف . وتكثر زراعة أشجار الفاكهة فى رفح — كالعنب والرمان والبرتقال والجوافة والتين الشوكى الذى يزرع على جوانب الشوارع فى رفح ثم اللوز وهو أهمها .

وأهم الخضر التى تزرع فى رفح « الطماطم » وذلك بالقرب من شاطئ البحر . ويعتنى بها عناية خاصة ، حيث تبلغ أحجاما كبيرة جدا ، زيادة على كثرة لحمها وقلة العصير والبذور بها ، شأن الخضر التى تنمو فى الصحراء عامة .

ويزرع الأثل شتاء فيمنع انتقال الرمال مع ما يستفاد منه فى صنع المحاريث وبعض أجزاء أسرجة الخيل والإبل ، كما أنه وقود جيد . ومزرعة قسم البساتين فى رفح تكاد تكون نموذجية وتجرى فيها تجارب الإكثار من التفاح ، لأنها منطقة باردة نوعا .

والأراضى الواقعة بين العريش ورفح يزرع بعضها شعيراً شتاء وبطيخاً وذرة رفيعة صيفا ؛ حيث يكون البطيخ بين أعواد الذرة ، ويصدر جزء كبير من البطيخ سنويا إلى القاهرة فيباع بأغلى الأثمان .

(٣) أراض واقعة فى قسم سينا المتوسط ، ومنها وادى الحصانى والمنبطح والقصيمة والحنة . وتربة هذه الأراضى طينية يجود محصولها فتزرع شعيرا وذرة رفيعة ، عويجة » . وفى القصيمة تجرى عين تنبع من أسفل جبل ، وتسمى عين « الجويرات » . وماء هذه العين حلو تسقى به المزروعات وبخاصة مزارع الزيتون الشملالى التى تكثر هناك — وقد أقيمت معصرة لعصر الزيتون الناتج واستخلاص زيت الزيتون ، وهى من المناطق الخصبة فى شبه الجزيرة .

(٤) أراض واقعة فى قسم الطور وأهمها الأراضى الواقعة حول دير سانت كترينا الذى بناه الامبراطور (يوسيانوس) تخليدا لذكرى زوجه « تماضورة » سنة ٥٥٠ م ، ومعظم هذه الأراضى موقوف على الدير.

وواحة فيران القريبة من الدير بها حدائق ينمو فيها النخيل والعنب والتين والإجاص والنبق . ولا يزرع بها إلا مقادير محدودة من الشعير نظرا لعدم توافر الأراضى المسطحة الصالحة لهذا الغرض .

وأهم الأودية التى تخترق سينا ، وادى العريش الذى يصل طوله إلى ١٠٠ ميل تقريبا ، ومتوسط عرضه ٧٠ مترا — وهذا الوادى يجرى فيه الماء متى هطلت الأمطار بغزارة ، فتتجمع فى بطون الجبال وتفيض منسابة فى عدة مجار تتجمع فى مجرى واحد : هو مجرى وادى العريش ، حيث يصب مياهه فى البحر الأبيض عند مدينة العريش .

وقد يجرى الوادى سنويا وقد لا يجرى سنوات متتالية ، وكانت مياهه تذهب هدرا فى البحر الأبيض حيث يصب ، وقد تطغى على بيوت الأهلين بالعريش ومزارعهم فتكتسحها أمامها ، ولهذا عمل للوقاية من ضرر السيل حاجز أسمنتى بجانب من جوانب البلدة ، ولكن هذا الحاجز لم يلبث أن اكتسحه السيل . فأعيد بناؤه ثانية .

وكانت الاستفادة محدودة من مياه الوادى ؛ فهى مقصورة على إقامة حواجز فى بضعة مواقع ضيقة من المجرى فتحجز كمية من المياه يستفاد منها فى الزراعة ، وقد أنشىء حاليا « سد الروافعة » وهو خزان يحجز خلفه مايقرب من ألف ألف متر مكعب من المياه ، وله فتحتان يسمحان بمرور المياه عند الحاجة ، وقد أنشأت وزارة الزراعة قسم البساتين بالقرب من مزرعة واسعة زرعت فيها محاصيل الأراضى الرملية مثل الفول السودانى والسمسم وكذا الزيتون وغيرها من الأشجار .

ومن الروافعة يبعد عن أبى عقيلة بحوالى ستة كيلو مترات . وفى النية إنشاء سد آخر عند منطقة « الضيقة » على مجرى الوادى أيضا لزيادة كمية المياه المحجوزة .

ويكثر فى سيناء الغزال والتيتل والأرنب والوبر والمعز البرى والضبع ؛ ومن طيورها الحجل والشنار والقطا . وبعض الطيور المهاجرة كالسمان الذى يهتم أهل العريش بصيده . ويعد موسمه مصدر الرزق ، حيث يأتى إلى ساحل العريش فى شهر سبتمبر من كل سنة ، ويعمد الأهلون إلى نصب الشباك على طول الشاطىء وذلك برفعها على عمد خشبية . وعندما يغادر السمان البحر طائرا فوق سطحه يصطدم بالشباك ويتدلى منها مكتوفا فيمسك باليد . ويصدر معظم السمان أو « الغر » كما يطلقون عليه إلى مدينة بورسعيد حيث يباع غالى الثمن .

ويرافق السمان فى هجرته طيور أخرى أهمها « المراعى » و « الرقطى » وهو نوع من الحمام المطوق ، وكان يستعمل لصيده « المخيط » ولكنه حرم بمقتضى قانون الصيد .

ومن الأعشاب التى تنتشر فى شبه جزيرة سيناء والتى تكثر وتنمو بعد هطول الأمطار ما يأتى :

(١) السكران : ويحتوى على مادة الهايوسيامين التى تحضر مادة «الأتروبين»

(٢) الحنظل : ويستعمل فى الصباغة ، ولب ثماره يستعمل كمادة مسهلة شديدة المفعول.

(٣) البصيل : وساقه طويلة لها زهر أبيض طيب الرائحة وبه تقام حدود الأراضى .

(٤) الزنبق : وهومشهور برائحته العطرية .

(٥) الذانون : وهو نوع من الهالوك ، ومنه صنفان : أحدهما يتطفل على العاذر ويأكله البدو مشويا ، والآخر يتطفل على السكران ، وهذا الأخير ضار لأنه يفقد من يأكله وعيه .

(٦) الرتم والعاذر : نوعان من الأعشاب التى تستعمل فى الوقود ويصنع من الأول فحم جيد .

(٧) المتنان : وتعمل منه الحبال لأن أليافه متينة ، ومن ذلك اشتق اسمه .

(٨) الشيح : وهو ذو رائحة عطرية يتبخرون به ، ونقيعه مطهر للأمعاء .

(٩) القيصوم : ورائحته ذكية ، وزهره أصفر جميل .

(١٠) المرمرية : وأصل اسمها (المريمية) نسبة إلى السيدة مريم — وتستعمل كدواء ناجع لكثير من الأمراض .

(١١) السموة : وهى تشفى الجروح المتقيحة بسرعة عجيبة . والظاهر أن تركيبها يدخل فيه البنسلين .

(١٢) الحصيص : وهو من الأعشاب التى تؤكل مطبوخة .

هذه جولة خاطفة فى ربوع سيناء ، ولايسعنى قبل ختام هذه الرسالة إلا أن أشيد بفضل جلالة مليكنا حفظه الله . فهو يشمل سيناء وساكنيها بالعطف والرعاية ، فكم من مرة أهلَّ على سيناء محاطا بعناية الله ، يتفقد شئون ساكنيها ويغمرهم بفيض من عطفه وكرمه ، مشعرا إياهم أن البعيد فى ملكه كالقريب ؟

مصطفى حلمى عثمان حسن
مدرس بمدرسة العريش الابتدائية

١ — تاريخ لسكان سيناء

تتجه دائما الأبحاث الخاصة بالسكان والمجتمعات اتجاهين : الاتجاه الأول ديناميكي يرمى إلى بحث حالة المجتمع والسكان مع الزمن والأطوار التى مروا بها والتفاعلات التى تمت بينهم ، والنظم التى طرأت عليهم ، أو ظهرت تلقائية فيهم . والاتجاه الثانى أستاتيكي : ويرمى إلى بحث حالة السكان فى وقت ما فى جميع الأمكنة من حيث النظم القائمة والعادات المنتشرة والتقاليد الشائعة . وكلا الاتجاهين يهدفان معا إلى استخلاص القوانين الاجتماعية التى تخضع لها الجماعة واستشفاف التيارات الاجتماعية التى تنتشر فى المجتمع . فإذا ماتم للباحث الاجتماعى الوصول إلى هاتين النتيجتين : اكتشاف القانون الجمعى . واستشفاف التيارات الاجتماعية أمكنه وضع خطة الإصلاح على ضوء هاتين النتيجتين ، وإنا إذ نتقدم بهذا البحث إنما نبغى أن نقدم لوطننا العزيز خطة لإصلاح بلاد هى منا ولكنها غريبة عنا ، ولإصلاح طائفة من الأمة تعيش فى هذه البلاد كالمتغيبين أو شبه المتغيبين وكالغرباء أو شبه الغرباء فتركناهم حقلا خصبا للفقر والجوع والعراء والجهل . نسأل الله أن يوفقنا جميعا لخدمة بلادنا والارتقاء بها حتى نستعيد مجدنا السابق وعزنا القديم فى ظل حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك فاروق الأول أبقاه الله وأدامه — كما نشكر حضرة صاحب العزة حسن بك جوهر مراقب عام منطقة الزقازيق التعليمية إذ أتاح لنا مثل هذه الفرصة .

لئن اكتنف التاريخ القديم كله بعض الغموض فإن تاريخ سيناء يكتنفه الغموض كله ، وذلك لقلة الاهتمام بالكشف عن آثار هذه البقعة من البلاد . وقد يرجع ذلك لجدبها وصعوبة العيش فيها ، ومع كل فسنحاول جهدنا أن نكشف عما غمض من تاريخ هذه البلاد ، راجين أن نوفق إلى ذلك . ومن العلماء الذين اشتغلوا بأبحاث تتصل بسيناء اثنان : أحدهما الأثرى الشهير مبرو والثانى هسكتر الأمريكي . ويقرر هسكتر فى كتابه «من النيل إلى نبو» أنه قد وجد فى سوسة فى خرائب مملكة بابل نصب تاريخي ، دلت ترجمته التى نشرت فى سنة ١٩٠٧ أن سيناء كانت تسمى مجان ، وأن نرام سين غزا ميجان سنة ٣٧٥٠ ق . م فقهر صاحبها « مانيوم » وحمل إلى عاصمة ملكه قطعا من حجرها المعروف بحجر الحية فصنع منها تماثيل لنفسه ونقش على قاعدة أحدها خبر هذه الغزوة . ولعلنا مستنتجون من هذا النص أنه قد قامت فى سيناء فى هذا التاريخ حضارة أطمعت ملك بابل فى الاستيلاء على البلاد وثروتها . وكذلك يقرر العلامة مبرو بعد دراسة طويلة للآثار المصرية أن سيناء كانت تعرف باسم «توسويت» ، أى أرض الحرب ، وعرف أهلها فى الشمال باسم «الهيرو شائيو» — أى أسياد الرمال . وعرف أهلها فى الجنوب باسم «المونيتو» . ونسبهم إلى الجنس السامى .

وكان الهيروشائيو والمونيتو يشتغلون بالزراعة حول الآبار والينابيع ، فيزرعون النخيل والتين والزيتون وينشئون الحدائق المليئة بالكروم — كما كانوا يشتغلون برعى الأغنام على العشب الذى ينمو متناثرا فى الصحارى الممتدة وعلى سفوح الجبال ، وكانوا يرتادون أسواق وادى النيل فيبيعون ماعندهم من أصواف

وعسل ومن صمغ وفحم ويستبدلون به حبوبا وملابس . وكان إذا أجدبت الأرض ولم تنتج - وكثيرا ماتجدب ولاتنتج - أغار الأعراب على قرى مصر وبلدانها ينهبون ويسلبون ويسرقون ويعودون إلى صحاريهم وقفارهم الأمر الذى حمل ملوك مصر على تحصين حدودهم الشرقية شمال خليج السويس ، فأقاموا عنده الحصون وعينوا عليها الحراس الذين يسهرون الليالى مولين وجوههم صوب الشرق وتجاه الصحارى . ولكن هذه الحصون لم تكن لتردع الأعراب الذين دفعهم الفقر والجوع إلى التحايل على الحرب وتفادى الحصون، فكانوا يسيرون وينكبون الطرق البعيدة عن القلاع المكتنفة بالجبال والوديان ليتجمعوا فى وادى الطميلات ومنه يشنون الغارات على القرى والمدن . لذلك فكر ملوك مصر فى أن خير طريقة لصد هجمات هؤلاء الأعراب هو الهجوم عليهم ومحاربتهم فى عقر دارهم . وكان أن جرد الملك سنفرو . وهو أول من فكر فى محاربة أعراب سيناء وتأديبهم فكان يدك حصونهم المبنية بالحجر الغشيم على هيئة « نواويس » ويحرق حدائقهم ويقطع أشجارها ويحرمهم ثمارها .

هذه هى حملات المصريين على أهل سينا لغرض التأديب، وثمة حملات عليهم لغرض التعدين — قلنا فيما سبق إن سكان أهل الجنوب من سيناء كانوا يسمون المونيتو . هؤلاء المونيتو اكتشفوا معدن الفيروز؛ وأخذوا يصرفونه ويبيعونه فى أرض الدلتا ، الأمر الذى أطمع المصريين فى القيام بحملات القصد منها تعدين معدن الفيروز . فكانت الحملة تقوم من السويس متجهة جهة الجنوب ومعهم الزاد والمئونة التى تكفيهم المدة الطويلة التى سيقضونها فى الصحارى بحثا وراء معدن الفيروز ، وفى كثير من الأحيان إذا لم تستطع الحملة - وهى دائما مسلحة - التغلب على المونيتو كانوا يؤجرونهم أجراً سخيا فى نظير بقائهم وتعدينهم .

كانت الحملة تستخدم فى أعمال التعدين أسرى الحروب وأرباب الجنايات . ويساعد هؤلاء الأمو والرتنو . والأمو من سكان سوريا والرتنو من سكان سيناء وجنوب فلسطين . وكانت تقدم من مصر مرة كل سنة أو سنتين فى شهرى نوفمبر وديسمبر . وتبقى فى الصحراء إلى أن يشتد الحر فى شهرى مايو ويونيه ، فتنقلب راجعة بما استخرجته من المعدن تاركة وراءها الآثار التى تدل عليها. إذ كانوا يقيمون الأنصاب، ويكتبون عليها بالفيروز أخبار غزواتهم، وكذلك كانوا ينقشون أخبار هذه الغزوات على الصخور مستعملين فى ذلك أزاميل من الصوان والنحاس ومطارق حجرية ، وجد أجزاء منها فى وادى المغارة وسراتيب الخادم الأستاذ بترى أستاذ فن الآثار المصرية فى كلية لندن .

ومن العجيب حقا أن تبقى هذه الآثار آلاف السنين حتى يقوم طلاب الفيروز فى العصر الحديث فيعيثون فسادا فى النقوش الهروغليفية ويشوهون الأنصاب التى أقامها القدامى من أجل الفيروز .

وظلت حملات التعدين تدل عليها آثارها فى وادى المغارة وسراتيب الخادم حتى الدولة العشرين ثم انتظمت الحملات — أغلب الظن بسبب أن غلة الفيروز لم تعد تفى بنفقات تعدينه .

ومما يستحق الذكر فى هذه الفترة من تاريخ سيناء هو أن المصريين فى حملاتهم للتعدين كانوا يأخذون معهم ضمن ما يأخذون تراجمة من سكان سوريا مما يدل على أن أهل سيناء لم يكونوا يعرفون الهيروغليفية ، بل كانت لهم لغة خاصة بهم غريبة عن الهيروغليفية، ودلت على ذلك بعض الآثار التى وجدت فى وادى المغارة. وإلى هنا نستطيع أن نقرر أن النظام الذى عاش عليه سكان سيناء. هو النظام القبلى بكافة خصائصه ومميزاته.

مدينة البتراء :

ولكن مع الزمن وجدنا أنه نشأت فى سيناء مدن كثيرة سارت على نظام المدينة اليونانى ، ومنها تطورت إلى نظام الدولة والأمة . وأشهر هذه المدن مدينة البتراء . وهى مدينة حجرية حصينة فى وادى موسى — هى الآن خراب — ومدخلها من الشرق واد يعرف بالسيق يرتفع عنده جانبا الوادى عموديا طوله نحو ميلين وعرضه من عشرة أقدام إلى ثلاثين قدما . وفى نهاية السيق ينفرق الوادى عن الجانبين نحو كيلومتر وفى هذا المنعرج تقع معظم أبنية البتراء ، ثم يعود الوادى فتضيق فى واد صعب السلوك جدا . ويعرف هذا الوادى بالسيق الغربى (وهذا سر حصانة المدينة) وفى رأس الوادى نبع ماء غزير يجرى فيه فيرويه . ولقد أقيمت على كل من السيقين قلاع تحميه .

وأكثر منازل المدينة وهيا كلها منحوتة فى الصخر — لذلك سماها اليونانيون « تيرا » وسموا البلاد التابعة لها « أريبا بترا » .

وأول من ذكر البتراء فى التاريخ ديودورس الصقلى ، فقال إنها بلاد صخرية وفيها ينابيع قليلة ، ويصعب جدا الوصول إليها — وقال عنها استرابى الرومانى المؤرخ المعاصر لها : البتراء مدينة صخرية قائمة على منبسط من الأرض تحيط به الصخور كالسور المنيع ، وليس وراءها غير الصحراء المجدبة — وكتب بلينى الرومانى عن النبط الذين كانوا يسكنون البتراء فقال إنهم يسكنون مدينة تدعى البتراء فى مجوّف من الأرض يقل محيطه عن ميلين تكتنفه الجبال من كل الجهات ، ولها نبع يجرى فى وسطها .

فى هذا الحوض المنيع إن صح التعبير عاشت أجيال تلو أجيال وتوالى على حكمها كثير من الملوك الذين كانت لهم سطوة ونفوذ — وظل الأمر بين الازدهار لمدينة البتراء واحتلال لها حتى انتهى الأمر إلى قوم يدعون « النبط » .

ولقد اختلف فى أصل النبط ، فمن قائل إنهم عرب ومن قائل إنهم آراميون . أما القول الأول — وهو الأرجح — فيؤيده مؤرخو اليونان واليهود ويؤيده علماء اللغة إذ قالوا إن النبطيين استعملوا أداة التعريف « أل » فى لغتهم ، وهذه عربية خالصة . زد على ذلك أن أسماء ملوكهم كانت أسماء عربية ، كالحارث وعبادة ومالك وجميلة . وكتب المؤرخ الإنجليزى شارب : « كان النبط قبلا يسمون أدوميين ، ثم فقدوا هذا الاسم بعد أخذهم القسم الجنوبى من اليهودية المعروف باسم « أدوميا » . ولما استرجع اليهود أدوميا سموا أدميى الصحراء نباووت أو « النبط » ، ويفهم من هذا المعنى أن النبط عرب أصلا .

أما أصحاب الرأى الآخر القائلون إن النبط آراميون فلهم قصة أو أسطورة إن شئت — فالتاريخ لم يؤيدها بعد — قالوا لما تغلب نبوخذ الثانى على أورشليم ، وأزال مملكة يهوذا سنة ٥٨٧ ق . م زحف على مملكة أدوم فأخضعها ، وجعل فى عاصمتها حامية من الجند ، وسكن مع الحامية . قوم من التجار الآراميين فاشتغلوا بالتجارة وساعدهم مركز البلاد فتقدموا مع الأيام وأسسوا ملكا .

الخلاصة أن النبط قوم سكنوا مدينة البتراء ، واشتغلوا بالاتجار بالأطياب والمر وغيرها من العطور

يحملونها من اليمن وغيرها إلى مصر وشواطئ البحر الأبيض ، ويقرر ديودروس الصقلى أنه لم تكن تمر تجارة فى أيامهم بين الشرق والغرب إلا على يدهم ، وكانوا يحملون إلى مصر القار لأجل التحنيط ، وظل النبطيون يتحكمون فى التجارة بين الشرق والغرب حتى أوائل القرن الثالث الميلادى ، إذ قامت مملكة فارس فى الشرق ، ومملكة تدمر فى الشمال ، وفازت فارس بتحويل تجارة الهند واليمن عن طريقها القديم إلى خليج الفرس والفرات ، وفى ذلك العهد أيضا أخذت تزدهر مدينة الاسكندرية كمركز تجارى ، وكانت البضائع تأتى إلى ميناء بيرنيس على البحر الأحمر ، ثم تتصل بطريق القوافل حتى قفط على النيل ، ثم تنقل من قفط فى النيل إلى الاسكندرية ، وهكذا قضى على مركز البتراء التجارى ، وكان هذا التحول التجارى قضاء عليها حتى الآن .

مملكة النبط :

كيف تحولت المدينة « البتراء إلى أمبراطورية ملكية » ؟

كان هناك طريقان يوصلان إلى مصر من جهة الشرق طريق الفرما وطريق البتراء ، وأراد أنتفونس سيد آسيا الصغرى ، وقتذاك أن يستولى على مصر وينزعها من يد بطليموس الأول ، وكان عليه لذلك أن يطرق أحد الطريقين السابقين ، أما الأول فقفر تقل فيه ينابيع الماء ، والثانى ممهد تكثر فيه ينابيع الماء هذا من جهة ، ومن جهة أخرى لم يكن لديه الأسطول الحربى الذى يحمى الجيش إذا ماسار بحذاء الشاطئ عن طريق الفرما . لذلك اختار طريق بتراء لكن النبط كانوا يتعاملون تجاريا مع مصر وسوريا فقررت أن تقف على الحياد وألا تسمح لأنتفونس وجيشه بالمرور ببلادها زاحفا على مصر ، وصادف أن علم أن جنود البتراء خرجوا لملاقاة البضائع الواردة من الهند واليمن وحراستها ، ولم يبق أحد بالبتراء غير المدنيين فسير جيشا عدده أربعة آلاف من المشاة وستمائة من الفرسان ، ودخلوا المدينة واحتلوها .

وعلم النبط بذلك فعادوا إلى مدينتهم مجتازين طرقا مجهولة ، وانقضوا على جنود أنتفونس ، وأعملوا فيهم السيوف والحراب حتى قضوا عليهم جميعا إلا خمسين فروا وبلغوا ماحدث لجيشهم لملكهم الذى اغتاظ واستقبل رسل النبط برسالة لوم من زعيمهم فكظم الغيظ واعتذر بأن ماحدث كان دون علمه ، ولكنه أخذ يعد العدة للانتقام ، وبالفعل سير جيشا آخر بقيادة ابنه ديمتريوس عدده أربعة آلاف من الفرسان لكن النبط انتصروا عليهم فعاد ديمتريوس خائبا .

ومن أهم نتائج هذه الحملات :ـ

(١) ارتفع مركز النبط فى نظر المصريين فلولاهم لاحتل انتفونس مصر الذى اضطر إلى مصالحة بطليموس .

(٢) أفادهم هذا المركز تجاريا .

بعد هذه الغزوات قوى نفوذ النبط فى الوقت الذى بدأت دولة البطالسة فى مصر فى الضعف ودولة السلوقيين فى سوريا فى التدهور والانحطاط فأنشئوا دولة منظمة تولاها ملوك ضربوا النقود بأسمائهم ،

وقد بدأت من منتصف القرن الثانى قبل الميلاد حتى سنة ١٠٦ بعد الميلاد حتى فتحها الأمبراطور الرومانى تراجان الذى ضرب نقودا خاصة بهذه الذكرى لما لها من الأهمية والفخار . وأهم ملوكهم :

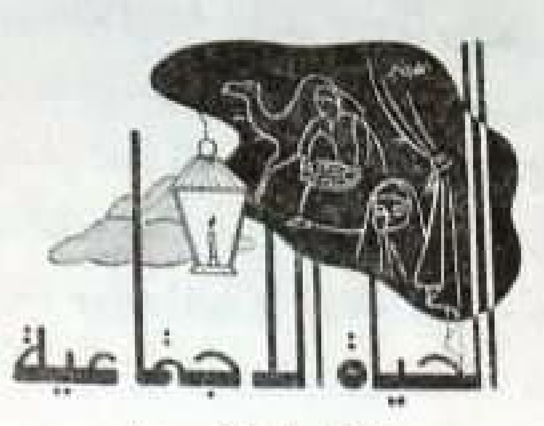
الحارث الثالث : ٨٧ — ٦٢ ق . م كان أشهر ملوك النبط ، وفى عهده ضعف شأن السلوقيين بسوريا ، وكثرت الفتن من زعمائهم فاستدعى الدمشقيون الحارث الثالث ملك النبط ليتولى أمرهم ، فجاء وحكمهم واقتبس من السلوقيين نظام سك النقود فكان أول ملك نبطى ضرب النقود باسمه ، وللنقود النبطية ميزة خاصة إذ ترى رأس الملك على وجه ، ووجه الملكة على الوجه الآخر ، وفى عهده ازدهرت التجارة وكثر دخل البلاد عن طريق التجارة ، الأمر الذى دعاه إلى القيام بإصلاحات زراعية كثيرة فى البلاد كانت سببا فى الرفاهية والرخاء .

بعد أن احتل تراجان الرومانى البتراء ، وأذل النبط أهملها ، وساعد على إهمالها انتقال طرق التجارة عنها إلى الاسكندرية والبحر الأحمر (خليج السويس) إلى أن جاء الصليبيون ، وأقاموا بها القلاع والحصون لكن المسلمين أخرجوهم منها فى عهد صلاح الدين ، وعادت البتراء إلى الوراء حتى اندثرت ودخلت ضمن منسيات الزمن ، ولولا بوخارت الرحالة الشهير الذى ظل يوجه الأنظار إلى هذه الدراسة والكشف عن هذه الحضارة المنسية ما كنا سمعنا عن البتراء أو عن مملكة النبط : إذ من يومها أخذ السياح والمؤلفون وعلماء الآثار يؤمونها ويكتبون عنها المجلدات ، ووصفوا آثارها التى تدل على ما كان للمدينة من عظمة ، وما كان لأهلها من غنى وبجد زها كثيراً فى عهد الرومان .

واليوم يحاول الصهيونيون جهدهم الاحتفاظ بالعقبة وصحراء النقب حيث كانت تقع مدينة البتراء فلم هنا ؟ لأنه معروف طوبوجرافيا أن من يستولى على البتراء ، ويشرف على النقب يستطيع بسهولة مهاجمة مصر وبلاد العرب والعراق ، وبمعنى أدق يشرف على أهم نقطة استراتيجية فى الشرق الأوسط ، مثلما فعل الصليبيون سابقا .

الخلاصة أن عرب سيناء الأصليين الذين تراهم اليوم فى الصحراء هائمين فيهم فقر تلمحه على وجوههم وجوع يظهر من ضمور بطونهم ، هؤلاء القوم المتناثرون كانوا بالأمس أمة متحدة لها مجدها ولها حضارتها ، فلا غرو أن تراهم أصحاب عزة وإباء وشمم — رغم الفقر والجوع — موروثة أغلب الظن عن أجدادهم الأمجاد وأسلافهم القدامى .

٢



الحياة الاجتماعية
والاقتصادية فى سينا

فى الباب الأول نهجنا فى بحثنا المنهج الديناميكى بصدد سكان سينا — وفى هذا الباب ننهج المنهج الاستاتيكى، فنتناول السكان من حيث حياتهم القائمة والنظام الذى يخضعون له اجتماعيا واقتصاديا وأخلاقيا.

وسكان سينا الآن يمكن تقسيمهم قسمين (بدو وحضر)



(شكل ٥٦) عربى من أهل سينا

البدو : وهم القبائل التى تعيش فى الصحراء متناثرة هنا وهناك فى الفياف والوديان حول الينابيع والآبار يرعون إبلهم وماشيتهم ويزرعون ما تيسر على مياه الأمطار ما استطاعوا زراعته من الشعير والقمح وينشئون حول الآبار الدائمة ما استطاعوا إنشاءه من الزيتون والخوخ ونحوه.

والبدو قبائل تعيش على النظام القبلى، فشيخ القبيلة هو رئيسهم الإدارى يوزع الأعمال على أفراد القبيلة، ورئيسهم القضائى يحتكم لديه فى فض المنازعات والخلافات، ويحكم فيطاع حكمه، ويقضى فيسرى قضاؤه، وفوق هذا فهو رئيسهم الروحى، وتظهر هذه الناحية عند الوفاة؛ فإذا مات شيخ القبيلة أقيم له مقام وأقيمت فوق المقام قبة تضاء بالشموع، فهو إذن ولى من أولياء الله الصالحين. يقدمون له الذبائح ويتقربون إليه بالقرابين .

ولكل قبيلة منطقة نفوذ لاينبغى لأحد من القبائل الأخرى التعدى على هذه المنطقة بالرعى أو الزراعة أو التجارة غير المشروعة، وكثيراً مانرى الحروب تنشأ بين القبائل لعدم التحديد المضبوط للمناطق، وقد تدوم هذه الحروب السنين والأعوام لسبب ضئيل كأن ترعى إبل قبيلة من القبائل فى منطقة نفوذ قبيلة أخرى أو كأن يقتل جمل أو بقرة فى منطقة نفوذ قبيلة ما، فتنشأ الحرب بين القبيلة صاحبة الماشية وبين القبيلة صاحبة المنطقة التى تم فيها القتل، فان لم يتضح القاتل ويعترف بالقتل، ويتم التراضى، وهذا مرده قطعا إلى تفشى النظام القبلى الذى من أهم ظواهره :

(١) العصبية : فالعصبية فى سينا وقبائلها واضحة أتم الوضوح جلية أتم الجلاء ، وتظهر فى حروبهم ، وتحديد مناطقهم ، وعدم الزواج بينها : فإذا تم حدث وزوج رجل بنته من رجل من قبيلة أخرى لغير قبيلته وجبت على (العريس) الحدادة ، وهى إما ثوب ثمين من الجوخ أو جمل نشيط كا فى أنوالهم ، بانعدم شهود بأجل ظهير ، والحدادة لاتوجد فى حالة الزواج من نفس القبيلة ، كما أنه إذا تزوج رجل بجارية سوداء عد نسله عبيداً وعومل أولاده معاملة العبيد .

(ب) الخاوة : يحدث فى كثير من الأحيان أن تضعف قبيلة من القبائل بسبب الموت ، أو الحرب أو الهجرة ، وتصبح عاجزة عن حماية نفسها من القبائل الأخرى فتدخل فى حمى قبيلة أخرى قوية تحميها وتدافع عنها فى نظير أجر معلوم يسمى الخاوة .

الحضر :

وفى سينا نرى مدنا نشأ معظمها لأسباب عسكرية استراتيجية قديما ، وظلت قائمة حتى يومنا أهمها مدينة الطور وضواحيها ، والنخل وضواحيها ، والعريش وضواحيها واختلف فى سبب تسمية كل منها ، وليس هذا مقام مثل هذه الأبحاث التاريخية المورفولوجية .

أقول : إنه نشأت فى سينا مدن سكنتها القبائل أولا لكن بمضى الزمن والهجرات المتواليات عليها فقدت هذه القبائل طابعها القبلى الخاص المميز لها : كما فقدته بسبب الاحتكاك بالموظفين المتعاقبين الذين يديرون المؤسسات الحكومية والتجار الذين يفدون عليها من وادى النيل أو فلسطين وسوريا .

وبالاختصار يمكن القول بأن مدن سينا حاليا تمثل فترة الانتقال بين النظام القبلى الاجتماعى ، وبين نظام المدينة الإدارى .

أعمال السكان

الرعى :

فيرعون الإبل ويربونها ويبيعون الذكور منها كما يربون الماشية والأغنام؛ وكانوا يقدمون فيما مضى بتأجير إبلهم وجمالهم لنقل المسافرين عبر سينا ، والسياح إلى ديرسانت كاترين وغيره من الآثار الجميلة فى سينا ، وكانت لذلك تعريفة خاصة وضعتها المحافظة لذلك ، غير أن السيارات اليوم قد حلت محل الجمال .

الزراعة :

نشاهدها فى الوديان حيث تسيل السيول فيزرعون الشعير والقمح والذرة بعد انتهاء موسم الأمطار كما يزرعون البطيخ ، وحول الآبار الدائمة والخرابات ينشئون الحدائق الغناء من الزيتون والخوخ والكروم ، وللبدو مقاييس خاصة فى الأراضى : فالمانى طوله فى بلاد العريش أربعون خطوة أو مترا ، وفى بلاد التيه خمسون خطوة بطول الوادى ، وكل قطعة منزرعة لها مالك إما بوضع اليد أو بالوراثة ، ولكن ندر من كانت بيده حجة مكتوبة تثبت ملكيته لأرضه ، ولذلك فالبدو فى خلاف مستمر بسبب عدم تحديد الملكية ولكن بدأت الحكومة تسجل كل ماجدّ من بيع أو شراء فى الأراضى والعقار منعا للمشاكل .

والبدو يحرثون الأرض بواسطة محرات كالذى نستعمله فى وادى النيل إلا أنه أصغر وأقصر، ويستعملون الإبل والحمير فى شد المحاريث، أما الدرس فإنهم لايستعملون النوارج بل يربطون الإبل بعضها برقاب البعض ويدعونها تسير على المحصود من الغلة فتفعل ما تفعله النوارج وهم يذرون الحبوب بمذراة كالتى نستعملها فى وادى النيل تماما .

بعد ذلك يأتى دور التخزين ، والشائع عندهم أنهم يخزنون محاصيلهم فى « مطامير » وهى حفر فى باطن الأرض على هيئة الجرة لها فوهة ضيقة ، ويعلمونها بوضع التبن عند باب « المطمورة » أو فى « كمور » وهو حفرة على هيئة مربع فى باطن الأرض يسقفونها بأغصان الشجر ويجعلون لها من أحد جوانبها سلما من الأرض، كما أنهم يحفظون آلاتهم الزراعية فى أكواخ من الحجر الغشيم والطين تسمى « قربة » .

الصـــناعة

غزل الصوف وصبغه وحياكته :

قلت من قبل إن البدو يربون الإبل والأغنام ويهتمون بها: إذ عليها تقوم كل حياتهم فمن نتاجها يبيعون ويشترون مايلزم من حاجيات لاوجود لها فى البادية، ومن لحومها يأكلون ومن أصوافها يغزلون ويحيكون فرشهم وخيامهم وأغطيتهم، ويقوم بعملية الغزل والصبغ والحياكة النساء ، فترى المرأة وراء قطيع الأغنام تحت إبطها عصا طويلة تهش بها على الأغنام ، وفوق رأسها الصوف وبيديها تغزله ، وإذا ماتم للمرأة غزل ما يكفيها عكفت على بعضه تصبغه بواسطة سواد يستخرجه البدو من النباتات البرية وأثبت الألوان عندهم الأحمر والأخضر والأصفر الغامق .

بعد ذلك يأتى دور النسيج ، والمرأة أيضا هى التى تنسج على أنوال يدوية صغيرة بسيطة ثم يحكن خيامهن وأغطيتهن وأخراجا جميلة يبعن الواحد بجنيه مصرى تقريباً أيام الرخاء .

عمل البارود :

البدو دائما فى حروب وألزمتهم هذه الحروب التفنن فى طرقها فبرعوا فى صناعة البارود . فإنهم يأتون بالصفصاف من وادى العربة ويحصلون على ملح البارود من جهة «حسماء شرقى العقبة ويشترون الكبريت من مصر أو الشام ويتبعون الطرق الآتية : —

(١) يذاب ملح البارود فى الماء بنسبة فنجان ملح وخمسة فناجين ماء ويغلى المخلوط على النار حتى يتبخر الماء كله ويترك الملح حتى يجف .

(٢) يحرق خشب الصفصاف فى حفرة حتى يصير فحما ويغطى بالصاج .

(٣) يخلط ملح البارود المغلى بفحم الصفصاف بالكبريت بنسبة ١٢ : ٦ : ١ :

(٤) يدق المزيج فى جرن من الخشب بيد من حجر حتى يتم مزجه .

(٥) يختبر المخلوط بعد ذلك بأن يقرب إلى جزء منه لهب فإن اشتعل فإنه يكون قد طاب «على حد قولهم» وإلا فيدق حتى يطيب .

(٦) إن طاب جميعه يسقى بالماء أثناء الدق ليصير رطبا ثم يغربل فى غربال ويوضع فى « قصعة » حتى يجف تماما فإذا البارود المستعمل .

ويشترى البدو الرصاص من السويس ويصبونه فى قوالب عندهم .

الصيد :

لبعض البدو مهارة فائقة فى صيد التيتل ، وهو حيوان مشهور فى الجزيرة يؤكل لحمه ويستخدم جلده ، والغزال والأرنب . وكثير من أهل المدن الجنوبية والشطوط البحرية يصيدون السمك ويغوصون وراء اللؤلؤ .

تعدين الفيروز :

كان للفيروز قديماً شأن فى تاريخ سيناء . أما الآن فإنه على مايبدو لم يعد يحصلون عليه بنفس الكثرة التى كان يعثر عليه قديما ولذلك فإننا لانجد سوى ٢٠٠ شخص فى سيناء كلها من أهل الطور، ودخلهم يربو على ٤٠٠٠ جنيه من جراء عملية التعدين ، ويعمل فى سيناء مناجم للفيروز تخفى على البدو .

أخلاقهم :

سكان سيناء يسيرون على النظام القبلى ، ويظهر هذا النظام فى أخلاقهم وعاداتهم وشرائعهم القضائية ، وسأتكلم فى هذا الباب عن بعض أخلاقهم وأشهرها : —

الضيافة :

البدو كرماء جداً لضيوفهم يحسنون الضيافة (ويقومون بأداء واجباتها على الوجه الأكمل) ويتساوى فى ذلك غنيهم وفقيرهم . ومن عاداتهم بصدد الضيافة الغرابة . فإذا قدم ضيف على بدوى كان له الحق فى أن يعتدى على غنم جاره فيسرق إحداها ويذبحها لضيفه على أن يرد ماأخذه فى ظرف ١٤ يوما ، وإن زاد على ذلك طولب أمام شيخ القبيلة ، ومن هنا لاحيلة لتهرب المضيف من إكرام ضيفه والمغالاة فى ذلك مادام له هذا الحق .

روح العدالة :

ويدل على ذلك القصة التالية . استأجر أعرابى بدويا ليعمل فى مزرعته عملا حدده له واتفقا على عشرين قرشاً كأجر، وبدأ البدوى فى العمل ، فإذابه يقول لصاحب المزرعة الأجر عشرة قروش فقط لاعشرون قرشاً فقال المالك: ولم ؟ فرد عليه الأجير البدوى : كنت أظن أن العمل شاق فإذا به خفيف لايستحق إلا عشرة قروش فقط .

احترام العرض :

من شرائع البدو التى يتحاكمون بمقتضاها ، القتل قصاص الزانى ، فالزانى والزانية يقتلان وبعض القبائل ترضى بالدية قصاصا .

النجدة :

يحتم العرف وتحتم التقاليد على البدوى نجدة من يستنجده ، ومن لم يقم بذلك أذل وأهين ، وقرر شيخ القبيلة طرده من قبيلته كما يقرر طرده من منطقته؛ كذلك يحتم ألوف على النساء عدم الزواج بمثل هذا الرجل . والمطلع على أدب البدو وأشعارهم يستشف بسهولة هذه الأخلاق وهذه التقاليد، وإليك وصية من والد لولده: —

أوصيك ياولدى مبارك	وحياة اللى كبيره غاب عنه
أوصيك عن واجب طنيبك	وسيور الظنون بفارقنه
أوصيك عن سنك سلاحك	تجيبك أوقات ماتقدر تسنه
أوصيك عن حزب المخالف	وسيور الديون يخلصنه
ابعد عن عدوك يوم يعاديك	وإن تابعك اضربه ضرب مافيه كنه

وهاك وصية أخرى :

احفظ وصاتى ياولد يوم يوصيك	وإن سلتها تصبح كثير الربوح
أوصيك عن جارك وضيفك واللى يعانيك	تدر عليهم در حرا مسوح
أوصيك عن بنت اللاش لو كان تهنيك	يطلع ولدها مثل طير شنوح
أوصيك حر بنت سبع ولو كان يعاديك	يطلع ولدها مثل صقر اللموح
إن غلقت الباب يفتح ويعطيك	وإن قصيته حسب مايروح

هذا ومع تغلب هذه الأخلاق العالية فى البدو فإنك قد تجد فيهم الكذب والخداع والغدر والخيانة كسائر الناس خصوصا إذا اختلطوا بالحضر .

٣ — نظرات فى إصلاح سيناء

مما سبق نستطيع أن نقرر :

(١) أن سكان سيناء لهم تاريخ حافل بالمجد والحضارة والمدنية .

(٢) أنهم على خلق قمين بأن تتخذ قاعدة اجتماعية لإجراء أى إصلاح ، فأول مايلزم الجماعة لإصلاحها هو القاعدة الخلقية ؛ أى أن سكان سيناء تتوفر فيهم عوامل الإصلاح الطبيعية الاجتماعية .

(٣) موقع سيناء موقع له أهميته التجارية والعسكرية ، أما المركز التجارى فلقد احتلته الإسكندرية وموانى خليج الفرس، وأما المركز العسكرى فما زالت له أهميته، ومن هنا تتزاحم الدول فى حركات خفية على السيطرة

عليه . ومما يزيد فى أهمية سيناء اكتشاف بعض آبار البترول فيها ، الأمر الذى لو اهتم معه الجيولوجيون بسيناء لاكتشفت مناجم ومناجم وآبار وآبار .

على هذه القواعد الثلاث سنحاول قدر الطاقة والعلم الحديث فى إصلاح سيناء :

١ — الناحية الثقافية :

بدأ حضرة صاحب العزة على بك الحاكم المراقب السابق لمنطقة هذه الناحية — فبدأ يبحث فكرة الله والملك والوطن لدى سكان سيناء — وخرج من ذلك بضرورة إرسال بعوث إلى جوف الصحراء فى سيناء تقيم مع العرب وتتحدث إليهم فى مختلف المواضيع . بمعنى أن تنشأ فى العريش جامعة شعبية يكون نشاطها لا فى العريش وحدها بل فى باطن سيناء مع العرب والرعاة . ونرجو أن يتم وينفذ حسن بك جوهر مراقب عام المنطقة مابدأه زميله الفاضل من بحث ودراسة وتنفيذ .

٢ — الناحية التجارية :

تحول دون حرية التجارة فى سيناء حوائل أهمها وجود الجمرك فى القنطرة . فلو انتقل الجمرك إلى رفح على الحدود المصرية لدخلت سيناء فى نطاق التبادل التجارى الحر مع بقية بلدان القطر المصرى .

كما أن سيناء منطقة جيولوجية ؛ فلو اتجهت الشركات المصرية إلى استغلال سيناء من ناحية مناجمها المطمورة وآبار البترول فيها والإشراف على المتميز لارتقى مستوى الفرد الاقتصادى فيها — وهذا بلا شك لا يكون إلا بتوجيه أنظار الرأسماليين المصريين إلى استغلال سيناء عن طريق الكشف والتنقيب والصحافة .

كما أن شركة استبدال تجارى تقام مثلا فى العقبة ، مع نقل الجمرك إلى رفح والعقبة — شركة كهذه لاشك ستسيطر على التبادل التجارى من الشرق والغرب — فطرق المواصلات التى تربطها بسوريا وشرق الأردن ولبنان والحجاز . والطرق موجودة ولا يلزمها سوى التمهيد . بهذا نستطيع أن نعيد للعقبة والبتراء مجدهما القديم .

٣ — الناحية الزراعية :

أرض سيناء خصبة لمسافة عشرين ميلا من شاطئ البحر الأبيض ، ولا ينقصها سوى تنظيم عملية الحصول على الماء — فلو نشطت وزارة الأشغال بإقامة السدود وأضافت إلى سد الروافعة سدين أو ثلاثة تحجز خلفها مياه السيول التى تذهب سدى فى البحر الأبيض المتوسط — وبذلك يمكن زراعة هذه الأراضى الخصبة واستغلالها .

ولو نشطت وزارة الزراعة ، واستعملت ماكينات الطلبات ، وعممتها فى سيناء — كما هو المتبع فى المستعمرات الصهيونية فى فلسطين — لنشأت فى سيناء مستعمرات زراعية تفوق المستعمرات الصهيونية .

ولقد كان لماكينة المزرعة التابعة للمدرسة الابتدائية بالعريش أقوى الأثر فى توجيه أنظار الأهالى إلى الحصول على مياه الرى عن هذا الطريق ، لكن مما يؤسف له ومما يضيع ثقة أهالى سيناء فى هذا المشروع

أن تقف الأداة الحكومية أمام هذا المشروع وتبخل عليه بالمال اللازم رغم ما كان سيكون له من أثر فعال في توجيه أنظار المزارعين إلى هذه الفكرة. فلقد نفذت وزارة المعارف المشروع ثم تركته ليموت ويسخر منه الأهالي، فالناس لايؤمنون بالفكر والمشاريع قدر مايؤمنون بالواقع المحسوس.

نرجو أن يجد المشروع على يدى حضرة صاحب العزة مراقب المنطقة حسن بك جوهر ما يدفعه لأن يكون نموذجيا يحتذى حذوه، وإصلاحا اجتماعيا زراعيا يوجه الرأى العام إلى تقليده.

٤ — الناحية الإدارية :

وسيناء منذ حلت مشكلة التقسيم سنة ١٩٠٦ حتى الآن تحكم حكما عسكريا دكتاتوريا الأمر الذى يقيد أفكار الناس وآراءهم، بل يضغط عليها فلا يلبث أن نرى إلا أقواما تعيش لتردد أفكار الحاكم وآراءه بل لتنفذها فى إيمان ويقين.. تلك بلا شك وجهة نظر استعمارية — وما كان أجدرنا وقد استطعنا أن نمصر الحاكم، (محافظ سيناء) أن يرفع مثل هذا الضغط الاجتماعى عن هؤلاء الناس فندعهم يفكرون فى حرية واستقلال وندعهم يساهمون بنصيبهم فى الحياة المصرية الاجتماعية. مازال شعب سيناء يعيش كما يعيش شعب جزيرة نائية لايعلم عن العالم شيئا.

الحكم العسكرى فى سيناء عام، وما أجدرنا أن نفصل من السلطات.

فالسلطة الإدارية تتولاها الإدارة والسلطة القضائية يتولاها القضاة كما تتولى النيابة سلطتها الضبطية.

ختاما نرجو أن تعتبر هذه النظرات فى إصلاح سيناء، وبذلك نكون قد أدينا الأمانة وأرضينا الضمير: وأنقذنا شعبا يرزح تحت كلاكل الفقر والجوع والمرض والجهل، كما نتقدم بالشكر الجزيل لحضرة حسن بك جوهر مراقب عام المنطقة أن أتاح فرصة الحديث عن هذا الموضوع.

محمد أبو الفتوح لاشين و نصر الدين محمد السيد

كشف

بأسماء حضرات كبار موظفى منطقة الزقازيق التعليمية

المراقب :

حضرة صاحب العزة حسن بك جوهر

المراقبون المساعدون :

(١) حضرة الأستاذ محمد فهمى الميكانى بك	مراقب مساعد للتعليم الأولى
(٢) « « حنين فرج بك	« «
(٣) « « إبراهيم حسن زاهر بك	« «
(٤) « « اسكندر بشاى بك	« « (منتدب للتفتيش)
(٥) « الآنسة عائشة محمد حسنين	معاونة المراقب

السكرتارية الفنية :

(١) حضرة الأستاذ حسن محمد إبراهيم	مدير السكرتارية الفنية
(٢) « « فهمى سيدهم	بالسكرتارية الفنية
(٣) « « محمد محمد نجال	« « (منتدب ناظر مدرسة المهاجرين)

الإدارة الصحية :

(١) حضرة الدكتور سليمان حسين أباظة	مدير الإدارة الصحية
(٢) « « محمد أحمد سليمان	مفتش صحى الزقازيق
(٣) « « إبراهيم حجاب	« « فاقوس
(٤) « « جمال عوض فهمى	« « بورسعيد
(٥) « « محمود على زيتون	« « ههيا وأبو حماد

الوحدات العلاجية :

(١) حضرة الدكتور إبراهيم عبد اللطيف مندور	رئيس الوحدة العلاجية بالزقازيق
(٢) « « خطاب محمد	طبيب الرمد بالوحدة العلاجية بالزقازيق
(٣) « « محمد عبد الحليم قوره	« الأسنان بالوحدة العلاجية بالزقازيق

(٤) حضرة الدكتور ميخائيل بشاى — رئيس الوحدة العلاجية ببورسعيد
(٥) « « محمد محمد حجاج — طبيب الأسنان بالوحدة العلاجية ببورسعيد

قسم التغذية :

(١) حضرة الدكتور راجى دانيال — مفتش صحى للتغذية
(٢) « الأستاذ بدر محمد الشابورى — « فنى «
(٣) « « سعد إبراهيم محمد — « « «

مفتشو التعليم الثانوى

(١) حضرة الأستاذ عبد العزيز بدر — مفتش لغة عربية
(٢) « « عبد الحميد بيومى — « مواد اجتماعية
(٣) « « روفائيل عبد الملك — « « «
(٤) جناب المستر تشابمان — « لغة إنجليزية
(٥) حضرة الأستاذ حسين الأيارى — « علـــوم
(٦) « « محمد حلمى عبد الحميد — « « واحياء
(٧) « « لبيب أيوب — « رسم
(٨) « « محمود أنور الكردانى — « لغة فرنسية
(٩) « « محمد حسن ظاظا — « فلسفة وعلم نفس

مفتشو مدارس المعلمين الأولية :

(١) حضرة الأستاذ حسن محمد الحريرى — مفتش تربية وعلم نفس
(٢) « « عباس عزت — « أشغال

مفتشو الأقسام :

(١) حضرة الأستاذ حسن مراد — مفتش قسم الزقازيق
(٢) « « محمد محمد الصاوى — « « منيا القمح
(٣) « « على عطية أبو السعود — « « أبو كبير
(٤) « « محمد محمد السيد — « « بورسعيد

مفتشو التعليم الابتدائى :

(١) حضرة الأستاذ محمد عبد الرازق السنهورى — مفتش لغة عربية
(٢) « « عثمان إبراهيم شاهين — « « «

(٣) حضرة الأستاذ فريد عبد الرحمن — مفتش لغة إنجليزية
(٤) « « مسعود الدهراوى — « « «
(٥) « « عنايت الله إبراهيم — « رسم وأشغال
(٦) « « محمد الصادق كفافى — « « «
(٧) « « على عارف البنانى — « فلاحة

مفتشات التعليم العام للبنات :

(١) حضرة مسز كوتس — مفتشة اللغة الإنجليزية
(٢) « الآنسة بهية كرم — « « «
(٣) « « أولجا حبيب — « « «
(٤) « « فهيمة عبد الحليم — « أشغال
(٥) « « حكمت أسعد صبيح — « تدبير
(٦) « « أمينة عبد الرحمن — « رسم

مفتشو التربية البدنية :

(١) حضرة الأستاذ ميخائيل صليب — مفتش تربية بدنية
(٢) « الآنسة زينب محمد خليفة — مفتشة التربية البدنية

مفتشو التعليم الأولى :

(١) حضرة الأستاذ محمد عبد الرحمن حبيب — مفتش المنطقة
(٢) « « محمد عبد الله عطا — « دائرة الزقازيق رقم ١
(٣) « « إبراهيم سليمان إسماعيل — « « « « ٢
(٤) « « حسن إسماعيل عبد الكريم — « « الإسماعيلية
(٥) « « عبد الظاهر حنظل جمعه — « « فاقوس
(٦) « « عبد الحليم عطية العباسى — « « أبو كبير
(٧) « « إبراهيم أبو سعدة — « « بورسعيد
(٨) « « محمود مبدى المسلى — « « منيا القمح
(٩) « « عبد العزيز الشاهد — « « بلبيس
(١٠) « « أحمد خالد درويش — « رسم

مفتشو مكافحة الأمية :

(١) حضرة الأستاذ محمود عبد العظيم عامر
(٢) « « محمد هاشم محمد

المهندسون :

(١) حضرة الأستاذ محمد عبد القادر حفنى	مفتش المبانى
(٢) « « عبد الله أحمد النحاس	مهندس «
(٣) « « أحمد التهامى محمد	« كهربائى

مدير الإدارة والمفتشون الإداريون :

(١) حضرة الأستاذ محمد توفيق مصطفى	مدير الإدارة
(٢) « « محمد إبراهيم راجح	وكيل الإدارة لشئون التوريدات
(٣) « « على أحمد دبانج	مفتش إدارى
(٤) « « أمين إبراهيم عبد الصمد	« «
(٥) « « فؤاد عبدالواحد	« «
(٦) « « حسن سعيد حمدى	« «

رؤساء الأقلام :

(١) حضرة الأستاذ حسن سعيد شرف	رئيس قلم الحسابات
(٢) « « أحمد سلامة جوده	« « التعليم الأولى
(٣) « « أحمد محمد الهادى رسلان	« « القيد والحفظ ومنتدب سكرتير حضرة صاحب العزة المراقب
(٤) « « الحسينى طه تيعه	« « التعليم الحر
(٥) « « أنور سليم بهلول	« « المستخدمين
(٦) « « صالح حسين حسنى	« « السكرتارية
(٧) « « عبد الهادى محمد إبراهيم	« « التوريدات

رؤساء أقلام محليون :

(١) حضرة الأستاذ بيومى عطية	رئيس قلم السكرتارية الفنية
(٢) « « عبد الرحمن هويدى	« « التغذية
(٣) « « عبد الله أحمد شلبى	« « شئون الطلبة والامتحانات
(٤) « « فؤاد محمد حسن	« « المبانى

الوكلاء :

(١) حضرة الأستاذ أحمد همت إسماعيل	وكيل قلم الحسابات
(٢) محمد الأمين	« المستخدمين
(٣) محمد سعيد الشهداوى	« قلم السكرتارية الفنية

كشف

باسماء حضرات نظار مدارس التعليم العام الأميرية

المدارس الثانوية :

(١)	حضرة الأستاذ عبد العظيم درويش	ناظر مدرسة الزقازيق الثانوية
(٢)	» » محمد محمد شورى	وكيل » » »
(٣)	» » إبراهيم خليل	ناظر » بور سعيد »
(٤)	» » إبراهيم الشاوى	وكيل » » »
(٥)	» » حسن حسين	ناظر » محمد على » بالزقازيق
(٦)	» » أحمد سالم سويلم	» » الإسماعيلية »
(٧)	» » محمد محمد أمين	» » القنطرة »
(٨)	» » حسن أحمد علوان	» » أبو كبير »
(٩)	» » محمد جمال الدين	» » فاروق الأول » بالعريش

المدارس الفنية والمتوسطة :

(١)	حضرة الأستاذ إبراهيم محمد زمزم	ناظر مدرسة الزراعة المتوسطة بالزقازيق
(٢)	» » محمد صادق عفيفي	» » الزقازيق الصناعية
(٣)	» » أمين فرحات	وكيل » » »
(٤)	» » حمدى مصطفى حرب	ناظر » بورسعيد »
(٥)	» » إبراهيم عثمان	وكيل » » »
(٦)	» » أمين محمد رضوان	ناظر » التجارة المتوسطة ببورسعيد
(٧)	» » على جمعه رفاعى	» » المعلمين الأولية بالزقازيق

المدارس الابتدائية التى بها أقسام ثانوية :

(١)	حضرة الأستاذ أحمد نصر الصعيدى	ناظر مدرسة الزقازيق القديمة والقسم الثانوى بها
(٢)	» » إبراهيم محمد على النجار	» » بلبيس الابتدائية القديمة والقسم الثانوى بها
(٣)	» » محمد عبد الملك الكاشف	» » الألفى » بمنيا القمح » » »
(٤)	» » أحمد محمد الراوى	» » ههيا » » » »

مدارس البنات الثانوية والمتوسطة :

(١)	حضرة الآنسة لبيبة المسلمي	ناظرة البنات الثانوية والابتدائية والطرزية	بالزقازيق
(٢)	، ، خديجة لبيب	، الطرزية والثانوية الفنية	ببورسعيد
(٣)	، ، نفيسة الشامى	، البنات الابتدائية والقسم الثانوى	بالإسماعيلية
(٤)	، السيدة عائشة النبوية عبد الدايم	، المعلمات الأولية	بالزقازيق

المدارس الابتدائية للبنين :

(١)	حضرة الأستاذ محمود أبو زيد	ناظر مدرسة الزقازيق	الابتدائية الجديدة
(٢)	، ، عبد الحميد محمد العياط	، ، أبو كبير	،
(٣)	، ، عبد الباسط حنظل جمعه	، ، أبو حماد	،
(٤)	، ، محمود محمد سيد أحمد	، ، الإبراهيمية	،
(٥)	، ، أحمد إبراهيم قايل	، ، العزيزية	،
(٦)	، ، أمين محمد العطار	، ، القنايات	،
(٧)	، ، حسين الأصفر	، ، الشربينى	، بمنيا القمح
(٨)	، ، أمين عطيةبدر	، ، الصنافين	،
(٩)	، ، عبد الفتاح حسن إبراهيم	، ، بلبيس	، الجديدة
(١٠)	، ، حسن شكرى	، ، فاقوس	،
(١١)	، ، محمد الحسينى حبيب	، ، كفر صقر	،
(١٢)	، ، عبد الحميد فوزى	، ، مشتول السوق	،
(١٣)	، ، أحمد تامر أبو العلا	، ، بورسعيد	،
(١٤)	، ، محمد عبد الفتاح الجميل	، ، فاروق الأول	، ببور سعيد
(١٥)	، ، محمد أحمد الألفى	، ، الإسماعيلية	،
(١٦)	، ، محمد أبو الفتوح لاشين	، ، العريش	،

مدارس البنات الابتدائية :

(١)	حضرة السيدة نفيسة البنان	ناظرة البنات الابتدائية الجديدة	بالزقازيق
(٢)	، الآنسة زينب أبو زيد	، الأولية الراقية	،
(٣)	، السيدة فكرية محب	، البنات الابتدائية	ببورسعيد

(٤) حضرة السيدة نبوية الجبرى — ناظرة البنات الابتدائية الجديدة ببور سعيد
(٥) « الآنسة قدرية المنياوى — « « « ببلبيس
(٦) « « أمينة الشناوى — « عزيز باشا أباظة الابتدائية بمنيا القمح
(٧) « « زهيرة إسماعيل — « البنات الابتدائية بفاقوس

المدارس الفنية الأولية :

(١) حضرة الأستاذ ربيع محمد الصادق — ناظر التجارة التكميلية بالزقازيق
(٢) « « حسين مصطفى العيسوى — « الصناعات الأولية ببلبيس
(٣) « « عبد المولى عبد الرسول — « « « بههيا
(٤) « « عبدالوهاب أحمد عارف — « « « بأبى كبير
(٥) « « محمد أدهم ربيع — « « « بالعريش

مدارس رياض الأطفال :

(١) حضرة الآنسة صديقة أحمد السنبارى — ناظرة مدرسة روضة الأطفال بالزقازيق
(٢) « السيدة هانم عبده معيط — « « « « ببور سعيد

الخطأ	الصواب	صفحة	سطر
النهير	النهر	١٣٦	١٠
فم وادى الحمامات	مكان قريب من القصير	١٣٩	١٣
وساروا فيه	وساروا فى بعض وديان الصحراء	١٣٩	١٣
وكان أكثر	وكانت أكثر	١٣٩	١٤
أمنحتب	أمحتب	١٤١	شكل ٣٠
أمنحتب	أمنمحيت	١٤٤	شكل ٣٤
قنطيرة	قنطير	١٤٩	٤
منهم	فيهم	١٤٩	١٩
Pox Baco	فوبستى	١٧٠	١٣
Bou Baotos'	بوباستوس	١٧٠	١٣
بوباستة كما يراها الكاتب	بوباستة كما يراها الكتاب	١٧٠	١٤
انه رأس	إنه رأى	١٧١	٣
ذلك البهو الذى شاور	ذلك البهو الذى شاده	١٧١	٣
معبد بات	معبد باستت	١٧٢	آخر سطر
بالقرب من	بالقرب منه	٢٧٩	١٦
ومن	منذ	٢٧٩	١٨
سراتيب	سرابيت	٢٨٢	٢٢
حتى الدولة العشرين	حتى الأسرة العشرين	٢٨٢	٢٦
استرابى	استرابو	٢٨٣	١٢

ملاحظة : شكل ٥٠ صفحة ٢٥٢ مكانه فى مقالة العرب فى الشرقية ص ٤٢
(شكل ٥٢) ميناء بور سعيد خطأ وصوابها قنال السويس

الخطأ والتصويب

الخطأ	التصويب	صفحة	سطر
Epeir Ogenic Movement	Epeirogenic	٣	٣
عليوية	علوية	٣	٤
(غرب البحيرة الحرة)	(غرب البحيرات المرة)	٣	٧
يعزى	يغذى	٥	٢
عزيز محمد حبيب	عزيز محمد حبيب	٢١	
مدرس أول المواد الاجتماعية	المدرس بالزقازيق الثانوية سابقا		
أحمد إبراهيم البرى	أحمد إبراهيم البرى		
المدرس بالزقازيق الثانوية سابقاً	مدرس أول المواد الاجتماعية بالزقازيق		
السرقية	الشرقية	٢٢	٩
وسا"	وسائر	٣٩	١٧
لابسته	لابستها	٥٣	٣
فيطق	فيطلق	٦٠	١١
ظهرهم	بمظهرهم	٦٠	١١
لا يجرأ	لا يجرؤ	٦٣	١٦
ونجت	ونمت	٦٤	٧
نساء	مساء	٦٧	١٧
المركب	الموكب	٦٧	١٣
وغاية	وعناية	٧١	٢٦
جنبات	جنات	٩٥	١١
أن لاتستأثر	ألا تستأثر	١٠٤	٢
يركب	ويحف	١١٥	١
للجعالك	للجفالك	١١٦	١٩
عديم وزنه	قديم ورثه	١١٧	٢٥
التجارى	التجارى	١١٩	١٨
وجدت فيها إلى	وجدت فيها ترجع إلى	١٢١	٣٠

فهـــرس

بحمد الله تعالى قد تم طبع كتاب

[الشرقيـــة وسيناء] بمطبعـــة

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

القاهرة في { ١٢ شعبان سنة ١٣٦٨ هـ
٩ يونيه سنة ١٩٤٩ م

ملاحظ المطبعة
محمد أمين عمران

مدير المطبعة
رستم مصطفى الحلبي